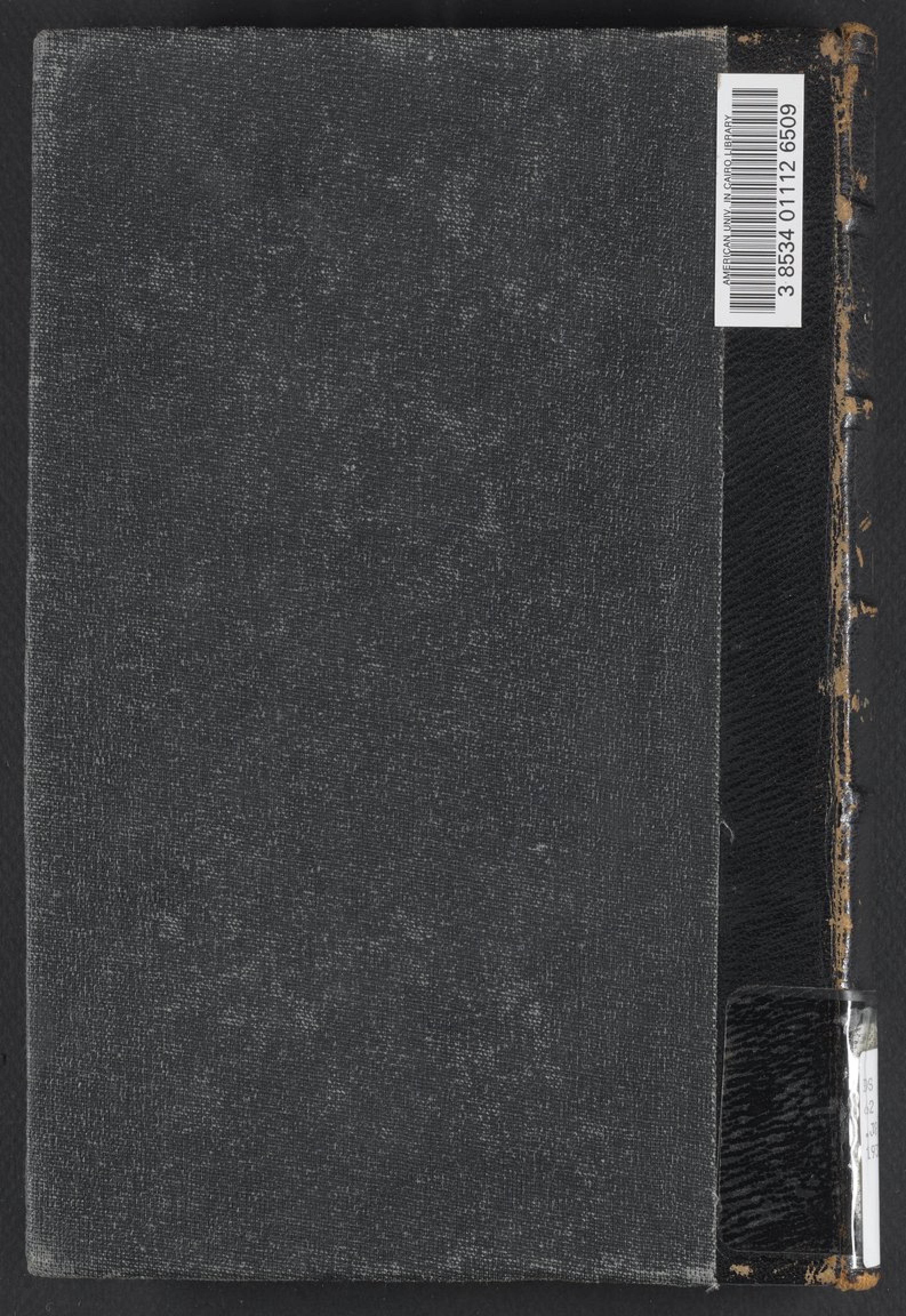
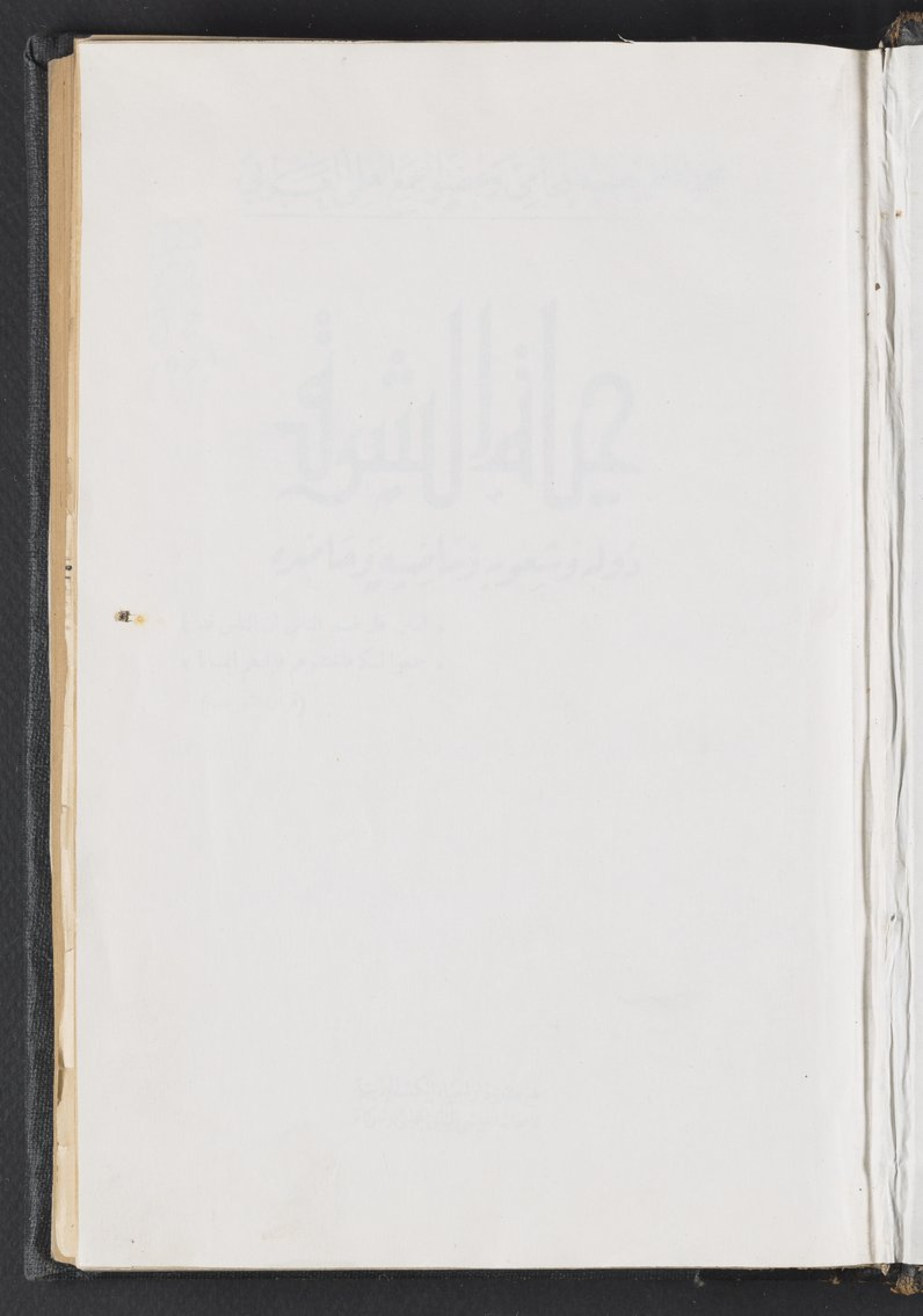
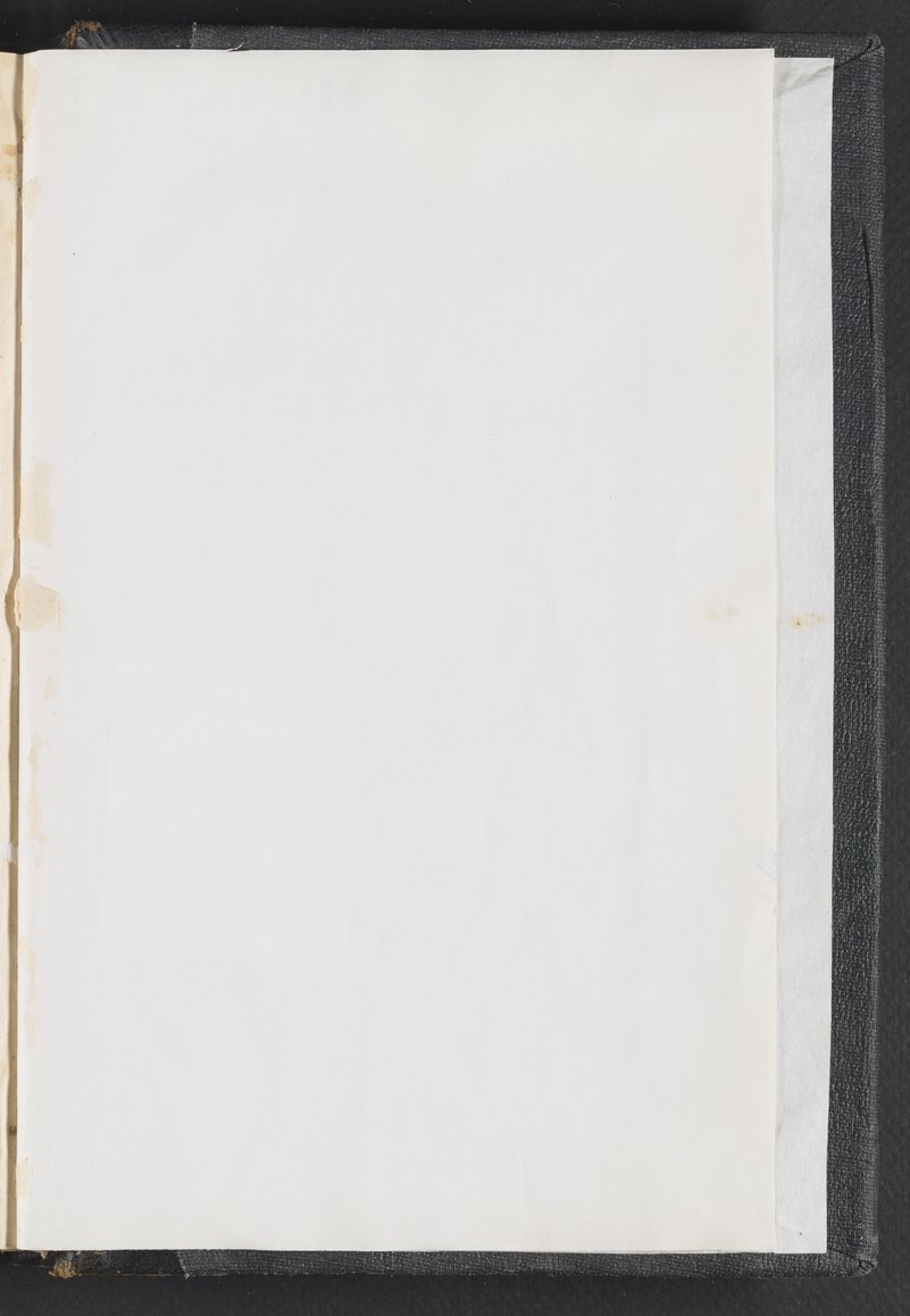






محمد لطفي جمعه المحامي وعضو المجمع العلمي العربي

حياة الشرق

دوله وشعوبه وماضيه وحاضره

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد »
« جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا »
(قرآن شريف)

طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية
لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ

﴿ سُورَةُ ٱلْقَصَصِ ﴾

(٢)

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ

﴿ سُورَة ٱلْأَعْرَافِ ﴾

(٣)

وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ﴿ سُورَة آلِ عِمرَانَ ﴾

(٤)

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ

﴿ سُورة الشعراء ﴾

(٥)

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿سُورة آلِ عِمرَان﴾

(٦)

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿ سُورَةُ الأنفَالِ ﴾

(٧)

وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ سورة التوبة ﴾

(٨)

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ

﴿ سورة التوبة ﴾

(٩)

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ﴿ سورة آل عمران ﴾

(١٠)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ سورة آل عمران ﴾

(١١)

وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿سُورة ٱلأنفال﴾

(١٢)

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿سُورة ٱلرَّعد﴾

(١٣)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿سورة آلِ عمران﴾

(١٤)

وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿سورة الشورى﴾

« كَلَامُ سَيِّدِنَا عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ ٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْمُسْتَوْرِدُ ٱلْقُرَشِيُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَقُولُ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ وَٱلرُّومُ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو « أَبْصِرْ مَا تَقُولُ ! » قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ قَالَ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ ٱلنَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ ٱلْمُلُوكِ »

رواه مسلم جزء ثان ، صفحة ٥٠٠ ، في باب «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله

مقدمة

لاريب فى أن العالم بجميع أقطاره،وشعوبه،وحكوماته،يجتاز الآن مرحلة من أشد مراحل التاريخ وعورة،وسواء فى ذلك الشرق والغـرب، فالعالم اليوم فى مفترق الطرق،العالم القديم والعالم الجديد ، مضطربان مرتبكان يبحثان عن وسائل النجاة،فكأن الدنيا تتمخض عن حوادث كبار ، والانسانيـة بأسرها تنتظر بفارغ الصبر ،مولد تلك الحوادث، ولـكنها لاتعلم شيئاً عن حقيقتها، ولاتستطيع التـكهن بمصيرها.

وقدأصبح قياس المستقبل على الماضى والحاضر،نوعا من الخطأ في التقدير وصار استنتاج المجهول من المعلوم،خرقا فى الرأى ومجازفة فى التعليل والتدليل . فالانسانيـة حيرى ولسان حالها يقول كيف السبيل ؟ فانه لم يكد هذا القرن العشرون ينبثق نور شمسه حتي علقت الانسانية عليه أعظم الآمال ، وأفسح الامانى، وذلك بعد أن تمكنت مبادئ الحرية من النفوس وتشبعت بها أفئدة الشعوب التى باتت ترقب ساعة الخلاص،ولم يكد ينصرم القرن ١٩ حتى أخذ أنصار العلم يمنون الانسانية بعصر الذهب بعد عصر الحديد،ويشيدون قصوراً من الآمال الجميـلة على أسس التفكير الحديث . ويحاولون باخـلاص اقناع البشرية ، بأن عصور الجهاد والمكافحة في سبيل الرزق وأجيال مقاومة الطبيعة فى سبيل التمتع بالسعادة بالحياة قد مضت وانقضت ، وان المدنية الحديثة قد قلبت صفحة جديدة في سجل الوجود الانسانى . وكان رجال السياسـة يبشرون العالم بعهـد السكينة والسـلام . ويؤكدون لرعاياهم

والأمم المختلفة أن قد استتب الامن في جميع انحاء العالم، وان الطبيعة فتحت للانسان كنوزها فملك ناصية الكهرباء والأثير، وصعد الى أجواز الفضاء، كما غاص في قاع المحيط وان الحياة الاقتصادية ستأخذ مجراها فى أفضل الظروف وأسعدها بحيث تنفرج الازمات ويزول الضيق من العالم، وتصبح الحياة الاقتصادية مرآة تنجلى فيها صنوف اليسر والنعيم وصور الرخاء الدائم، فتتقلب الأمم فى فراش من البحبوحة والهناء، وسوف يستطيع الرجل من أية طبقة كان، تعليم ولده، وعلاج مرضه، وضمان شيخوخته، وراحته فى كبره، لدي ضعفه وعجزه.

وأكد لنا المكتشفون والمخترعون أن الانسان الحديث قد أتته الطبيعة مختارة تجر أذيالها، فاسلمته زمامها وباحت له بأسرارها، فتناول قيادها، ووقف على ماخفى من أمرها، وتمكن بذلك من السيادة المطلقة على قواها، كما ان الدنيا قد أخرجت له خفاياها وأظهرت له ما بطن من أمرها فاستخرج الاحجار الكريمة والمعادن النفيسة من جوف الارض واستنطق الجماد وسخر البخار، وجلس على بساط سليمان. وقبض بيده على مفتاح اوزريس، فصار بحق خليفة الله فى الأرض لاصلاحها وعمرانها. وارتقت العلوم والفنون بأنواعها، وانتشرت الكتب والصحف في جميع الأرجاء، وتخصص رجال لكل فن من الفنون. وكادت الدنيا تبلغ غاية الكمال في زينتها وجمال مبانيها وفخامة مؤسساتها. وكان كل شيء في الحق يدعو للتفاؤل وحسن الظن بالايام، وناهيك بجيل بدأ بنشر مبادئ الحرية والاخاء والمساواة، بفضل الثوره الفرنسية الكبرى !

ولكن هذه السعادة لم تكن، وا آسفاه، الا وهما، أوحلماً لذيذاً، أو برقا لامعاً فى دياجير الحياة. فان ذلك الحلم لم يلبث ان زال وأعقبته يقظة فاجعة، راحت الرؤيا الجميلة وجاءت بعدها إفاقة مروعة.

وبدأت في مستهل القرن سلسلة حروب في الشرق والغرب والشمال والجنوب. بين بريطانيا والبوير، وبين روسيا واليابان، وبين تركيا وايطاليا، ثم بين تركيا ودويلات البلقان. ولم يكد العقد الثانى من القرن العشرين يشارف على نهاية شطره الأول حتى شبت نار الحرب

الـكبري التي اجتاحت العالمين وأنذرت الدنيا بأسرها بالويل والعظائم .

فغيرت الحرب وجه العالم، ولايزال يعانى آثارها . وكان الناس يزعمون أثناء صلصلة السيوف وقصف المدافع ، في الفترات التي تعقب أزيز الطيارات المهاجمة وفى جو مفعم بسموم الغازات الخانقة ، ان الذين يصبرون على ويلات هذه الحرب و يصمدون لها، سوف يجنون بعد نهايتها ثمرات السعادة والغـني المتوافر والهناءة التي ليس بعدها هناءة . . فاثبتت الايام ان هذه التـكهنات، لم تكن سوى تخرصات من نوع الدعاية القائمة على أساس سياسة (سوف ترى مايسرك) أو مايطلق عليه بعض ساسة الانجليز WAIT AND SEE POLICY

وكان محتوماً في ألواح القضاء والقدر، ان هذا الحلم الثاني ينهار أيضاً كسابقه . وترغم الانسانية على مواجهة الحياة بحقيقتها ، فاذا الحرب تنتهى وتجر وراءها و يلات أشد من و يلاتها إبان اشتعالها . ديوناً وغرامات تفرض، وعروشاً تثل وطرقاً جديدة للاستعمار تشرع وعصبة أمم تتـكشف عن منتهي العجز والخيبة، ومعاهدات سرية ضد الأمم الضعيفة وشيوعية منحوسة مجرمة فى روسيا تحارب الأديان وتحتقر حقوق الملك الخاص ، وتهزأ بروابط الأسرة وتحاول المساواة بين البشر على أسس كاذبة باطلة ، وغايتها سيادة بضعة أفراد على شعوب كبيرة عظيمة ، ثم تفلس تلك العصبة الشيوعية فى النهاية لعدم صلاحيتها ، فتخجل أن تعلن افلاسها وتضطر للمساومة في مبادئهـا فتبدو للعـالم كالتاجر الذي يفلس مدلساً ومزوراً فيستحق السجن والفضيحة !

ونحن نكتب هذه الأسطر، يقيم فى القاهرة ثلاثة ضيوف كرام يمثلون مسلمى روسيا وهما السيد النبيل سعيد بك شامل حفيد البطل العظيم المغفور له الشيخ احمد شامل امام مجاهدى القوقاز الذى سلخ في مكافحة الروس أربعاً وأربعين سنة، معتمداً على الايمان بالله ومستنداً الى حب الوطن .

والثاني حضرة العالم الفاضل والخطيب البليغ والذكى الأريب عياض اسحاقي بك ممثل مسلمي بلاد اورال وهي تلك البلاد التي أنبتت فيما مضى طائفة فاضلة من علماء الاسلام

وخوله، والسيد موسى جار الله ممثل مسلمي تركستان الشرقية

وقد وفدوا على مصر بعد اختتام المؤتمر الاسلامي ببيت المقدس ليشرحوا لمسلمي مصر مبلغ مايلاقيه موفدوهم من ظلم البلشفيك، فلا رزق ولا راحة ولا أمان، عند هؤلاء المسلمين الذين أخضعتهم طوارئ الحدثان لظلم طغاة بطرسبرج وموسكو.

لقد جاء هؤلاء الزعماء الى مصر عقيب انفضاض المؤتمر لاعتقادهم، واعتقاد موفديهم من المسلمين المضطهدين ان مصر هي فؤاد الاسلام الخافق ورأسه المفكر ومناره الذي يشع منه النور على كل ضال وتائه وحائر، ومصدر معونة لكل ملهوف ومستغيث ومستنجد ومستنصر في بلاد المسلمين ومقر العلوم الاسلامية، ومنبت الثقافة الشرقية ومهد الحضارة.

وقد راعنا وراع كل شرقي مايقاسيه اخواننا أهل القوقاز والتركستان والاورال المسلمون من مظالم روسيا البلشفية الشاعية المتعصبة الممقوته بعد أن ألقي عياض بك اسحق والأمير سعيد شامل في المؤتمر الاسلامي وفي مدينة القاهرة (يناير سنة ١٩٣٢) نتفاً من أنواع الاضطهاد والتعذيب التي يذوق هؤلاء الاخوان مرارتها، ولم ندهش فان روسيا البلشفية هي بنفسها روسيا القيصرية في التعصب الديني و بغض الشرق والاسلام (انظر ص ٦٨ — ٧٥) من هذا الكتاب.

وانا ننتهز هذه الفرصة لنؤكد ونعلن على الملأ مضار البلشفية للاسلام والشرق، وعدم صلاحيتها بعضها أو كلها لشعوبنا فان الاسلام غني بمبادئ الاصلاح والمساواة والاحسان والعدل والحرية بما لا يوجد عند البلشفيك أو غيرهم.

وكل مسلم أو شرقي يتشيع للشيوعية يكون عدو نفسه وعدو وطنه ودينه وهذا البرهان ماثل في بلادهم، ونحث كل مسلم على مد يد المعونة لتلك الشعوب الرازحة تحت مظالمهم:

***

وقد تلا الحرب العظمى هجوم جديد من الغرب ضد الشرق فتحاول انجلترا إذ ذاك القضاء على تركيا في آسيا فتسلح يد ذلك المغامر الشيخ الرومي فيشهر على تركيا حرباً دينية يجاهر فيها بأنه يريد القضاء الأخير على دولة الاسلام، الوحيدة في اوروبا واعادة كنيسة ايا صوفيا

الى ما كانت عليه قبل فتح محمد الثانى القسطنطينية فى ١٤٥٣ ونصب هذا الشيخ الذى نشأ وتربى بعتبات الاتراك وفى حى حكامهـم ، وفى جزيرة كانت خاضعة لهم عندما كان هو وأجداده في عالم العدم ، نصب هذا الشيخ نفسه زعيما للنصرانية ضد الاسلام ونصيراً للغرب على الشرق وتخيل نفسه شبحاً حديثاً لثمستوكليس الذى رد غائلة الفرس عن اليونان قبل العصر المسيحى ببضعة أجيال . ولـكن حلم هـذا الشيخ المجازف المغامر قد انهار وتحطم فسقط شرسقطة،وجر معه فى الهاوية، ذلك الوزير الانجليزى الكبير الذي كسب الحرب وخسر نفسه ، وكان المشجع الوحيد للوزير الرومى في حرب الاناضول فسقط الرجلان فى يوم واحد ، وفر الرومي الى اوروبا وهوي الثاني عن كرسي الرياسة فى دوننج ستريت . ويرجع الفضل فى تلك الهزيمة الشنعاء التي كانت أقل مايستحقه ذانك السياسيان المغامران الى رجل تركيا الاوحد،وبطلها الأمجد زعيم الحرب والسياسة ومصلح العصر الحديث مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية ومبيد عهد الاستبداد والرق .

وكان من المحتم أن تتطور الحياة فى العالم بعد شرور الحرب وأوزارها تطوراً ينبيء عن مستقبل الانسانية الذي لعبت به اوروبا المستهترة وجعلته من أدوات لهوها ومطامعها فـكان فى روسيا ما كان،واستولى مغامر يدعى بيلاكون على السلطة في المجر . وثارت المانيا بقيادة امرأة فوضوية اسمها روزلوجزمبرج لم تلبث أن قتلت فى الشوارع

وهاج العمال في ايطاليا واستولوا على المصانع والمعامل وحصلت فتن وثورات في الشرق والغرب، بعضها على حق مثل نهضة مصر وكثير منها على باطل

وفى أوروبا تقـدم رجال ظنوا في أنفسهم قوة الحـكم المطلق المفرد فبدأ عهـد الديكتاتوريات الحديث فظهر بنجالوس في اليونان وبريمو دى ريفيرا في اسبانياوموسوليني في ايطاليا واشباههم فى بولونيا ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا واستبد بعض القواد في الصين وفي بلاد العرب وبالجملة تزعزعت ثقة الأمم بالحياة الدسـتورية وظهر عجز حكم الجماعة المنتخبة ، وأعلن بعض المفـكرين افلاس النظم النيابية ، إما لمآرب شخصية وإما لاعتقادهم

بنية حسنة . غير أن مما يجدر بالنظر ان هؤلاء « المستبدين من طراز ١٩٢٠ » لم يتخلوا عن المجالس النيابية ولم يلغوا الدساتير وهى حقوق الشعوب المكتسبة . انما أبقوا عليها وأبقوا على زمامها فى أيديهم . فكان مثلهم كمثل مروض الوحوش الكاسرة والحيوانات المفترسة يقنصها و يغذيها وهى سجينة .

ونحن نكتب تلك الكلمة نكاد نسمع صدى أصوات الحرب في منشوريا بين الصين واليابان ، . وتوشك الحرب أن تعلن في أوروبا من جراء استفحال الازمه المالية التى ضيقت الخناق على العالم . والمعركة حامية بين المانيا وفرنسا وأمريكا وانجلترا . و يصح أن يقال اليوم «ان الحرب على الابواب ! »

وأنصار السلم أنفسهم يزعمون أن الاستعداد للحرب يقضي على شبح الحرب، ولورد لو يد الذي كان سفير انجلترا في مصر ، وعزلته حكومة العمال ان صدقا وان كذبا ، والله أعلم بالسرائر ، ينصح اليوم لأمته بالتسلح، و يبذل قصارى جهده في اقناع بريطانيا بالاستعداد للحرب .

وأمريكا أو جمهورية الولايات المتحدة واقفة موقفاً مريباً، فهى تميل الى الغاء ديون الحرب التى تئن منها المانيا بعد أن ثبت عجزها عن الدفع ، ولكنها لا تستطيع المجاهرة برأيها أو الظهور فى الميدان الدولى بمظهر الحكم والمسيطر ، لئلا تلقي من الخيبة والسخرية ما يعد جوابا صريحاً ورداً بليغاً على سياسة و يلسون الخادعة المخدوعة

وتكاد الهند تلتهب عقيب عودة غاندى من انجلترا بعد فشل مؤتمر المنضدة المستديرة للمرة الثانية .

ومن الأمور التى حدثت أثناء طبع هذا الكتاب فشل مؤتمر المنضدة المستديرة المذكور وعودة غاندى الى الهند واعتقاله بعد يومين من عودته ولما يسترح من وعثاء السفر ولما يجف مداد مقالات الاعجاب التى دبجتها أقلام كتاب الانجليز . فكان لاعتقاله ضجة عظيمة واحتج العالم المتحضر ولا سيما ان الرجل لم يتحول عن اعلان نصحه لشعبه وكل الشعوب

المغلوبة بالمسالمة وعدم العنف والمقاومة السلبية التى تقنع الخصم ولا تؤذيه، فوقعت بسبب اعتقاله معارك ومواقع كان اتقاءها خيراً وأولى، فنحن نعرب عن اعجابنا بغاندى ونعجب بحبه السلام وعدم العنف ونرسل اليه تحيتنا وندعو له ولوطنه بالنجاح ! ويسؤنا أن يبقى المسلمون من الهنود بمعزل عن الجهاد السلمى الشريف في سبيل الحرية فان الهند ليست وطناً للهندوكيين وحدهم بل انها وطن للجميع ، وقد سرنا انتخاب أبى الكلام زعيما .

الآن تكاد حركة العالم تقف ، بعد أن وقف فعلا دولاب الحياة الاقتصادية فى معظم أنحاء العالم ، وأصبح العاطلون من عمال العالم يعدون بالملايين في الشرق والغرب حتى شرعت الحكومة المصرية نفسها تحصى العاطلين وليس العطل فى عصرنا كالعطل فيما مضي .

لأن معناه الآن الموت جوعاً و برداً فى العراء !

فالقوت الضرورى غير موجود عند معظم العاطلين والثوب الذى يستر العورة نعمة كانت ثم زالت ، مما يجعل الحياة الانسانية أقسى منها فى أى عصر سابق .

والسبب الجوهرى فى هذه الحال التي يئن منها العالم، انقسام الانسانية الى شطرين الشطر الاول هو أوروبا والشطر الثانى هو الشرق . وأوروبا تريد اغتيال الشرق واستغلاله والقضاء على مصادر الحياة فيه وتسخيره لاغراضها حتى في محاربة أعدائها ،ولو كانوا من الاوربيين أنفسهم ، وفي قهر أهل الشرق من سكان المستعمرات كما صنعت انجلترا وفرنسا وايطاليا أثناء الحرب و بعدها .

وبيان ذلك ان الشرق بدأ منذ خمسين عاماً يتنبه من غفلته و يستيقظ بعد طول الرقاد . وأصبح الشرق يرى لنفسه الحق في الحياة ، أصبح الشرق بأممه وشعوبه وافراده وحكوماته يريد الحياة الحرة والسعادة المادية والمساواة بينه و بين أمم الغرب . وأصبح الشرقي بعد وقوفه على خفايا السياسة الاوروبية التى فضحتها الحرب العظمى لا يرى لاحد من أهل أوروبا حقاً فى التسلط على بلاده مباشرة أو بالواسطة. وأصبحت العلوم والمبادئ والفلسفة ملكا مشاعا للجميع، وليس فى خزائن الغرب أسرار خفية ولا مخبآت غامضة حتي ولا المعاهدات

السرية التى كانت غايتها التواطؤ بين ممالك أوروبا على اغتيال الشرق واللعب بمقدراته .

فقد نشرت كلها على الملأ وأصبحت خبراً مذاعا .

وكان الفضل الاول فى نهضة الشرق لليابان ، فان تلك الدولة الفتية أو بلاد « الشمس المشرقة » قد فاجأت العالم بيقظتها وقوتها وقدرتها على هضم الحضارة الحديثة ، مع التمسك بوطنيتها وجانسيتها ومعتقداتها . وما أبلغ ما قاله الامير شكيب أرسلان فى كتاب منشور فى فى مجلة الكويت والعراقى التى تصدر في بوتنزورخ من أعمال أندنوسيا (العدد الرابع الصادر في غرة شعبان سنة ١٣٥٠) قال الامير :

« رائحة التفرنج تؤذننى ، فالتفرنج لا يفيد شيئاً ، والتعلم غير التفرنج ، واليابانيون تعلموا وبقوا يابانيين بجميع عواطفهم وأطوارهم وأوضاعهم، والاسلام قوة معنوية عظيمة لاحد لها . ليس لنا الآن غيرها فى وجه القوتين الهائلتين . . . . »

ولم تنشر المجلة بقية الجملة ولعل الامير يقصد بالقوتين الهائلتين أوروبا والاستعمار ، أو الاستعمار والمسيحية .

فخشيت المجلة عاقبة التصريح بكلمة المسيحية .

والحقيقة أن المسيحية الحقة الصادقة ليست هي الملومة وليست مسؤولة عن شيء ولا يمكن أن تؤدي الى الاستعمار أو البغضاء أو المطامع الاشعبية أو اذلال الامم . ولكن تعصب الامم الاوروبية التى تنتسب الى المسيحية خطأ وكذبا هو الذنب الاعظم وهو الذي يظنه الناس ممثلا للمسيحية مع ان هذا التعصب الذميم ليس من الدين المسيحى المجيد في شئ لان دين عيسى دين حب وعطف وحنان ورحمة وسماحة

ويصح أن يقول الامير شكيب « والقوتين الهائلتين الاستعمار وتعصب شعوب اوروبا التى تنتسب كذبا الى الدين المسيحى المجيد »

وبهذه المناسبة نذكر ان اوروبا هاجمت الشرق بالتبشير في مراكش وطرابلس كما تهاجمه فى مصر وجزائر الهند الشرقية ، وقد شهدنا أخيرا فى مصر أن بعض أوساط التبشير

قد وصل بها الاستهتار بمبادى حرية الأديان التى تنادي بها في أوطانها الى درجة أن استهوت شابا مسلماوحولته عن عقيدته تارة بالتنويم المغناطيسى، وطوراً بالاستهواء والترغيب حتى انقطع عن مدرسته وبيته ، وشرعوا فعلا فى اقصائه عن القطر المصري ونقله خفية الى بعض جهات العالم الجديد لولا تدخل الحكومة المصرية والصحف في أمره

أما في جزر الهند الشرقيـة فقد استعملت حكومة هولاندا كل الوسائل في تنصير المسلمين من أهل جاوا حتى بلغ عددهم فى هذه السنة ستين ألفاً انتقلوا من الدين الاسلامى الى الدين المسيحى، وقد كان عدد الحجاج الجاويين الذين يقصدون الى الاماكن المقدسة بالحجاز فى كل عام ستين ألفاً فصار وا في سنة ١٣٥٠ بضع مئات . أما عـدد الستين ألفا فقد تحول بحذافيره من قبلة الكعبة الى عقيدة البروتستانت !

والذى يشهد تلك الحالة في أفريقا وآسيا وجزر الهند يعتقد انها خطة مدبرة لجأت اليها اوروبا أخيراً بعد أن فشلت جميع الوسائل في محاربة الاسلام .

نعود الى سر عظمة اليابان وتقدمها ذلك التقدم العجيب الذى بهر العالم منذ حربها مع الصين في سـنة ١٨٩٥ الى اليوم . فقد كان سبب نهوضها ضرب بعض موانيها بمدافع الاسطول الامريكى . بقيادة أمير البحر بيري في أواسط القرن التاسع عشر .فكانت أصوات تلك المدافع المباركة بمثابة دقات الناقوس المنبه لليقظة بعد طول الرقاد لتلك الدولة الفتية التي نهضت بنفسـها منذ ستين سـنة نهوضاً عجيباً حتي أصبحت صناعتها وتجارتها تنافسان صناعة أكبر الدول وتجارتها بغض النظر عن نموها الادبى وقوتها العسكرية، حتى أصبح لها بين الامم مركز ممتاز وكلمة يحسب لها حساب فى أمور الشرق الادنى

ولـكى يقدر القارئ تقدم اليابان نستسمحه فى إيراد بعض الارقام فهي أبلغ دليل.

كانت الصادرات اليابانية في سنة ١٨٦٨ تبلغ قيمتها مليوناً و ٥٥٣ ألف « ين » فأصبحت فى سنة ١٩٢٩ الفين و ١٤٨ مليون ين . وكانت وارداتها تبلغ نحو عشرة ملايين ين فأصبحت الفين و ٢١٦ مليون ين . وكان لها في سنة ١٨٨٣ ثلاثة وستون ميـلا من السكك

الحديدية فأصبحت الآن ٨٥٠٩ أميال . وكان لها فى سنة ١٨٧٠ خمسة وثلاثون باخرة حمولتها خمسة عشر الف طن فأصبحت الآن ٦٦١ باخرة حمولتها نحو أربعة ملايين طن . وكان عدد المصانع اليابانية ٦٦١ فى سنة ١٨٨٥ فأصبح الآن ٥٥٠٥٧٧ . وأخيراً كان عدد العمال الذين يشتغلون بتلك المصانع ٣٨١٠٠٠ فأصبح الآن ٢٠٢٠٠٠ر٢ !

فما هو سر هذا التقدم العجيب ؟

ان العامل الأكبر الذى ساعد على هذا التقدم هو تحول اليابان من بلاد زراعية كالبلاد المصرية الآن، الى بلاد صناعية بالرغم مما كان ينقصها فى أول عهد نهضتها من رؤوس الاموال و وفرة المواد الاولية والتخصص في مناحي الانتاج والتجارة والخبرة الفنية ورجال العلم الحديث . زد على ذلك انه في ذلك الوقت أى حوالى سنة ١٨٧٠ كانت البلاد الاوروبية والامريكية أتمت تحولها الصناعى وفي استطاعتها خنق الصناعة اليابانية فى مهدها ، كما ان الامتيازات الأجنبية كانت تحول دون تمتع اليابان بالحرية التشريعية اللازمة للدفاع عن منتجاتها، كما هي عليه الحال الآن فى مصر المثقلة بأعباء تلك الامتيازات . ومع ذلك كله تغلب اليابانيون على جميع هذه الصعاب، ووصلوا ببلادهم الى ماهي عليه من رقي وفلاح . وقد جعلهم النمو المطرد فى عدد سكانهم لا يتوانون في العمل ، ففي سنة ١٨٧٠ كان عددهم نحو ٣٥ مليونا من الانفس فأصبح الآن نيفا و ٩٠ مليونا وهم يزدادون بنحو ٩١٢ الف نفس فى السنة الواحدة وعلى الرغم من استغلال البلاد استغلالا زراعياً لا نظير له فانها لم تعد تنتج مايكفى لاطعام مثل هذا العدد العظيم من السكان فكان ذلك مساعداً على السرعة في نمو الصناعة اليابانية لكى تتمكن من التصدير وشراء مايلزمها من الخارج ومثلها في هذا الشأن مثل انجلترا نفسها

وكان للحكومة اليابانية الفضل الأكبر في تحويل البلاد من بلاد زراعية الى صناعية فهى لم تقتصر على مساعدة المشروعات الوطنية مساعدة مالية واسعة النطاق ، بل انها أنشأت أعمالا جديدة وأكثرت من المدارس الصناعية والتجارية، وجعلت نفسها بواسطة التشريع فى مقام الوصى والرقيب، على هذا التطور المجيد . آزرت المشروعات الوطنية ماليا بتقريراعانات

سخية وجوائز عديدة للصادرات والمنتجات وكان ذلك أكبر مشجع لنمو الملاحة اليابانية فأصبحت اليابان من جهة عدد سفنها التجارية وحمولتها في الدرجة الثالثة بين جميع الدول أي بعد بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، كما انها أنشأت مصانع الحرير ونسيج القطن والصوف والمواد الكيماوية، وأكثرت من الارساليات اليابانية لاوروبا ومن استخدام الخبراء الغربيين لتدريب اليابانيين على الاعمال الميكانيكية ، وبذلت جهوداً جبارة في الازمات الاقتصادية لكي تخفف وطأتها عن مالية البلاد وتجارتها وصناعتها ، وذلك بتأسيس الاتحادات الكبرى ومعاونة المصارف الوطنية معاونة قوية

وأما العامل الثانى الذى ساعد على تقدم اليابان العجيب فوطنيتهم الصادقة التى مكنتهم من اقتباس كافة وسائل المدنية الغربية وأسباب رقيها مع المحافظة التامة على تقاليدهم الدينية والاجتماعية وعلى مبادئهم وأخلاقهم الوطنية ، ومن بديع خصالهم انهم متى علموا بتنفيذ مشروع وطني ، سواء أكان ذلك شركة ملاحة أم مصرفا مالياً أم تأسيسا صناعياً أو تجارياً ، فجميع اليابانيين ، من الميكادو الى أصغر عامل ، يبذلون أقصى جهدهم في إنجاحه مهما كلفهم ذلك من تضحية.

هذا سر تقدم اليابان تقدما لامثيل له فى تاريخ الامم ففيه قدوة بالغة لمصر الناهضة اذا ما أرادت أن تبلغ شأوها وما وصلت اليه من قوة ونفوذ بين الدول .

وليست نهضة الشرق نهضة دينية ، مقصورة على يقظة الشعوب الاسلامية ، ولا جنسية قاصرة على نهوض الامم العربية أو الامم الوثنية مثل الهنادك ، بل هى نهضة انسانية عامة مثلها كمثل دبيب الحياة الذى يسري فى الاجسام بعد طول سقمها فهو البرء يتمشى في البدن المريض ، وبداية النقاهة التى تبشر بالشفاء التام. بل هي تحقيق الحلم القديم الذى رآه بعض رجالنا الملهمين أمثال المغفور لهم جمال الدين الافغانى وعبد الرحمن الكواكبى ومصطفي كامل واسماعيل غصبرنسكى ومحمد عبده وعبد الله نديم ومحمد باش حمبا التونسى

يبلغ عدد المسلمين والعرب في العالم أربعمائة مليون ، يقطنون أوطانا من أخصب

الأرض وأغناها، من الدار البيضاء وطنجه غرباً الى تين تسين بالصين شرقاً وكلهم يقرأون العربية ويفهمونها بحكم عبادتهم وعقيدتهم وكتابهم المنزل. ومعظم هذه الملايين خاضع للدول الاجنبية المستعمرة. وهم بطبيعة الحال قوة عظمى لايستهان بها ونحن ننادى بنهضتهم لاليقا وموا اوروبا بالسلاح أو غيره بل ليتعاونوا مع اوروبا في العمل على تقدم العالم. ان تقهقرهم وتومهم خسارة على الانسانية، نريد سيادة المحبة بين جميع الامم وأن يشترك الشرقيون المسلمون منهم والوثنيون والنصاري واليهود فى خدمة الحضارة مع اوروبا لانهم أرباب المدنيات القديمة في العالم ولأنهم علموا اوروبا العلوم والفنون التى انتجت المدنية الاوروبية الحديثة كما أثبته درابر وجوستاف ليبون وسدليو وادوار دبراون وعشرات غيرهم. لانريد حرباً، ولارقاً، بل نريد سلاما وحرية واخاء هذا هو المثل الأعلى الذي ينشده الشرق.

إننا ان طلبنا للشرق نصيبه فى الحياة، وألححنا في ضرورة احلاله محله في ضوء الشمس فلا نطلب ذلك مبالغين ولا متعنتين ولكن نطالب به متمشين مع روح العصر، فقد تغيرت الدنيا ومن عليها • وتطورت الافكار العامة والخاصة في جميع ناحياتها، حتى علاقة انجلترا بمستعمراتها واملاكها وراء البحار وأمام البحار! قد تغيرت وتبدلت وقد شرحنا فى صفحتي ١٨٢ و ١٨٣ من هذا الكتاب طريقة التطور الطبيعى التى طرأت على علاقة الحكومة الانجليزية بأجزاء الامبراطورية وأشرنا الى ماطرأ على نظام الدولة بالقانون الجديد.

فقد وافق البرلمان البريطاني قبل انصرافه بالاجازة (١٩٣١) على قانون جديد أطلق عليه اسم «دستور وستمنستر» والغريب أن الرأى العام لم يلتفت كثيراً الى هذا القانون الخطير الذى لانظير له في تاريخ التشريع البريطانى، وهذا القانون يقتصر على تثبيت القرارات التى أصدرها المؤتمر الامبراطورى الذى انعقد سنة ١٩٢٦ ومن جملتها التصريح الآتى :

« ان بريطانيا العظمى والدومنيون طوائف مستقلة فى داخل الامبراطورية البريطانية وجميعها في مستوي واحد غير خاضع بعضها لبعض في أية ناحية من نواحى أمورها الداخلية أو الخارجية، على أنها مرتبطة بولاء مشترك نحو التاج، وشريكة حرة في الجامعة البريطانية

و بعبارة أخرى ان دستور وستمنستر يعلن بصفة قاطعة أنه ليس ثمة حكومة امبراطورية ولا برلمان امبراطوري وأن كلمة (امبراطورية) نفسها لم تعد قابلة للتطبيق على جماعة الأمم البريطانية التي يطلق عليها الآن بمقتضى هـذا القانون ، والمرة الأولى في التاريخ ، اسم
The British Commonwealth of nations

ويقرر القانون الجديد في ديباجته ما يأتي :

« بما أن التاج هو رمز على اشتراك أعضاء جماعة الأمم البريطانية اشتراكا حراً ، وبما أن الاعضاء المذكورين مرتبطون بولائهم المشترك نحو التاج ، فمما يتفق والمركز الدستوري المعترف به لكل عضو من أعضاء الجماعة من حيث علاقاتها بعضها ببعض أن يكون كل تغيير في القانون الخاص بوراثة العرش وبالألقاب الملكية موافقاً عليه من برلمانات جميع الدومنيون ومن برلمان المملكة المتحدة »

ومعني هذا القرار الخطير أن الجالس على عرش بريطانيا العظمى لم يعد ملك انجلترا وكندا وأوستراليا وافريقيا الجنوبية الخ ، بل هو ملك في انجلترا وفي كندا وفي استراليا الخ . فالفرق بين التعبيرين ذو مغزى كبير لا يعزب عن فكر الملمين بالأنظمة الدستورية .

ويقرر دستور وستمنستر بعد ذلك أنه لا يمكن رد أى قانون أقره برلمان احدى الدومنيون بحجة أنه ليس منطبقاً على قانون أصدره أو قد يصدره البرلمان الانجليزي . وهذا القرار قاض على البرلمان البريطاني باعتبار كونه سلطة تشريعية لجميع أجزاء الامبراطورية

وجاء في بند ثان من ذلك الدستور ان لبرلمان كل دومنيون الحق المطلق في اصدار قوانين يكون لها مفعول خارج حدود البلاد ، كالقوانين الخاصة بالملاحة التجارية مثلا . وفي بند ثالث اعتبر أنه لا صفة للبرلمان الانجليزي في أن يسن قوانين لاحدى الدومنيون الا بعد موافقتها

وليس في كل هذا من جديد ، بل انه متفق مع الواقع ، غير أن الدومنيون أصرت على أنه من الواجب أن يصدر البرلمان الانجليزي قانوناً يقرر فيه رسمياً الحالة الراهنة التي يرجع أصلها الى سنة ١٩١٩ وعلى الأخص الى سنة ١٩٢٦ . وهذا ما يبين أهمية دستور وستمنستر لأنه يدل على ماهية جماعة الأمم البريطانية، فهي ليست باتحاد Union أو Fèdération بل انها اتفاق

بين عدد معـين من الدول المستقلة يربطها التاج البريطانى بعضـها ببعض باعتبار كونه رمزاً لوحدة أصلها . وليس للغة الأنجليزية مثل هذه الدلالة، إذ أن في كندا لغتين رسميتين الانجليزية والفرنسية، كما أن فى افريقيا الجنوبية لغتين رسميتين أيضا الانجليزية والالمانية أما ارلندا فمن المعروف أنها تعمل على احياء لغتها الوطنية .

هـذا مايقرره دستور وستمنستر وهو فى الواقع يحل الروابط التي كانت الى الآن تربط أجزاء الامبراطورية البريطانية من غير أن ينص على تعريف دقيق لجماعة الأمم البريطانية في تكوينها الجديد .

والحق أن هـذه الجماعة لامثيل لها فى التاريخ ولا يمكن تعريفها بدقة ، فليس بين الدومينيون أي شيء مشترك ، ولأنها جميعاً تعترف بأن الجالس على عرش انجلترا هو ملكها الخاص فليس لهذا الملك سلطة مشتركة على جميع الدومينيون ، بل لايمكنه أن يباشر سلطته في دومينيون ما، الا بواسطة حكومة ذلك الدومينيون .

ولما عرض مشروع هذا الدستور على مجلس العموم انتهز بعض النواب المحافظين هذه الفرصة لطلب اعادة النظر فى مسألة ارلندا معربين عن القلق الذى يساورهم فيما لوحدث أن الانتخابات النيابية في ارلندا أفضت عن أغلبية جمهورية . واتقاء لهـذا الخطر اقترحوا اضافة المادة الآتية على المشروع :

« وليس فى نص هـذا الدستور مايسمح للسلطة التشريعية فى ارلندا بأن تلغي أو تنقح أو تغير أية مادة من مواد اتفاق سنة ١٩٢٢ الخاص بالدولة الارلندية »

بيد أن الوزارة الحاضرة رفضت هذا الاقتراح .

فالقارئ يري من هذا البيان الوجيز أهمية قانون وستمنستر من الوجهة التاريخية والسياسية فهو قـد قضي على الامبراطورية القديـمة وعلى الروابط التى كانت تربط أجزاءها بعضها ببعض ولم يبق منهـا الا الرابطة المعنوية ورابطة المنفعة المشـتركة ، وهاتان الرابطتان علي أهميتهما ، لاتظهران دائمـا بوضوح تام نظراً لتشعب المصالح، ومناقضة بعضها للآخر كما

حدث مرات فى السنين الاخيرة. ومن أجل ذلك يبذل رجال السياسة من الانجليز جهوداً عظيمة لانشاء روابط جديدة بين جماعة الأمم البريطانية، من ضمنها المؤتمر المنوي عقده فى كندا قريباً بقصد تنظيم شؤون تلك الأمم من الوجهة الاقتصادية.

فلا عجب ولا غرابة اذا أطلق على هذا القانون اسم يدل على زوال عهد الارتباط بين أجزاء الامبراطورية البريطانية وانما هذا التحلل أو التفكك حصل على الطريقة الانجليزية أي فى حدود القانون، وبتشريع أصدره البرلمان « بيدى لا بيد عمرو! » فهو نتيجة التطور لا الثورة.

ولا عجب ولا غرابة اذا طلبت أمم الشرق العربية الاسلامية وغير الاسلامية لنفسها ما طلبته استراليا وكندا وارلاندا وجنوب افريقا من « الأم الرؤوم » The Mother Country فلسنا أقرب الى انجلترا من تلك البلاد. ولئن اتفقت انجلترا مع الشرق وتضامنت معه في السراء والضراء كما يريد غاندى في الهند وغير غاندى فى مصر والعراق وفلسطين وعدن وبعض بلاد الجزيرة العربية، وتبعتها كذلك فرنسا فى شمال افريقا والهند الصينية وهولاندا فى اندونوسيا وايطاليا في طرابلس والصومال وبلجيكا في الكونجو واليابان فى كوريا. لو حصل هذا وتضافرت أمم الغرب والشرق على مواجهة الحياة ومكافحة الحروب والأزمات والشرور الظاهرة والخفية، فلعل الحلم الذي تمثل للعالم فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يتحقق ويصير جزءاً من تاريخ العالم، وفترة من أسعد فترات الحياة الانسانية.

وبمناسبة ذكر المرحوم محمد باش حمبا بين زعماء الشرق في صفحة ١٣ من هذه المقدمة نقول:

انه كان من أعظم عظماء تونس فكراً وتضحية وقد هاجر في سبيل وطنه فتوفي عقيب الحرب العظمي وهو فى منفاه بتونس وهي ميتة شبيهة بوفاة المرحوم محمد فريد بك المصري. وقد دفن باش حمبا فى برلين في مقبرة المسلمين بها ينهيد، وتهدم قبره وكان مكتوباً عليه بالعربية

لا إله الا الله محمد رسول الله

محمد باش حبا

ولد بتونس سنة ١٨٨٣ وتوفى ببرلين سنة ١٩٢٠، كان خطيب تونس وزعيمها وقد قضى نحبه بعيدا عن وطنه ومنعت فرنسا نقل رفاته الى أرض بلاده وهو مثال من زعماء الشرق الذين اسهبنا في درس أحوالهم فى الفصل الاول ، ونشكر الامير شكيب أرسلان لأنه لفت نظر الشرق لترميم قبر الزعيم الشاب وندعو كل شرقى وعربى للعمل على صيانة مدفنه الى أن تتاح لبنى وطنه فرصة نقله الى مضجعه الاخير فى تونس الخضراء . فانها أحق بقاع الارض بضم رفاته وهو الذى أحبها وتفانى فيها حتى فنى ، ولم يكن كغيره ممن يحبون أوطانهم حب خيال ووهم بل كان حبه قائما على عقيدة وعلى حقيقة . وكان قليل الكلام بقدر ما كان كثير العمل . وقد روى لنا أحد أمراء الشرقيين أنه كان فى برلين أخيراً فزار الدار التي قضى فيها المرحوم محمد باش حبا نحبه فلقى ربة الدار، فلما سمعت سؤاله عن ضيفها الراحل بكت وقالت «لاننسى لطفه ورقة جانبه وحياءه وحلاوة شمائله ولا ننسى فصاحته وحبه وطنه . وكان ليلة وفاته يحدثنا عن بلاده ويصف جمالها ومحاسنها وخصوبة أرضها ووفرة خيراتها. ونهض من بيننا حوالى نصف الليل وهو يقول «تونس آه ! تونس ». وكان هذا آخر ماسمعناه من صوته العذب. فاننا عند الصباح ذهبنا لنقدم اليه قدحا من القهوة فاذا هو جثة خامدة ! »

ولا يفوتنا أن نصرح بأننا كلما ذكرنا الاسلام لانقصد به مجرد العقيدة ، أو النظم الدينية التى جاء بها القرآن والسنة وأعمال السلف الصالح وآثار الخلفاء الراشدين فى صدر الاسلام بل نقصد المدنية والحضارة والفلسفة والعلوم والآداب ومجموعة الافكار التى جاء بها الاسلام وصارت ثروة مشاعة لجميع الامم التى اتخذت الاسلام ديناً أو استظلت به وقد القي النبي محمد ﷺ خطبة الوداع فى حجه الاخير الذى انتقل بعده من دار الفناء الى دار البقاء وقد وصفها ج . ه . ولز المؤرخ الانجليزى في «تاريخ العالم» بانها أجل وأعظم دستور انساني

رآه العالم ، ونقل الى اللغة الانجليزية معظم فقراتها واليك نص تلك الخطبة البليغة قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ ٱلْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللَّهِ بِتَقْوَى ٱللَّهِ وَأَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةِ ٱللَّهِ وَأَسْتَفْتِحُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا مِنِّي أُبَيِّنْ لَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَٰذَا فِي مَوْقِفِي هَٰذَا . أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هَٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هَٰذَا أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى ٱلَّذِي ٱئْتَمَنَهُ عَلَيْهَا وَإِنَّ رِبَا ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَإِنَّ أَوَّلَ رِبًا أَبْدَأُ بِهِ رِبَا عَمِّي ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَإِنَّ دِمَاءَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَبْدَأُ بِهِ دَمُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ ٱلْحَرْثِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَإِنَّ مَآثِرَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْرَ ٱلسِّدَانَةِ وَٱلسِّقَايَةِ وَٱلْعَمْدُ قَوَدٌ وَشِبْهُ ٱلْعَمْدِ مَا قُتِلَ بِالْعَصَا أَوِ ٱلْحَجَرِ وَفِيهِ مِئَةُ بَعِيرٍ فَمَنْ زَادَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ .

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي أَرْضِكُمْ هَٰذِهِ وَلَٰكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَٰلِكَ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ . أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا ٱلنَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱلزَّمَانَ قَدِ ٱسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَإِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ

خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ذُو ٱلْقَعْدَةِ وَذُو ٱلْحِجَّةِ وَٱلْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ ٱلَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ . أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ . أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوَاطِئْنَ فِرَاشَكُمْ غَيْرَكُمْ وَلَا يُدْخِلْنَ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ وَلَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ فَإِنِ ٱنْتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَإِنَّمَا ٱلنِّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَارٍ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ ٱللَّهِ وَٱسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ ٱللَّهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ فِي ٱلنِّسَاءِ وَٱسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا . أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ . أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ . أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ . فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ أَعْنَاقَ بَعْضٍ فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ كِتَابَ ٱللَّهِ وَأَهْلَ بَيْتِي أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ . أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَي عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِٱلتَّقْوَى أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَلْيُبَلِّغِ ٱلشَّاهِدُ مِنْكُمُ ٱلْغَائِبَ . أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ ٱلْمِيرَاثِ وَلَا يَجُوزُ لِوَارِثٍ وَصِيَّةٌ فِي أَكْثَرَ مِنَ ٱلثُّلُثِ وَٱلْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ ٱلْحَجَرُ وَمَنِ ٱدَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ ٱللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ »

فالاسلام حضارة ومدنية ونظم سياسية واجتماعية، كما هو دين وعقيدة والاسلام دولة وعدل وقانون وفلسفة فى الحياة كما هو تعاليم سماوية ولا ريب في أن أمة تدين بالاسلام ليست في حاجة الى غيره من النظم الوضعية وقد خاب وأخطأ من ظن أو توهم أن الشيوعية أو المشاعية الروسية يمكن أن تظهر فى الأمم الاسلامية أوتنمو أو تروج فاز الاسلام غنى بعدله ورحمته وإحسانه وزكاته ومساواته عن كل فكرة تأتى من الخارج مهما كان ماانطوت عليه من الخير أو مكافحة الشر أو تقليل مصائب الانسانية ومتاعبها . وربما كانت روسيا أو أوروبا محتاجة الى تلك المباديء ، فلهم الخيار في اتخاذها أو الاعراض عنها . أما نحن ففي غنى عنها وعما يشبهها . ويكفينا أن نتفهم ديننا ونحيي مبادئه في نفوسنا ونخلص لأنفسنا ولاقوامنا حتى نستعيد مجدنا واذا تعصبنا فانما نتعصب للانسانية والرحمة ، للمدنيـة والحضارة ، للتسامح والغفران، وهذه هي المبادئ السامية التي جاء بها الاسلام ونشرها في جميع ناحيات العالم فقد كانت غايته الاولى عتق الافـكار وتحريرها واطلاق أعناق البشر من ربقة العبودية للارباب والاوثان والظالمين ومن مبادئه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وانني أنتهز هذه الفرصة لأشكر جميع العلماء والفضلاء والمجاهدين والمفكرين الذين رجعت الى كتبهم وانتفعت بمؤلفاتهم وآرائهم وأفدت بمحادثتهم ولا سيما الاستاذ الفاضل والمؤرخ الثقة والرحالة الشرقى الشهير السـيد عبد العزيز الثعالبى زعيم تونس والسـيد ميرزا رفيع مشكى أديب فارس وسير محمد اقبال شاعر الهند الاسـلامية وفيلسوفها . والسيد غلام رسول مهر صاحب جريدة «انقلاب» الهندية بلاهور . والشيخ كامل القصاب ودكتور عبـد الرحمن شهبندر المجاهـد السورى الاديب وعياض بك اسحاقي والامير سعيد شامل والامير سعيد الجزائرى والسيد مرسى جار الله زعماء قفقاسيا والاورال وخيرالدين الزركلي وكل مؤلف أو كاتب لم يرد ذكره في صفحة مراجع الـكتاب سهوا . والحمدلله على خير معونته وحسن توفيقه ؟

محمد لطفي جمعه

مصر الجديدة في رمضان المعظم ١٣٥٠ (يناير ١٩٣٢)

— ١ —

١ — ربما كانت مسألة الزعامة والزعماء في الشرق من أعضل المعضلات التى تعانيها تلك الشعوب من فجر التاريخ الى يومنا هذا .

يكون الزعيم مصلحاً دينياً أو مصلحاً اجتماعياً أو زعيماسياسياً أو قائداً حربياً . وقد يوصله الدين أو السياسة أو الحرب الى الملك .

وربما يكون نصيب المصلح الاجتماعى أقل الأنصبة في المجد والمنفعة الذاتية .

على أن الزعيم الصادق يكون دائماً سامى الغرض بعيد الغاية فلا يتطلب لنفسه شيئا ، كما قد يكون طموحا ذا مطامع فيسخر لنفسه ولذويه كل شيء . وبقدر ما يكون الأول نافعاً يكون الثاني مضراً وذا خطر على الوسط الذي ينشأ فيه .

يجب علينا أولا أن نفحص شعوب الشرق من حيث الزعامة والمقارنة بينها وبين شعوب الغرب .

في الغرب يظهر أعاظم الرجال بكثرة مهولة ، وينبغون بسهولة، ويتقدمون في طريق الحياة يقودهم النجاح ويكللهم الظفر بأكاليل الغار . لأسباب لا توجد فى الشرق ، فان الغرب ميال بطبيعة شعوبه لتشجيع النابغين والاقبال عليهم وتعضيدهم والانتفاع بهم . وربما كان الرجل العظيم في الغرب غالباً ذا ميل اجتماعى أى أنه يفضل الصالح العام على الصالح الخاص بل الأعجب من ذلك أن الطبقات الوسطي من الشعوب الغربية تفضل الصالح العام على الصالح الخاص . وترى أفرادها على ماهم به من خصاصة يقدمون منفعة المجموع على منفعتهم الذاتية ، وقد سمعت حديثاً بين شرطي أجنبي وعامل مصرى قال الأجنبي نحن في بلادنا ننظر أولا الى المصلحة العامة ، والمصلحة الخاصة تأتى عرضاً . أما في بلادكم ، فالمنفعة الشخصية

عندكم مقدسة ، ولو أخذت في سبيلها المنفعة العامة وقضت عليها . لقد صدق هـذا الشرطى وأصاب كبد الحقيقـة أصاب ليس لأنه عبقرى أو قوى البصيرة أو عالم اجتماعى ، بل لأن الأمر ظاهر كالشمس . الشرقي بصفة عامة والمصرى بصفة خاصة يفضل نفسه وذويه ويقدمهم وقد يقدم قريبه أو صديقه مع عجزه وضعف خلقه على الغريب عنه ولو كان من أهل الـكفاية وذوى الخلق القويم .

وهـذا الأمر ظاهر في مناصب الحـكومة ، وفي الأعمال الرسمية ، حيث يمكن الحصول على المنافع المادية على حساب الغير ، ولـكن ربما يتردد الشرقي في مصلحته الخاصة في تفضيل قريبه أو صديقه المضر على الأجنبي النافع . وهذا أيضاً من الأنانية وحب النفس ، لأنه هنا يدافع عن مصلحته الشخصية ولا يريد أن يعبث بها القريب الفاسـد ، اذا كان لديه أجنبي صالح يقوم بالعمل . إذن رابطة الدم أو رابطة المودة تنفع صاحبها ما دام الغرم واقعاً على الغير أى على المنفعة العامة أما اذا كان الغرم واقعاً على الشرقى صاحب العمل فهو يقصي قريبه أو صديقه ، وحينئذ يجد الحجة الدامغة يقابل بها من يعترض عليه . حينئذ يقول الحق ويراه واضحاً ويدافع به عن خطته . وهو نفسه يجد مثل هذه الحجة الدامغة اذا اعترضت عليه عند تفضـيله القريب أو الصديق في العمل العام على الغريب ذي الـكفاية (أقصد بالغريب عنه لحماً ودماً أو عصبية وصـداقة) فهو يقول ان فلاناً ليس أقل كفاية من غيره ، انه على الأقل يطيعني ، ولا يخونني ، وهو صادق إذ يقول ذلك لأنه ، مادام لا يحتك مع قريبه أو صديقه في منفعة خاصة فيندر أن يحدث بينهما خلاف .

أرأيت كيف أن الشيء يمكن أن يكون حقاً وباطلا في وقت واحد وكل ذلك لدي تضحية المنفعة العامة . ان هـذا الأمر مع فظاعته وهوله صحيح ومشاهد وواقع في كل مكان تجده وتجد آثاره حيث تضع اصبعك .

ان مضار هذه الحالة الخلقية عظيمة جداً ، عظيمة لا تحد ، ونتائجها الفاجعة لا تحصي . ليس هذا فقط ، بل اننا نحن الشرقيين وبصفة خاصة المسلمين قد لدغنا منها مرات فى التاريخ

وقد قال النبي لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين لأن الموعظة الأولى أو التجربة الأولى كافية لحمايته.

لقد حدث هذا في فجر تاريخ الاسلام . في حادثتين من أهم الحوادث .

الأولى في خلافة عثمان والثانية في خلافة علي .

أما في خلافة عثمان فان الخلاف الذي نشب بين المسلمين أولا كان لأنهم انتخبوا عثمان دون علي، وكان فريق من أقارب علي يفضلونه لا لأنه من أبطال الاسلام ولا لأنه بذل في سبيل الدعوة ما بذل ولا لفصاحته وشجاعته، بل لأنه ابن عم النبي وابنه بالتبنى وصهره بزواج السيدة فاطمة . قالوا انه من العترة النبوية وانه والد الحسن والحسين وكانا أحب الناس الى جدهما الرسول فلأجل هذا كان علي أحق بالخلافة من عثمان . وغضبت السيدة فاطمة وقالت ألفاظاً رواها المؤرخون ويفهم منها أنها دهشت لأن زوجها لم يكن الخليفة والأمر أمرهم وشأنهم . على انني أعذر السيدة فاطمة عليها رضوان الله لأنها سيدة . وقد كانت بداية الفتنة هذا الخلاف العائلي .

بعد ذلك صار عثمان خليفة فوقع في عين الخطأ الذي قاومه أنصاره، لقد قرب أقاربه وأصهاره وأحبابه وعينهم في المناصب واستعملهم وولاهم شئون المسلمين في أنحاء الدولة . واستعمل حقه في الخلافة استعمال ملك شبه مطلق ، لاحظ انني أحب عثمان واعجب به ولا أريد ان أمس شخصه الكريم ، لا لأنه ثالث الخلفاء الراشدين ولا لأنه صهر النبي ، بل لانه مات شهيداً ، وذاق أهوال الاضطهاد وهو في الثمانين من عمره ، ورشق بالحجارة في شوارع مكة ثم ذبح في بيته وهو يقرأ القرآن ومن ذبحه ؟ احق الناس بالدفاع عنه . . محمد بن ابي بكر الذى يعد ولداً لعثمان ، فانظر الى هذا المصاب العظيم يصيب المسلمين في فجر تاريخهم

وليت الأمر وقف عندهذا الحد ، وليت هذه الجناية كانت الأولى والاخيرة من حوادث القتل السياسي .

ان عثمان مات فكان دمه سبباً في فتنة عظيمة هي الفتنة التي عاني الاسلام نتائجها أجيالا ولا تزال آثارها باقية حتي الآن في انقسام السنة والشيعة .

وفي هذه المرة كانت زعيمة الثورة والمعادية لعلى السيدة عائشة أم المؤمنين نفسها ، التي كانت تحفظ نصف دين المسلمين وأمر المسلمون أن يأخذوه عنها ، لقد هاجت الرأي العام ضد على ، واتخذت المطالبة بدم عثمان سبباً لهذ الهياج .

وحدثت حروب عظيمة ووقائع فظيعة قتل فيها عدد كبير من المسلمين ، ودب الشقاق بينهم .

وفى هذه الأثناء قام رجال كمعاوية يناوئون علياً وانتهزوا فرصة انشغاله بفتنة السيدة عائشة ، والتمسوا سم الخياط ليدخلوا منه ، وكانت الحروب والتحكيم والحيل والمخادعة ، ثم ظهر شبح القتل السياسى ثانياً فى صدر الاسلام فقتل على ونجا معاوية وعمرو ، وبذهاب على على هذه الصورة المحزنة ، قضى على نظام الانتخاب الحر فى تعيين الخليفة ، لأن معاوية أخذ الخلافة بالقوة والحيلة كما لو كان أحد امراء الشرق أو امراء ايطاليا في القرون الوسطى .

لا أنكر أن الدولة الأموية كانت أعظم دولة في الاسلام وأن الفتوح التى تمت فى عهدها كانت أعظم الفتوح وأجلها ، ولكن ماقيمة الفتوح وأخذ الممالك وانتشار صولة الدين فى جانب ضياع المبدأ الذى كان يضمن سلامة الاسلام الى الأبد الا وهو مبدأ انتخاب الخليفة انتخابا عاما حراً ، لقد قضي معاوية بدهائه ومطامعه على هذا المبدأ ، وأخذ يحصل من رعاياه على مبايعة ولده وهكذا أخذ كل خليفة يكره الناس على مبايعة ولده ، حتي اذا ظهر رجل قوى حيال ولى عهد ضعيف قضي عليه وأجبر الناس على نقض البيعة .

وعاد العباسيون الى الخطة الأولي ، فنادوا بقرابتهم واستعملوا أبا مسلم الخراسانى للدعوة لهم في العراق حتى نجحوا فتخلوا عن السبب وأسسوا دولة على السيوف والرماح ؛ وهكذا .

بيد أنك ترى الأمر فى الغرب على خلاف ذلك ، فأول ما يفكر فيه الشعب هو تأسيس نظام الدولة وضمان سياسة الامور بالعدل ، لأنه مهما كان الرجل الرشيد الذي نجده اليوم عظيما وعادلا ورحيما ومحباً للانسانية ولوطنه ، فنحن لانضمن ابنه ولا حفيده

ولا أنكر أن بعض المستبدين الأقوياء قاموا فى أمم الغرب وأسسوا دولا بالقوة والخداع ، ولكنهم كانوا من الشواذ والاستثناء، والقاعدة العامة اختيار الأصلح، أما فى الشرق فقد كانت القاعدة هي الاستبداد ومجيء الصالح وتوليته هي الشاذ فقد جاء عمر بن عبدالعزيز منفرداً فى سلسلة من الخلفاء الضعفاء أو المتهاونين فى شؤون أمتهم ، فكان الخليفة الفاضل يأتى مصادفة لاقصداً .

إذن كان يجب علينا أن نتعظ من الحوادث الأولى ولا نسمح لها بأن تتكرر ، ولكننا لم نتعظ، حتى ان الدول التي وضعت أنظمة لولاية الملك باختيار الأرشد فالأرشد ، مثل الدولة العثمانية اختل حبل النظام فيها ، وأخذ القوي المبعد يسعى بكل الوسائل للاستيلاء على الملك ولم يتردد فى هذا السبيل .

ينتج عن هذا أن التساهل في مسألة واحدة، وهي تفضيل الأقارب والأصهار جلب كل المصائب التى حلت بالاسلام ، كانوا يقولون ان الخلفاء فسدوا أو ضعفوا أو مكنوا الأجانب أو حاربوا العلماء ، أو اضطهدوا النابغين ، و كل هذا صحيح لأن الرجل الذي كان علي رأس الخلافة لم يكن الرجل الواجب الوجود ، ولو أنه سلك فى وجوده عين الخطة التي رسمها النبى ماوقع الاسلام فيما وقع فيه ، ان النبى لم يضع نظاماً للملك ، ولم يضع للدولة دستوراً هذا صحيح ولكن لاننسى أن النبى ترك أنظمة ودساتير لاتعد ، في القرآن والسنة ، ولو أنه أراد أن يحصر الملك أو السلطة فى شخص معين ما كان هذا ليعجزه ولكن احتراماً للحرية و رغبة منه فى تربية الشعب تربية سياسية ترك لهم الخيار بعد أن أبان لهم الحق من الباطل فى مئات الأحاديث بعد الآيات القرآنية وفي خطبة الوداع التي تعد من أمهات الدساتير الانسانية فى الحكم والادارة ، فماذا يصنع النبى لشعب فاسد ، أو لأمة خالية من المبادئ أو لرجال يفضلون المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ليس على أعمال النبى غبار حتي فى نظر ألد خصومه. ولكن العيب كله راجع للذين جاءوا بعده وخلطوا وأفسدوا .

ماذا نرى في الشرق ؟ الزعيم الدينى أولاً .

٢ — قام في الشرق عشرات من الزعماء الدينيين درسناهم بايجاز في مكان آخر من هذا الكتاب انما الذى يهمنا الآن الزعيم أوالبطل الدينى الذي جاء بعقيدة منزلة . وهم في الشرق السامي ثلاثة موسى وعيسى ومحمدونترك غيرهم من الانبياء المرسلين أمثال ابراهيم ونوح ويوسف لأنهم لم يؤسسوا دولا أو بعبارة أخرى لان أديانهم لم تؤد الى ايجاد أنظمة سياسية أواجتماعية . أما هؤلاء الثلاثة فقد أسسوا دولا لاتزال باقية في الشرق حتي الساعة

ماذا يهمنا من تاريخ موسى ؟ شريعة عظيمة وعادلة وشديدة وهى أولى الشرائع المنزلة في الشرق. ولكن الذى يهمنا هوما لقيه هذا الرجل من شعبه فان أحد أفراد هذا الشعب الذي كان يدافع عنه موسى وشى به وأوقعه في تهمة جناية القتل العمد . وعلى من اعتدي موسى ! علي رجل مصرى كاد يفتك بالاسرائيلي وشهد الاسرائيلى دفاع موسى عنه ، فكان هو المبلغ ضده والمهدد له . . ارأيت ؟ هذه حادثة فردية ولكنها لها كل دلالتها . بل هي رمز للتاريخ الشرقي كله . أن الرجل الذى تدافع عنه وتحميه وتذود عنه وتريد له الحياة لأنه من الشعب ولأنه ضعيف هو الذى يحفظ لك هذه الحادثة لينتفع بها ضدك ويؤذيك . .

هل تجد في الغرب خيانة كهذه ؟ ربما ولكن نادراً . هل تجد بين الوحوش وفي عالم الحيوان خيانة كهذه ؟ ربما ولكن من الذئب أو من الثعبان ولكن كل مخلوق آخر مهما كان فظيعاً قاسى القلب لايقع فى هذه الجريمة، أى انه لايقابل الاحسان بالاساءة، ولا يقابل الجميل بالنكران. ان موسى لم يحسن لليهودى فقط بل انه ضحي في سبيله ، لقد استهدف للخطر لأنه قتل مصرياً . لقد بلغ حبه لشعبه ممثلا في أحد أفراده ، درجة الجريمة. ثم ماذا لقى موسى من شعبه بعد أن لجأ الى كل الحيل فى انقاذه واخراجه من مصر وهى بالنسبة لليهود كانت دار عذاب واساءة ؟ لقد عذبوه فى الصحراء ، وأذاقوه مرارة الحياة ألواناً .

فأخذوا يعصونه وهو يأتى لهم باوامر الله ونواهيه . وأخذوا يعبدون العجل ويضايقونه ويمتحنونه حتي كاد يجن من فعلهم .

واليك ما وقع للزعيم الدينى الثاني وهو عيسى بن مريم عليه السلام .

لقد كان عيسى في نظر النصارى الها متجسداً ، وفي نظر المسلمين نبياً مرسلا . وفي نظر اليهود ثائراً على قومه وعلى عقيدته . وعلى كل حال فهو في نظر التاريخ الاجتماعي مصلح قومي. أراد قبل كل شيء اصلاح حال اليهود واخراجهم من مظالم الرومان فاتى بمبادئ سامية في الحب والعدل والرحمة والتسامح والعفو والمغفرة . مبادئ هي من أجمل مانطق به البشر ومن أفضل الاسس التي تبني عليها مكارم الاخلاق . وقد تحاشى على قدر طاقته التدخل في شؤون الدولة الحاكمة .لأنه كان يريد أن يهدمها بالتدريج ومن جهة أخرى بمعاول الاخاء والمساواة والمحبة .

ولا ريب في أن عيسي عليه السلام كان اسرائيليا عبقريا ، وكان قائما ضد الأنظمة الفاسدة التي وصلت ببني اسرائيل الى ما وصلت اليه في عهده . وكل هذا طبعاً بأمر من الله سبحانه وتعالى فماذا كانت النتيجة ؟

ان اليهود قد أوقعوا به ، بعد أن حاولوا مرات ان يفسدوا بينه وبين قيصر (وهو رمز السلطة الرومانية) وأوغروا عليه صدر المندوب السامي الروماني (بيلاطوس) وخلقوا له التهم ونسبوا اليه أنه يقول أنا ملك بني اسرائيل . ليكون من ذلك جريمة سياسية ، ورغبة في انتزاع الملك ودعوة الى الثورة ضد الرومان.

لقد حدث للمسيح ماهو معلوم في التاريخ من قبض واتهام وتعذيب .

وذهب في الرابعة والثلاثين ضحية الظلم ورفع الى السماء ليتم الوعد الرباني وهو تخليص شعبه.

ثم بعده بستة قرون ظهر النبي محمد (ص) في جزيرة العرب . وتاريخ مالقيه من قومه معلوم معروف فمن الاحتقار والسب الى الاضطهاد والاهانة حتى شرع أحدهم في خنقه وهو يصلي وكانوا يلقون عليه الاحجار في الطريق . وحاولوا استغواءه بكل الوسائل بالمال والملك والسيادة المطلقة ثم تآمروا على قتله . ولما هاجر الى المدينة ، في نفس اليوم الذي عينوه لاغتياله في فراشه اقتفوا أثره في حملات منظمة كأنه مجرم فار من وجه العدل .

ولما بعد عنهم وصار في مأمن شنوا عليه الغارات وحاربوه وبلغ الجيش الذى حشدوه للقضاء عليه في موقعة الخندق الشهيرة عشرة آلاف جندى . تصور أن أهل مكة يستطيعون

في القرن السابع للمسيح أن يجندوا جيشا قوامه عشرة آلاف جندي بين راجل وراكب وهجان ، وقديما حشدوا له جيشاً فيه الفيلة العظام . ولو لم يكن سلمان الفارسي مشيراً للجيش المحمدي ، وهو الذي ابتكر فكرة حفر الخنادق حول المدينة فلا يعلم النتيجة الا الله . جيش من عشرة آلاف جندي على رأسه جميع عظماء مكة وأبطالها وفرسانها وساستها ودهاتها ضد النبي وعصبته القليلة العدد .

ولماذا هذا العداء كله ؟

لأن النبي كان يحب الخير لقومه وللانسانية ، فأخرجهم من دياجير الهمجية والجاهلية والوثنية وجعل شعبهم أعظم شعب في العالم . وجلب لهم الغنى والمال والجاه والعزة . والاعجب من هذا أن معظم الزعماء الذين كانوا في هذا الجيش قد استفادوا من الاسلام بعد أن دخلوا فيه مرغمين أو راغبين وصاروا خلفاء وأئمة وأمراء وقواداً وزعماء وولاة وقضاة في جميع انحاء العالم . وكانوا حملة المدنية العربية التي أضاءت سواد الدنيا القديمة .

لقد قصرت بحثي في الزعامة الدينية على الزعماء الذين لايوجد شك في زعامتهم لأنهم جاءوا برسالة ربانية . أي أنهم مؤيدون من الله بامور فوق الطبيعة فما بالك بالزعماء الدينيين الذين انتدبوا أنفسهم للاصلاح الديني بغير رسالة منزلة هؤلاء يدخلون في حظيرة التاريخ ويرد ذكرهم في كتابنا عرضاً ونكتفي بمن ذكرنا

انظر الى الزعيم الاجتماعي وهو رجل الاصلاح .

ان عمله في الدرجة الثانية بالنسبة لأعمال النبوة .

وعمله يتناول حياة الأمة بحذافيرها .

ليس في الشرق الاسلامي مصلحون اجتماعيون كثيرون . بل لعلهم يعدون على الاصابع . لأن الاجتماع في الشرق يدخل عادة في الدين .

٣ — وربما يكون الاصلاح الاجتماعي جزءاً من عمل الزعيم السياسي . فيندمج فيه .

ولا يوجد مصلح اجتماعي محض فيمن نذكر في الأزمنة الحديثة سوى قاسم أمين .

فهو مثال للمصلح الاجتماعى الصافي ، الخالص من كل الصفات الأخري فقد كان هذا الرجل قاضياً . وكان تعليمه وحياته العملية يدفعانه نحو الاصلاح الاجتماعي المحض .

وقد عاش في زمن كانت مصر فيه احوج ما تكون الى مثله . لقد قالوا انه كردي الاصل . وهذا لايهمنى فانه ليس من الممكن في مصر ان تستخلص رجلا منحدرا من اصل معصرى مؤكد الا في اقاصي الصعيد . وهو يكون في الغالب اشبه الناس بالمصريين القدماء ويعمل غالباً في خدمة الارض والزراعة . ولكن الطبقة المتعلمة والمنورة والتي تخرج بعض الرجال النافعين هى خلاصة شعوب مختلفة . ولذا فأنا لا اكترث لكردية المرحوم قاسم امين. واعتبره مصرياً بكل معاني الكلمة لأنه ولد هو وابوه وأمه في مصر وعاش وتربي وتغذى بلبان مصر وتعلم لأجل مصر وخدم مصر في حياته الخاصة والعامة واسس اسرة مصرية وهذا يكفى . راى هذا المصلح المصرى قبيل وفاته بعشر سنين ما وصلنا اليه من التدهور والانحطاط بسبب تفكك الروابط العائلية وقد رد هذا الانحطاط الى جهل المرأة وتقييدها فاستجمع شجاعته ووضع كتاب تحرير المرأة الذي يعد بالنسبة لمصر من اعظم الكتب فى التاريخ الحديث . فماذا كانت عاقبته .

لقد قامت عليه القيامة من كل ناحية . واضطهد واهين وصوبت نحوه سهام النقد الشديد حتى من رجل يعدونه في مقدمة أهل مصر ذكاء وحرية تفكير وتعلماً . وصار اسمه مضغة فى الافواه ونسب اليه الاشرار مانسبوا وانطلقت السنة السوء تعيبه وتفند رأيه وألفوا أكثر من مائة كتاب وسودوا الوف المقالات في الرد عليه وتخطئته .

لاأدرى ان كان قاسم قد اغتبط بهذه الحركة التي قامت ضده ، وقد رأى بنظره الثاقب ان هذه الضجة دليل الحياة . وانها رد فعل يدل على وجود المصريين وشعورهم وأن الذي يناقش اليوم رأياً ليخطئه قد يقتنع غدا بصحته . وقد تشجع قاسم وكتب كتاب المرأة الجديدة. فاستقبل وابلاً من القذف والسب والقدح في هذه المرة من جميع أنحاء العالم الاسلامي وانبرى للرد عليه كتاب من شمال افريقا والشام والعراق والحجاز والهند واندونوسيا . وكان في مقدمة

هؤلاء كلهم علماء الرسوم الذين اغروا به العامة . وهؤلاء العلماء الجهلاء (ان صح الجمع بين الصفتين) كانوا يعلمون ما وراء حركة قاسم من الاصلاح ويعلمون انه لم يخرج في اقتراحه عن حدود الشرع الشريف . وانه استشهد في كتابيه بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأخبار السلف الصالح .

بل ان هؤلاء العلماء اتخذوا كتابي قاسم وسيلة للنيل من صديقه ورفيقه المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده وهو مصلح ديني ممن لقوا أشد صنوف التنكيل في سبيل مبادئهم . وادعوا أن قاسماً لم يكن وحده في اقتراف هذه الجريمة بل ان الذى ساعده وعضده وأخذ بيده هو الشيخ محمد عبده فرموا طائرين بحجر . رموا قاسماً بالضعف الى درجة الاستعانة فى آرائه بالمفتى ورموا المفتى بالنفاق والجبن الى درجة انه لم يستطع الظهور بشخصه في الدفاع عن آرائه . وكانت جريدة المؤيد فى مقدمة الصحف التي أشعلت نار تلك الفتنة . مع ان صاحبها المرحوم كان على وشك احداث أعظم فضيحة زوجية فى تاريخ مصر الحديث

كان قاسم أمين في هذا الوقت قد فرغ من الدفاع عن الأمة المصرية بل عن الشرق كله ضد النقاد الاجانب . فان الكونت دارنبورغ الفرنسي المستشرق كتب رسالة فى الطعن على المصريين وعدم صلاحيتهم للعلم والسياسة . ونشرها في بلاده فانبري له قاسم ووضع باللغة الفرنسوية كتابا اسمه « المصري » دافع فيه أعظم دفاع وأمجده عن الامة المصرية بأسرها فى تاريخها وفي اخلاقها وفى ذكائها وفى آدابها واستعدادها القومى للتمتع بالحقوق العامة ، (والكتاب مطبوع ولم يعن أحد بترجمته الى العربية) تلك الامة التي كان كتابها ينهشون في لحمه بسبب رغبته في الاصلاح . فى سنة ١٩٠٣ ظهرت قضية الزوجية بين المرحومين السيد عبد الخالق السادات والسيد الحسيب النسيب الشيخ على يوسف شيخ السجادة الوفائية . ولعب فيها لفيف من كبراء رجال الدين والادب والقضاء أدواراً مهمة . والعجيب ان هذه الفضيحة كان سببها جهل المرأة وفساد العادات القديمة فى الحياة والزواج . فلو ان المرأة المصرية كانت متعلمة ولو أن الاباء كانوا يحترمون بناتهم ويحترمون حريتهن ، أى لو أنهم تبعوا خطة قاسم ، في التعليم

والتربية الانثوية ماوقعت تلك الفضيحة التي كانت بمثابة قضية مدام كايو فى فرنسا شهرة .

بعد ذلك بعام توفي الشيخ محمد عبده . وفى سنة ١٩٠٨ أي قبل أن تمضي عشر سنوات على ظهور كتاب تحرير المرأة توفى قاسم امين فى ظروف محزنة .

فانه فى أواخر شهر ابريل سنة ١٩٠٨ ، وبعد شهرين من تاريخ وفاة المرحوم مصطفى كامل زارت مصر طائفة من الطلاب والطالبات الرومانية وزاروا نادى المدارس العليا وألقي المرحوم قاسم امين محاضرة باللغة الفرنسوية قال فيها انه يتمنى أن يعيش ليرى بعينه الفتى المصري والفتاة المصرية جنباً الى جنب فى طلب العلم والسياحة وفى معاهد التربية والتهذيب . وذهب الى داره حيث جلس على مقعد وثير فى غرفة الجلوس وشرب قدحا من الماء ولفافة من الطباق ، ثم تأوه وسقط ميتاً .

٤ — ربما كان البحث فى الزعامة السياسية أصعب مبحث فى هذا المجال .

لقد ظهر فى الشرق زعماء سياسيون كثيرون . بل فى كل ناحية من ناحيات الشرق العربي وفى مصر خاصة . ونحن نذكر منهم على سبيل المثال جمال الدين الافغاني واحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول وبعض الزعماء فى بلاد فارس وسوريا وتركيا وشمال افريقيا .

أما جمال الدين الافغانى فكان فى الحقيقة مصلحاً عاماً للدين والسياسة والاجتماع . ولكن السياسة كانت الصبغة الغالبة على مبادئه . ولعله اتخذ الاصلاح الديني والاصلاح الاجتماعى ونشر الفلسفة وسيلة للاصلاح السياسى لانه كان يرى ان اصلاح السياسة يصلح كل شيء . وكان الاصلاح السياسى فى نظره ينحصر فى نقطتين الاولى تحرير الشعوب من الحكم الاستبدادى . أى من ظلم الحكام الشرقيين المطلقين الذين كانوا لعهده فى فارس والافغان وتركيا ومصر ، وعندما ظهر لاول عهده لم تكن اوروبا قد هجمت على الشرق هذا الهجوم الفظيع بل كان الانجليز فى الهند وحدها والفرنسيون فى الجزائر وحدها . ونظر بعد ذلك في تخليص أمم الشرق الواقعة تحت الحكم الاجنبى وارتأى لخلاص الشعوب الاسلامية مما كانت واقعة فيه لعهده تأليف الجامعة الاسلامية تحت رياسة الخليفة . ولم يكن لعهده رجل

يصلح لتولى هذا المنصب سوي السلطان عبد الحميد .

لقد لجأ الافغانى أولا الى الملوك أنفسهم وحاول هدايتهم بالعلاقة الشخصية وقد نجح فعلا في اقناع شاه الفرس بضرورة اعطاء الدستور الى شعبه. وتمكن من قلب الشاه و بذل له الاخلاص كله. وامتزج بالمصلحين من الشعب الفارسي بعد أن استمالهم اليه بعقله وعلمه وفصاحته وشخصيته الجذابة ولما اضطهد وتآمروا ضده سافر الى بلاد الهند وشعر الانجليز بقوته ونفوذه فنفوه فذهب الى الافغان وكانت مملكته تتناهبها المظالم وهي واقعة تحت السلطة الانجليزية لانها خطر على أبواب الهند . فلم يكن الدور الذى لعبه فيها عظيما ولكنه لقحها ، وترك فيها خميرة صالحة كما ترك خميرته فى فارس وكما ترك آثاره في الهند . وانى أفسر كل ماحدث فى تلك البلاد من الثورات والنهضات القومية والنزعات الدستورية بفعل جمال الدين دون سواه . الذي كان نبي القومية الشرقية وأستاذ الحرية في تلك البلاد . ثم جاء الى مصر وعلم فيها ونشر مبادئه . وكانت أسرع الامم للاستفادة بمبادئه فحصلت الثورة العرابية بعد خروجه من مصر بقليل . وفي مصر لقى الافغانى اضطهادا من العلماء ثم من الحكومة ثم من الشعب ولم يلذ به ولم يلتف حوله الا بضعة نفر من العظماء يكادون يعدون على الاصابع وأعظمهم بلا ريب المرحوم محمد عبده الذى نفذ خطته بعد موته . وكان وارثه الوحيد وحامل الشعلة التي تلقاها عنه في الاصلاح الديني والقومي .

وقصد جمال الدين الى تركيا حيث لقيه السلطان عبد الحميد بالحفاوة والترحيب والكرامة ولم يكن ذلك ادعج عينيه، ولكنه لانه رأي فيه عضداً في فكرة الجامعة الاسلامية أو على الاصح لان فكرة الجامعة الاسلامية التى بسطها له جمال الدين قد راقته وأراد الانتفاع بها لتوطيد ملكه . وكل رجال الاصلا الذين قاموا في تركيا تلقوا عن جمال الدين مبادئهم.

ومات جمال الدين في القسطنطينية في أواخر القرن التاسع عشر مصابا بالسرطان في لسانه ، ولهجت الألسن بعد ذلك انه ذهب ضحية خصومه كما هي العادة في الشرق . وهذه

شائعة لا أثبتها ولا أنفيها .

ولكن ما ذا كانت حياة جمال الدين الذي كان من عظماء العالم ؟

انه كان كسقراط في حكمته وقدرته على تكوين الرجال .

وكان كابن خلدون في علمه واتساع دائرة معارفه

وكان كديموستين في فصاحته وخطبه وكجان جاك روسو في حريته وصراحته

لقد عاش مضطهداً مطارداً ، ولم يتمكن في واحدة من الممالك الاسلامية الشرقية التى عاش فيها وأحب خيرها وخدم شعبها من أن يعيش عيشة راضية أو يتمتع بحياة هادئة ولم يؤسس أسرة ، ولم يبن بيتا ولم يدخر مالا . ولم يتول منصباً . بل عاش عيشة المفاليك المشردين . يبيت ليلته ولا يدرى أين يكون صباحه ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي أيقظ المشرق من رقدته التى نامها سبعة قرون منذ اجتاحه الموغول من الشرق والاوربيون من الغرب ، هو الرجل الذى أنهض الشرق بعد أن يئس كل من عداه من ايقاظه .

٥ — ان الزعماء السياسيين فى الشرق العربى الذين عرفناهم ورأينا أعمالهم يعدون على الاصابع ، وقد يرد ذكر بعضهم عرضاً في غير هذا المكان من الكتاب ، وفى مقدمتهم بالنسبة لمصر المرحومون محمود سامى البارودى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وبالنسبة لسوريا المرحومان السيدان عبد الرحمن الكواكبى وفوزى الغزي وبالنسبة لشمال افريقا خير الدين باشا التونسى المتوفى سنة ١٨٩٠ والسيد عبد العزيز الثعالبى وقد ظهر في تركيا عشرات من الزعماء أولهم المرحوم مدحت باشا ومحمد طلعت ولم يكونا من الزعماء الذين جمعوا بين صفتى المحاربة والسياسة أمثال أنور ونيازى وجمال ومصطفى كمال والمرحوم أحمد عرابى المصرى . ولا نريد الافاضة في ذكر الاسماء انما ذكرنا هؤلاء من قبيل التمثيل والاستشهاد . ولو اننا أخذنا أحدهم نموذجاً لبقيتهم كان فى سرد حوادث حياته ما يدل على حالة الزعيم السياسى فى الشرق العربى الاسلامي بصفة عامة . فقد نشأ مصطفى كامل فى مصر من والدين مصريين وتربى فى المدارس الحكومية الى أن دخل مدرسة الحقوق وظهر نبوغه وميله الى الاشتغال

بالسياسة وكان الاحتلال الانجليزى حديث العهد، وكان ناظر المدرسة فرنسياً اسمه موسيو تستو وكان عالماً ومحباً للمصريين ولكن كان يريد الظهور بالاخلاص للانجليز فتسبب في طرده من المدرسة والصق تهمة طرده بالمرحوم عمر لطفي بك الذي كان وكيل المدرسة ليخلص من عار اضطهاد طالب يحب الحرية كما هي عادة الفرنسويين، وقصد المرحوم مصطفى كامل الى فرنسا فدخل كلية الحقوق بتولوز واستعان ببعض رجال السياسة والأدب فى اسماع صوته باللغة الفرنسية ثم عاد الى وطنه وخطب وكتب وأسس مدرسة وصحفاً وقد لقي من الاضطهاد والعداوة فى أول أمره من رجال مصريين كان ينتظر أن يكونوا له عوناً فكانوا عليه حرباً، كالمرحوم الشيخ علي يوسف الذى كان يريد أن يكون زعيما سياسياً فضلا عن اشتغاله بالصحافة وغير السيد على كثيرون من نوع آخر كانوا دساسين ومتجسسين وحاسدين، غايتهم الحاق الأذى بكل من يقوم بعمل نافع لمصر والمصريين ـ وكان بخلاف هؤلاء جيش من الشرقيين من أجناس مختلفة ومعتقدات شتى قد حلوا أرض مصر ونزلوا بها ضيوفاً فأكرمت مثواهم وفتحت لهم صدرها وأغنتهم بالمال والنوال واعتبرتهم اساتذة ومرشدين، وكانوا هم أيضاً حربا عليها وقد انتفعوا بشرقيتهم وتمكنهم من اللغة العربية فأسسوا بعض الجرائد والمجلات ووقفوها على محاربة مصر وأذاها فى شخص مصطفى كامل وكل من يسلك خطته من المصريين وكان هؤلاء الشرقيون متصلين برجال الحكم من الانجليز ويتناولون المرتبات ويقبضون النقود ثمناً لاضرارهم بمصر التي آوتهم ويدعون أن مصر هذه غنيمة لهم ولغيرهم وليس لأهلها حق عليها . وكانت الوكالة البريطانية في عهد كرومر أمهم الحنون وكعبتهم التى اليها يقصدون، ويولون وجوههم شطرها صباح مساء، ليشوا بمصر والمصريين كأن بينهم وبيننا ثار قديم أودم مهدور من سنة «ستين» فكان هؤلاء فى مقدمة أعداء مصطفى كامل وأنصاره ولكن على الرغم من هؤلاء وأولئك نجح ذلك الشاب في نهضته وبلغت دعوته أركان الشرق العربى وغير العربى وكانت جرائده ومجلاته مقروءة فى الصين والهند واندونوسيا وتركستان وايران والافغان والعراق وتركيا وسوريا وبلاد العرب والعراق . وصارت مصر فى حياته القصيرة مورداً عذبا

لرجال السياسة والأدب والصحافة من انجلترا وفرنسا والمانيا بفضل مساعيه التى كان يبذلها في كل عام ودعوته الواسعة الانتشار التى تمكن بها من جذب قلوب فئة كبيرة من المنورين ومحبي الاصلاح في اوروبا . ولكن أهل وطنه الذين كانوا ملتفين حوله كانوا أقلية لاتذكر بالنظر الى عظم شأن الدعوة وقدتمكن خصومه في سنة ١٩٠٤ من التفريق بينه وبين الخديوى السابق عباس حلمي الثانى بسبب قضية الزوجية الشهيرة وظن الانجليز أن ذلك سيكون سبباً فى سقوط الزعيم الشاب فلم تحقق الأيام ظنهم ونجا من كيدهم بفضل ثباته وبعد نظره ، وفى سنة ١٩٠٦ تمكن من انقاذ فلاحى دنشواي الذين حكم عليهم بأحكام قاسية وهم أبرياء ، ولكنه لم يستطع احياء الموتى الذين اعدموا على المشانق وفي سنة ١٩٠٧ أنشأ جريدتين يوميتين باللغتين الفرنسوية والانجليزية وكانت صحته قد انهكها الانهماك في العمل العصيب المضنى ، وقد صادفته عقبات كثيرة تمكن بعلو همته من تذليلها وفي أوائل فبراير سنة ١٩٠٨ قضى نحبه بعد صراع شديد بين الحياة والموت وبعد مرض طويل إستنفد البقية الباقية من قواه ، وكان لدى وفاته في العام الرابع والثلاثين من عمره

ولم يتذوق هذا الشاب شيئاً من ملذات الحياة بل عاش ومات وهو لا يعرف لنفسه لذة الا خدمة وطنه والعمل على خلاصه من براثن أعدائه ، ولم يتزوج ولم يؤسس أسرة، ولم يرزق ولداً ولم يتمتع بشيء مما تمتع به أعداء مصر الذين خانوها وعاشوا على ضفاف نيلها عشرات السنين ولا يزال بعضهم على قيد الحياة كالاخطبوط يمتص الدماء ولا يشبع ، مات مصطفى كامل فقيراً ، يكاد يكون معدماً ، ولم يوجد بخزانته مال يكفي لنفقات دفنه وهذا أسطع برهان على نزاهته وشرفه واخلاصه .

فهذا شاب أعطي حياته لمصر ولم يطلب منها شيئاً ، ولم يعرف المصريون قدره حق المعرفة الا بعد وفاته فقد كان يوم موته أعظم أيام مصر حزناً وهو اليوم الذى وصفه قاسم امين بأنه يوم خفوق قلب مصر للمرة الثانية بعد حادث دنشواي .

وقدقال المرحوم مصطفى كامل فى صيف سنة ١٩٠٥ فى حفل من الباشوات والأعيان

لرجل قدم اليه نسخة من كتاب « تحرير مصر » . . « سأقرأ كتابك بعناية تامة ، وإني أشجعك على خدمة وطنك وان كانت خدمة الوطن فى مصر تنقلب وبالا على صاحبها فها أنا أضحي بصحتى و وقتى ، وكان الأنفع لى ولاسرتي أن أشتغل بالمحاماة فاقتنى ثروة واحتفظ بصحتى ولكننى ضحيت بهذا كله ، ومع هذا فاننى لاأنجو من مخالب الشتامين والسبابين الذين يقابلون عملى بالذم والقدح فى كل يوم ، مثل فلان الذي يصفني بأنني هلفوت وجماعة كذا الذين يضربون الأمثال بأن الوطنية آخر ملجأ للهجاص ! »

هذا كان كلام المرحوم مصطفى كامل بنصه ، ولعل الأحياء من أصدقائه الذين حضروا هذا المجلس وغيره يعلمون مقدار تألمه من حملة صحف خصومه من المصريين وغيرهم ضده ، وبعد أن مضى أكثر من عشرين عاما على وفاة المرحوم مصطفي كامل يزداد فضله ظهورا وجلاء فى كل يوم ويبين فضله على غيره ولا يمكن وصف أعمال خصومه ضده من أي جنس كانوا بغير الخيانة ، وعند ماألقي خطبته الكبرى في شتاء سنة ١٩٠٨ فى تياترو زيزينيا بالاسكندرية ، وكانت كلمته الأخيرة لوطنه ، وهى التي قال فيها

« بلادى لك قلبى وفؤادي أنت الحياة ولاحياة الا بك يامصر ! » نقلتها الجريدة لسان حال حزب الأمة ، الذى ألف ليناويء الحزب الوطنى ، وجعلت عنوانها « ناقل الكفر ليس بكافر » ومن الواضح أن تلك الخطبة التي كانت تدعو الي تحرير البلاد واستقلالها والاعتراف بحقوقها المقدسة والعمل على إسعاد الشعب المصرى كانت تعد في نظر الجريدة والقائمين بها فى ذلك الحين (١٩٠٨) كفراً ، اما الصبر على الاحتلال والخضوع للحكم الاجنبى ومساعدة الغاصب على اغتيال حقوق البلاد واستثمارها فكان فى نظرهم هو الايمان بعينه لأنه كان هو منهاج حزبهم كما كان منهاج حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية الذي كان يرمى الي خدمة الأريكة الخديوية .

هذه صفحة من تاريخ الزعامة السياسية بمصر قد أتينا بها لتكون مثالا لما سبقها ولحقها في الشرق العربى الاسلامى عامة ومصر خاصة .

لقد تطورت الزعامة السياسية فى الشرق تطوراً عميقاً .

فقدكان الزعيم السياسى فى أول الأمر يجمع بين السياسة والحرب ، وقد يسعي بالحرب الى الوصول الي السلطة العليا ثم يستعين بالسياسة في توطيد مركزه ، وكان من هذا القبيل المرحوم احمد عرابي الذى كان زعيما سياسياً ، وكانت صفته الحربية ملحقة بزعامته السياسية لأنه لم يكن جنديا عظيما ولا قائداً موفقاً ، وسمح لخصومه أن يهزموه وأخطا في أمور حربية كثيرة ولم يعمل بنصيحة كثيرين من المخلصين له الذين كانوا أدرى منه بمواطن النصر والهزيمة ، قال لي بلنت فى منزله سنة ١٩٠٩ بحضور صديق مصرى « لم يكن عرابى جندياً ذا قيمةحربية فلا تحتقروه ولا تنصبوا له تمثالا ». ولكن الثورة العرابية ضمت زعماء آخرين يجمعون بين السياسة والحرب والأدب ومنهم المرحوم محمود سامى البارودي الذى قيل عنه انه كان روح الثورة ، وقد حارب خارج مصر فى حروب الدولةالعثمانية ضد روسيا أما الزعماء الحربيون الحقيقيون فلم يكن لمصر نصيب فيهم بل ظهر معظمهم فى تركياومنهم من قوض تركيا القديمة في سبيل الحرية والاستقلال ومنهم من شاد بناءها الجديد ، أما الزعماء الحربيون الذين ظهروا في تركيا أمثال أنور ونيازى وجمال وشوكت فقد ماتوا جميعاً شهداء بأيد أجنبية مأجورة وذهبت دماءهم هدراً ماعدا أنور الذي مات شهيداً وهو يحارب ضد البولشفيك في بخاري ولكن الآخرين قد ذهبوا كلهم غيلة بأيدي الفوضيين ولعل الفوضيين كانوا مدفوعين أو مأجورين بدول أوربية كبرى للخلاص من هؤلاء الرجال الذين قاموا بنهضة تركيا الحديثة وأقلقوا بال المستعمرين .

أما الزعيم التركي المحارب الذى نظم دولته تنظيما جديداً في السياسة والاجتماع وهو الغازى مصطفى كمال رئيس جمهورية انقره فلم يسلم من عداء الاتراك والمسلمين فى أنحاء العالم ، ولم ينج من دسائس اوروبا ضده ولم يهدأ بال من حوله من المؤامرات التى تدبر في كل حين لاغتياله .

٦

وقد يكون الزعيم ملكا، يجمع بين صفات السياسي والقائد الحربي والمصلح الاجتماعي، وقد اجتمعت هذه الصفات أخيراً للملك أمان الله خان الافغاني الذي زار مصر منذ ثلاث سنين فان هذا الملك الشجاع المصلح تمكن من استرداد استقلال بلاده بالحرب ثم جلس على أريكة الملك ، وأخذ يصلح المملكة بنشر التعليم وتقوية الجيش فلما رأى جيرانه الأقوياء أنه ربما يصبح قوة ذات خطورة انتهزوا فرصة غيبته فى سياحة عالمية وحرضوا القبائل على شق عصا الطاعة وأوهموا تلك القبائل أن الملك كفر وخرج على الدين وأباح السفور واستعملوا سفاكا للدماء من قطاع الطرق اسمه باجى سقاء أو ابن السقاء فلما عاد الملك أمان الله الي وطنه حارب وانهزم وانسحب من عاصمة ملكه ثم هاجر الي اوروبا هو وأسرته وظهر فى ميدان السياسة القائد نادر خان وكان من رجال امان الله وحارب باجى سقا وفى طرفة عين هزم باجي سقا وحوكم وأعدم ، واستتب الأمر لنادر خان ونودي به ملكا على الافغان وكان كثيرون يظنون أنه يطفئ نار الفتنة ليمهد السبيل لأمان الله ولكن خابت ظنون هؤلاء وثبت لهم أن نادر خان لم يكن ليخوض غمار هذه الحرب وينتصر فيها ثم يسلم الملك سالماً لصاحب العرش الأصلى ولا سيما ونحن في الشرق .

وان في ثورة الافغان على امان الله أسراراً كشفت الأيام عن بعضها ولا يزال البعض في فؤاد الدهر كامنا .

فقد ذاع خبر الفتنة إذ كان امان الله في انجلترا ، ثم كذبوه ، وكان امان الله صريحاً في جهات كثيرة من التي زارها ، وظهر بمظهر الآمن المطمئن على ملكه وعلى قوته ، وهو لا يحسب حساب القبائل نصف المتحضرة التى يحكمها ، ولا يحسب حساب اليد الأجنبية الخفية ، فقد ذاع أن الكولونيل لورنس الشهير كان في الافغان ينثر الذهب الانجليزي ويظهر أن نادر خان ويطلقون عليه لقب شاه يؤيد السياسة البريطانية ، وقد روي الميرزا يعقوب خان خيلا في (مارس سنة ١٩٣١) أن الشاه نادر يؤيد سياسة الاستقلال والسير

بالبلاد تدريجياً الي أرفع مستوى وقد بعث بالميرزا محمـد عمر خان الى لندن لدرس القوانين التجارية وقـد تألفت في كابول شركة مساهمة (هندية افغانية) للقيام ببعض المشروعات الاقتصادية العمرانية وعرضت على الحـكومة قرضاً بمبلغ مليونى روبية .

ويستخلص من الحوادث أن انجلترا لاتزال تحسب للافغان حسابا بسبب قربها من الهند واتصالها بايران المستقلة الناهضة وتركيا ، وقد أزعج الانجليز ظهور امان الله بمظهره المعلوم فـكان جزاءه الحرب فالطرد لتعود الافغان الى أيد تؤمن على السير بالبلاد في سبيل الرقى بالتدريج .

ومن العجيب أن المصريين الذين رأوا امان الله أثناء زيارته مصر وفرحوا به وأعجبوا بشجاعته ووطنيته وسعة ادراكه عادوا فانقلبوا عليه لما عاكسه الدهر ، وانحوا عليه باللائمة وكرهوه وحقدوا عليه ظناً منهم أنه حقيقة خرج علي الدين أو كفر أو فسق ، ولم ينظروا الي جانب الاصلاح العظيم الذى قام به الرجل ، ولم يجدوا عاطفة حب الوطن والعمل لرفعة الشرق والاسلام التي كانت تملأ قلبه ، بل جعلوا تقديرهم له رهن عاطفة دينية لم يثبت لهم أن الملك السابق قـد جرحها أو خدشها ، ولم يسألوا أنفسهم كيف يفعل الرجل كل مافعل ان لم يكن وطنياً ومسلماً ومخلصاً لوطنه ودينه ؟ كأن هؤلاء القوم لايرضيهم الا النفاق والمداجاة والظهور بغير الحقيقة فـلا حول ولا قوة الا بالله ! غير أننا لاننسى أن امان الله يمثل الزعيم ملـكا يريد الاصلاح بالسياسة و بالحرب والاجتماع ولـكنه قبل كل شئ شرقي يعمل في وسط شرقى وكل وسط شرقي لايزال موبوءاً ويمكن اهاجته في أقوب فرصة للانقلاب على المصلح أو الزعيم سواء أكان من الرعية أو من صف الملوك والامراء .

٢

١

ان الدولة جسم حي ، قوامه روح الشعب ولا تعيش أمة بغير مثل أعلى يهديها سواء السبيل فى دياجير الحياة فهو بمثابة النور الكشاف الذى يكشف امامها ظلام الطريق فتتق بضيائه شر العثار ولكن المثل العليا ليست شائعة وليست من مواهب الجماعة وقد لا تكون الا فى نفوس أفراد يعدون على الاصابع . وقد ذهب زمن استئثار بضعة أفراد بتلك المثل العليا وأصبح فرضاً على كل منهم أن ينشره في طبقات الشعب لتمتلئ به كل نفس لان العالم والشعوب تسير نحو الديمقراطية بأوسع معانيها . وقد ذهب عهد الارستوقراطية الناشئة عن الميلاد وشرف الاروم وأصبحت الارسطوقراطية هي شرف الخلق وسمو المدارك وتمايز العقل . وكما أن في الاسلام لا تفضيل الا بالتقوى ولا كرامة الا لمكارم الاخلاق فكذلك ترى الزعماء في الامم العظمى لا يرون المستقبل الا في المساواة وتفضيل الفضلاء حقاً بعقلهم وعلمهم وأخلاقهم وقد تغير نظام العالم الحديث وليس للمال الآن تلك المكانة التي كانت له في أوائل القرن العشرين كما أن الانساب العظيمة فقدت اهميتها لأن أحفاد الاحفاد جاءوا بأفظع الأمثلة فلا يصح أن يكونوا قادة أو في القمة والانجليز أنفسهم وهم من أشد الغلاة في هذا السبيل عدلوا الآن عن حصر الكرامة فى الاعيان واللوردات ويحكمهم اليوم رئيس حكومة من العال وهذا الروح سار في العالم كله .

ولو أننا ننظر الي المانيا التى كانت صاحبة أعظم قوة حربية في العالم لرأينا أن تلك القوة العظيمة لم تكن مستمدة من قوة العسكرية وحدها أو من نظام الامبراطوريه المقيدة أو المطلقة انما كانت قوة المانيا مستمدة قبل كل شيء من قوة عقلية عظيمة تغذيها وتنفخ فيها ولا تزال المانيا أعظم أمم العالم في التربية والتعليم وانتشار العلوم الحقة كالطبيعيات والكيميا والرياضيات بين ظهرانيها ، فان حرب المانيا لاوروبا كانت حرباً علمية أكثر منها عسكرية

بل كان وراء مظاهر تلك القوة العسكرية سلسلة طويلة من كبار المفكرين والفلاسفة فلا نهضة لأمة الآن سواء أكانت في الشرق أو في الغرب الا بنهوض أفرادها وترقية عقولهم وتطهير نفوسهم وتأديبها أحسن تأديب .

فهذا البناء الداخلي من التهذيب والثقافة يسبق البناء الخارجي الذى هو مظهر القوة والحرب وقد تري في الأمم الضعيفة علائم لاتخفى على الخبير ، منها عبادة القوة واهمال الثقافة والتعلق بمثل أعلى يتطلب التضحية في حين أن الشعب منغمس في الرذائل سواء في ذلك الاغنياء والفقراء، ثم تري الانقسامات السياسية تنخر في عظامه وهو لاه عن مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، واذا شعر الشعب بعاطفة ، ظنها فكرة جديدة فهو لجهله لايميز بين الأهواء والعواطف والافكار فالنزاع السياسي هوي ، وحب الوطن عاطفة ، وتدبير الخلاص من الظلم فكرة ، فترانا في الشرق الاسلامي نخلط بين الثلاثة أشياء فنتبع أهواءنا ونمجد عواطفنا ونحتقر الأفكار النافعة .

٢

ان الهوى والعاطفة قوتان عظيمتان فى حياة الشعوب ولكن يجب أن تسخرا للعقل المفكر لاأن تقودا الأمة الى الخراب ، لايمكن لعمل عظيم أن يقوم بغير عاطفة ولكن العاطفة وحدها لاتكفي بل يجب أن يرشدها العقل ويسيرها ، كما أن الهوي كالقوة المحركة لا يطلق له العنان الابعد أن نستوثق من الطريق التى نسلكها وحياة الفرد مقسمة بين عقله وهواه ولكن العقل يجب أن يسبق الهوى ويحكمه ، لايكفي أن تحب أن تسمو أو تتحرر أو تستقل بل يجب أن تريد ذلك ، ولا يكفي أن تريده بل يجب أن تفكر في طريق العمل وتعمل للخلاص والأمم التي تكون مثلها الأعلى وهى تحت حكم الهوي تندم في ساعة لاينفع فيها الندم ولكن الامم التي تفكر أولا في هدوء ثم تندفع الي العمل تفلح وتنجح .

والغرب الغاصب لايعرف الهوى ولا يعرف العاطفة في محاربتنا واغتصاب بلادنا بل يعرف التفكير والتدبير وانتهاز الفرص .

انظر كيف صنع ديزرائيلي فى شراء أسهم قنال السويس ثم ماذا صنعت انجلترا في الاستيلاء على مصر بطريق القروض المتتالية ، وماذا صنعت فرنسا في شمال افريقا ، هل هاجت أو تبعت عواطفها أو هواها ؟ كلا انها اتبعت فكرتها وتدبيرها .

لقد هاجت اوروبا في الحرب العظمي وتبعت هواها وعواطفها فعادت الحرب عليها بالدمار ولكن الاستعمار كاد ينقذها لأن ماخسرته من المال والرجال عوضته بالمستعمرات الجديدة في الشرق .

لقد تحطمت المثل العليا في الشرق وذهبت مظالم الفراعنة بذهابهم ، وتبعتهم سلطة الكهنة في الهياكل والمجالس فانهد ركن الاستبداد الملكي والدينى وليس في ديننا خضوع للعلماء الذين هم حفظة كتب ونصوص وليسوا رقباء على ضمائرنا وشيئاً فشيئاً تتهدم نظم الارستوقراطية و يستحيل عليها أن تحكم الامم ولن تخضع الشعوب لارستوقراطية من المدعين العظمة بالميراث أو بالمال وربما خضعت لارستوقراطية العقل والذكاء والحكمة .

لقد كان لويس الرابع عشر يقول أنا الدولة . وكان البابا جريجوار السابع يقول : أنا بابا وامبراطور وكان شارل الأول يقول : أنا ملك بأمر الله ، كما قال الفاطمي التائه أنا الحاكم بأمر الله ! وكما قال: فرعون : أنا ربكم الأعلى . ولكن هذا الحق الذى كان يظن أنه مقدس قدحل محله حق الشعوب في حكم نفسها . وحلت سلطة الامم محل سلطة الملوك . وصارت الأمة مصدر السلطات كلها . وتأبى الديموقراطية أن تخضع لغير ذاتها في اوروبا

لاتزال في العالم سلطة قاهرة للمال . وهي نوع من الاوليجارقية أو حكومة الأشرار التي بينها ارسطو في سياسته . ولكن هؤلاء الأشرار أو هؤلاء الحاكمين بامر المال قد استبانوا أنهم لن يستطيعوا الحكم بغير إشراك الدهماء معهم وهم الذين يشيدون ملكهم الحقيقي بعرق جبينهم وقد قلت أسباب التفاوت بين ابن الامير وابن الصعلوك وأصبح الفقير اذا أراد أن يتعلم يكفيه أن يقرأ الكتب فتفتح أمامه أبواباً كانت فيما مضي مفاتيحها من ذهب وقد علم الكثيرون من أبناء الشعب أنفسهم فصاروا في مصاف العظماء وحكموا العالم ومنهم وأقربهم

مثلا رامزي مكدونلد رئيس حكومة انجلترا وأصله صحفي واستاذ مدرسة وادوار هريو رئيس حكومة فرنسا سابقاً وشتريسمان وهو ابن خماركان يبيع الجعة في احدى الحانات وهردنج ومكنلى واديسون و بريان وسنودون ولويد جورج وقد رباه اسكاف وهو عمه وهذا من مفاخره وعشرات مثلهم قبضوا على زمام العالم في الحرب والسلم وسيروا الأمم في طرق النجاح ولم يكن يخطر ببال أحد منذ مائتي عام أن مثلهم ينبغون و يسودون الأمم بمحض كفاياتهم وأخلاقهم بدون انتساب الى الاصول العريقة أو جريان الدماء الزرقاء في شرايينهم . وهذا كله بفضل اباحة العلم للجميع وتيسير طلبه فصار ابن الملاح والعلاف في وسعه أن يبلغ فى العلم شأو افلاطون أو كانط وهذا الاسلام يأمر بالمساواة بين الناس ولا يفضل أحداً على أحد الا بالعلم والتقوي ولما كان معظم أهل الشرق من العامة والدهماء فهؤلاء لايزالون كنزاً دفيناً يخرجرن للعالم مئات الالوف من النوابغ النافعين في الحرب والسلم والعلم والاختراع ولا ينقصهم الا عدل النظام الاجتماعي الذي يكفل ظهورهم ونجاحهم والانتفاع بهم ، ولو أن رجال السياسة الذين فكروا طويلا في أنظمة الحكم صرفوا بعض وقتهم وقليلا من همتهم في التفكير في انهاض العوام والمتوسطين في الشرق كان لهم من نهضتهم خير نظام وخير ضميرة المستقبل ، وقد آن للمصلح الشرقى أن يدرك حقيقة الحال وهى أن اشراك الطبقات الصغيرة في الحياة العامة أصبح أمراً واجباً .

٣

ان الأمم في الشرق والغرب أيضا لن تنهض على أكتاف الطبقة الغنية أو الطبقة التي تسمي عالية . بل على الطبقات الوضيعة والمتوسطة . والأمة التي تهمل الوضيع والوسط سوف تبني على الرمل وكل بناء على الرمل ينهار . لقد مضي الوقت الذى كانت الارستوقراطية تسقط الفقراء من حسابها . وأصبحنا فى زمن لهؤلاء الفقراء فيه مكان مهم . لأن الفقراء اذا اهملوا كانوا شوكة فى جنب الأمة . وربما هدموا البناء الذي يشيد بدون معونتهم ان الفقراء والأغنياء اخوة ومتساوون وهؤلاء الفقراء محتاجون الي النور والهواء

والغـذاء والتعليم والى قسط من الهناء فى الحياة . ان قرية الفلاح ومصنع العامل لاتقل عند الله سبحانه وتعالى عناية عن قصر الغني أو مكتب المدير المتمول لأن الله يحب الجميع .

واذا كان البائس لايحصل على أجره الكافي لحياته هو ومن معه فانه يهلك وان هلك هلك معه الآخرون من أهله . وان هو فقد عمله وتعطل صار عبئا علي المجتمع وعالة علي غيره وهو في الغالب ليس خاليا بل في عنقه جماعة من الاطفال والنساء ذوي الحاجة الملحة الى الطعام والكساء والغـذاء والمسكن ان الممالك الكبيرة والاسبراطوريات الضخمة والجمهوريات القوية والدول الصغيرة مهما كانت تلهيها قوتها الجندية أو البحرية وثروتها المادية ذهباً كانت أوخصـباً ومهما كانت مواهبها في العلوم والمعارف غير عاجزة باذن الله عن ايجاد النظام الاجتماعى الذي يكفل سعادة الأفراد بغض الطرف عن المطامع وقد تحكمت في اوروبا أولا وفي الشرق ثانياً تلك المطامع الشخصية ، وتلك الانانية القتالة ، وتلك الشهوات الفردية التي قضت عـلي العالم القديم وتوشك أن تقضي علي العالم الجديد . ولواننا عذرنا الأمم الاوروبية ، استغفر الله لواننا أدركنا حقيقتها وفهمنا أسـباب حالتها ، فأى عذر لنا وأي تعليل لحالتنا التي نعانيها في انقسامنا وتحزبنا وانشغال كل من رجالنا بمصالحه الشخصية عن المنفعة العامة .

ليس لدينا قوتهم ولامالهم ولاعلومهم ولاحريتهم . ولا فضائلهم ولـكن لدينا نقائصهم ورذائلهم التي كان ينبغى لنا أن نتنزه عنها ونخلص منها .

انظر الى أي درك وصلت أمة عظيمة كدولة فرنسا الجمهورية بسبب المال .

انها بعد الحرب استردت ثروتها بغاية السرعة وصارت اليوم أغني دولة في العالم بمقدار الذهب الذي تملكه في خزائنها .

أتدري ماذا حل بها ؟

ان كبار الرجال فيها جنوا بالذهب وظهرت فضائح المصارف والوزراء فمن اوستريك المالى الدجال الى راوول بيريه وزير العدل ومن شركة البريد الجوي الى فلاندان وزير المال . ونحن في سنة ١٩٣١ نشهد فى فرنسا فضائح أضخم من فضيحة بناما في أواخر القرن التاسع عشر .

وفي بلاد الشرق مثل هذا وأكثر، ولو أتيح كشف القناع عن بعض الحقائق في الشرق لرأينا من الرذائل والفضائح مالا يقل عما يجرى في فرنسا انما الشرق خلو من المجالس والصحافة الحرة. ولكن الداء واحد والجراح مسممة بالقيح والقرح تنز سواء علمنا أم لم نعلم. وما منشأ تلك الادواء الا تسلط أفراد معدودين في بلاد الشرق الاسلامي وهؤلاء الافراد المعدودون خاضعون للطامع الاجنبي الذي يريد أن يفسد أخلاقهم ويشتري ذممهم ويخرب ضمائرهم ليكون تمكنه منهم أعظم لأنهم ان شرفوا لايخضعون له ولا يرضون نفوذه ولايتآمرون معه على أممهم.

٤

ان العامي البسيط في الشرق شقي الشقاء كله. وهو في الغالب متدين ومؤمن وتراه بعد أن خسر دنياه أو كاد ينتظر ثواب الآخرة لأن الأديان علمته انه ان فاته نصيبه في الأولى سيلقاه في الآخرة وان سكن في هذه كوخا فسيسكن في الاخرى قصوراً حيث يلقي غلماناً وحوراً وخيراً كثيراً. وان حظه مخطوط ومرسوم وليس له الا ما هو مقسوم والمكتوب على الجبين تراه العيون. وقد ساعد علماء الرسوم على ترسيخ هذه الأفكار في ذهنه، وساعدوا على تخديره حتى انه بدلا من سعيه وراء خيرات هذه الدنيا أو مناضلته عن بعض منافعه تراه قد زهد فيها مقدما وصارت آماله معقودة على ما سوف يناله بعد موته. فأصبح المثل الاعلى معكوسا. وذاك الذي يجب أن ينال في هذه الحياة، تأجل الى أجل غير مسمى الى ماوراء القبر، الى بعد الموت !!..

ولكن هذا الحلم اللذيذ قد طال. والاجيال تترى ووراءها القرون، وذلك المخلوق (الانسان) وهو أفضل الكائنات على هذه الأرض لم يتذوق طعم السعادة، وقد ظهر له ان الشيطان قد شاد للاشرار في هذه الدنيا قصوراً وملأها بالطيبات والانوار ومظاهر الرفاهية، وانه وهو الرجل الطيب الصابر لا يزال هو وأولاده وأحفاده وامرأته و بناته ينتظرون

ولم يصل الى يده شئ على الحساب مما هو موعود به. بل ان هؤلاء الذين يصبرونه

و يخدرونه من طائفة علماء الرسوم ؟ ومشايخ طريقة« بكره تشوف » متنعمون في هذه الحياة الدنيا وقد جعـلوا منها جنـة مثل دار الخلد التى يصفون فدهشـه الامر وأيقظه ، لماذا هم لاينتظرون مثـله ، وقد قبضوا كثيراً من حساب الآخرة ، ولعلهم استنفدوا كل حسابهم واذا كانوا هم العالمون الواثقون لم يصبروا فاحر به وهو الجاهل الذي يتلقى عنهم أن لا يصبر وأن يلح ولو قليـلا في طلب دفعة من النعيم على الحساب . . بل لعله وهو ينتظر الجزاء ، يتنبه فجأة فاذا هو جائع واذا داره خالية وديونه متراكمة وصاحب الدين يبيع أثاث غرفته و يشلح عنه ثوبه الممزق ، فتجوع امرأته وأولاده معه ولا يجد قوت يومه واذا لجأ الى ذلك الذى كان يمله الصبر ويقول له غدا تري ما ينتظرك ، اعرض عنـه ولوي وجهه ، وان كان محتاجا فقد يتحكم فيه المالك ويطرده كما طرد أبوه آدم من الجنة فخرج منها بلا ثوب ولا درهم وان هو مات وخلف وراءه أولاداً وزوجـة فلهم الشقاء من بعده فما أعظم الفرق بين تهذيب الروح وحقائق الحياة ، ما أعظم الفرق بين الرجاء في المستقبل والامر الواقع اليوم . . الساعة !

يعيش فقـيراً ويموت فقـيراً في العراء ، وان كانت اوروبا دبرت لفقرائهـا جيش الخلاص(ما أفظع اسمه ونظامه !) وملاجيء العمل Workhouse على ما فيها من شقاء وعار وهوان و بلاء فان الشرق لم يصل الى هذه الدرجة من الاحسان مع كل ما جاء في كتبه المنزلة وآدابه من الحث على الزكاة والاحسان والصدقة ومع هذا فلماذا تمنع الصدقة والاحسان والزكاة ما دام الله أمر بها ؟ ولـكل انسان نصيب في الحياة يجب أن يناله . ان الفقر مرض اجتماعى وحالة يجب شفاء المجتمع من أعراضها .

عليك بالعلم والاجتهاد ، والاستنارة وطلب المزيد من فهم الأشياء على حقيقتها واكتساب التجربة والاختبار وتحقيق الأشياء بنفسك . تلك أسباب النجاة امامك فاتبعها !

٥

لقد ألف المؤلفون كتباً كثيرة ليفسروا أسباب تمايز بعض الأمم بذكائها . جريا وراء تعليل ينطبق على الحقيقة التاريخية وكان آخر من ألف فيها هوستون شمبرلن في كتاب « أسس القرن التاسع عشر » وجيز والمؤرخ الفرنسى وميشليه وتين والدكتور أميل رايش وغيرهم ولكن هذه النظرية قد ماتت الآن . والذكاء موهبة مشاعة بين جميع الأجناس والامم ولم تختص به أمة دون أمة ولاشعب دون شعب وقد هجر هذه النظرية كبار المؤرخين في كتبهم أمثال « ولز » في تاريخ العالم وقد اهرقت دماء المحابر في سبيل تأييدها وضده . والآن قدزالت من عقول المفكرين والعلماء وكتبهم . ولكنها لم تزل من افكار العوام فترى الانجليزي يعتقد أنه أذكى العالم وشعبه أرقي الشعوب وكذلك الفرنسى والالماني وغيرهما وكل هذا راجع الى رذيلة الغرور والاعجاب بالنفس.

فان الشعب الرومانى كان أقوى الشعوب وأذكاها في زمنه وقد كانت قوته الحربية والسياسية مضرب الامثال . ومع ذلك قد قضى عليه بضعة رجال من اليهود الثائرين الذين تشتتوا بعد عهد استاذهم ومعلمهم عيسى المسيح ، فتمكن بولص و بطرس و بعض الحواريين بخطبهم وكتبهم من دك أعظم أمبراطورية حربية في العالم . وهكذا تمكن المسلمون الخارجون من الصحراء من القضاء على دولة الفرس ودول العراق و مصر والهند وشمال أفريقا بل هاجوا الاوربيين في أوطانهم واستولوا على ممالكهم ولم يكن قدمضى على ظهور الاسلام سبعون أو ثمانون عاماً.

ويا حبذا لو استفاد الشرق من مصائبه . فان الهزيمة لاتكون دائماسبباًفي السقوط أو الموت فان بعض الأمم مدينة في نهضتها الى هزيمتها . فان المانيا التي كانت أشرفت على الاضمحلال صدمت صدمة كبري في موقعة اينا (١٨٠٦) وقد انزلتها تلك الموقعة الى حضيض الخيبة والذل ولكن هذه الهزيمة أيقظت شعور الالمان ونبهتهم الي ماهم فيه من الانحطاط ومن ذلك اليوم صحت عزيمتهم على النهوض وفي يوم هزيمة المانيا بدأت نهضة المانيا . وربما كانت هزيمة

الفرنسيين في سيدان (١٨٧٠) هى التي أيقظت همة الفرنسيين وما زالت تلك الهمة متيقظة في قلوب بعض الرجال أمثال بوانكاريه وديلكاسيه وكلمنصو حتي كانت حرب الانتقام في سنة ١٩١٤ وفيها استردت فرنسا الالزاس واللورين وقهرت المانيا في معاهدة فرساي بعد أن البت عليها دول العالمين القديم والجديد فلا يجوز لنا أن نستهين بالهزيمة والانكسار . فرب هزيمة أورثت نصراً . وقديماً قال أحد المتصوفين المسلمين « رب معصية أورثت ندماً واستغفارا خير من طاعة أورثت عجباً واستكباراً » أو ماهذا معناه . أما الهزيمة الذميمة فهي التي تميت القلب وتضعف الهمة فلا تقوم للمهزوم بعدها قائمة وهي مثل الانتصار الذى يملأ المنتصر اعجاباوغروراً فيكون ذلك بداية هلاكه .

وكل هذا يدخل في اعتبارات تكوين الأمم الخلقي والنفساني فان الانجليز اشتهروا بقوة الارادة وأذاعوا عن أنفسهم أنهم يعتقدون بأنهم مخلوقون لحكم العالم ، والحقيقة أنهم جعلوا الاستعمار فى القرن الماضى لسرقته وسلبه ونهبه . فان الله أعدل من أن يخلق شعباً ليحكم العالم، والحقيقة أن كل أمة مخلوقة لتحكم نفسها ولكن الأمة الذكية القوية الارادة العنيدة المتشبثة قد تسود أمداً قصيراً أو طويلا غيرها من الأمم المستضعفة المستسلمة ، وقد اكتسب الانجليز نصيباً من الصلابة والعناد التي تشبه صلابة الكلب الانجليزي القوي المشهور بولدوج ، واسم الشعب كله جون بول مزيج من اسم شخص واسم حيوان وهو تشبيه صادق ، وهذا « البولدوج » تراه متين العضلات يسير في الارض مستعرضاً وناظراً الي العالم بغباوة وشراسة ، وهو مكشر عن أنيابه الدميمة فلا تدرى أضاحك أهو أم عابس ، أعدو هو أم صديق وهو يبقي سائراً أو مقعيا في حالة صمت عميق لايبدي حركة ولا صوتاً ولا يلهث كغيره من الكلاب سواء أحملت عليه أم لم تحمل ، ولكنه اذا دنا من شخص وعضه وأطبق فكيه الخبيثتين على قطعة من لحمه فلا لايفرقهما الا عن أشلاء ممزقة لأن أنيابه مصنوعة بحيث لاتنفرج اذا هي انطبقت وهو نفسه لايعرف كيف يفرجها ، وتراه أحيانا يعض مولاه فهو لايفرق بين العدو والحبيب وربما يستأذن عليه سيده ومربيه فى جوف الليل أو في غرفة مغلقة فيهاجمه البولدوج

ويعمل فيه أنيابه كما يفعل في أجنبي يهاجم مولاه .

وكثيراً ماشبه علماء الاجتماع الخلق الانجليزي بأخلاق البولدوج .

فترى الانجليزي صابراً على الشدائد مستعداً لمقاومة مايقع به من النوائب مقياماً على الكفاح حتي يبلغ مقصوده من قهر عدو أو فتح قطر أو دفع بلاء .

وأنت اذا شهدت الطفل الانجليزي كما شاهدناه في وطنه تري أن امه تعوده منذ نعومة أظفاره على التخلص من ضعف الطفولة وخنوثتها فلا يبكي ولا ينفعل ولا يظهر عواطفه على الاسلوب الذميم الذى تراه في أطفال الشرق وصبيانه وفى الرابعة عشرة حيث يكون الطفل الشرقي لايزال مدللا منعما تري الفتي الانجليزي شاعراً بعبء المسئولية وتراه حائراً في البحث عن خطة يسلكها فى الحياة وهو يريد أن يشق لنفسه طريقاً سواء في الجامعات أو في المستعمرات أو فى سبل العمل المجدى

وقد يكون الصبي الشرقى أو الاوروبي غير الانجليزى شديد الذكاء واسع الاطلاع ولكنه لايبلغ شأو الصبى الانجليزى فى الاعتماد على النفس والاستعداد للكفاح في الحياة ، وقد يكون الشرقى أو الاوروبى مهملا للغد أو متوا كلاً ولكن الانجليزى لايعرف الاتدبير الغد والاستعداد له وحسبان حسابه وهو يشعر بالمسئولية الملقية على كاهل الرجل ، ولا شئ فى العالم ينضج الرجال مثل الشعور بالمسئولية .

٦

طالما نسب بعض الناقدين تأخر الاسلام وانحطاط دوله الى المتصوفين والدراويش .

وفى الحق كان لهذه الفرق مضار كثيرة في بلاد تركيا القديمة والحديثة حيث كانت التكايا حاشدة بأشخاص قادرين على الكسب والعيش فى بحبوحة من ثمرة أعمالهم ولكنهم عاكفون على الأكل والنوم وتقوية أعضائهم بحجة العبادة . وما العبادة الا تابعة للعمل فى الحياة . وليست الحياة تبعاً للعبادة . وبالرغم من ان الرهبانية محرمة في الاسلام فكنت تري هذه الألوف

من الرجال يعيشون عيشة الرهبان في مقصوراتهم مع أن ظواهرهم لاتدل على رهبنتهم . وفي الحق لاترى من هؤلاء العاليق خيراً لا لأنفسهم ولا للجماعة وأفضل مانراه من أعمال هذه الفرق في عصرنا هذا هو الذكر على أنغام الموسيقى وقد أطلق السائحون على طائفة المولوية اسم « الدراويش الرقاصة » .

ولكن قد ظهر في اوروبا بعض الفرق المتصوفة مثل فرقة اليسوعيين فكان لهم نصيب عظيم من الاعمال العامة في الدين والسياسة والتعليم . واليسوعي يعطي عهداً بالفقر والعفة والطاعة وقد انتشرت تلك الطريقة اليسوعية في أنحاء اوروبا انتشار النار في الهشيم . فكانوا في القرن السابع عشر نحو ثلاثين الفاً وقبل ان يقاومهم البابا كليمنتس الرابع عشر في ١٧٥٩ بلغوا ثلاثة وعشرين الفاً وهم الآن حوالي عشرين الفاً من الجيزويت .

ويرجع الفضل في نجاح تلك الفرقة الى شخصية ليولا مؤسسها في أواسط القرن السادس عشر وقد قضى سبع سنين في التقشف والاستعداد لتأسيس فرقته منقطعاً في صومعة في مونمارتر بباريس (١٥٢٨ — ١٥٣٥) . ومذهب ليولا يلخص في كلمتين هما « الجمع بين الذكاء والارادة » في خدمة مبدأه وان لايكون الجمع بين تينك الفضيلتين قاصراً على الافراد بل شائعاً بين الجماعة وقد رأى ليولا أنه اذا توافرت هاتان الخلتان للفيف من البشر فلن يقوى عليه انسان ، كما أن سائر الانظمة السياسية والدينية تتلاشي أمام تلك القوة . وقد جاءت الحوادث مصدقة لما كان يراه ليولا فتحكم هو وفرقته في تسعة أعشار الحوادث التى حدثت فى اوروبا ولا يزال سرها غامضاً .

وقد كان التهذيب الخلقى الذى تحلى به اليسوعى منطويا على خلاص عضو الجمعية من الاهواء والانفعالات التي تعصف بأخلاق الرجال وتعبث بحياتهم . فيتغلب الرجل على الحب والبغض والطمع والطموح والشهوة والتمتع وبالجملة يقطع كل أوتار الآمال من صدره ويبقى اداة لتنفيذ ارادة شيخه .

وفى الوقت الذي كان فيه شيخ الجبل يؤلف فرقة من الحشاشين والعدميين والفوضيين

يطيعون أوامره و يبذلون حياتهم في سبيل طاعته (ولكنهم مسخرون لخدمة الفرد و بغير دافع ديني أو معنوي بحيث كان أحدهم يلقي بنفسه من شاهق طاعة لأمر زعيمهم الذي مناهم بالجنة وعودهم تدخين القنب الهندي ليسبحوا في عالم الاحلام والخيالات وجعل مثلهم الأعلى صورة من شهوات البدن) رأيت هؤلاء اليسوعيين يؤسسون فرقهم أو طريقتهم على أساس الخلاص من حكم البدن ولا فرق بين اليسوعيين والمتصوفين فان كلا منهما فرقة دينية ولكن الاولى اتبعت مثلا صحيحاً في الزهد والتقشف والتخلى عن الاهواء والثانية اتبعت طريقة استدراج الانصار جزاء تمتع الجسد في حياة مستقبلة فقد روى مؤرخو الافرنج والعرب أن حسن بن الصباح وكان يسمي شيخ الجبل قد بني قصوراً وزرع بساتين وحدائق وجعلها في مجموعها تشمل نعيما كالنعيم الذي جاء في وصف الجنة وكان يذيق مواليه المخدرين لذة اليقظة في وسط هذا النعيم ويمنيهم بمثله اذا هم أطاعوه في أوامره ونفذوا ارادته في الحرب والقتل والاغتيال .

بيد أن الشرق والغرب يلتقيان ويفترقان في صفات كثيرة . فان الكنيسة في الغرب سواء أكانت كاثوليكية أو بروتستية أو كالفينية تراها قابضة على زمام الدولة ، وقد تجلى هذا فى اسبانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا والمانيا . فان الكنيسة حكمت اسبانيا حتي خربتها ومن أعمالها هناك محكمة التفتيش وعندما حل مذهب كالفن فى انجلترا أحدث الحروب الاهلية وادخل تعديلات خطيرة فى الدستور الانجليزى ولما دخل مذهب كالفن فى فرنسا سبب حربا أهلية دامت من ١٥٥٩ الي ١٥٩٣ ولا يزال أثر هذا المذهب فى مقاطعة جنيف التي حكمها كالفن بنفسه وكان فيها ملكا وقسيساً ولا يزال تاريخ تلك المقاطعة وقانونها وأخلاق أهلها متأثرة بطابع هذا الرجل الديني الرهيب . أما في فرنسا فلم تتمكن الحكومة من الفصل بين الكنيسة والحكومة الا فى سنة ١٩٠٤

وفي المانيا حاول بسمارك فى ١٨٧٤ بعد ان انتصر على فرنسا ان يخلص من كابوس الكنيسة فأصدر قانون مايو الشهير متمرداً به على البابا ولكن بعد انقضاء ثمانية قرون علي

عهد جريجورى السابع وعلى اذلال هنري الرابع بباب خليفة القديس بطرس فى كانوصا فان البابوية مازالت قوية واضطر المستشار الحديدى (بسمارك) لسحب قانونه والخضوع لرومه والانحناء أمام سلطة الحزب الكاثوليكى في الريشستاج وفي العهد الاخير تآخت الفاشيزتيه مع البابوية واصطلح البابا مع الزعيم ، وصار للبابا حق الخروج من قصر الفاتيكان في سيارة من « فضة » والكلام في التليفون مع انحاء العالم بتليفون له مقبضة من ذهب .

ومعلوم أن البابا في نظر الكاثوليك معصوم من الخطأ كالانبياء عند المسلمين (١٨٧٠ — ١٨٦٩) كما أن البابا أصدر في ١٨٦٤ منشوراً يصرح فيه بأن «الانسان عاجز بفطرته عن الخلق والاختراع ولا يمكنه ايجاد الحقيقة ولكنه يستطيع الفهم والادراك للحقائق التي تتجلى له بفضل الله من زمن بعيد وما العلم الحديث الا مجموعة الفاظ متناقضة »

في حين أن الاسلام لا يتدخل في الحكومات ولا شأن لرجاله في تدبير الدولة ولم يعرف أن عالماً أو شيخاً دينياً تدخل في شئون المملكة أو الدولة أو فسر الدين بما يؤخر تقدم الامم أو يؤخر العلم تري بعض المؤرخين النصارى يدعون بأن تقدم التعليم وانتشار العلوم الرياضية والطبيعية سيدنى ساعة الكنيسة الكاثوليكية لما بينهما من التناقض وتري أن الاسلام يأمر بطلب العلم ويحث عليه ويكافئ العالم ويميزه ويضعه فى موضع الشرف في أماكن شتى من كتابه المنزل وتعاليمه .

بيد أن هذا التضييق من رجال الكنيسة على أهل الفكر والعلم قد انقلب الى ضده فأخذ رجال من الفلاسفة الذين يحفظون تاريخ الكنيسة جيداً يهاجونها في أصلها ويطعنون في جوهرها وينكرون عليها حق الوجود ولم يكن هذا الا من قبيل رد الفعل المنتظر حدوثه فى كل الحركات العقلية والدينية وقد وضعوا لمجموعة مباحثها اسم « النقد العالى » وقد ظهر هذا النوع من النقد في المانيا ثم في فرنسا فأخذوا يدعون أن التعاليم المسيحية مشتقة من عقائد وثنية قديمة وأن عيد نويل ورمز الصليب يرجع عهدهما الي أجيال بعيدة قبل رومه وأشهر من كتب في هذا فرنسوا ديبوي مؤلف كتاب «تاريخ الاديان» وتلاه جودفري هيجنز فألف كتاب « اناكلبس » وقد ردوا كثيراً من المعتقدات والطقوس الي البوذية والبراهمانية .

ثم جاءت فرقة علماء توبنجن فبحثت فى أعمال الرسل وألف زعيمها ستراوس حياة السيد المسيح وألف فردينان باور الالمانى كتاب « بولس رسول المسيح » ولا تزال معاول النقد العالى تعمل فى بناء تاريخ الكنيسة المسيحية ولا شك فى أن الكنيسة تتقبل هذا كله بسرور لأنها تدين بالتسامح والتساهل اللذين ورد ذكرهما فى العهد الجديد المرة بعد المرة والفينة بعد الفينة .

أما الاسلام فلم يتقدم أحد لنقده نقداً عالياً ولا نقداً واطيا لأن تاريخه بسيط وهو خال من الغموض والتعقيد وليس فيه ما يحير الفكر أو يربك العقل . وكل الفرق التى ظهرت فى العراق وفارس انما هي فرق باحثين فى التأويل والتفسير وليس فى التاريخ والنشأة التي أجمع المؤرخون على صحتها كما قال برتلميه سانتهيلير في مقدمة كتابه في حياة النبي محمد (طبع باريس)

٧

ان تاريخ العالم مقسم الى فترات ، قد تدوم الفترة الواحدة منها حوالى سبعة قرون لا تزيد ولا تنقص ، وهذه حقيقة اهتدي اليها بعض المؤرخين بالاستقراء فان مدينة رومه تأسست قبل المسيح بسبعة قرون ، ودامت سلطة رومه ونفوذها في العالم سبعمائة سنة وفي نهاية تلك المدة ظهر المسيح بدين جديد ينطوي على حياة أمة جديدة وحضارة جديدة وكان ظهوره مؤذناً بزوال تلك الدولة الرومانية التي حكمت العالم بالعصا والسكين بعد أن فتحته بالقوة والحيلة

وفي نهاية القرن السابع المسيحى وبعد مضي سبعمائة سنة على الدول المسيحية الاوربية ظهر الاسلام . ودامت عظمة الدول الاسلامية سبعة قرون ، وفى نهايتها هاجمها الموغول من الشرق والصليبيون من الغرب فكسروها وقد مضي الآن سبعة قرون من تاريخ انحطاط الشرق العربى الاسلامى وبدأت نهضة جديدة فى الشرق العربى وجاءت تلك النهضة في أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، ومن العجيب أن هذا القرن الرابع عشر الهجرى قد وافق الحرب العظمي أى فى ختام سبعمائة عام على العظمة الاوربية بعد نهضتها الحديثة فى القرن الثالث عشر المسيحي وهو العهد الذي يسمي عهد الأحياء ونهضة القوميات والعلوم فى أوربا وانتهى

بداية القرن العشرين المسيحى لأن الحضارة الاوربية بلغت شأوها فى أول هذا القرن فمن المؤكد أن دور الشرق فى النهضة قد آن وكل الظواهر تدل على صحة هذه النظرية السبعية.

١) رومه دامت سبعة قرون آخرها ظهور المسيح

٢) المسيحية دامت فى دورها الأول سبعة قرون آخرها ظهور محمد

٣) نهضة الاسلام الأولى دامت سبعة قرون آخرها ظهور الموغول والصليبيين

٤) هبوط المسيحية واوروبا دام سبعة قرون آخرها عهد الاحياء الاوروبي للعلوم والفنون

٥) نهضة اوروبا الحديثة دامت سبعة قرون آخرها الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨)

٦) نهضة الشرق الحديثة تبدأ فى أول القرن الرابع عشر الهجرى (القرن العشرون للمسيح)

ومن العجيب أن تطبيق هذه النظرية صحيح في حياة الامم اذا أخذت على انفراد فان ايرلاندا بقيت تحت حكم الانجليز سبعمائة عام ثم تحررت ومضي على حكم الملوك فى بريطانيا سبعة قرون. ودولة الفرس دامت سبعة قرون وعظمة اليونان الحربية والبحرية وعهد الفلسفة فيها داما سبعمائة سنة وقد وصل الشرق العربى الى نهاية ضعفه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهما القرنان المكملان لعهد الهبوط.



١

كانت أعظم ظواهر الانحطاط فى الشرق انتشار الجهل وسيادة الاستبداد وموت الأخلاق الفاضلة من النفوس . وصارت الحكومات الاسلامية مطايا للفوضى والاستبداد والاستغلال وحل محل الخلفاء والامراء العلماء العادلين، فلول الموغول وملوك الاتراك الظالمين . وحتى العقيدة الدينية تضعضعت فى النفوس فملأت الخرافات عقول الناس و قلوبهم وأصبح الشرق في دينه أسيراً لقشور الطرق الصوفية وفى أخلاقه أسيراً للمخدرات كالخمر والأفيون والحشيش . ولاشك أن المصلحين ومحبي الخير للاسلام قد ظنوا فى تلك الفترة ان الاسلام قد اعتراه خمود يشبه الموت لاسيما وان كثيرين من النقاد الأجانب كانوا يقولون ان الاسلام بطبيعته غير قابل للاصلاح وغير مستعد للتمشى مع روح العصر وهؤلاء ينقسمون بطبيعتهم الى مبشرين مأجورين على محاربة الاسلام والى ملحدين أوروبيين يحاربون الاسلام كما يحاربون غيره من الأديان ضاربين صفحاً عن آثاره في المدنية ومن رجل استعمار يحاولون اضعاف الامم التي تدين بالاسلام ليتمكنوا منها ويحكموها فكل من قال بان الاسلام دين تأخر أوغير قابل للحضارة من الأفرنج هو مغرض بلا ريب ولايمكن الأخذ برأيه ولايجوز التعويل عليه .

غير أن الأجنبى عن الاسلام لوأخذ بظواهر الامور لاضطر للاعتراف بأنه حدثت فعلا فترة سكون وجمود تشبه الموت فقد ساد النقل وضعف العقل وصار القول الذى عليه المعول هو النصوص الجامدة . وفي الوقت نفسه انتشر العداء للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ولكن هذه الحالات كلها قد ظهر مايماثلها أو يفوقها في أمم أوروبا ولم يهدمها ولم يكن عائقا لها عند النهوض وكأن النقاد جميعاً سواء أ كانوا مخلصين أوغير مخلصين قد فاتهم تلك المسألة فانه اذا آن أوان النهضة الصحيحة فى أمة لم يكن الدين حجر عثرة في طريقها

ولم يكن علة فشلها . لأن الدين في الواقع كما أثبتتنا مرات عدة لا يؤثر في نهضة الامة وقد قال اسماعيل حامـد المصلح المغربي من الجزائر « ان مدنية الامم لاتقاس بما في كتبها الدينية ، بل معيارها الصحيح هو ماتنهض به تلك الامم من الاعمال » .

وعلى الرغم من ضيق الأحوال في الشرق واشتداد السواد والظلام في أيامه فانه لم يخل تاريخه من المصلحين الاحرار الذين انتشروا في انحاء ممالكه . ويظهر ان مسلمي الهند هم أول من بدأوا بالنهضة فبدأوا بحركة التعليم على يد سيد أحمد خان مولولى ومازالت تلك الحركة نامية الى عهد الشقيقين المعروفين المرحوم مولانا محمد على واخيه شوكت على [1] وقد توفى محمد على في لندن في سنة ١٩٣١ أثناء المؤتمر الهندى ودفن بالمسجد الأقصى في رمضان سنة ١٣٤٩ وطاف أخوه بعده الأقطار بعض الاسلامية قبل عودته الى الهند . أما السيد أحمد خان فقد أنشأ كلية عليكره الشهيرة وكان المصريون يكتبون لها في أوائل هذا القرن وتنشر أسماء المكتتبين في جريدة المؤيد في عهد الشيخ على يوسف وقد روى عنه المرحوم بلنت في كتابه « الهند في عهد ريبون » طبع لندن ١٩٠٩ ص ١١٨ وما بعدها ان سيد أحمد خان أراد أن يكون التعليم في مدرسته بالاوردي ثم عدل عن ذلك الى الانجليزية وليس في المدرسة أو الكلية تعليم ديني وقد بدأ أحمد خان حياته سنياً ثم صار وهابياً ثم عاد ربانياً وقد زار بلنت كلية عليجره وأعجب بها كثيراً وكان السيد أحمد خان انتخب لها مديرا انجليزيا اسمه مستر بيك ونجح بيك في أعماله نجاحا عظيما وتوفى في أوائل القرن العشرين بعد أن عمل نحو ربع قرن في خدمة الكلية وكان أحمد خان في الثلث الثانى من القرن التاسع عشر حوالى ١٨٦٥ أول من حث المسلمين على قراءة كتب اوروبا والانتفاع بما فيها من العلوم الحديثة اقتداء بالعرب في صدر الاسلام فانهم لم يأنفوا ان ينقلوا عن اليونان علومهم وهم وثنيون وتعاليمهم تخالف الكتب المنزلة . ولم يكن مسلمو الهند مقصرين في هـذا السبيل فقد ظهر منهم نوابغ أمثال

---

(١) لقد ظهر هذا الرجل بمظاهر غريبة بعد أن توفى أخوه فذكره هنا هو لمجرد التاريخ لا تقديرا ولا تقريظا — المؤلف

السيد أمير على مؤلف كتاب روح الاسلام والمرأة المسلمةوهما من أنفع الكتب وأفضلها وقد عين في آخر عمره عضوا فى مجلس الملك الخاص بلندن بعد أن تقلد القضاء الأعلى في بلاده أعواما ومنهم شيراغ على وكان كاتبا قديراً بالانجليزية و يعد زعيم حزب المجددين فى الهند وكان يرى ان روح الاسلام بعيد عن الجمود وتقييد العقل وان القرآن كتاب هداية للمسلمين وليس عثرة فى تقدمهم .

٢

وقام في شمال أفريقيا خير الدين باشا أكبر وزراء تونس وألف كتاباً مهما في مستقبل الاسلام وقام في تركيا رشيدباشا ومدحت باشا وظهر السيد جمال الدين الافغاني وخدم الافغان والفرس والهند ومصر وتركيا ومن تلاميذه الشيخ محمد عبده

وفى كل قطر من أقطار الاسلام ترى الاحرار والمصلحين يزدادون عدداً ويشتدون ساعداً وعضداً ويضمون تحت رايتهم رجالا من سائر الاحرار الخبراء الراسخين فى علم نهضات الأمم الواقفين على أسرار تقدمها . وقد دبت روح الاصلاح فى الاسلام وتغلغلت وأخذت تحرك جثمانه المهول فحركته وصار ينفعل انفعالا عظيما .

وقد يكون المصلح الاسلامي معتزلا أو حر الفكر ولكنه لايزال يعمل على خدمة الاسلام وانهاضه مظهراً لعامة الشعب ايمانه وصلاحه وتقواه ومخفياً أفكاره التى قاده اليها درسه أو امعانه وهو لايبطن للاسلام شراً .

والفرق بين المسلم المفكر والاوروبى المفكر أن الاوروبي اذا صار حر الفكر أو ملحداً فهو يجاهر بذلك وينشره كما صنع برادلو (١٨٣٣ — ١٨٩٩) فان هذا الرجل انتخب للبرلمان ثلاث مرات متوالية ، وأبي قسم اليمين لأن القسم يخالف مبادئه ولكنه أقسمه فى النهاية سنة ١٨٨٦ وأسس فرقة لحرية الفكر وأشهر تلاميذه المستر روبرتسون الذى ألف « تاريخ حرية الفكر فى العالم » فى مجلدين وخدم المسألة المصرية فى سنتى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ وكان صديقا حميما لمصطفى كامل وزار وادى النيل في تلك السنة الاخيرة . أما بعض المسلمين

أحرار الفكر فتراهم للأسف يخفون ذلك وقد يتخذون الدين سلاحا لمنفعتهم ووصف كاتب هندى أحدهم فقال (ان هذا السيد المسلم يعرف من أين تؤكل الكتف فهو يبالغ فى الظهور أمام قومه بمظهر المسلم المتشدد بشعائر الاسلام غير أنه منطو على آراء لم تخطر على قلب ڤولتر نفسه) .

وروى لنا السيد عبد العزيز الثعالبى عن المرحوم محمد على الذى تلقي العلم فى جامعة اكسفورد انه عاد الى وطنه متشبعاً بالروح الانجليزي ، ولا يعرف عن الاسلام الا اسمه ، فلما اعتقل فى الحرب العظمي وقضى فى السجن خمس سنوات درس خلالها الدين وحفظ القرآن فخرج مسلماً صحيحاً وخطيباً بليغاً و بدأ ظهوره بالدعوة من ذلك الحين (١٩٢٠) وروي أخوه شوكت على في محاضرة القاها فى القاهرة (رمضان ١٣٤٩) انه عاد الى وطنه مقلداً للانجليز يعيش عيشتهم ويأكل أكلهم ويلعب ألعابهم ولما لمح احتقار الانجليز للمسلمين والهندوك الذين يقلدونهم خلع ثيابهم وأرخى لحيته ووضع على رأسه عمامة وتقشف فى حياته فصار مهيب الجانب وشعر الانجليز بأنه ذو شخصية وان للاسلام رجاله الذين يذودون عن حياضه وقد رأيناه يلبس الملابس الوطنية المنسوجة فى بلاد الهند . ويضع على رأسه شعاراً معدنياً للخلافة وفى صدره وسام عليه رسم الكعبة المشرفة بنقوش بالمناتير .

كان أول من فطن الى اهمية الحج فيالاسلام فى العهد الحديث المرحوم عبدالرحمن الكواكبي (والمسلمون الآن يبحثون عن قبره فى القاهرة ليقيموا عليه أثراً وهم لايهتدون اليه وكان هذا دأبهم مع جميع عظمائهم المؤمنين) فقد ألف كتاب أم القري وتخيل فيه اجتماع مؤتمر اسلامي لاصلاح الاسلام وانهاضه وجاء بعده بفكرة المؤتمر المرحوم اسماعيل غصبرنسكى من بغجه سراى بالقريم وأقام في القاهرة حيناً ولم يفلح ، ويعد الحج فى الحقيقة مؤتمراً اسلامياً سنوياولكن المسلمين لم يلتفتوا الى هذه الحقيقة لأن عظماء الاسلام في الغالب لايحجون ولا يحشد بمكة الا العوام من سائر الأقطار بدافع دينى محض :

وقد مرت بالخلافة أدوار وأطوار وتولاها العربى الصميم فالدخيل فالاجنبى حتى ان

السلطان سليم اشتري المبايعة من آخر بنى العباس في القاهرة وكان رجلا خاملا. وانتهي الأمر بضياع الخلافة بتاتاً وعزل آخر سلاطين آل عثمان، وكان عبد الحميد الثانى آخر الخلفاء ولا عبرة بالخليفة الصوري الذي يعيش الآن فى احدى مدن اوروبا . وعقد بالقاهرة مؤتمر لانتخاب خليفة فى ١٩٢٦ ففشل وعقدت مؤتمرات في جزيرة العرب نفسها ولم تفلح لأن عرب الجزيرة يتنازعون بين الامام يحيي وابن السعود وكانت محاولة الملك حسين ان يكون خليفة مما يستدعي الابتسام . فزمن الخلافة ولى وفكرتها اندثرت ويجب على المسلمين ان يعرضوا عنها لأنها لا تصلح لهذا الزمان ولأن الخليفة بمعناه الأصلى الصحيح يجب ان ينتخب انتخابا حراً مباشراً وهذا غير ميسور وهو بمثابة رئيس جمهورية اسلامية، فان صار أحد الملوك خليفة فهو يكون حاكما مستبداً وهذا غير مرغوب فيه لأن العالم يسير نحو الديموقراطية والحرية ولم يبحث المسلمون حتي الآن فى كيانهم القومي حتى يتخطوه الى البحث فيمن يتولى الحكم وهذا آخر مايجب التفكير فيه فوجب على المسلمين ان يتجهوا الى روح الاسلام ويستمدوا منها قوتهم .

٣

ان هجوم اوروبا الفظيع على الشرق يرجع الى القرن التاسع عشر حيث بدأ الفرنسيون بالاستيلاء على الجزائر واستولت روسيا على القوقاز وبسطت انجلترا نفوذها على الهند ومصر .

فتنبه المسلمون لحالتهم وقام فى كل قطر من أقطارهم رجال يدافعون عن أوطانهم بالسيف أو بالقلم كعبدالقادر فى الجزائر وشامل في القوقاس وعرابي في مصر والمهدي في السودان ويعقوب بك في تركستان الشرقية .

غير ان هذه الجهود كانت مبعثرة وغير موحدة. في حين أن اوروبا كانت كلها يداً واحدة وذات قوة منظمة. وحتى امبراطور المانيا الذى كان حليف تركيا كان يجبرها على طاعة اوروبا والتسليم لها اذا حدث بين اوروبا وتركيا خلاف جدى ولم يكن يبقى عليها الا لتسخير جيشها لحروبه التى انتهت بدمارها وأتت على البقية الباقية من أملاكها . فلم يتدخل ذلك

الامبراطور في أية حرب نشبت بين تركيا واروبا حتى حروب سنة ١٩١٢ التى فقدت فيها كل أملا كها الاوربية بقيت المانيا مع الدول الأخرى تشهد مصرعها ودول البلقان الحقيرة المتوحشة تنهشها وتقترف فظائع القتل والاجهاز على الجرحى وهتك الأعراض وذبح الاسرى حتى ضج ضجيج فريق من كتاب أوروبا أمثال بيرلوتى وكلود فارير . ولم يحرك كاتب انجليزي ساكنا .

ولما رأي المسلمون فى انحاء العالم ان اوروبا أصبحت تعتدي على الشرق في قسوة ووحشية بقصد الامتلاك والاستعباد فكروا في ان الاستقلال السياسي يجب ان يسبقه التجدد الروحى والعقلى والعلمي والتربية النفسية . وان هذا الاصلاح المعنوي هو العلاج لذلك الشقاء العظيم الذي يعانيه المسلمون من الذل والهوان في سائر أقطارهم . ففكروا في الرجوع الى الطرق الصوفية ولكن هذه الطرق كالنقشبندية والبكطاشية وغيرها قد قالت كلمتها الأخيرة وخرجت تتسلل من مسرح الحياة العامة . ولن يكون لها دور تمثله في حياة الاسلام بعد ذلك . كما انى ضعيف الأمل في الوهابية والسنوسية .

وكلتاها طريقتان للاصلاح الديني ناشئتان في الصحراء الأولى في جزيرة العرب أى في أسيا والثانية فى أفريقيا والطريقة السنوسية تقوى وتنمو وتعظم وتنتشر ولكنها لم تركب يوماً مركباً خشناً ولم تسلك مسلكاً وعراً . ومدار هذه الطريقة على تعليم افرادها الطاعة المطلقة للمقدم والوكيل في الزوايا فهي ترجع إلى تسويد الفرد وتحكمه واطلاق يده بل يعيش افرادها تحت سلطة ثنائية . المقدم والوكيل . والسنوسية بقوتها رابضة ولم تحرك ساكناً ولم تشترك فى حرب ظاهرة ولم تجاهر بعدائها لأحد. فعلمها عند ربى ومستقبلها مجهول (١) .

أما الوهابية فعلى العكس ظهرت بانها قوة محاربة وقد فتح رجالها بلاد الجزيرة ويملك أحدهم آلان معظم بلاد العرب ولا يزاحمه فيها الا الامام يحيى ، ولكن هذا الملك

---

(١) بعد كتابة ماتقدم قضى الطليان على السنوسية (ربيع ١٩٣١) وخربوا زواياها

العربى العظيم تبقى سلطته محدودة مادام محوطاً من جميع الجهات بالقوة الانجليزية فى الشمال والجنوب والشرق والغرب وهو في الوقت الذى يضم أثناءه الى بلاده إمارة العسير الادريسية بمحالفة ولاء اشبه شيء بمحالفات الحماية الأوربية تراه يعقد محالفة حسن الجوار مع ملك العراق الخاضع للانتداب الانجليزي وتراه يحتمل ثوار الدروز على حدود ملكه «احتمالا دوليا» فالوهابية حركة دينية حربية وهى بطبيعة الحال مقضى عليها بان لا تخرج عن جزيرة العرب

ويغلب على فكري أن كلا من مؤسسى الوهابية والسنوسية ظنا ان الاسلام ظهر ولا في الصحراء وخرج بقوته افتح العالم . فأرادا تقليد صاحب الشريعة الاسلامية فى كيفية التكوين البدائى .

ولكن محمداً وصحابته أتموا العمل كله في بضع سنين وهؤلاء الوهابيون والسنوسيون مضت عليهم عشرات السنين وهم فى صحرائهم رابضون وربما كان يكون للسنوسية مستقبل في أفريقيا حيث ارشاد الزنوج الوثنيين فتكون حركتهم سائرة نحو الجنوب والغرب وحينئذ يكون عملهم جزءاً من المنهاج الذي نتمناه لأفريقيا وهو انتشار الاسلام فيها وتنظيم حياتها الاقتصادية لتخليصها شيئاً فشيئاً من النفوذ الغربى الظالم . ونحن اذا عرفنا أن هذا هو منهاج السنوسية نرحب بها ونشجعها ونتمنى لها النجاح ولكن ينبغي لها أن تتضافر مع الأمم الشرقية الأخرى لتوحيد القوى وتبادل المعونة المعنوية . وتروى عن السنوسى عبارتان الأولى قوله (الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضربهم ضربة واحدة) . وهذه الرواية لم تثبت صحتها ولم نر لها أثراً في الحقيقة .

والثانية أنه لما قام المهدى فى السودان واستنصر السنوسي طرد السنوسى رسوله وأجاب هازئاً «من يكون هذا الصعلوك الدنقلاوى ؟ ألا يمكنني أن اكون أنا المهدي اذا أردت ذلك ؟»

ويؤيد صحة هذه الرواية أمران الأول ماجاء في تاريخ السودان عن هذه الحادثة والثانى أن السنوسى أعان تكذيب المهدي وعدم تصديقه . فهذه فرصة كانت سانحة للسنوسية لمحاربة أوربا تركتها تفوت وربما كانت السنوسية ضعيفة في أول أمرها فلم يرغب

السنوسي فى معونة رجل من قارته وجنسه ودينه كما أنه لم يرغب فى الظهور بمظهر المعادى لأوربا. ذكرت فى حاشية ما كان من شأن السنوسية مع الفاشستية ، فان الطليان الذين عجزوا عن اخضاع طرابلس في عشرين عاماً لقوا أثناءها الخيبة والهزيمة ، اظهروا قسوتهم التي لا حد لها فخربوا زوايا السنوسية وصادروا أملاكها وداسوا حرمة مساجدها وأعلنوا الحرب على كل من ينتمى اليها وقد حدث ذلك كله فى ربيع سنة ١٩٣١ وكانت خاتمة تلك الفواجع مقتل المرحوم السيد عمر المختار الذي أسروه وشنقوه وهو بطل جريح في الثمانين من عمره .

٤

زار القاهرة في مارس سنة ١٩٣١ شاب تركستانى من تركستان الشرقية اسمه السيد منصور خان يطوف بانحاء الشرق للالمام بشؤون الأمم العربية والاسلامية والسعي لانشاء علاقات بينها و بين وطنه تركستان الشرقية حيث يعيش ملايين من المسلمين منقطعين عن بقية العالم لايدرون من حوادث الأمم الاسلامية وشؤونها شيئا . وقد كتب هذا الشاب يشكو حال بلاده وظلم حكومة الصين المستبدة التى تستغل بلاده وتحكمها على الطريقة الرومانية وقد قامت في ١٨٧٠ ثورة فى تركستان الشرقية فأظهر أهلها المسلمون من الاستبسال والمغامرة في القتال مالم يسمع بمثله من قبل وقام بينهم الزعيم يعقوب بك فهزم الصين وضم تركستان ويونان واستقل بهما عدة سنين وصار يعقوب يلقب بلقب أمير المؤمنين فى الصين بعد ان صارت له دولة. ولكن الصين حشدت جيوشها وهزمته واستولت على البلاد من جديد وسكانها لا يقلون عن عشرة ملايين أى عدد سكان القطر المصرى قبل الحرب العظمى وهم على صفات جليلة من الشمم واباء الضيم والشجاعة وعلو الهمة وقد دخلوا في الاسلام أفواجاً وهؤلاء المسلمون جميعاً يحكمهم أهل الصين البوذيون بالسلطة المطلقة ولايزال تقسيم الأمة التركستانية الاجتماعى تقسيما عتيقاً ففيهم الزراع والصناع والتجار والعلماء وعلماؤهم يعرفون العربية والفارسية وتعليمهم كتعليم الأزهر القديم وبعضهم يعلمون بالتركية

وأعظم مدارسهم فى كاشغر واسمها خانلق مدرسة وعدد طلاب المدارس يبلغ أربعين أو خمسين ألفاً .

فهذه أمة مسلمة شرقية لاتحكمها أوروبا ولكن يحكمها الصينيون الشرقيون الوثنيون وهم فى بلادهم مثال الضعف والفوضى والمظالم فغلبتهم اليابان فى ١٨٩٥ وقام نضال بين الامبراطورية والجمهورية التى أسسها سن يات سن لا يزال حتي هذه الساعة.

***

نشبت مؤخراً حرب بين الصين واليابان بعد خمس وثلاثين سنة على الحرب الأولى بينهما . واليابان تريد منشوريا والصين ممزقة بين الحروب الأهلية وفتنة الشيوعية . وتتميز هذه الحرب بكونها واقعة رغم أنوف جمعية الأمم ، لأن الدولتين المحاربتين من أعضائها ففقدت العصبة هيبتها في الحقيقة وربما جرت هذه الحرب وراءها ويلات فى الشرق والغرب بسبب دسائس روسيا وغيرها ، ولعل تركستان الشرقية تنتهز هذه الفرصة لتحرير وطنها .

٤

١

في مستهل هـذا القرن العشرين بعد أن تنبه الشرق الاسلامي العربي وبعد انتصار اليابان على روسيا قامت حركة الفرس الدستورية وشبت نار ثورة عظيمة فناهضتها روسيا التي كانت دولة استعمارية وخنقت تلك الثورة مستعينة بالشاه محمـد علي الذي لقي حتفه مؤخراً ، وقـد ضرب مجلس النواب الفارسي بالقنابل وسجن أعضاءه وقتـل من زعمائه من قتل

وفي سنة ١٩٠٨ ظهر الدستور العثماني وبدأت الحركة الوطنية العثمانية في الظهور بقوتها فخشيت أوربا عاقبـة ذلك فاوعزت الى ايطاليا بالهجوم على طرابلس في ١٩١١ فهاجمتها واستولت على السواحل وحدثت فيها حرب تشيب لهولها الولدان وجيوش الطليان ولا تزال تلك الحرب قائمة بين ايطاليا وبعض المحاربين من رجال القبائل .

وفي سنة ١٩١٢ تألبت دول البلقان الصغري على تركيا وحاربتها ونشرن بلاغاً يشبه كلام الملوك الصليبيين في القرون الوسطي ولم ينكر هذا الأمر أحد من ملوك أوروبا حتى ولا أمبراطور ألمانيا حليف تركيا الوحيد • ومن المناظر التي كانت تفتت القلب في القاهرة في أثناء تلك الحرب والتي كانت تدل على جمود أهل مصر وجهلهم واستغراقهم في الغفلة أن الصبيان من باعة الجرائد كانوا ينتشرون في عاصـمة مصر انتشار الجراد في كل ساعة من ساعات النهار منادين باسم جريدة يونانية اسمها « فوس » أي النور وهي تحمل أنباء انـكسار الترك ساعة فساعة وتخريب مدنهم وانهزام جيوشهم واحتراق مدنهم وجماعة الأروام والبلغار والصرب ممن يعيشون في مصر يقبلون عليها ويشترونها ويقرأونها شامتين وهم يسيرون في شوارع القاهرة ويربحون ويدفعون ثمن الجرائد من أموالنا . والمصريون لا يدركون هول هـذا الأمر ولا يشعرون بفظاعته ولو أنك تخيلت الألمان في شوارع

ليفربول يقرؤن فى صحف المانية أخبار انكسار الانجليز فى عاصمتهم وصبر الانجليز على ذلك لادركت هول هذه المسألة . ولكن وداعة أخلاقنا وإكرامنا للضيف وظننا بأن هذا الأمر لا يعنينا جلب علينا هذا وأفظع منه...

وقد تمكنت دول البلقان من التغلب على تركيا وطردنها من اوروبا ولم يبقين لها الا الاستانة ولكن أجزاء أخرى من العالم الاسلامي أدركت هول المصاب فشعر له المسلمون في الهند وماكان أبشع منظر العالم الاسلامي في تلك الفترة المشؤومة (١٩١٢) حيث كانت تركيا تنتهب وتدمر في اوروبا، وطرابلس تغلب على أمرها في شمال افريقا . ومصر تخضع خضوعاً قاسياً لحكم لورد كتشنر فاتح الترنسقال والخرطوم فجزع بعض ساسة اوروبا من عواقب ذلك الامر وخافوا على اوروبا من يقظة الاسلام ومن شدة الغيظ والقهر فكتب هانوتو يلوم ايطاليا « ان ايطاليا لاتحارب تركيا وحدها بل تحارب العالم الاسلامى كله . فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لايعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها »

٢

وكأن هانوتو هذا نسى ان فرنسا وطنه لم تفعل اقل مما فعلت ايطاليا فاستولت على الجزائر وتونس وكانت تحاول الاستيلاء على مراكش وما حادثة « اغادير » في سنة ١٩١٢ ببعيدة وهى التى أوشكت أن تشعل نار الحرب في صيف ١٩١١ بسبب احتكاك المانيا وفرنسا على شواطئ المغرب الأقصى .

على ان هانوتو لم يكن ليكشر أنيابه لايطاليا حباً فى سواد عيون طرابلس ولا نصيحة لايطاليا ولكن خوفاً على مستعمرات فرنسا العزيزة !

وهانوتو هذا هو الذي كان منذ خمسة وثلاثين عاما من أكبر أعداء الاسلام في السياسة والاستعمار .

وقد كتب مقالا مشهوراً في جريدة جورنال سنة ١٩٠٢ جاء فيه :

« في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر الاسلام جاءت الدولة الفرنسوية لمباغتته

وجاء القديس لويس الذى ينتمي الى اسبانيا بوالدته (رمز الى الأخذ بالثار من العرب والاسلام) ليضرم نيران القتال في مصر وتونس وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية وعاود هذا الخاطر نابليون الأول فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا في القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التي كانت لاتنى في متابعة الغارات على القارة الاوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاما وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً» .

«قد وصلت طلائع قوانا الآن الى اصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا (يقصد الأمم الاسلامية) وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا في الفيافي وبطون الخبوت وظنهم انهم صاروا في أمنع موئل شعروا بانفسهم وقد حلق عليهم الاربيون من جميع الجهات .

«اذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه واخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين وهى تدير اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال» .

وبعد أن وصف شعائر الحج واتجاه المسلمين شطر مكان واحد وهو الكعبه قال

«يؤخذ مما تقدم ان جراثيم الخطر لاتزال موجودة فى ثنيات الفتوح الاوربية وطي أفكار المقهورين الذين اتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم»

ثم أشار الى رأى فريق من الاوربيين في الاسلام ومنهم كيمون في كتابه « باتولوجيا الاسلام » وفيه قوله المرذول :

« ان الديانة المحمدية جذام فشابين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً بل هي مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما

الالسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح في القبائح وما قبر محمد في مكة الاعمود كهربائي يبث الجنون في رؤوس المسلمين و يلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهيستريا العامة والذهول العقلي وتكرار الله الى مالانهاية (يشير الى حلقات الذكر) والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى والليمانيا والماليخوليا وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات ! »

وكم يباهي هانوتو بأن شعبه الفرنسوى الجمهوري المبادئ البالغ أربعين مليوناً ولا مرشد له الانفسه لاعائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ولا رؤساء يتناولون الرياسة بطريق الوراثة هو الذى تقلد زمام شعب آخر (هو الشعب الاسلامى بافريقا) لايلبث أن ينمو حتي يساويه فى العدد . .

هذا هو جبريل هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقا وقد ظهر منذ ثلاثين عاما بمظهر المتعصب المستبد الشامت ، وهو الذى يلوم ايطاليا فى سنة ١٩١١ على هجومها على طرابلس لأنه كان يطمع في أن تغتالها فرنسا الجمهورية لتكمل لها السيادة على الشعب الاسلامي الافريقي . وهو الذى يشتغل الآن بوضع تاريخ رسمي للدولة المصرية . فتري أية الخطط يسلك؟ أخطته الأولى خطة العداء والتعصب والبغضاء أم خطة الخوف من يقظة الاسلام البادية في ملامه لايطاليا أم خطة ثالثة رسمتها له حوادث الحياة وتجاربها بعد أن جاوز حدود السبعين وتربع في دست الاكاديمية وطلق السياسة في وطنه وانقطع للأدب والتاريخ .

" ليس في ظني ان عتاة الغرب يتركون موقفهم حيال الاسلام فان ملك اليونان لما حارب تركيا أوقد نار حرب صليبية جديدة واستنصر وزراء بريطانيا وحرك تعصب المسيحية على الاسلام وكانت قيصرية روسيا تريد أن تجعل من جامع اجيا صوفيا كنيسة وأراد فنزيلوس ذلك ونشره في الصحف وغيرهم يريد أن يكون مسجد عمر بن الخطاب معبداً أو هيكلا لملة أخرى . ووصف لويد جورج دخول جنرال اللنبي لبيت المقدس بآخر حرب صليبيه "

" غير ان هذه الافكار لم تتغير في خلال السنين القليلة من القرن العشرين التى تلت

حروب اوروبا ضد تركيا فانه لما نشبت الحرب العظمى وانضمت تركيا الى المانيا مضطرة مقهورة قام ساسة اوروبا الغربية والحلفاء يصرحون رسميا بان الغاية الكبرى من الحرب هي انشاء نظام عالمي حديث أساسه مكارم الاخلاق والانصاف ورعاية حقوق الامم المستضعفة واطلاق الحرية للامم الصغيرة ونظرية تقرير المصير ولكن جاء مؤتمر فرسايل كاشفا عن مقاصد اوروبا فما خسرته في الميادين الاوروبية كسبته فى الممالك الشرقية وخرجت كل دولة منها بغنيمة فدفع الاسلام حساب تلك الحرب فى العراق وجزيرة العرب وسوريا وشمال افريقا لأن فرنسا واسبانيا اقتسمتا مراكش وظهر ان أوروبا لاتريد بالشرق والاسلام خيراً وان منهاج ويلسون وتصريحات ساسة الحلفاء لم تكن الاحبائل نصبت حتى استعانت اوروبا بجيوش شرقية واشترت سكوت الامم المغلوبة أثناء الحرب بابخس الأثمان وهو الكلام والوعود التى صدقها أوتظاهر بتصديقها (وهو الأصح) الملك حسين ومن كانوا معه وقد شعر بعض علماء الشرقيات والمشتغلين بالمسائل الاسلامية بقوة هذه الصدمة

فقال ليون كايتاني مؤلف كتاب Les annales de l'Islam (وقد زار مصر في سنة ١٩٠٨) في سنة ١٩١٩ مانصه:

«ان الحرب العظمى قد هزت البناء الشرقي من أساسه و بعثت فى شجرة حياته روحا جديداً فالشرق باجمعه من أقصى الصين الى المحيط يضطرب ففى مصر وبلاد العرب وجميع الاقطار المحمدية حركات وطنية ونهضات قومية كبري جميعها متماثلة الصفة العامة وموحدة الغاية ترمي الى البعث من جديد ومقاومة الهجوم الاوروبي»

٥

١

يقول علماء الاجتماع ان الدين ظاهرة اجتماعية ، كغيرها من الظواهر التى لازمت الانسان بحكم خلقته وتفكيره ومحيطه . غير أن الناظر في أمم الشرق والغرب يدهش لكثرة العقائد التي ظهرت في الشرق وانتشرت في ناحياته منذ الخليقة حتى الآن ، وقلة الأديان التى ظهرت في الغرب ولا يزال أهله متمسكين بها . واذا أعرضنا عن اختلاف الآراء العلمية والدينية من حيث خلق البشر وأصل تكوينهم وما كانوا عليه تفاديا من الدخول في مباحث ، وان كانت نافعة الا انها بعيدة عن الغاية من هذا الكتاب وجدنا الأصل فيه السذاجة التامة والتجرد عن التفكير وهو الوجود البدائي أو الفطرى ، وان المعرفة والعلم والحضارة كلها طارئة عليه ، سواء أكانت من السماء بطريق الوحي أم من الاختبار من الحياة والاحتكاك بسائر المخلوقات الى ان يصل الى درجة تقرب في نظره القاصر من الكمال وقد يشترك في ابلاغه هذه الدرجة الهبة والكسب معاً فقد ترقى الانسان درجات بعضها فوق بعض فسار من الهمجية أو الوحشية وهمه في هذه المرتبة سد الرمق وقضاء شهوته فهو في هذا الطور حاطب وصائد ، وان كان بعض علماء اوروبا كشفوا أنه كان في هذا الطور متفنناً ومصوراً فعثروا فى بعض الأحافير على صور حيوانات انقرضت وكشف بعض الباحثين فى فرنسا على مقربة من قرية جلوزيل آثاراً تدل على أنه كان يعرف الكتابة فى عهود سابقة لعهد التاريخ ، وان كان انبرى بعض العلماء أمثال بيل الفرنسي رئيس معمل التحقيق الكيمائي في باريس ، المتوفى في سنة ١٩٢٩ (١) لنفي هذه النظرية وتفنيدها والادعاء باصطناع تلك الآثار ، ولم يفصل فى تلك المسألة الى حين كتابة هذه الأسطر .

---

(١) قتله رجل صاحب قضية تعين فيها بيل خبيرا وقدم تقريره ضد الرجل لمصلحة المدعى وهو من الاغنياء . وهو فيليبونيه .

ومن تلك المرتبة انتقل الانسان الى المرتبة الثانية وهي مرتبة الألفة والمعيشة المتحدة والنظر الى عجائب الخليقة والتأمل في الكون بمين الانبهار والدهشة وقد بدأت العاطفة الدينية تظهر فى هذا الطور وبدأ الانسان يفكر فى خالق للكون ومنظم له . وبدأ أيضا يميز بين الخير والشر والضار والنافع . وقد يكون شرع في الكتابة والتدوين على الاحجار والمعادن جهد الاستطاعة ، لأن فطرته تدفعه أبداً الى تدوين الآثار وتركها التى تدل عليه بعده ، ولم تكن عقول البشر وصلت الى البناء والعمارة ولكنها ترقت الي الزراعة وتأليف الانعام للانتفاع بها وقد دامت هذه الفترة بضع مئات من ألوف السنين .

ومنها انتقل الانسان الموفق فى الاقليم الحسن والمحيط الملائم للدرجة الأولى من سلم المدنية كما نفهمها فنشأت الحضارات القديمة كالحضارة البابلية والاشورية والحميرية والمصرية القديمة والفينيقية وغيرها . وفي تلك الفترة ظهر الأقوياء الذين تسلطوا على القبائل والعشائر وانتحلوا لأنفسهم صفات الرياسة والملك بالقوة القاهرة والحرب ثم ظهرت المدن والصناعات والتجارة وكلما ترقى الانسان فيها ترقى من الوجهة المعنوية فوضعت القوانين وسنت الشرائع وجاءت بعض الأديان بالتدريج على أيدى الحكماء ثم الأنبياء .

٢

وأول ماظهرت المعتقدات والشرائع في الشرق ، وأقدم مااطلعنا عليه فى العهد الحديث قوانين حامورابى التى وجدت مدونة في الحجر ونشرت في اوروبا فى سنة ١٩٠٠ ولما كانت تلك المدونات ذكرت الطوفان وقصصاً تشبه ماورد فى الكتب المنزلة من خلق آدم وحواء وطردهما من الجنة وقصة الأم التي تلد من غير علاقة جنسية مباشرة مما يشبه ماجاء في بعض الأديان المنزلة فقد دهش العلماء في اوروبا ، واضطر امبراطور الالمان ويليم الثاني الهوهنزولرنى ان يجاهر برأيه في تمسكه بالدين المسيحي وان ظهور هذه المدونات لم يزعزع عقيدته في ملته ، وكان علماء آخرون من الالمان قد أظهروا تشابهاً كثيراً بين المسيحية السمحاء وبعض أديان الهند كعقيدة البراهمة وغيرها .

بيد ان المجوسية هى أولى الديانات المعروفة لنا وقد ظهرت فى بلاد الفرس وهم يعتقدون بوجود الهين أحدهما نور ومبدأ الخير ويسمونه اورمزاد أو يزدان والثانى ظلام ومبدأ الشر ويسمونه اهرامان أو اهرمن وهما فى نظر فقهاء المجوسية متماثلان في الأزلية والقوة ولكن بينهما عداء ومعاندة فاذا كثرت الشرور فى العالم كان الغالب اهرامان واذا ظهر الخير وانتشر كان الغالب اورمزاد .

وقد انقسم المجوس عدة فرق منهم الكيومورتيه أصحاب كيومرت الذى يقال انه آدم والرزوانيةوالزرداشتية أصحاب زرداشت بن بيورشت والثنويةوهم الذين ثاروا على الاعتقاد بالهى الخير والشر ، والمانوية والمزركية والبيصانية والفرقونية وأصحاب مذهب التناسخ ، ومنهم من أنكر الشرائع والنبوات وحكموا العقل وزعموا أن النفوس العلوية تفيض عليهم الفضائل وأهم هذه الفرق فرقة زرداشت لأنه كان موحداً وأنكر إلهى النور والظلام وان الشرور توجد في العالم صادرة عن طبيعة المخلوقات اللازمة كالظل الذى يصدر عن الاجسام ضرورة وانها لاتزال حتى نهاية العالم فيقوم الاموات ويحاسب كل الى عمله لأن الله خلق ملكا للنور وآخر للظلام وان يوم نهاية العالم وهو يوم الحساب يذهب ملك الظلمة وأتباعه الى مكان فيه ظلام وعذاب وان ملك النور وأتباعه يمضون الى مكان فيه نور وهناء دائم فلا يرون الشر الى الأبد .

وقد توفى زرداشت هذا في القرن الخامس قبل المسيح ولا يزال هؤلاء المجوس في العالم الى الآن وهم عبدة النار المقدسةوقد اضطهدوا فى وطنهم الأصلى فرحلوا منذ الف سنة الى الهند وهم طائفة الپارسى الموجودون في بومباى وقد قام منهم أفذاذ مجاهدون خدموا المسألة الهنديةفى الهند وفى أوروبا ومنهم مدام كاما[1] الشهيرة التى جاهدت فى سبيل بلادها فى أمريكا وأوروبا وأسست جريدة « باندي ماترام » وأنفقت ثروتها في قضية الهند وعاشت عيشة الزهد والتقشف فى لندن وباريس وسويسرا وتوفيت منذ بضع سنين فى

---

(١) علمنا من المعاصرين أنها عاشت بضع سنين فى باريس ويرجع اليها الفضل فى تعليم بضع فتيات وتثقيفهن على نفقتها

السبعين من عمرها . وهم الذين يلقون بموتاهم فى « برج الصمت » حتي تأكلهم الطير وتسقط عظامهم فى بئر هناك . وقد حدثنا أحد أدباء الفرس أن للمجوس بقية فى بعض جبال ايران ولا يزالون على عبادتهم الأولى خفية .

و بعد المجوس ظهر الصابئة أو الكلدان وهم أول من عبد الأصنام وسجد لها . بعد عبادة الاجرام السماوية . وهؤلاء يعتقدون أن لنفوس العظماء من الموتي كرامة عند الله كالوسطاء بينه و بين خلقه وانتقلوا من هذه العقيدة الى عبادة الملوك والابطال والاسلاف كما تصنع اليابان في هذا الزمان واحد ملوكهم نيقوس الذي شيد مدينة نينوي التى كانت احدي حواضر بابل وآشور وقد علا نجم هذه الطائفة فى أوائل القرن الحادي عشر قبل المسيح (٢٠٥٠) وكان ابراهيم الخليل من هذه الطائفة ولكنه ثار عليها وخرج على أبيه الذي كان من صناع الأوثان وعبادها ومن طوائفهم الحنفاء القائلون بان الروحانيات منها ما وجودها بالقوة ومنها ما وجودها بالفعل فما هو بالقوة يحتاج الى ما يوجده بالفعل وعلى قول ابن خلدون يقر هؤلاء الحنفاء بنبوة ابراهيم وانه منهم .

والذي يهمنا من أمر الصابئة انهم أول من قال بالنبوة فقال أحد أئمتهم بيد ان بأن من يدرك عالم الأرواح فهو نبى وان النبوة من أسرار الالوهية وكلا المجوس والصابئة لم يعبدوا الشمس أو الأصنام الا لاعتقادهم بأنه سبحانه يسكن الأولى ويحل فى الأخيرة .

ثم ظهرت تقاليد وسنن كلدانية وفريجية ويونانية وفارسية وصينية وهندية وامريكية (الهنود الحمر) ومكسيكية وكلها مجمعة على أن الانسان قد انذر بالطوفان وان الطوفان كان عقاباً للانسانية على ماظهر منها من الشر ولم تنج من الفرق الا أسرة واحدة وانها نجت على فلك مشحون فيه صنوف من الحيوان والطير والدواجن وبلغ جبلا عالياً واستدل على ذهاب الطوفان بالحمامة وان الجنس البشرى تجدد من نسل واحد وهو بلا ريب عين الخبر الوارد فى التوراة .

٣

وبعد ان حبطت زوبعة الطوفان ظهر الفينيقيون القدماء فأخذوا بأطراف من عقائد الصابئة فعبدوا الاجرام السموية والأصنام. وعبد العرب في الجاهلية على طريقة المجوس ثم عبدوا الأصنام والتوتيم. وظهر المصريون القدماء بمدنيتهم العظيمة وعلومهم الباهرة ولكنهم أخذوا عبادتهم عن الصابئة والعرب الأقدمين وتاريخهم الديني معلوم لنا بقراءة تاريخ بلادنا ومشاهدة آثارها.

ولما أخذ اليونان بالعقائد قسموا أربابهم الى درجتين الأولى والثانية وانصاف الآلهة من الثانية وهم عظماء الرجال مثل هيرقل وابولون أما آلهة الدرجة الأولى فهم زحل وتيتان وستاوسر يسه.

وقد نسجوا بخيالهم الشعري أساطير وقصصاً من أغرب ماتصوره العقل وهذه الأساطير هي أساس الميتولوجيا اليونانية وقد نظمها هوميروس في قصيدة الالياذة الخالدة وهناك تقرأ أسماء جوبيتر وفينوس ونبتون وغيرها.

ولم تنقرض الوثنية من العالم الشرقي، على الرغم من ظهور اليهودية والمسيحية والاسلام فان الهنود الوثنيين لايزالون براهمة وبوذيين والبراهمة أنكروا نبوة البشر ومنهم الزهاد الذين يهجرون اللذات الطبيعية وأصحاب الرياضة المطلقة وأصحاب التناسخ وأصحاب الرياضة الفاعلة. والدين البرهمي يعلم بوجود إله واحد فان لهم آلهة أخرى يسجدون لتماثيلها وقد انشق عن برهم ثلاثة آلهة أخرى وهم برهمة وفشنو وسيفا. ويعتقدون أن آدم وحواء لما تجاوز نعيمهما الحد حكم عليهما ان لايعيشا الا من عملهما وكسبهما. وان الأرواح بعد الموت تتناسخ فتمر من جسد الى جسد. واذا تأملت الى ذلك الثالوث البرهمي وجدت ان برهمة يرمز به الى الخلق وبفشنو الى الخير وبسيفا الى الشر وقد يقولون برهمة هو الموجد وفشنو هو الحافظ وسيفا هو المهلك [1].

---

(١) هذه هي عقيدة جاندهي (غاندى) ولكنه تحرر من قيودها ومال الى التوحيد كما علمت منه شخصيا

ويعتقدون بأن هؤلاء الآلهة لابد لكل واحد منها ان يتجسد بهيأة من الهيآت فهم دائماً يترقبون ظهور آلهة متجسدة كالاله الذى يسمونه ديبور ويزعمون أنه عاش منذ خمس مئة سنة وينسبون اليه العجائب .

وروى رومان رولان المؤلف الفرنسى الشهير المقيم الآن ببلدة فيلنيف على شاطئ بحيرة جنيف ان راما كريشنا المتصوف الهندى الشهير ولد من علاقة أمه بآله ظهر لها وباشرها وأولدها هذا الولي العظيم (الكتاب في ثلاثة مجلدات وظهر سنة ١٩٢٩ و١٩٣٠ على التوالي)

ولهذه العقيدة معابد عظيمة في كل بلاد الهند ومنها معبد الآلهة كالي الذى بلغ من الفخامة والضخامة والغنى وجمال الزينة مالم يبلغ هيكل آخر وفي أحضان هذه الآلهة نشأ وتربى الولي راما كريشنا الذى تتلمذ له فيفيكنندا الذى كان أعظم من ظهر فى الهند من رجال الاصلاح وكان له شأن عظيم فى مؤتمر الأديان الذى عقد بمدينة واشنطون سنة ١٨٩٣ وهو خليفة راما كريشنا السالف الذكر .

٤

أما البوذيون فهم أتباع جوتاما بوذا الذى له أخبار طويلة وقصص ووقف كثيرون من علماء اوروبا وقتهم وعلمهم على درس تاريخه وأعماله ومن أهم ما كتب عنه كتاب البوذا وحياته وتعليمه وأصحابه تأليف اولدنبرج استاذ بجامعة كيال ونقله الى الفرنسية فوسيه بباريس طبع الكان سنة ١٩٢١ وقد حقق فيه مولد بوذا فى حديقة لومبيني (ص ٩٥) حيث يوجد عمود كتب عليه « هنا ولد سعيد السعداء ! » وتكلم علي عهد بناريس تلك المدينة المقدسة عند الهنود وكانت غاية بوذا اصلاح الدين البرهمى فجاء الى اورڤيلا حيث يقطن ألف من البراهمة ويشعلون النار المقدسة تبعاً لأمر الڤيدا ويتوضأون فى نهر نيرانچارا (ص ١٣١) فدنا بوذا من المكان الذى يقطنه ملك الثعابين وسحقه بقوته فأعجب به البراهمة ودعوه ان يقضى الشتاء معهم فلبى دعوتهم وأخذ يظهر الكرامات والمعجزات فآمن به رئيسهم كسابا ولكنه لم يستطع ترك أديان أجداده فأظهر له بوذا المعجزة الكبرى وهى

ان حدثه بما يجول فى خاطره فسجد أمامه كساپا واخوته وآمنوا به وسواء صح ان جوتامابوذا كان ملكا - ابن ملك ترك العرش والزوجة والولد وهو فى مقتبل العمر ليحارب الموت والألم والفقر، أم كان زاهداً مصلحاً خلا بنفسة للعبادة والتجرد حتى قويت نفسه على الكفاح الذي استعد له، فانه لانزاع فى أن البوذية التي سبقت المسيحية بستة أو سبعة قرون كان لها شأن عظيم فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى. فقضت تقريباً على تعاليم البراهمة ونقلت ملايين الناس من البرهمية المستبدة المظلمة الى عقيدة أفضل وأرقى ومن العجيب ان جوتاما بوذا ظهر في سنة ٦٢٣ قبل المسيح كما ان النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ولد فى سنة ٦٢٥ بعد المسيح أي ان بين كل من هؤلاء الأنبياء الثلاثة سبعة قرون. وليس لفظ بوذا اسما انما صفة ومعناها المنور أو المطلع أو المدرك.

وقد عارض بوذا دين البراهمة القاسى بدين مؤسس على الحنان والرحمة نحو المرأة ونحو الضعفاء والبائسين والمرضى وصدق فى مبدئه الأول وهو مكافحة الألم والشر في العالم وقد قسمت حياته الى اثنى عشر قسما أهمها القسم العاشر وفيه خبر ابتدائه فى تعليم الدين واجتماع الرجال والنساء والأغنياء والفقراء والمرضى حوله وايمان كثيرين من الأمراء والحكام به وقد أسس مدينة سرافاستى علي شاطيء الجنج حيث شاد معبداً. ولا ريب فى أن جوتاما انقطع للعبادة والتقشف ست سنين وقد بدأ خلوته وهو فى الثلاثين من عمره وانه هزم خصمه ماريا االذي جمع جيوشاً جرارة لهلاكه

وخلاصة مذهبه القول بالثواب والعقاب بعد الموت ويسمون دار الخلود جوكوراكف أي السعادة الأبدية وسعادةُ كل انسان تكون بحسب استحقاقه، ولا تنال تلك السعادة الا بالتقوى والمحافظة على نواميس بوذا وهى خمسة (١) لاتقتل (٢) لاتسرق (٣) لاتزن (٤) لاتكذب (٥) لاتسكر سكراً شديداً.

والذين يخالفون تلك النواميس ترسل أرواحهم الي دار الشقاء واسمها دسيجوكف ليعذبوا فيها الى حين. غير أن العالم اولدنبرج السالف ذكره أثبت في ص ٣٣ من ترجمة

بوذا وشرح تعاليمه أن هـذا المبدأ مبدأ الخلود والعـذاب والثواب لم يكن معروفا عند البراهمة بل منكوراً بتاتاً فقد جاء على لسان ياجنا فالـكيا أنه قال لامرأته « لاتطمعي في الخلودسوف تصيرين كالأغنياء ولـكن الغنى لا يضمن الخلد ، لايوجد إدراك ولا حياة بعد الموت » فـكانت البوذية تتقدم تقدماً عظيما على البرهمية لأنها وضعت حداً للحياة وجعلت جزاء للخير وعقابا على الشر .

وقال بوذا « كل مركب مآله الى الفناء » وغاية الانسان هي الخلاص من الأوجاع والهموم وعندهم أربع حقائق متعلقة بالألم ومصدره وتلاشيه والوسائل الموصلة الى تلاشيه . ولهم طرائق الحقائق في ملاشاة الألم .

ومات بوذا فى الثمانين من عمره وقاومت جثته النار فـلم تحرق بها . و بعـد موته انقسم أتباعه الى فرق قامت بينها بسبب تشعب الآراء حروب دامية .

و بعد موت بوذا بزمن قصير ظهر الحكيم كونفوشيوس الصيني ومعناه باللاتيني المعلم المحترم وقد نشر تعليمه في حياته وخدم الحكومة ، ولم يقل انه نبي ولارسول وا كتفى بصـفة الحـكمة ولـكن أهل الصين عبـدوه وبنوا الهياكل لتمجيده بعد موته وهم يقدمون الذبائح من الخنانيص والارانب امام هيكله و يركعون امام صورته وله كتب خمسة في الكون والطبيعة والحكومة والسياسة والاخلاق والمرأة ورجال ملته يحفظون كتبه وشرائعـه و يؤدون فيها فحصاً يومياً . وقد تحاشى هذا الحكيم الذي علا نجمه على نجم سقراط وان كان قد عاش قبله ، ان يتكلم في العقائد الدينية بل بذل كل جهده في تنظيم طقوس مفصله وأقام تعاليمه من الحـكمة الادبية على أساس مكارم الاخلاق والاستقامة والعدل والامانة والذمة . وامامنا كتاب صغير في حكمة كونفوشيوس باللغة الانجليزية طبع جاي و بيرو سنة ١٩٠٤ في مائتي صفحة وقد تناول فيه الكلام على الحكومة والآداب والفضيلة والتعليم والزواج وعلاقة الأسرة و واجب الابناء والنساء والملك والاغنياء والصداقة والرجل المتميز العبقري وواجب الحكام ، و تقدم الحضارة والشعر الصيني و بالجملة قد بحث كونفوشيوس في كل شئ ولم يذكر العلاقة العظمى بين الانسان والله . وهذا عجيب من حكيم شرقي في بلاد شرقية كادت تؤلهه .

ولكن كونفوشيوس كما قلنا لم يحاول مطلقاً ان تكون له علاقة بالسماء أو بما وراء الطبيعة أو بما يبعد عن فهم الانسان العادي . بل انه في كثير من أقواله ينكر العناية الربانية ولا يؤمن بالبعث والخلود ولا يعترف بالنبوة ، ولو اعترف بها لادعاها لأنه كان أحق أهل زمانه وأحق بني وطنه بها .

أما الفضائل الخمس التي ذكرها فهي المحبـة والبر والاحتشام والمعرفة والايمان (أى عقيدة الرجل بنفسه) وقيل انها السخاء والعدل واللطف والحكمة والبساطة وقد ذكر الارباب حينا فقال « احترم جميع الارباب ولكن أبعـدهم عنك ما استطعت » ولمن الذين صنعوا الأصنام. ولما حضرته الوفاة عاده صديق له وقال له الا تصلى قبل موتك؟ فأجابه كونفوشيوس أيليق بي أن أصلى !

قال صاحبه : نعم صلوا لأرباب السماء والهة الأرض

فقال كونفوشيوس : لقد صليت من زمن طويل .

وقد ذكرنا كونفوشيوس فى هذا المقام لأنه كان من معاصري بوذا ، ولأن البوذية انتشرت انتشاراً عظيما في الصين . وقلنا انه بعـد موت بوذا نشق اتباعه فرقا فكانت منها فرقة اللاما بالتبت وهم يؤمنون باله واحد وبالثالوث وبالجنـة والنار والتناسخ ويزعمون ان اللاما اذا أشرف على الهلاك اختار صبياً صغيراً موعوداً فتحل في الصبي روح اللاما ويصبح الصبي زعيما الى أن يكبر فهو لاما منذ ما ت سافه . وما اللاما الا تجسيد لالاههم «لا» وهو يقيم على وضع التربيع في مكان خفي بقصر باتولى ويعبده أهل التبت ولأتباع لاما فرقة في بورمانيا وأخرى فى جداما

ومن فروع البوذية السينتوية ومصدرها بلاد اليابان وهذه السينتوية قائمة على عبادة الاوثان وكان اليابانيون يعبدون الشمس ثم عبدوا الحصان لأنه من أعوان الشمس وللفرس صور معلقة في هيا كلهم واليابان لا يتعرضون للمذاهب الدينية ما دامت لا تمس سلامة الدولة ولا تقلق راحتها ولذا سهل نشر الأديان المنزلة في اليابان

والسينتيون يعتقدون بالله واحد خالق كل شيء وله كل صفات الكمال ولكنه منزه عن الشؤون الدنيوية وقد تنازل عنها وسلمها لأرباب غيره فادارة العالم في أيدي أرواح كثيرة وقاعدتهم التمتع بالسعادة في هذا العالم ولا يعرفون الاشيطان الثعلب لأنه أفتك الحيوان بزرعهم وعندهم خمسة أمور يعولون عليها في دينهم (١) نار طاهرة (٢) التطهير الروحى وهو الخضوع التام للعقل والجسد وهو الاحتراس من كل نجس كالدم وبعض اللحوم ومعاشرة السفهاء واستماع فحش القول (٣) حفظ الاعياد الكثيرة (٤) الحج الى الاماكن المقدسة (٥) عبادة الالهة في الهياكل والبيوت .

ومن علومهم الخفية التي يكتمونها عن العامة القانون الاخير المتعلق ببداءة كل المخلوقات ولا يبوح به الكهنة للطلاب الا اذا تعهد الطالب بالكتابة انه لا ينجس ذلك الشيء المقدس باظهاره للعامة والجهال وهذا القانون في كتابهم المسمى اودا كى وترجمته « في بداية فتح كل الاشياء كان الخلود والخلوا سابحين كما تسبح الاسماك في البحر للتنزه فخرج منهما شيء متحرك وقابل للتغير فصار ذلك الشيء نفساً أو روحا واسمه كونيتو كودا تسنوميكوتو »

٥

عباد الفتيش يبلغون مائتي مليوناً من البشر الذين لا يزالون على حال من الهمجية وهم من أهل أفريقا والجنس الاسود بصفة خاصة. ويراد بالفتيش الشيء الذي له روح أو خال من الروح كالشجر والصخر والبيض والشوك وعروق الحشائش والحبوب وغيرها . وقد شرح عبادتهم سير چون لوبوك (لورد افبري) في كتابه أصول المدنية ، وهربرت سنبسر في كتاب علم الاجتماع وهو الجزء الثالث والرابع من فلسفته . وبعض هؤلاء المتوحشين يعبدون الاصنام ويصورونها على هيأة إنسان أو حيوان مخيف أو عفريت من الجن ومنهم من يدين بعبادة فتيش خاص يعتقد تعظيمه كالثعبان والنمر والتمساح والاليجاتور والغوانا ومعظم عبدة الفتيش من سكان أواسط أفريقا وغربها وشاطيء الذهب ونيجريا . وسنجامبيا وهؤلاء الناس اذا اعترض عليهم المبشرون وغيرهم بعبادة هذه الفتيش من الجماد والحيوان ردوا عليهم بأن عقيدتكم توافقكم ونحن نمقتها ونهزأ بها ، كذلك عقيدتنا توافقنا ولا يهمنا

مقتسكم اياها وسخريتسكم منها وممن يدينون بهذه الفتيش سكان الجزائر بالمحيط الهادي وهم من أهل الجمـال وبلادهم غنية بأنواع الفواكه والثمار الشهية وشواطؤهم ملآنة باللآلئ وهم اباحيون لاسيما سكان « جزيرة الجمعية » الذين ألفوها بينهم لانتهاز فرصة الحياة والتمتع بكل ملاذها ، ومقاومة امتـداد النسل . ومن هؤلاء الناس من يضحون بالبشر لمعبوداتهم الصخرية والخشبية

وهم يعبدون الجمال بحيث اذا ولدلهم مولود مشوه أو دميم قتلوه ، ويعتقدون بالسحر والأرواح الشريرة ولـكل قبيلة منهم رئيس سحرة اسمه كاجور ، يعالجهم ويغنيهم ويستنزل لهم المطر ويتوسط بينهم وبين الفتيش واذا تدلل عليهم في اجابة طلب من مطالبهم قيـدوه وضربوه حتي يستجيب لهم . وهم لايعرفون الحلال والحرام بحسب معتقدات أصحاب الأديان المنزلة ويكرهون أهل الجنس الأبيض ولـكنهم يكرمون الضيف ولا يطلعونه على أسرارهم ولهم فى الحرب شجاعة فائقة ، ولهم ألعاب ومراقص وحفلات مدهشة ، ويشوهون وجوههم وأبدانهم فى سبيل مايعتمـدونه زينة كخزم الأنف والشفة العليا وتـكبيرها ومطها والوشم على كامل البدن وغرس الدبابيس فى الرأس والشعر وطلى الجسم بالوان زاهية .

٦

لقد قطعت الانسانية هذا الطريق الطويل كله ، ولا تزال شعوب تعد بعشرات ومئات الملايين تسير فيه ، قبل أن تصل الى الديانات المنزلة التي هى اليهودية والمسيحية والاسلام . وقد كانت هذه الديانات تقدما عظيما على ما سبقها وما لا يزال معاصراً لها من المعتقدات الوثنية . فان أسيا كلها لا تزال وثنية ماعـدا مائة أومائتى مليون من المسلمين فى الصين وأندنوسيا والهند وتركستان وبلاد فارس . أما اليابان كلها والصين والهند فلا تزال بوذيه وكونفوشيوسية وسينتوئية . ولا تزال أفريقا بأسرها فتيشية ماعدا خمسين أو ستين مليوناً فى شمالها وشرقها وغربها .

ولـكن اليهودية كانت فتحاً عظيما بالنسبة لتلك المعتقدات الوثنية فقد جاءت شريعة منظمة بعقائد ثابتة وطقوس شريفة بعيدة عن دنايا الوثنية والفتيش ولسنا فى حاجة للـكلام على

واحـدة من تلك الديانات الثلاث المنزلة لانها معلومة للجميع وكتبها المقدسة بين أيدينا واحبارها وقساوستها ومشايخها بين ظهرانينا ومعابدها وكنائسها ومساجـدها قائمة فى وسطنا ومحيطنا .

ولـكن أردنا ذكرها لندال على أمرين الأول انها كغيرها من الأديان السالفة الذكر قد ظهرت جميعها فى الشرق ولم تظهر واحدة منها فى أوربا أو أمريكا أو أفريقا لأن عبادة الفتيش التى ذكرناها في أفريقا لا تعد دينا بل هى مجموعة أساطير وأوهام أدخل فى فن الفولـكلور وعلوم الشعوب منها في الاديان والعقائد .

ولـكن العجيب فى أمر الأديان المنزلة فى الشرق انها هى أيضا قد انشقت فرقاوشيعاً فـكان من اليهود الفرقة الصاديكمية والسمرة والصدوقيون والفرقة الخاسيديمية والفريسيون والـكتبة والاسينيون والهيروديون والليبرتيون . وكذلك في المسيحية ظهرت فرقة الأجنوستيك أو العارفون والدوسيتيين والـكورنثيين وفرقة الابيونيين والمانوية (نسبة الى ماني الفارسى الذى انتحل النصرانية فى القرن الرابع المسيحى) والنيقولاويون وظهرت فرق للبحث فى طبيعة المسيح وفرق فى المجادلة وهم البيلاچيون ثم أخذت المجامع تلتئم فـكان المجمع النيقاوي فالقسطنطيني فالافسى فمجمع اللصوص (ص ١٤٩ من تاريخ الاديان لنوفل) فالمجمع الخلكيدونى ثم ثلاثة أو أربعـة مجامع في القسطنطينية ثم في نيقيا وفي رومه والمجمع اللاتيرانى والليونى والفيرنزى (نسبة الي فيرنزه بايطاليا) والباسيلي والروماني والترنتواني . ولا تزال المجامع تعقد في رومه وتصدر التعاليم الأخيرة وآخرها المجمع الاوكمنيك ١٨٦٩ — ١٨٧٠ الذي عقد في رومه

ولهذه الديانة كنائس تقاليدية أشهرها الـكاثوليكية والارثوذوكسية والانجيلية أو البرونستانتية. ومن أهـل الفرق اليعقوبيون والسريان والافيقيون والأرمن والنساطرة أو الـكلدان وقامت في روسيا قبل الثورة شيع تزيد عن مائتى شيعة ولا يقـل اتباعها عن خمسة عشر مليوناً ومنهم رافضو عماد الأطفال وأصحاب التبتل ومنهم من ارتدعند ماشاع أمر عصمة البابا

وكانت أعظم الشيع المسيحية اتباع لوثيروس وكالفن وزنجويل وكلهم محتجون وانتشرت مذاهبهم في ألمانيا وهولاندا وانجلترا وسويسرا والسويد والنرويج .

وكان في انجلترا الموحدون والمطهرون وكلما صعدت الى الشمال وجدت فرقاً تخالف البروتستانت وتعلو عليهم . ومن السكسون فرقة الكويكرس واتباع سويد نبرج وكل فرقة تخالف الأخري وتقاومها وتنكر معتقداتها . كما أن جميع اليهود يخالفون النصارى وينكرون ديانتهم .

٧

وإن هذا الدين الحنيف لم يخلص من البدع التي ظهرت فيه وأوجبت وضع علوم الكلام فقد ظهر فيه المعتزلة والمشبهة والقدرية والجبرية أو المجبرة والمرجئة والحرورية والنجارية والجهمية والرفضية والخوارج . وكل فرقة من هذه الفرق انقسمت الى فرق صغري وشيع

وقد استعرضنا الأديان التي ظهرت في الشرق لنقف القاريء على حقيقة مهمة وهى أن معظم الأفكار الدينية والروحانية التي ظهرت في العالم انما كان مصدرها أسيا ، حتي الدين المسيحي الذى ساد في أوربا وأمريكا ، وأن أمم الشرق لم تقنع كغيرها بعقيدة واحدة ولم تصلح بمرشد واحد أو مرشدين بل احتاجت في حياتها النفسانية الي عشرات الاديان وكل دين ينطوي على مئات من الشيع والفرق والاحزاب . في حين أن ممالك أوروبا وأمريكا وهم ذوو مدنية عظيمة وقوة مادية أعظم قد دانوا بدين واحد وهو النصرانية ، وان كانوا من قبل وثنيين الا أن تلك الوثنية قد زالت واتخذوا الدين المسيحي فى كل بقعة وأرض وشعب من سواحل سيبريا شرقا الي شواطئ المحيط غرباً .

وحتى وثنيتهم كانت ترجع الى عبادة الكواكب والابطال (في اليونان وروما)

ولم تنزل الى عبادة الاحجار والأشجار ، وان الأمم الاسيوية والافريقية التى أقبلت علي الأديان المنزلة وهى اليهودية والمسيحية والاسلام ، قليلة جداً بالنسبة للكثرة الوثنية ، ويعد

انتحال واحد منها في أسيا أو أفريقيا استثناءاً فان للبرهمية والبوذية وعبادة الأفيال والكونفوشيوسية والسنتينونة القدح المعلى فى شعوب أسيا ، والاسلام فى كل من الصين والهند وجزر المحيط استثناء ، ما عدا أهل أندونوسيا وبضع عشرات الملايين فى بقية أسيا. ولعل قارة أفريقا هى وحدها السائرة نحو الاسلام بقدم ثابتة ولكن لابد من مضى بضعة اجيال علي انتشار الاسلام فيها .

فماذا استفاد الشرق من هذه الروحانية المبالغ فيها؟ في حين أن اهل أوربا وأمريكا واستراليا سنوا الشرائع ونظموا المجالس وأحدثوا حضارة قوية التهمت الشرق بأجمعه. ان الشعوب الشرقية استغرقت كل قواها فى المباحث التى وراء الطبيعة وبعد الموت وفي أعلى السموات ولم تصرف كثيراً من جهودها فيما هو ماثل امامها على سطح الأرض، ان في الهند براهمة واصلين يمكنهم نقل الجبال بايمانهم ، ويأتون فى كل يوم بالعجائب التي نقرأ عنها ونراها ويقربها كتاب فضلاء أمثال رومان رولان فى كتابه عن راما كريشنا وفيفيكنندا، ولكن هؤلاء القديسين والواصلين الذين يتحملون أشق الآلام فى تعذيب أبدانهم وأماتة نفوسهم ، وبلغوا الذروة من العلوم الروحانية ، وعبدوا الآلهة والارباب المتعددة الايدي والرؤس والأرجل وزينوا الهياكل بالأحجار الكريمة والذهب والفضة، لم يقدروا على ابطال فعل مدفع واحد في حروب الاستعمار التى أعلنتها عليهم أوروبا . وان شئنا التأدب فى مقامهم قلنا أن أهل الباطن لم يرغبوا في التدخل في أمور أهل الظاهر ، فهل من وراء هذا كله فائدة للشرق ، وهل الاستمرار على هذه العبادات الوثنية السخيفة يعود على الشرق بخير ، بعد أن تبددت قوي هذه الأمم [1] ؟

حقاً اننا رأينا أمة وثنية اسيوية تكافح وتتحضر وتتغلب على دولة اوروبية ، وهي اليابان ولكنها وحيدة ومنفردة والبحث في معتقداتها أدى بنا الى العلم بأنهم لا يكترثون كثيراً

---

(١) لاننكر ان غاندى مستمد طريقته الروحية من تلاميذ راما كريشنا وهو يستعين بالزعيم الدينى الأكبر ، وقد يعطى التصوف الهندى ثمرته اذا أنتجت جهودها خيرا للوطن .

لأ ربابهم ويتخذونهم وسائل للوصول الى أغراضهم الدنيوية . وهل لابد للشرق من الافراط في الأديان بعد الذي رأينا ؟ ان اوروبا تعير البيزنطيين بما وقعوا فيه من الافراط في الاشتغال بالدين بمناقشات بيزنطية ، أدت الى اقتحام الترك عاصمتهم وهم يبحثون في هل الملائكة ذكور ام إناث ، وهل للمرأة روح مثل الرجل أم لا ، فهل تريد بقية أمم الشرق أن تقع في مثل ماوقع فيه أهل بيزنطه من الخيبة والخسران !

وقد حدث في العهد الاخير حادثان جليلان في تاريخ العالم ، أولهما ان الروس وعددهم ٤٠٠ مليون وكانوا زعماء الكنيسة الارثوذكسية ، وكانوا من المتعصبين للدين ومن أهل التشدد في المذاهب قد طلقوا الدين المسيحي بتاتا ، ونشروا الالحاد وأقاموا له هيكلا كان أصله مجمعا للقساوسة والپاپوات الارثوذكس ، وهم لم يصابوا ببلاء ولا تزال دولتهم قائمة .

وفي تركيا ادخل مصطفى كمال اراءً جديدة وغير من مظاهر المسلمين في أحوالهم ، وصرف النظر عن الاشكال ، ووجه قوته الى تنمية الدولة واعظام شأنها . ونقل الكتابة من الحروف العربية الى الحروف اللاتينية ، فقامت عليه قيامة فريق من الناس يقدسون الدين دون سواه ، وقام مدافعون عن مصطفى كمال يبررون فعله بما جرى لدولته وقومه على ايدي اوروبا لأنها كانت دولة الاسلام الكبرى . فكانت اوروبا تضطهدها وتحاربها وترمي الى هلاكها واغتصاب املاكها حتى قضت عليها . . والأعجب والأدهى ان المسلمين أنفسهم الذين كانوا تحت أحكام تركيا انتابوا عليها وحاربوها ولم يساعدوها في ظرف من ظروف الضيق التى وقعت فيها .

فلم يساعدوها عندما اعتدى عليها الموغول منذ سبعمائة سنة ، وجرد محمد على وابراهيم جيوشهما لمهاجمتها في عهد السلطان محمود في سوريا والاناضول ، وهما من رعاياها وولاتها ،

وفي حرب روسيا لم يتقدم الى مساعدتها الا أفراد متطوعون ولم تسير دولة اسلامية جيشاً من جيوشها للمحاربة في صفوف الاتراك الا لماماً . وفي العهود الاخيرة خلق لها العرب أنواع القلاقل في جزيرة العرب وسوريا والعراق حتى قضوا عليها . ووجد الحلفاء وزراء من

الاتراك وشيوخاً من مشيخة الاسلام يفتون بكفر مصطفى كمال ومن معه ويمرقهم من الدين ليسيئوا الى سمعتهم في العالم الاسلامي ، أما هم وسادتهم الذين كانوا منغمسين في المعاصي والفجور الى أذقانهم وكانوا يمدون أيديهم لرشوة الأجنب فلم يكونوا خائنين ولا مارقين ؛ ولاملحدين بل طهرة أبرارا ! ولما ذهب ملك تركيا بفعل اوروبا من جانب و بفعل المسلمين من جانب آخر ، وسقطت تلك الخلافة البالية البائدة التى لم يكن لها معنى ولاطعم ولا ذوق ولاقيمة ، قام المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومعظمهم مأجورون ووسطاء ، ينعون على مصطفى كمال سلوكه ، و يطعنون في شرفه وذمته واخلاصه واخلاقه ، ويهددونه بأنه فقد الجنة ! ! كأنهم هم ضمنوها لأنفسهم وأخذوا بها صكا على رضوان !

ولم يقف الامر عند ذلك بل ان أحد المسلمين واسمه مصطفى الصغير وهو مسلم هندي ، دخل الى تركيا باسم جمعية الخلافة المؤسسة في الهند وتجسس على الرجل وأخذ يرسل التقارير الى سادته الذين ربوه في عليجره وفي اكسفورد واطلقوه كالافعى السامة ينفث سمومه في دولة الاسلام الباقية [1]

ولكن مصطفى كمال ورجاله تمكنوا من القبض عليه والحصول على اعترافه ودقوا عنقه بعد ذلك ، وقد أعلن هذا اللعين اخلاصه ورقبته في حبل المشنقة ، لأحد ملوك اوروبا وقال « انه يترك أسرته امانة لدى جلالته » .

٨

وقد أظهر مؤلف « تاريخ الخدمة السرية الانجليزية » أسراراً وخفايا تكاد تكون من الاحلام أو نوعا من أنواع الكابوس الذي يعتري النائم . على ان مصطفى كمال هذا لم يوشك أن يحرر بلاده وشعبه ويلم شعثه ويعلن الجمهورية ويفصل الحكومة عن الدولة ويتخذ القوانين الاوروبية الحديثة المدنية والجنائية والدستورية حتى قامت اوروبا تناوئه ، وقد

---

(١) وبأسم جمعية الخلافة وأذنابها يعيث شوكت على فى الأرض ، وان كننا نربأ به عن الحظ الذى صادف مصطفى الصغير ! ! !

استعملت في هذا مشايخ الطرق المناحيس من الاكراد وغيرهم فقامت في بداية الامر فتنة في اصطامبول اعدم بسببها رجال كانوا فيما مضى نابهين أمثال جاويد باشا الذي باع حياته رخيصة في سبيل مؤامرة منحطة ، وكان يمكنه الاستفادة من مواهبه الاقتصادية وانتفاع البلاد به ، ثم تلتها ثورة الاكراد الأولى وكان محركها شيخا مفتونا وتغلب عليها مصطفى كمال بعد جهود عظيمة ثم تلتها ثورة الاكراد الاخيرة (١٩٣٠) وكان زعماؤها من المشايخ المتصوفين الذين يرون في أعمال مصطفى كمال كفراً وخروجاً على الدين ، فعذرناهم لجهلهم وتعصبهم وربما رثينا للشيخ الذي مات فرقا قبل الوصول الى حبل المشنقة ، ولكن بعد أيام انكشف الامر عن القبض على سبعة ضباط من الانجليز كانوا يدبرون تلك الفتنة وقد اعدموا رمياً بالرصاص ولم ينطقوا بحرف واحد . و إذن كانت اوروبا وراء هذه الثورة أيضاً وغايتها خلق المشاكل لمصطفى كمال حتى تسقط دولته . فلو كان مصطفى كمال ملحداً وخرج على الاسلام لينال حظوة اوروبا لم تكن اوروبا لتسلط عليه جنودها وضباطها وتنفق الاموال في خراب بلاده. فالافضل للمسلمين في الشرق أن يتركوا نغمة الانتقاد والتقريع ضد مصطفى كمال وغيره وان «يتركوه كما تركهم[1]» وان ينظروا الى شؤونهم الخاصة ببلادهم وأوطانهم وأن ينظروا الى الجذع الذي في أعينهم بدلا من أن ينظروا الى القشة التى في عين جارهم .

ان الدين لله ويجب ان يبقى بين الانسان وربه ، وأن لا ندخله في كل شيء ونجعله مسؤولا عن كل شيء ، لقد انشغلت أفكارنا بالدين وشؤونه حتى انسدل على بصيرتنا وأبصارنا حجاب كثيف لا يكشف ما وراءه فعمينا عن حقائق الامور الملموسة ان الدين لا دخل له في أعمال البشر ، ولا سيما في السياسة، فما انشغالنا نحن المسلمين بالحلال والحرام والجائز والمباح والمحظور في السياسة والخلافة والامامة هو الذي ينقذنا أو يميتنا على حق ولكنه يورثنا الخبال والحيرة ، وقد أمرنا الدين بامور واضحة ونهانا عن مثلها بجلاء ، وفي أنفسنا قوانين سامية تدلنا بالفطرة على أن الحلال بين والحرام بين فلا فائدة من اندفاعنا في التفصيلات

(١) في الحديث الصحيح « اتركوا الترك ما تركوكم »

اندفاعا أعمى بعد ان تركنا الكايات . لقد تركنا العمل وتعلقنا بالأقوال ، وودعنه الشجاعة والوفاء والاخلاص والايمان بالله والثقة بالنفس و استقبلنا الصغائر والتمسك بالحروف

ولا ننسى ان الأديان قد أورثت في كل بقاع الارض حروبا فأهل الدين الواحد يحاربون بعضهم بعضا وأهل الأديان المختلفة يتحاربون كل يريد انتصار طائفته ، فاهرقت دماء كثيرة في سهول العالم وجباله ومدنه ووديانه .

فالنصاري اضطهدوا اليهود وطردوهم من بلادهم وطاردوهم فآواهم الاتراك والاسلام والشيعة حاربت أهل السنة[1] ، والنصارى حاربوا المسلمين وأجلوهم عن الأندلس ، والكاثوليك قتلوا البروستانت فى موقعة سانت بارثلميه الغادرة ، وأوروبا أعلنت علي الاسلام الحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب قد انتهت الآن وأصبحت اوروبا تهاجم الشرق لكونه شرقا سواء أ كان أهله مسلمين أو نصارى أو وثنيين . والكلمة ليست اليوم للايمان ولكنها للغلبة والقوة في سبيل السيطرة السياسية والفتوح الاقتصادية .

فيجب على الشعوب الشرقية ان تنظر الى ذلك بعين البصيرة وان توجه همتها الى الدفاع عن كيانها لا باسم الدين ولا بسببه ولكن باسم القومية وباسم الحضارة وباسم الانسانية . وان نجعل الدين رائدها فى الامور النفسية والخلقية

ان المعتقدات ثروة روحانية ، وليست مثاراً للاحقاد ، وان الانجليز قد اتخذوا من الفروق الدينية في الهند سلاحا من أفظع الاسلحة ، فكان الشقاق بين الهندوس والمسلمين سبباً دائما لسيادتهم ، وطالما قامت في مدن الهند المقدسة كبنارس وكلكتا وأحمد آباد فتن عظيمة بين الهنود والمسلمين أريقت فيها الدماء وضحكت بسببها بريطانيا لأنها علمت أنها الوسيلة الوحيدة التي تضمن سيادتها ونفوذها . ولم تخش انجلترا جانب الهند الا بعد ان ظهر شبه ائتلاف بين الهندوس والمسلمين ، وقد أذاع الأنجليز حجة جديدة

---

(١) اغتبط العالم الاسلامى بصلاة زعيم الشيعة اماما لاهل السنة فى المؤتمر الاسلامى بالقدس سنة ١٩٣١ ٨ ديسمبر

ضد الاسلام لمصلحة الهندوس فقالوا في صحفهم « اننا هنا نحمى البراهمة والبوذيين من اعتداء الاسلام الذي لا يزال قوة فاتحة في الهند ، ولكنها الآن كامنة نائمة وانما نومها الي حين فاذا تركناكم لن تلبث ان تتيقظ وتعيد الكرة على بلادكم لاذلالكم وقهركم وتأسيس دولة اسلامية تماثل دولة الموغول »

ولم تكن الهند وحدها التي سلكت فيها انجلترا هذا المسلك بل انها اعبت بهذه النار في مصر أيضاً ففى سنة ١٩٠٧ عند ماتولى غورست مكن كرومر خلقوا مسألة الأقلية والأكثرية ، وادعى بعض الأقباط أنهم مظلومون وخائفون ، وكتب بعضهم « الانسانية تتعذب » وسافر قرياقص ميخائيل الى انجلترا حيث وضع على رأسه قبعة طويلة وحمل على المسلمين حملة منكرة في الصحف والمجلات ، وادعوا أن حركة مصطفى كامل اسلامية متعصبة لأنه كان في أول عهده ينتمي الي السلطان عبد الحميد ، وحاولوا انكار نبوته الوطنية . ولم تمت هذه الفتنة الا فى حركة سنة ١٩١٩ حيث تعاهد الاقباط والمسلمون على الاتحاد فى المسألة الوطنية وتعانق قسس الاقباط مع مشايخ المسلمين وخطب الشيوخ في الكنائس والقسس في المساجد . وارعوى قرياقص عن غيه وطويت صحيفة الوطن التى كانت مصدر هذه الحركة الخطيرة . ولم يكن ذلك الاتحاد الا ثمرة الآلام التى ذاقها العنصران وأدركها عقلاءهم ، وتبينوا أن الأمر كله دسيسة انجلبزية يقصد به الي تفريق الكلمة وتشتيت الشمل . ثم ان هؤلاء المشايخ الذين ينتمون للاسلام قد رأينا سوء فعالهم في مجرى التاريخ من عهد جنكيزخان الى عصرنا هذا مارين بأدوارهم في الدول العباسية والأموية والفاطمية والعثمانية كفانا الله شرهم وحفظنا من كيدهم .

٦

١

في سنة ١٩٢٩ نعى كاتب انجليزى في مجلة دولية (مجلة جنيف اغسطس) على الامم الاوروبية المستعمرة أنها تركت الشعوب الشرقية تتمتع بحرية الاعتقاد، ولم تحاول تنصيرها. وقال: ان اختلاف الدين بين الحاكم والمحكوم يخلق للحاكم مصاعب شتى ولا يجعله يطمئن للمحكوم. فضلا عن أن الدين الاسلامى يمتزج مع السياسة فيجعل لأتباعه قوة المطالبة بحقوق قد يغضون عنها لو كانوا نصارى، فالشرقى المسلم قد يلبي نداء الجامعة الاسلامية أو الجامعة العربية مهما شت المزار بينه وبين الداعي. ولكن الشرقي المسيحى يلبي نداء الكنيسة البروتستية أو الارثوذكسية، ولا يندب حظه كلما ذكرت حرية الوطن لانه يعلم أن سادته الاوربيين أشفق عليه من غيرهم.

وخطأ هذا القول ظاهر فان أصحاب العقائد المختلفة في البلاد الشرقية متساوون في حب الحرية وفي المطالبة بحقوقهم المهضومة.

أما أسف الكاتب على أن اوروبا لاتحاول تنصير الشعوب المغلوبة لها فى افريقا وآسيا فأسف في غير محله. فان المبشرين يعملون باجتهاد عظيم في افريقا وآسيا منذ أكثر من خمسين عاما ولهم زعماء مثل زويمر ولهم مؤلفات ومجلات وجرائد ومؤتمرات ولهم رؤوس أموال طائلة يستخدمونها فى هذا السبيل ولكنهم لم ينجحوا فى الممالك الاسلامية حتي الآن في تحويل أحد عن عقيدته حتي قال بعضهم « لقد ردنى أحد الاعراب المسلمين رداً عجيباً حيث قال ياسيدى المبشر ان من تعود النوم على السرير لايقبل غيره مرقداً، فلم أفهم قصده وتركته وانصرفت». ولكن الذى نسمعه ونقرأه من محاولة الفرنسيين تنصير البربر لابد أن يثلج صدر هذا الكاتب في المجلة الدولية. لأن الفرنسيين استصدروا من سلطان المغرب الأقصى ظهيراً يبيح لهم تنصير الأمة بأسرها. وهم تارة يقولون ان البربر أصلهم

رومان فهم شعب لاتيني طرأ عليه الاسلام ولكنه عريق في المسيحية فيجب علينا رده الي حظيرة المسيح ، وطوراً يقولون ان هذا الشعب قد اختار الردة بحرية مطلقة وليس لنا يد في دعوته الى الصليب . ثم تراهم حيناً يدعون العدول عن تطبيق هذا الظهير جهراً ليتقوا الفضيحة أمام العالم .

ولا نظن أن هذه الحالة طارئة على أذهان المستعمرين الاوربيين ، بل انها قديمة وعريقة وقد لجأت اليها روسيا القيصرية في استعمار التركستان الغربية فقد روي و . ق . أحد زعماء تركستان الغربية في سنة ١٩٠٤ ما يأتي نقلا عن « العالم الاسلامي » لمصطفى كامل :

٢

بعث الينا أحد أفاضل المسلمين بالتركستان هذه المقالة فننشرها بحروفها :

« بقدر ما بين المسلمين من بعد الديار وتنائي المزار فاننا نحس كأن مصابنا تتشعب منه خيوط تصل الي أفئدة اخواننا المسلمين في أقصى المعمورة ليتألموا مما ينصب علينا من المظالم التي تنهال علي رؤوسنا من دولة الروس في كل وقت وآن .

لهجت الجرائد على اختلاف نزعاتها بما يتوقع من الخطرين الأصفر والأبيض ودافعت كل منها بما يوافق مصلحة دولتها فان جرائد اليابان صورت الخطر الأبيض بشكل يقشعر له العالم المغولى من ذلك الدب الذي تشعبت له ثمان أيد كل منها تحيط بما طمحت اليه المطامع الأشعبية الروسية كما ان الجرائد السلافية ملأت أنحاء اوربا بتلك النعرة التي استفزت بعض دول الغرب ممن رائدها الطيش لأي حادث تعودت ان تخرج فيه عن الحد المعتدل .

ولكننا معاشر مسلمي الروسيا لايهمنا من هذا وذاك الا حقوقنا المسلوبة وحريتنا المهضومة والعمل على ما يرقي مداركنا ومعارفنا بما يوافق مصلحتنا المادية والأدبية سواء لدينا انتصرت الروسيا على اليابان أو بالعكس فان الكيل طفح من التعصب الروسي ضد ديننا الحنيف وارادتنا الشخصية ومصلحتنا العامة مع اننا أول الرعايا المسلمين طوعاً لارادة

القياصرة في دفع الاعانات الحربية والذود عن حمى الاوطان والاخلاص للعرش القيصري وفي مقدمة من يتسابقون الى كل عمل يعود على دولة القيصر بالشرف والمجد والفخار .

أما الأساس الوحيد الذى تدور عليه رحى الحرب الحاضرة فهم المسلمون الروسيون البواسل فان المحتشدين منهم في ساحة الوغى ينيفون عن الثمانين الفاً عداً وما زالت الحكومة الروسية تسوقنا اليها سوقاً ومع كل هذا هل يروق لها ان نتمتع بديننا كما نشاء أو تطلق لنا عنان المشروعات الخطيرة المخولة لباقى الأجناس الذين ضمتهم أكناف المملكة القيصرية ؟ كلا ثم كلا !

كيف نكون أحراراً في ديننا والحكومة جارية على مبدإ مخالف له على خط مستقيم من زمن مديد ؟ ذلك أنه تقرر في سنة ١٧٨٧ تنصير الرعايا المسلمين واستعمال الوسائل القهرية لتنصيرهم رغم ارادتهم على زعم أن مصلحة الروسيا في ذلك فانعقدت الجلسات تلو الجلسات حتى انجلت عن استعمال الوسائل السلمية للوصول الى هذه الغاية ومن ذلك الحين انتشر المبعوثون فيما بيننا انتشاراً مريعاً وأسسوا المدارس الروحانية الدينية وجبرت الحكومة المسلمين على دخول أبنائهم فيها ليتلقوا مباديء الدين المسيحى وعبارات الشتائم والطعن على نبينا الكريم ونسبة التبديل والتحريف للقرآن المجيد وغير ذلك مما يبرأ منه ديننا الحنيف فساءت العاقبة وعم البلاء وأصبحنا نندب سوء حظنا من هذه المعاملات التى تشف عن بغض ذميم لدين الاسلام وأهله .

ربما توهم القاريء لهذه المقالة أنه يمكننا أن ننشيء المدارس طبق رغائبنا أو نتعلم فيما بيننا ولكن ذلك من رابع المستحيلات فانها منعتنا من تأسيس المدارس كما حرمت على أبناء وطننا أن يتعلموا خارج بلادهم تعليما صحيحاً ولو فرض وتعلم واحد منهم في البلاد الاجنبية شددت عليه المراقبة ولاحظته في حركاته وسكناته كأنه ارتكب أعظم الجرائم أو أتى شيئاً اداً !

ومما يكتب على صفحات التاريخ بمداد الأسف أن سكان نواحي « آلصلاى »

كانوا كلهم مسلمين من مدة غير بعيدة فلما حل الروس بساحتهم وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم نزعوا منهم خيراتهم وضيقوا عليهم في جميع معاملاتهم وترقبوهم في حركاتهم وسكناتهم ومنعوهم من المخالطة بمسلمى القزان الذين هم أعرف بسياسة الروسيا وأعلم بالشرع الشريف الذي حرمت عليهم الحكومة أن يتعلموه حتي صاروا ولا علماء بينهم ولا مرشد يقوم معوجهم فاستمروا على هذه الحالة التعسة حتي انتزعت منهم صبغة الاسلام وأصبحوا يتخبطون فى جهالتهم وصاروا كالأنعام بل وأضل سبيلا

فليتها اقتصرت على ذلك بل ألغت معظم المحاكم الشرعيه وهدمت بنيان قواعدها المؤسسة على تقوي من الله ورضوانه فصرنا حيارى من هذا الفعل الشنيع حيث استبدل الشرع الحنيف بالقانون الروسي وما أدراك ماهو القانون الروسى ! قانون قاصر على مصلحة الروسيين غير المسلمين . أما هؤلاء فحقوقهم أمامه لاغية لايعبأ بها في شيء وبذلك فقد نادينا وضاعت حقوقنا في نظر الشرائع الروسية التي تخالف كل شرع سماوي وقانون وضعى وتباين كل ناموس جعلته الأمم عونا لها في هذه المدلهمات ونصيراً فى جميع الملمات ..»

فبأي شرع وبأي قانون تعلن بيع أراضى مسلمي قزان التي يمتلكونها من زمن مديد وانتزاعها من أيديهم وخصوصاً في ولاية « صردريا » التى أصبح أهلها ينتظرون من حين لآخر احداق الفقر بهم وهبوط المجاعة بواديهم ولا راحم لهم ولا نصير !

وقد رفعوا العرائض تلو العرائض الى جلالة القيصر لينصفهم فلم يكن نصيبهم منها الا تركها فى زوايا الاهمال والاعراض عن النظر فى مظلمتهم بل صارت نسياً منسياً .

أما تعصب الروسيا نحو الدولة العلية فحدث عنه ولا حرج فانها منعت المسلمين من ان يستعملوا أى شيء من شعارها أو يقوموا بمساعدة نحوها فقد حرمت عليهم لبس الطربوش العثمانى وأصدرت أمرها رسمياً بمنع لبسه وخصوصاً فيما يلى الولايات العثمانية بآسيا كما منعتهم من القيام بأي اعانة لمشروعاتها الحربية أو الدينية ولذلك لما تكاتف المسلمون على تعضيدها في التأسيسات الحربية وتبرع حضرة المثري « طوس بك حاجى » من أعيان ولاية

(صمريح) سامته من العذاب ألوانا وأفضى الامر ان زج في أعماق السجون

كل هذا يجرى بين أرجاء العالم الاسلامى الروسى وأصواتنا خافتة مضغوط عليها بيد من حديد كما أن الجرائد السلافية عموما والاسلامية خصوصاً محرم عليها أن تذكر شيئا من هذه المظالم لاتصريحاً ولا تلميحاً

هذه هى حالتنا بعثنا بها اليكم ليطلع عليها قراء لواءكم الأغر ويعرفوا مقدار ماتصبه دولة الروس علينا من المظالم الجائرة والتعسفات الهائلة»

١٣ نوفمبر سنة ١٩٠٤

الامضاء و. ق

وقد يتوهم بعض الناس أنه عند ما زال الحكم القيصري وتبلشفت روسيا وزالت من قلبها شهوة الاستعمار وانطفأت من نفوس زعمائها جذوة الحقد على الشرق والاسلام ، أصبحوا يعطفون على الأمم التي كانت خاضعة للحكم القيصري فتركوها تتنفس الصعداء .

ولكن الحقيقة غير ذلك فان هؤلاء البلشفيك الظالمين قد أرهقوا جميع الشعوب الاسيوية الاسلامية والحقوا الاذى بسمرقند وبخارى وخيوه وجميع مدن تركستان الغربية وهم يهددون أهلها بالخراب والقتل ان لم يتركوا دين الاسلام ويصبحوا ملحدين بغير دين وقد جند المرحوم أنور باشا جيشاً عظيما لمحاربتهم في سنة ١٩٢٢ فحاربوه وكانت الحرب بينه وبينهم سجالا يوماً لهم ويوما له حتي هزم واستشهد رحمه الله . فهؤلاء القوم هم أعداء الاسلام وأعداء المدنية الاسلامية ، ولا يمكن أن تتفق معهم الشعوب الشرقية المسلمة مطلقاً بدون تعريض دينها ومدنيتها وحريتها للزوال . لأن الروس البلشفيك لا دين لهم ولا حكومة والمسلمون لهم دين وحكومة . أما المباديء الانسانية المنسوبة للاشتراكية الروسية فلدينا في ديننا أضعاف أضعافها اذا طبقنا مبادئنا على حقيقتها . وربما كانت البلشفية نافعة لأمة همجية أو أمة بغير مدنية ولاحضارة ولا تاريخ. أما نحن فلنا حضارتنا وتاريخنا .

وان الأمل الاخير الذى كان يطمع به المسلمون في أواسط أسيا وهو تحريرهم بعد

ذهاب العهد القيصري قد خاب وظهر أن البلشفيك وعمال نيقولا الثاني سواء في ظلم المسلمين وارهاقهم . وكان عمال نيقولا الثاني يريدون تنصير التركستان ، أي يرغمون المسلمين على استبدال دين منزل بدين منزل . أما هؤلاء البلاشفة فيريدون محو دين سماوي ، ثم انهم لايحلون محله شيئاً سوى تمجيد ريكوف وستالين وانيكين وغيرهم من المغامرين والحيارى وهذا ما لا نرضاه . . وقد استصرخ مندوب الروس المسلمين فى المؤتمر الاسلامى لنصرتهم في ديسمبر ١٩٣١

٣

كتب أوجين يونج وكيل المقيم العام الفرنسى في تونكين رسالة باسم العرب والاسلام امام الحروب الصليبية الجديدة نشرها في باريس في يونيو سنة ١٩٣١ ، وقد نعى فيها على الاوربيين حملتهم المنكرة على الاسلام والعرب في أنحاء العالم وجاء فيها أن قوة اليهود الصهيونية وقوة الفاتيكان الكاثوليكية قد اتحدتا على خراب الاسلام وعلى القضاء على البقية الباقية من مجد أربعمائة مليون مسلم في أنحاء العالم . ويقول الكاتب ان الحروب الصليبية من يوم اعلانها على الاسلام لم تخمد نارها ولم تغمد أسلحتها وقد خطب المدعو فالوفاسوري بيرونى العضو في مجلس الشيوخ الايطالي في ٣٠ مايو سنة ١٩٣٠ خطبة في المجلس جاء فيها أنه يجب توحيد صفوف فرنسا وايطاليا وانجلترا واسبانيا ضد العرب والاسلام . ولا يمكن أن يصدر مثل هذا التصريح بدون موافقة موسوليني لأن حرية الكلام والتفكير في ايطاليا مقيدة بارادة ذلك العاهل المختلف الألوان بين الديموقراطية والارستوقراطية وبين التدين ومصلحة الفاتيكان وحرية الفكر ومخاصمة البابا وتهديده بالحرب والعصيان .

وقد ظهرت غرائز موسوليني في محاربة العرب والاسلام فأمر الجنرال جرازياني فأغلق جميع الزوايا السنوسية وصادر أموالهم لجانب الخزانة الايطالية . وطرد ثمانين ألف ٨٠٠٠٠ رجل وامرأة بأطفالهم وأغنامهم من الجبل الأخضر المشهور بخصبه وحصرهم في بقعة من الأرض غير ذات زرع فماتت أنعامهم وشارفوا هم أنفسهم على الهلاك وقد هلك معظمهم ولجأ ١٠٠٠٠ عربي ومعهم ٤٠٠ خيمة الي أرض تونس . وهم أغني أهل طرابلس وقد باعوا

كل ما كانوا يملكون في سبيل فرارهم من الخطر الذى يتهددهم بعد ما رأوا ما حل ببقية أبناء وطنهم .

وقد نسي الطليان ان عدد المسلمين الذين يعيشون على شواطئ البحر الأبيض لا يقل عن سبعين مليونا فهم يعدلون تقريباً عدد سكان المسلمين الهنود

يدعون أن فرنسا وغيرهامن دول أوربا قد صارت دولا لادينية ، تكره التعصب للاديان ، وترفع لواء الفكر الحر ، وتنادى بالمساواة بين الشعوب ولا يدعى هذه الدعوي الا كل جهول بأسرار تلك الأمم العريقة في المسيحية ، والعريقة في الاستعمار فقد هلك منذ الف وخمسمائة عام أسقف اسمه هيبون في سنة ٤٣٠ وكان هذا الاسقف بربرياً أي من بلاد البربر التي في مراكش فارادت الكنيسة الكاثوليكية أن تحتفل بمرور ١٥ قرناً على هلاك هذا الاسقف فى نفس بلاد أفريقيا ، غير مراعية للسكان المسلمين حرمة ولا كرامة فأمرت فرنسا أن يكون اجتماع المؤتمر الا يوخرستي في قرطاجنة (مايو ٩٣٠) وأمرت أن تدفع حكومة الباى مليونى فرنك لتشترك في هذا المؤتمر . ولما ظهرت حقيقة المؤتمر احتج ٧٠٠ شخص للباي ورغبوا اليه في عدم التصريح للمؤتمر بالاستمرار ولكن الاحتجاج ذهب أدراج الرياح وسار أعضاء المؤتمر في الطرق بملابس الصليبيين وجهزت الاسرة لنوم القساوسة في المسجد الصادقي أي أن هؤلاء النصارى المتعصبين اتخذوا مساجد الله منامة وأصدرت الحكومة أمرها بالقبض على كل من يحتج على المؤتمر من الشبان المسلمين

وفي ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ امضى سلطان مراكش ذلك الظهير المشؤوم الذي يقضى بتنصير أهل البربر وقد أرادت فرنسا بذلك الظهير ارغام البربر الذين يدينون بالاسلام منذ ١٣٠٠ سنة على ترك دينهم وانتحال المسيحية بالقوة وقدبلغ عددهم في مراكش وحدها ٨ ملايين وكان من نتائج صدور هذا الظهير اغلاق المكاتب الاسلامية وارسال المبشرين ينشرون المسيحية ويبنون الكنائس والمدارس لينصروا الشعب بالقوة وقد انتقد هذا الظهير الموسيو كاريت بوقيه مدير جريدة « الصرخة المراكشية » ولام فرنسا على رغبتها

فى نقل أمة بأسرها من دين تدين به وتمجده وتطيعه الى دين آخر لاتميل اليـه ولاتحبه وان كان سانت أوجستان أوغيره من القسس الذين أصلهم برابرة قد عاشوا في البلاد أو نصروا بعض أهلها منذ ١٦ قرنا أو ١٥ قرنا فليس معنى هذا أن النصرانية بقيت ذات شأن في تلك البلاد فقد جاء الاسلام ونسـخها ومحا آيتها وانتشر في شمال افريقا انتشاراً عظيما وكان من البربر المسلمين أنفسهم من فتحوا بلاد اوروبا المسيحية في اسبانيا وفرنسا وايطاليا و بعض جزر البحر الأبيض . وقد كتب أحد الفرنسيين المنصفين يقول :

«وعلى الرغم من احتجاج أمة البربر في البر والبحر ، فى الحواضر والبوادي ، فان الحكومة الفرنسية المتعصبة الجائرة أغلقت المحاكم الشرعية وعزلت القضاة الذين تولوا القضاء بين الناس منذ مئات السنين وطردت الاساتذة الذين كانوا يعلمون اللغة العربية ومنعت قراءة القرآن وحظرت الصلاة والتكلم باللغة العربية وساقت الاطفال سوقاً الى الكنائس وقد ظهر ثلاثة من الموظفين بالغيرة الشديدة فى تنفيذ هذا الظهير الجائر وهم اوربان بلانك ممثل وزارة الخارجية والموسيو بريان ، ثم الجنرال ڤيدالون ثم القمندان ماريني وهؤلاء الثلاثة يطيعون أمر البابا طاعة عمياء و يعملون لتنفيذ رغبة الكنيسة أولا ثم خدمة الوطن ثانياً .

٧

١

نقصد بالشرق العربي البلاد الشرقية في أسيا وأفريقا ، التى تتكلم بالعربية وتكتبها، سواء أكانت تلك البلاد تدين بالاسلام أم بالنصرانية ، وقد يكون في أحد تلك البلاد لغة أخرى بجانب العربية ولكن العربية هي المعول عليها في مخاطباتهم ومكاتباتهم سواء أكانت تلك البلاد مستقلة أوواقعة تحت سلطة أجنبية. فتكون بلاد الشرق العربي هي :

أولا ــ جميع بلاد افريقيا التى تتكلم العربية وهي مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ومايليها من بلاد السودان والواحات الى غرب افريقيا .

ثانياً ــ سوريا وفلسطين ولبنان وشرق الأردن .

ثالثا ــ العراق والموصل وديار بكر وعاصمتها بغداد

رابعاً ــ مملكة عمان وشمر والقصيم

خامساً ــ حزيرة العرب وفيها نجد والحجاز واليمن وحضرموت وعسير وتهامه

سادساً ــ كل امارات الخليج الفارسي كالكويت والاحساء والمحمره والبحرين.

وهذا الشرق العربي كما ترى بلاد كبيرة واسعة الاكناف وربما كانت ماعدا الحجاز (الذي وصف بأنه واد غير ذي زرع) من أخصب بلاد العالم مع اعتدال في هوائها وطباع أهلها ، فضلا عن انها كلها في وسط المعمور وعلى طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب . وكانت كلها قديماً بلاد الحضارة والأديان المنزلة والعمارة والزراعة والصناعة والتجارة ومركزا للعلم والأدب والفنون، وليس مايمنع أن تعود الى ما كانت عليه من العظمة والغنى

اما عددسكانها فيبلغ على سبيل التقريب من خمسة وستين مليونا الى سبعين مليوناً

ومعظم هـذا العدد من الحضر سكان المدن والبلدان والقرى وفيهم الاعراب سكان الخيام الذين يعيشون عيشة البـداوة و يسرحون بأنعامهم وهؤلاء يقلون شيئا فشيئا ولا يتجاوزون ثلاثة ملايين ونصف أو أربعة ملايين

وقد شوهد ان أهل الشرق العربى من سكان البلاد المتاخمة للفرس والأرمن والاكراد والاتراك ، وان كانت عليهم بعض الصـبغة من هذه الامم الا انهم ينزعون دائما في ميولهم ومشاربهم وأغراضهم وتقاليدهم الى العرب لأن استقراء علماء الاجتماع دل على ان الذين يتكلمون لغة من اللغات تـكون نزعاتهم في ميولهم ومشاربهم وتقاليدهم وأغراضهم السـياسية والاجتماعية الى جانب أهل لغتهم وان بعدوا عنهم في المعتقد والجوار أكثر مما هي الى جانب أهل لغة أخرى وان هم قربوا منهم في الجوار والمعتقد حتى وفي الجنسية البعيدة (بحث للاستاذ جبر دومط مقتطف اغسطس سنة ١٩١٠) . ولذا ترى كل الامم التى تعيش في ظل بلاد اسلامية تنتحل وسائل معايشها ومدنيتها وحضارتها وان خالفتها في المعتقد وقد يسمى أحدهم نفسه اسلامي الحضارة ذلك ان الاسلام تميز باللغة العربية التى كانت اداته في نشر لوائه فترى المسلم الغريب اللسان يسعى جهده للأخذ بطرف من اللغة العربية التى هي مفتاح ذلك الدين ومدنيته الوارفة الظلال وكل مايتعلق بهما . ومما يصادق نظرية تأثير اللغـة في الشعوب التى تتكلم بها وتتخاطب ، ان الدول الاوروبية المستعمرة اذا احتلت بلدا شرقيا سارعت الى محاربة لغته ونشرت لغتها وآدابها ، حتى تقطع العلاقة بين الشعب ولغته الاصيلة وهي جماع معتقداته وميوله ومشاربه وتقاليده في حياته الاجتماعية والسياسـية ثم تدفعه الى لغتها الغربية فينجذب نحو أدابها ومدنيتها مقلداً لامعتقداً ، ومحال عليه أن يضارع القوم فى اخلاقهم ومبادئهم فيفقد القديم ويفوته الجديد ويبقى أبداً مضيعاً . وقد كان النضال شديداً بين اللغـة العربية واللغات اللاتينية والانجليزية فخرجت الأولى ظافرة وخاب المستعمرون في هذا وحده

٢

من أمهات الديار العربية قبل الاسلام و بعده . أما قبل الاسلام فلأن الحلة كانت داراً لملوك العرب من أيام جذيمة الابرش الى آخر من ملك من المناذرة وأما في الاسلام فقد اختطت البصرة والكوفة في أيام عمر بن الخطاب ومازالتا مدينتي العرب اجيالا . ولما قام المنصور العباسي اختط بغداد و بقيت داراً للخلافة الاسلامية العربية الي أن قدم هلاكو اليها في سنة ٦٥٦ ه . وقتل الخليفة المستعصم بالله واستباح المدينة أربعين يوماً قيل فبلغ القتلى أكثر من مليون نفس و لم يسلم الا من اختفي في بير أو قناة .

أما عدد سكان العراق فيبلغ نحواً من ثلاثة ملايين وهو عدد كادت تبلغ ثلثيه بغداد وحدها فى ابان عزهاء والبلاد لا ينقصها خصب ولعلها من أخصب بلدان الدنيا ولاسيما بقعة مدينة بغداد وما حواليها فانها تصلح للزرع والضرع وقد تَغِلُّ في رأي الخبراء أربعمائة ضعف وربما كانت ثروتها المعدنية الكامنة في بطن الأرض أعظم مرات كثيرة من ثروتها الزراعية وليس التمر وحده هو مصدر الغني الزراعى ، بل ان البلاد فوق ذلك بلاد حبوب وقطاني وصوف وقطن وصمغ ورب السوس .

وقد غير اكتشاف آبار البترول وجه العراق واذا اهتم أهل البلاد باحياء موات الأرض ولم يكتفوا « ببنات عماتهم » النخل كان لهم موارد ثروة لا تنضب فان معدل أثمان صادرات الصوف من بغداد والبصرة يبلغ نحو مليون ونصف مليون جنيه . وقد قامت أخيراً في العراق نهضة صناعية باهرة مذ تأسست فيها مصانع للثياب الوطنية من أقمشة تصنع فى البلاد وقد بدأ رأس مال تلك المصانع بمائتي الف روبية وبلغ آلان أكثر من أربعة أو خمسة ملايين روبية . وصار أهل البلاد كلهم يلبسون من المنسوجات الوطنية .

وقد استغنوا عن العمائم والطرابيش بغطاء رأس مستطيل الشكل اسود اللون يصنع في العراق أيضاً واسمه السدارة ، وعلمت من سائح شرقى جليل ثقة انهم أسسوا مصنعاً لدبغ الجلود وصناعة الاحذية منها فلا يحتاجون بعد اليوم الي ثياب أو أحذية أو قبعات أو روبية

أو طرابيش نمسوية . وعلمت منه أن ياسين باشا الهاشمي قد حتم منذ بضع سنين على الحكومة أن تتعاقد مع مصانع الثياب لابتياع كسوة الجيش والجند وعمال الدواوين وأبناء المدارس وهذا عمل جليل ليس بعده غاية لمخلص . ولا غرابة اذا نهضت العراق هذه النهضة المباركة فقد كانت مدن العراق من أكبر المراكز الصناعية والتجارية في العالم في أيام زهو العباسيين. فبغداد أخصب بقعة فى العراق ودجلة والفرات طريقان مائيان عظيمان ينصبان اليها من الشمال الأول رأسا والثانى بما يوصل من الترع بينه وبين دجلة . ودجلة يوصلها بالبصرة اتصالا لا ينقطع ثم البصرة توصلها بخليج فارس فخليج عمان فباقى البحار الكبيرة . فأى مركز اذن يفضل مركزها وفى سنة ١٩٢٧ خرج من ميناء البصرة تسعماية وخمسون باخرة محمولها ١٤١٨٤٦٠ طناً من المواد الاولية واثمار معظمها لبلاد الانجليز

وكانت المتاجر تصدر عن بغداد الى انجلترا قبل الحرب العظمي بعشرين عاماً والانجليز يرمقون العراق من عشرات السنين ويرمون الى تكبير أهميتهم التجارية والسياسية على أيدى قناصلهم ووكلائهم فى الخليج الفارسى ومقدمهم في هذه المناصب سير پرسي كوكس الذى صار بعد عشرين عاما من الخدمة السياسية في البحرين ، مندوبا سامياً لعهد الملك فيصل

وفى سنة ١٩١٠ حدثت أزمة فى الوزارة العثمانية أحدثتها شركة لنش الانجليزية فى العراق . وكان المرحوم سليمان البستانى معرب الالياذه يعيش فى تلك الجهات ويخدم الدولة قبل أن يعين عضواً في مجلس الأعيان العثماني . وقد كتب ما يستفاد منه تحذير الدولة من الخطر الاستعمارى البريطانى

وسوف نتكلم عن الخليج الفارسى والبحرين بما فيه الكفاية غير أن للكويت والاحساء صفة خاصة فقد شغلت الكويت قراء الصحف العربية في نهاية القرن التاسع عشر لأن الانجليز كانوا يلقون عليها حبائلهم ليجعلوا منها مستودعاً لذخائرهم وموطىء قدم لدى فتوح العراق . وكانت الكويت والاحساء تابعتين لولاية البصرة . وكان

مدحت باشا والياً على البصرة ولا نزال نذكر أنه خطب ود الشيخ عيسى أمير البحرين فلم يجب نداءه بل على العكس سلم خطابه الى حلفائه الانجليز

ومذ كان مدحت باشا والياً على البصرة حدث خلاف بين عبد الله بن سعود وأخيه سعود فلجأ عبد الله الى مدحت يستنصره على أخيه . فألحق مدحت الكويت والاحساء بولاية البصرة وشكل منهما متصرفية سميت بمتصرفية نجد . أما الكويت فعلى أن يكون عبدالله بن سعود قائمقاماً عليها كل أيامه تحت حماية العثمانيين فدخلت الكويت والاحساء تحت حماية العثمانيين حوالى ١٨٧٠ ولم ينازع منازع في ذلك وتشكلت متصرفية الاحساء وكان يعين لها المتصرفون العثمانيون ومعهم من الجند ماتقتضيه الحاجة السياسية والمدنية . كل ذلك والأمير ابن السعود الذى صار فيما بعد ملك نجد والحجاز مازال فتي وقد نشأوترعرع في كنف الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت الذي استولى عليها بعدعهد المتصرفية العثمانية وكان يجب على مدحت ان يلفت نظر دولته الى اهمية الكويت وجزيرة البحرين ولسنا ندرى أين كانت أعين الترك وآذانهم الطويلة طول القرن التاسع عشر وهم أصحاب العراق وجزيرة العرب . وكان ينبغي أن تكون « البحرين » تابعة للمتصرفية . ولكن الاهمال بل الغفلة من جهة وبعد الشقة من جهة أخرى (كأن انجلترا والهند كانتا أقرب الى الخليج الفارسى وجزيرة العرب من تركيا) والجهل باهمية موقع الكويت وموقع الجزيرة معاً كل ذلك جعل المتصرفين يغضون النظر عن الكويت والجزيرة ويتركون لرؤساء القبائل فيهما أن يتصرفوا بالبلاد والعباد كما يشاءون كأنهم مستقلون فى المكانين المذكورين وقد انتهى هذا التصرف السيء بفقد البلاد جميعاً

٣

أما الكويت فمدينة نظيفة ويبلغ عددها ثلاثين ألفاً وميناهاواسع امين من أحسن مرافىء شرقى جزيرة العرب بل أحسنها ، وكان الالمان يؤملون ان تنتهي فيها السكة الحديدية البغدادية . ولكن الدهر لم يساعدهم . غير أن هذا لم يقلل من أهميتها التجارية والحربية فقد لعبت في الحرب دوراً مهما فكانت مستودعاً للذخائر والأسلحة التي استعملها

الانجليز في حروب العراق ضد الدولة العثمانية وبعد ذلك ضد أهل العراق أنفسهم قبل تنصيب فيصل ملكا عليهم . ويبلغ عدد سكان الكويت ثلاثين ألفاً الآن .

والكويت في فلاة قاحلة ليس لها ماتعتمد عليه الا التجارة وتجارتها متسعة مع شمر ونجد والحجاز ومنها ترسل الخيول الى البنادر الهندية وفي جنوبها واحة القطيف وهي من أخصب الواحات في بلاد العرب حتي تمتد الى قطر

روي لنا سيد عظيم من رجال الشرق العاملين على خدمته ، أنه زار الكويت في غرض له فوقف من أخبار المبشرين على العجائب فقد علم أنهم قسموا البلاد الى مناطق نفوذ فى الخليج الفارسى فالمبشرون الكاثوليك لا يتعدون منطقتهم والمبشرون البروتستان كذلك . ولهؤلاء الاخيرين قصة فكهة تدل على صبرهم وثباتهم وحسن ايمانهم .

فانه جاء منهم أربعة من صميم بلاد الانجليز الذين لا يطيقون فيها حراً ولا شمساً (وهم لايرون قرص الشمس مرة في كل عام) فرضوا أن يعيشوا فى وسط بلاد يضرب المثل بشدة قيظها ، وتعد مصر في أشد أيامها حراً بمثابة سويسرا بالنسبة لها . وتلك البلاد وهى الكويت خالية من كل وسائل الراحة البدنية فلا طرق ولا شوارع ولا ماء صالح للشرب ولا أدوات صحية .. تصور هؤلاء الانجليز الأربعة الذين جاءوا بزوجاتهم كيف يعيشون فى هذا الوسط الغريب عنهم مستهدفين لأخطار الطبيعة وأخطار الحياة !

وقد بدأوا أولا ببناء مستشفي وتأسيس مكتبة . وقد بقي المستشفي والمكتبة خاويين على عروشهما لا يؤمهما أحد من أهل البلاد مدة أربع سنين ، فلم ييأس المبشرون الثمانية ولم يضجروا ولم يتسرب اليأس الى قلوبهم . بل لجئوا للدرجة الثانية من العمل وهي أن نساءهم الأربع تحجبن واتخذن أسماء انثوية اسلامية فطمة وعائشة وزينب وزبيدة ، وأخذن يغشين منازل أهل الكويت ليعالجن المرضى ويواسينهم ويخففن آلامهم فى سكون وهدوء ولا تنطق واحدة منهن بكلمة في الدين . وهن ينتظرن سنوح الفرصة ليقمن بعد قليل بواجبهن الأصيل وهو التبشير . وكفاهن الآن أنهن تملكن قلوب الذين خدمنهم بالعلاج والدواء .

وهكذا يعملون و يعملن فى صبر وثبات دون ان يشعر أحد بخطورتهن .

والبقعة بين رأس قطر والقطيف مغاص من أحسن مغاوص اللؤلؤ في العالم كانت ولا تزال الى اليوم، وسكان قطر والبحارنة (أهل البحرين) كلهم يشتغلون بالغوص نصف العام تقريباً . ومن مدن تلك الجهة هجر القديمة المهجورة المشهورة بتمرها حتي ضربت به الأمثال فقيل ناقل تمر الي هجر ، كما يقال ناقل قطن الي مصر .

وقد أسس الترك هذه المتصرفية التى حكينا عنها آنفاً منذ ستين عاما وكان ينبغي لهم ان يعنوا بها منذ ذلك التأسيس ولعلهم لم يدركوا أن تلك البلاد هى مفتاح البلاد العربية غربا ومفتاح الهند شرقا ومفتاح العراق شمالا وبها طرق التجارة المهمة للشرق والغرب والحسا أو الحفوف وهي هجر القديمة هى المحطة الأولى على طريق القافلة من خليج فارس الى مكة وجدة والمدينة .

ان البحرين وهى جزيرة اللؤلؤ الآن تحت حماية الدولة البريطانية وقد تدخلت فى نصب حاكم لها منذ سنة ١٨٦٧ فانها في تلك السنة نصبت عيسي بن على حاكما أوسلطانا على الجزيرة بعد أن عزلت اباه عن كرسى الحكم .

وبعد ذلك ببضع سنين أصبحت تدعي أن لها حق الحماية أو الوصاية على الكويت ولها فوق ذلك من النفوذ في كل خليج فارس مالم يسع أحداً من ساسة العثمانيين أن يجهله فانها هي المسيطرة معنوياً علي كل الحركات التى تجرى على شواطئ هذا الخليج الغربية والشرقية فى بلاد فارس وفى بلاد العرب وفى يدها إن شاءت أن تثير الخواطر أو تسكنها فان عمالها هناك أهل ادراك ويقظة (أمثال كوكس) لا تفوتهم حركة ولا سكنة تنتفع بها أمتهم أو يزداد بها نفوذ دولتهم . أما معنى الحماية البريطانية فمنع مماوقة تجارتهم ومنع بيع الرقيق علنا وليس لهم معتمد خصوصي ، ثم ترك الحكام الوطنيين وشأنهم والقضاة وشأنهم يظلمون أو يعدلون ويرتشون أو يعفون فاذا تجاوزوا ذلك الى مخابرة سياسية أو أظهروا شيئاً من الاستقلال فى تصرفاتهم مع دولة أخري فحينئذ تظهر الحماية البريطانية ويظهر أثرها بالمنع وفى

ماعدا ذلك لا أثر لها الا أن يكون ذلك مرتباً سنويا تدفعه الدولة البريطانية للشيخ أوالأمير عن حماية التجارة أومنع بيع الرقيق أو تألفاً له .

شمر والقصيم

شمر بلاد أو واحة واقعة بين اجا وسلمى جبلي طيء وعاصمتها حائل وهى مدينة ابن الرشيد وكرسي امارته والي جنوبها القصيم العليا والقصيم السفلى وفيها عنيزة وبريدة مدينتا نجد (نجد الحجاز) ويقول السائحون انها بلاد طيبة الهواء جيدة التربة ولا أثر فيها للبعوض والذبان ولا للقمل والبراغيث .ولا رائحةللمجزرة بها واللحم لايخنز هناك وسماؤهاغايةفى الصفاء ونسمات أسحارها لاأعل ولا أنعش منها . وكانت حائل تابعة لرياض . تعترف بسيادتها .

وقد ضعف شأن رياض عند مالجأ عبد الله الى مدحت باشا ضد أخيه سعود وهما ابنا فيصل الوهابى فانتهزت حائل هذه الفرصة واستقلت واستمرت المدينتان تتنازعان السلطة والسيادة وكان ضلع الولاة العثمانيين مع حائل فكان والى بغداد والبصرة يجعل أمراء بيت الرشيد حماة لطريق الحج من قبل الدولة العثمانية فكان آل الرشيد يعترفون بسيادة الدولة وأقل ماللعثمانيين من الحقوق على حائل ورياض أيضاً الحماية التي هي أشبه بالحماية الانجليزية على كثير من أجزاء الجزيرة العربية في جهات اليمن والشحر أو فيجهات الخليج الفارسي .

وترجع تلك الحماية الى دخول الولايات السعودية الوهابيةوهي نجد واليمامةوالعارض ووشم والسدير والقصيم وشمر وعسير اليمانية فى حوزة العثمانيين على أيدي محمدعلى وابراهيم عند استفحال أمر الوهابية .

وأكد تلك الحماية سنة ١٨٧٠ التجاء عبد الله بن فيصل الى مدحت واعتراف امراء حائل لهم بالسيادة العامة وتلهم امراء رياض من بيتسعود أثناء المنازعات التي وقعت بين امراء هذين البيتين من حوالى أربعين سنة الى الآن .

٤

ان فى شرق الجزيرة العربية وعند الخليج الفارسى امارات وسلطنات ودويلات صغيرة شأنها شأن الجزيرة العربيـة ، من حيث كونها اسلامية شرقية ولـكن انجلترا بسطت عليها نفوذها من زمن طويل لا لأنها أغنى بلاد العالم بجواهرها ولآلئها ودراريها ، ولكن لقربها من الهند وخطورة مركزها السياسي . وهى تفوق من تلك الناحية جنوب الجزيرة الغربى حيث توجد عدن وغيرها من الامارات والسلطنات الصغيرة الواقعـة هي أيضاً تحت النفوذ البريطانى ومن تلك الولايات العربية امارة عمان فان لها تاريخاً يهم كل عربي لأنها رفعت علم الناطقين بالضاد الى أوج السماء في القرن العاشر الهجرى فقال بعض المؤرخين انه لم تقم لهم قائمة منذ خرجوا من الأندلس بغير عمان التى دامت نهضتها من سنة ١٠٠٠ الى ١٢٥٠ هجرية فنشأ بها فطاحل عظماء كونوا دولة عربية قائمة على أساس العـدل واستولت على بعض ثغور البحر الأحمر ثم على المحيط الهندي والخليج الفارسي فأفريقيا الشرقيـة الى رأس الرجاء الصالح ، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة على هذه البحار الثلاثة العظمى وصار لهم أسطول ضخم هاجم الاسطول البرتغالى ومزقه إرباً وشتت شمل البرتغاليين وأجلاهم عن جميع الثغور الهندية والفارسية والافريقية وكان الاسطول العماني مؤلفا من ثلثمائة قطعة بين بارجة وفرقاطة ونسافة وحراقة وقد وصفه سرهنك باشا في كتابه دول البحار . وذكره كثيرون من مؤرخى الشرق وذكروا أسماء السفن الـكبرى التى كانت تشبه المدرعات والدردنوط والطرادات الاوروبية وهو الاسطول الاسلامى الرابع أو الخامس الذي ظهر فى البحار بعد أسطول صلاح الدين الأيوبى وقبل أساطيل الدولة العثمانيـة والاسطول المصرى الذي تألبت عليه الدول وقضت عليه فى موقعة نافارينو ومن أسماء تلك السفائن الحربيـة العمانية « الفلك » و « الملك » و « الناصرى » و « كعب رأس » والرحمانى والامامى واليعربي وعمان ونزوي والفتح والنصر ويعرب وقحطان . كما يسمى الانجليز مراكبهم « الملكة اليزابت » و « فيكتوريا » و « نلسون » وغيرها .

ومن البديهي أن الانجليز لم يصبروا على هـذه الدولة البحرية الشرقية التى كانت

تهددهم فى أملاكهم فى آسيا وأفريقا ، وقد يستقر نفوذها في الهند واندونوسيا والهند الصينية شرقا والى شرق افريقا والسودان وجنوب افريقا غربا . بعد ان امتد ذلك النفوذ الى تلك الناحيات فعلا . فعملت فى مدى ثمانين عاما على اضعاف تلك الدولة والقضاء على أسطولها ثم الاستيلاء على بلادها وقهرها شيئاً فشيئاً . وما زالت بريطانيا تعمل على انحلال تلك الدولة العمانية البحرية الى وقتنا هذا وهذه السلطنة يحكمها الآن السلطان تيمور والشائع أنه وبلاده تحت الحماية البريطانية ويقال أيضاً انه مستقل فى بلاده ولكنه مرتبط مع دولة انجلترا بمعاهدات تقضى بأن لايمنح أية دولة اوروبية امتيازاً في بلاده لمجاورتها للهند . وقد حدثت في عمان ثورة عظيمة كان تيارها جارفا تمكن الثوار فى أثنائها من طرد ولاة السلطان تيمور من جميع البلاد الداخلية حتي أن والى السلطان بنزوى ، وهو السيد سيف بن حمد انتحر من شدة الحصار ، وحوصر السيد نادر أخو السلطان بسمائل شهراً ، فاضطر لتسليم البلاد لزعماء الثورة وحوصر ابن عم السلطان السيد احمد بن ابراهيم خمسة أشهر بحصن الرستاق ثم سلم البلاد . واستفحل أمر الثوار في الداخلية واستتب لهم الفتح فيها فانقلبوا الى الثغور البحرية فوقف الاسطول الانجليزي فى وجوههم وضرب بعض المدن بالقنابل مثل بركا وقريات .

وعند ذلك أراد الانجليز تحوير المعاهدة التي بينهم وبين السلطان تيمور وانتهزت انجلترا هذه الفرصة فزادت بعض البنود المؤيدة لسلطتهم فاضطر السلطان تيمور لقبولها وحدث اثر ذلك ان قابل ملك الانجليز عظمة السلطان تيمور فقويت شائعة الحمايه التي بسطها الانجليز على عمان ومسقط .

٨

١

ربما كان الكثيرون من الشرقيين لا يعرفون شيئاً عن تلك الدولة الاسلامية البحرية العظمى التى قامت منذ قرنين في شرق جزيرة العرب وقضت على دولة البورتغال وهددت الهند والانجليز والفرس ولولا الاستئثار وحب الذات والتفانى فى السلطة والجهل ، وقبول الدسائس الأجنبية لكانت اليوم من أعظم دول البحار فى العالم، هذه هي دولة عمان. وتجد الأفرنج أنفسهم يوجزون فى كتبهم عند ذكر عمان ويكتفون بتذكيرنا بوقوع مسقط عاصمتها في أيدي البورتغال فى أوائل القرن السادس عشر وانها مازالت تحت حكمهم الى نصف القرن السابع عشر وانها بعد ذلك كانت نهباً بين نادر شاه الفارسي واحمد بن سعود واليعاربة وأنها فقدت قطر والبحرين بما فيهما من مصائد اللؤلؤ والثروة الطائلة وان توينى أحد سلاطينها قتله ابنه . وكانت البلاد مسرحاً للفتن والقلاقل واراقة الدماء .

وترى السائح الشرقي الحديث القادم من شمال افريقيا أو من بلاد العراق أو عائداً من بمباى الى الخليج الفارسى يحدثك بلوعة عن دولة بحرية اسلامية نشأت في تلك البحار فان أهل البلاد وهم من الأباضية احدى فرق الخوارج[1] قد انشقوا على أنفسهم فاستقل الفريق الأعظم منهم بالداخل والجبل الأخضر ، وجعلوا عليهم اماماً هو الشيخ الرويحي ثم خلفه الشيخ الخليلى وذلك على أثر مفاوضة السلطان تيمور مع الانجليز في سنة ١٩١٢ وما زال تيمور يحكم السواحل وطولها ثمانماية كيلو متراً في عرض أربعين كيلو متراً واذا نزلت الى الجنوب لقيت جزيرة البحرين وعاصمتها منامه بقصورها الفخمة واذا صعدت شمالا وجدت امارات صغيرة بل مدناً مثل دبى وأبوظبي ورأس الخيمة . ولكن الشعب والمدنية والتعليم والسياسة والمالية . . . هذا كله وراء الستار أوفى المستوى الخلفى ، لأن استئثار الأمراء

بالملك وتنازعهم على السلطة وثروة الاقلية وفقر الأغلبية ، قد غطت على كل شيء وجاءت دسائس السياسة الأجنبية فقضت على البقية الباقية .

٢

روى لنا محدث ثقة أنه زار عمان في سنة ١٩٢٤ ونزل بضيافة السيد احمد دملوك من أكبر أغنيائها ، وكان القصر فخماً والرياش نفيساً والمائدة رداحاً ، وكل مظاهر العز والرفاهية موفورة .

وفى الصباح دخل عليه فى قاعة الجلوس التى أعدت له شاب جميل الصورة يلبس قميصاً في غاية القذارة قد انقلب من البياض الى السواد وقد أرخى شعوره مكدسة على كتفيه وعلى جبينه ولطخها بزيت قذر فكان منظره كانسان الغابة ، وقد قال صاحبى انه ظن عند رؤيته أن هذا الشاب لم يذق طعم النظافة حياته وأنه لم يعرف لون الماء ولا رائحة الصابون . فلما دنا منه وسلم عليه رد تحيته بغير اكتراث . فجاء رجل وجيه وهمس فى أذن الضيف محدثي وقال له « هذا السيد محمد دملوك نجل السيد احمد دملوك » . فدهش الضيف ولم يخف دهشته على الشاب وقال له ياسيد محمد لا عذر لك فيما أنت فيه من سوء البزة ، فالغنى بحمد الله متوافر والماء كثير والثياب النظيفة الجميلة من الحرير والمخمل ميسورة والحلاق يتمنى ان يتشرف بقص شعرك وتقليم أظافرك . فضحك الشاب وقال له « أتريد أن أكون مخنثاً ؟!! »

غير أن هذا الشاب الذى يحمل في رأسه تلك المعقولية الغريبة والذي تربى على أن النظافة قد تؤدى الى فقد الرجولة ، ونسي كل ماحفظه الأثر من تاريخ النبي ووصف حياته الخاصة . وما أمر به الدين الاسلامى . لم يكن غبياً ولا بليداً بل كان على أوفر نصيب من الذكاء وحسن الادراك وسعة الاختبار وكان فى عينيه بريق يدل على سمو النفس . فقد قال يوماً لمحدثي : أتريد حقاً ياسيد فلان أن تصلح شئون العرب ، وانت تغار على تاريخهم وتتمنى لهم السلامة والنهوض والعلا ؟

فأجاب صاحبي بالايجاب .

فقال له : عليك إذن ان تلتي بملايين والدى فى البحر أولاً، فاذا تمكنت من ذلك فانك ناجح فى انهاض العرب .

فاستفسره وطلب المزيد من البيان فقال :

إعلم ياسيدى أن هذه البلاد تشمل عشرين أو ثلاثين شخصاً من أرباب الملايين وهم يسخرون الشعب كله فى تكوين الثروة لأنفسهم ، فلا يعقل أنهم يعينون أحداً على تحسين حالة الشعب بتعليم أو تربية أوتهذيب . فالحال كما ترى يشقى المليونان أو الثلاثة ليسعد عشرون أو ثلاثون رجلا فقط . وأنشد :

وكم قائل مالى رأيتك راجلا فقلت له من أجل أنك فارس

فدهش محدثى من ذكاء الشاب وفصاحته وصراحته وحريته وبعد نظره وقربه منه وتودد اليه وانقطع الى مسامرته ولكنه لم ينجح طول مدة اقامته فى اقناعه بأخذ حمام واحد أو تغيير قميصه القذر . وقال لى ان أولاد رجال اوروبيين أو شرقيين فى أقطار أخرى ، يملكون عشر ثروة والد هذا الفتى يتعلمون فى باريس واكسفورد ويعيشون عيشة الأمراء ولكن هكذا أحوال العرب .

٣

نرجع الى ما كنا فيه من ذكر تلك الدولة الاسلامية البحرية العظمى التي طردت البرتغال وتهددت الفرس والانجليز في بلاد الهند الى ان ذلت على أيدي أصحابها .

ان الخليج الفارسى هو الشق من الماء الملح الداخل من بحر عمان بين بلاد فارس وجزيرة العرب وأوله من الجنوب مضيق رؤوس الجبال جنوبا وآخره شط العرب حيث مصب دجله والفرات شمالا ومن المدن العظيمة الواقعة على شاطئه بندر عباس ومسقط وبوشهر ولنجه والكويت وهو مزدان بجزر كثيرة فيها الصغير والكبير شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً وأشهرها جزيرة البحرين جنوباً وجزيرة بيبان شمالا .

كان خليج العجم من قديم الزمان كما هو اليوم مفتاح الطريق للتجارة بين الشرق والغرب ولا تطمئن دولة غربية فى الهند ولا يستقر أمرها اذا لم تكن هى القابضة بيدها على هذا المفتاح . وذلك لانه أسهل الطرق لتجارة الهند وأصلحها وهو أقل خطراً من المحيط الهندي وأقرب مواصلة وهو فوق ذلك فى مأمن من العواصف الهوجاء التي تنتاب البحر الهندى فى الربيع والصيف فضلا عن الخريف والشتاء فقد روي لى صديق جاوى أنه كان فى صيف سنة ١٩٠٢ مسافراً فيه فقامت عاصفة دمرت الباخرة تقريباً . وكنت قبل ذلك أظن المحيط الهندي على شئ من الهدوء وأضف الى ذلك أن الخليج الفارسى حصن بحري حصين وبابه مضيق هرمز حيث تكاد بلاد ايران تصافح بلاد العرب فضلا عما فى هذه الطريق من الجزر الغنية والمدن العامرة كما أسلفت . ولا يضل السائح طريقه ولا يملها من سواحل الهند الى جزائر الخليج الى البصرة فبغداد فسوريا فمصر فاوروبا .

وقد كان هذا الخليج دائما مسرحاً للفتن والقلاقل والحروب التى يسببها حب السيادة والاستعمار . يريده الانجليز طريقاً آمنة للتجارة في أيام السلم ويريدونه حصناً مغلقاً في وجه غيرهم فى أيام الحرب لأنه مفتاح الهند ويريدون هذا المفتاح فى يدهم وحدهم . هذه هى غايتهم الأولى والأخيرة . وقد تمكنوا من القضاء على الاسطولين الكبيرين اللذين انشئا فيه فان دولة عمان كما سيجىء الكلام أنشأت اسطولا قضى على البورتغال . فكان مآله التدمير على يد الانجليز .

وكان للبحرين أسطول شراعى كبير مسلح بالمدافع والذخيرة الوافرة . وقد استفحل أمره وبواسطته استولى حكام جزيرة البحرين علي قطر والقطيف كما استولى أسطول عمان علي زنجبار وشرق أفريقا وبلغوا به رأس جواد يفار (ص ٢٦١ دائرة المعارف الانجليزية ج ٢ طبعة تاسعة) فخشى الانجليز عاقبة ذلك لأن مصلحتهم تقضى بأن تبقي بلدان الخليج متنافرة متشاقة متخاصمة لكل منها أمير مستقل كما هي الحال آلان في الكويت وأبى ظبي ودبي ورأس الخيمة وكما كانت في المحمرة قبل أن يستولى عليها الفرس فى سنة ١٩٢٤

فاخطروا أمراء البحرين بأن القتال في البحر ممنوع وأن لبريطانيا حقاً فى منعه تعترف لها به الدول الكبرى فلا يجوز اذن أن يخرج أسطولكم الى عرض البحر واذا خرج فالأسطول الانجليزي يقوم بواجبه (اقرأ يؤدبه ويحطمه) فاحتج الشيوخ والامراء بأن بلادهم جزر ثغورها مفتوحة غير محصنة ولا حصن لها الا الاسطول ، فان لم ندفع به الأعداء ملكوا بلادنا و رقابنا واذا لم ندافع هجموا علينا فاجاب الانجليز اذا كان الامر كذلك فان حكومة بريطانيا إذا امتنعتم عن الحرب البحرية تتعهد برد الاعداء عن بلادكم (اقرأ نضعكم تحت الحماية .) . وهكذا تلاشى الاسطول البحرانى (جزيرة البحرين) كما تلاشى قبله الاسطول العمانى . هذا من جهة السياسة الخارجية

واذا أنت درست أحوال العرب الداخلية علمت من غير طويل عناء أن بلية العرب الكبرى كانت ولا تزال ، نزوع كل قبيلة بل وكل عشيرة الى العزلة والاستقلال لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما تأمر به القبيلة أو يدعو اليه في بعض الاقطار ، المذهب الديني ، لا يخضع العرب لبعضهم بعضاً الا كرها ، ثم ينزعون الى السيادة المستقلة حيثما وجدوا الي ذلك سبيلا .

فتراهم ضحايا جهلهم ، وليس الجهل فقط لان الجهل الا عزل قد لا يضر كثيراً ، ولكنهم ضحايا الجهل المسلح كما كانت شعوب استراليا وهنود أمريكا الوطنيين . وليتهم ينتفعون بهذا السلاح فى محاربة أعدائهم أورد غارة المغيرين. ولكنهم ينتفعون بهذا السلاح فى قتل أنفسهم ولا يتركون وراءهم علما ولا مدنية ولا ثقافة . بل الملك والسلطة والمال لافراد قلائل ، والفقر والجهل والموت للاغلبية الساحقة .

وقد بينت كيف أن الانجليز وعدوا البحرين بالدفاع عنها ضد العدو الهاجم حتى دمرت اسطولها الحربى . وبعد ذلك كانت كل حركة دفاع من الانجليز تفقد البحرين جزءاً من حريتها واستقلالها ... درجات بعضها فوق بعض تؤدى الى استيلاء انجلترا على البحرين فكيف يثقون بعهود الانجليز ووعودهم ، ومتي صدقت السياسة في وعودها لاسيما

مع الشرقيين عامة ومع العرب خاصة !

قال أحد أدباء البحرين يصف الاستعمار الأوروبي :

اذا كان هناك فرق بين الاستعمار الانجليزى واستعمار الدول الاخرى فهو أن الاستعمار الاوروبي كالقصاب الذى يقتل الشاة بجرة مدية في نحرها ، لا يتركها الا وهي تسلم الروح لخالقها أما الآخر فمثل القصاب الذى يعذب الشاة وخزاً بالابر حتى ينزف دمها . فاية الميتتين أخف وأي الذابحين أرحم ؟

غير انك ترى أن العرب أنفسهم والشرقيين عامة يعينون المستعمر على أنفسهم ولا يقصرون فى مساعدته على القضاء على أمتهم ووطنهم

وطالما رأينا في تاريخ الشرق الحديث أن المغلوب يساعد الغالب على نفسه فماذا يحمله على ذلك ؟

أهو الجهل ، أم الضعف والجبن والخنوع ، أم الرهبة من القوى المنتصر ، أم الخضوع المصلحة الخاصة والطاعة العمياء .

ما جنى على العرب غير أنفسهم . كنا وكنا وكنا حديث مبتذل . يوم أقفلت المدارس فى البلاد فعم الجهل وتوارثه الابناء كنا الجانين على أنفسنا . يوم خدعنا الاجانب بدولة عربية مستقلة ودفعوا لنا الذهب الوهاج، وحملناه فى صفائح ، وقضينا على الدولة العثمانية وطمعنا في ملك الجزيرة أولا وفى الخلافة والامامة ثانيا ، كنا الجانين على أنفسنا ، يوم عزل هؤلاء الملوك وخلعوا وطردوا كانوا الجانين على أنفسهم .

قد كانت القوة والمال والعلم بأيدينا ففرطنا فيها وفي قوميتنا وكنا الجانين على أنفسنا واليوم نرى القوة والعلم والمال بأيدى الاوربيين فلا نقتدي بهم في الفضائل والحسنات حتى نبلغ شأوهم ونستعيد مجدنا فكنا الجانين على أنفسنا .

٤

انظر الى تاريخ عمان تجده صفحة دامية ملئت سطورها بأسماء الامراء والفاتحين المتقاتلين فى سبيل السلطة والسؤدد فكان أول انشقاقهم على دولة العرب الاولى كونهم من الخوارج الاباضية ومن أئمتهم الآن سليمان باشا البارونى الذي يعيش بين ظهرانيهم منذ بضع سنين مما يدلك على أن الاباضية في الخليج الفارسي كما هم في طرابلس وغيرها من ممالك الاسلام والخوارج هم الفرقة العاشرة من الفرق التى انشق بها الاسلام ويقال لهم النواصب والحرورية نسبة الى حروراء موضع خرج فيه أولهم على على وهم الغلاة في حب أبي بكر وعمر وبغض على بن أبي طالب وينقسمون الى عشرين فرقة وهم ضد الشيعة على خط مستقيم

والفرقة التاسعة عشرة من الفرق العشرين هى الفرقة الاباضية أتباع عبد الله بن أباض الذى خرج في أيام مروان وكان من غلاة الحكمة: الذى زعمت الحارثية أنه لم يكن لهم امام بعد المحكمة الاولى الاهو وبعده حارث بن مزيد الاباضى الذي انتسبت اليه الحارثية . وقد أجمعت الاباضية على القول بامامة عبد الله بن أباض وافترقت فيما بينها فرقاً يجمعها القول بان كفار هذه الأمة (يعنون بذلك مخالفيهم من هذه الامة) براء من الشرك والايمان وانهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية وصححوا مناكحهم والتوارث منهم وزعموا في ذلك أنهم محاربون لله ورسوله لا يدينون دين الحق وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض والذي استحلوه الخيل والسلاح فاما الذهب والفضة فانهم يردونهما على أصحابهما عند الغنيمة

ثم افترقت الاباضية فيما بينهم أربع فرق الحفصية والحارثية واليزيدية وأصحاب « طاعة لا يراد الله بها »

وقد أسس الاباضية بضع دول منها دولة في تاهرت استمرت ١٣٠ سنة وأخرى في عمان وهي موضوع بحثنا هذا . وشبه دولة فى طرابلس التي من بقايا أئمتها سليمان باشا البارونى

الذي سبق ذكره فدولة تاهرت قضى عليها الفاطميون ودولة عمان قاومت البرتغال وطاردتهم وقضى عليها التخاذل ثم الاستعمار الانجليزى ودولة طرابلس قضى عليها الاحتلال العثمانى

٥

أما خبر البرتغال وكيف حاربتهم دولة عمان فيرجع تاريخه الى ظهور الفونسو أبوكركه (ولعله من أصل أندلسى) الذى ولد في ١٤٥٣ وهلك في سنة ١٥١٥ .وكانت البرتغال لعهده تشبه انجلترا الآن من حيث القوة البحرية وحب الاستعمار والهجوم على الشرق

وكانت غزوته الأولى الى الهند بثلاث بوارج حربية وما زال يغزو ويفتح حتى حصل اقب « حاكم الهند » واستولى على « جوا » واجتاح ساحل المالابار واحتل مدينة ملكا وهي مفتاح الهند الصينية وهو الذي وقف في وجه ترك آل عثمان وعاقهم عن دخول الهند وضرب عدن مرتين بالمدافع فدمرها واستولى على جزيرة هرمز وهي جزيرة صغيرة عند مدخل خليج فارس وعند مضيق رؤوس الجبال الذي تتصافح عنده بلاد ايران وجزيرة العرب . وحصن جزيرة سقطرى لأن أهلها كانوا نصارى من النسطوريين وحالف نجاشي الحبش وحاول الاتفاق معه على تحويل مجرى النيل من السودان الى البحر الأحمر ليتمكن بذلك من هلاك القطر المصري . فكان هذا الشيطان في أثناء حياته التعسة آفة عظمى على الاسلام والمسلمين في جميع أنحاء الشرق وأفريقا . ومن جملة مغازي هذا القرصان سواحل عمان فملك البرتغال مسقط وصحار والمطرح وقريات ولم يكن بأيدى الاهالي سوى فرضة « لاوة » وقد سار اليها الأمير ناصر بن مرشد فاستعان أهلها العرب المسلمون بالبرتغال فأمدوهم بالمال والسلاح ولكن ناصراً فتح البلد ثم هاجم البرتغاليين أنفسهم في مسقط وصحار والمطرح وقريات وانتزعها منهم وذلك لأن عهد أبوكركة كان قد مضى فانه مات في سنة ١٥١٥ وناصر تولى الملك بعد ذلك بقرن تقريبا ولم يكن بتلك المدن الا بقايا البرتغال الذين تركهم أبوكركة وأمدتهم البرتغال برجال وجنود ليستعمروا المدن التى فتحها قرصانهم الأعظم فطردهم ناصر من رأس الخيمة ثم هزم البرتغاليين في المدن الأخرى وفرض عليهم الجزية .

ويسجل بالفخر لناصر أنه منذ ورث العرش وضع نصب عينيه تطهير بلاده من العار الأجنبي وفهم في ذلك الوقت السحيق (أوائل القرن السابع عشر) مالم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الاسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين، أو مافهموه و «طرمخوا» عليه. لقد أدرك ناصر بن مرشد طيب الله ثراه ان الاوروبي المستعمر اذا أنشب أظفاره في بلد لم ينته منه الا باستخلاص جميع البلاد واستعباد كل من فيها من الرعية. وأن الواجب على العاقل أن يتقي هذا الداء قبل أن يستفحل وأن يبادر الى اقتلاعه بكل الوسائل قبل أن ينشب فيتأصل ويعز الدواء. فناصر بن مرشد (١٠٣٤ ــ ١٠٥٩) يعد بحق محرر عمان وباني مملكتها. وخلفه سلطان بن سيف فنسج على منواله في مطاردة الأجانب ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال في بلاده بل قصدهم الى بلاد الهند فأرسل أسطوله الحربي يغزوهم في ساحل كوجرات وديو ودامان فأخذوا بعض المدن وعادوا بذخائر عظيمة.

وكان سلطان بن سيف ولعله اخو ناصر أو ابن عمه أميراً ديموقراطياً على طريقة عمر بن عبدالعزيز فكان يخرج كسائر الناس ويغشى الجامع والمجالس ويختلط بالعامة بدون حارس ولا ياور ولا مصاحب ولا قرين بل حراسته من ثقته بمحبة قومه. وصحابته من معرفتهم فضله واجلالهم قدره.

وخلفه ابنه بلعرب في (١٠٧٩ هـ) وبدأ الشقاق بين الأخين فنازعه أخوه سيف ابن سلطان. وانضم الفقهاء أو العلماء الى سيف وعضدوه بفتواهم ودسائسهم كعادتهم في كل بلاد المسلمين فكان ذلك بداية الشقاق. وانتصر سيف في هذه المرة، ليس بفضل العلماء ولكنهم لم يكونوا لينضموا اليه مالم يشعروا بقوته وتفوقه فهم دائما في جانب القوى. ولوانهم رأوا مغنما في جانب بلعرب ماتأخروا عن تعضيده والفتيا له . . .

وقد أظهر سيف همة في مكافحة البرتغاليين حتى طردهم من ممباسه على شاطئ أفريقا الشرقية وهو الثغر الذي تداولته البرتغال وعمان وزنجبار، وانتهى الأمر بوقوعه في يد الانجليز في سنة ١٨٩٠ وكان الانجليز ورثة دولة عمان فورثوا فيما ورثوا ذلك الثغر الذي جعلوه

عاصمة لمستعمرة افريقيا الشرقية . وطرد سيف البرتغاليين عن جزيرة بمبا وضمها الى مملكة عمان واستولى عليها الانجليز كما استولوا على زنجبار . بل ان أسطول سيف بن سلطان اجتاح جزيرة سلزيت بقرب بمباي وكذلك مدينة بارسالور ومانغالور ولم يقدر راجا كارزناتيك أن يذب عنهما وخلفه في ١٧١١ ولده سلطان الثاني فثار على سياسة الفتح واسترداد ملك عمان وانتزع البحرين من يد الفرس . . ومات وخلف ولدين أحدهما بالغ وهو مهنا والآخر قاصر وهو سيف فانقسم الناس بشأنهما وأراد كل فريق ان يولي أحدهما . وتغلب مهنا بفطنته ودهائه على أخيه الصغير ولكنه قتل وبدأت الفتنة بين الامراء والشعب (١١٣٣) وجاء يعروب أحد الامراء وتولى باسم سيف القاصر ثم اغتصب الملك وجعل نفسه اماما أصيلا ، ووجد عالما أعطاه فتوى لمصلحته وهو عدي بن سليمان القاضي الشرعي الذي أعطاه حكماً شرعياً بأنه أحرز الامامة بحق وانه ليس بعاص ولا غاصب (! ؟ !) فقام ضده أمير آخر وهزم يعروب وقتل القاضي الشرعي وطاف بجثته الاسواق ثم قام أحمد بن سعيد من اسرة البوسعيد فتولى بعض المدن وأحسن ادارتها وانتهى الأمر بأن نصبوه اماما في سنة ١١٥٤ هـ وكان لعمان أسطول قوى استعانت به الدولة العثمانية في سنة ١٧٥٦ على استرداد البصرة من العجم فنقلت بوارجه وقواربه نحو عشرين ألف مقاتل من عمان الى شط العرب كما كان يفعل الانجليز فى الحرب العظمى من نقل الجنود على نقالات تجرها البوارج فانظر كيف انقلبت الحال وزالت الدول وأصبح العزيز ذليلا والمستقل محكوما والغالب مقهوراً . وكان من جملة أسطول أحمد بن سعيد طراد اسمه « الرحمانى » ذكرناه بين أسماء القطع البحرية وهو الذي كسر سلسلة كبيرة من الحديد وضعها الايرانيون فى شط العرب لمنع اسطول عمان من دخول البصرة كما صنع المصريون عند بولاق لما دخلت مراكب الفرنسيين لدى حملة نابليون .

و بعد أحمد تولى ابنه سعيد بطريق ولاية العهد لا بطريقة الانتخاب لأن الامامة فى عمان من صدر الاسلام تقع دائما بالانتخاب على حسب مذهب الخوارج والحقيقة ان الانتخاب هو مذهب السنة ومذهب الجماعة ولكن تحول الأمر بعد أن صار ملكاعضوضاً الى مبايعة الوارث

الذي يكون عينه المورث من قبل . وقد تحول ذلك في عمان أيضاً فبعد أحمد بن سعيد تولى ابنه سعيد في سنة ١١٩٤ .

٦

ويمكن القول بأن عهد الاحتلال الانجليزي والدسائس الاستعمارية الحديثة بدأ في عهد هذا الامير وعهد أخيه سلطان الذي نازعه فانه في سنة ١٧٩٨ عقدت معاهدة بين شركة الهند الانجليزية وبين سلطان على بعض مسائل تجارية ، كما هي عادة الانجليز تمسكنوا فتمكنوا ، وتبعتها معاهدة اخرى بينه وبين الانجليز أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ يحق للانجليز بموجبها أن تعين مقيما في مسقط . وفي بحر هذه المائة سنة من ١٨٠٠ — ١٩٠٠ استولت انجلترا على البلاد بالحيلة أولا ثم بالتجارة ثم بالفتنة ثم بالقوة القاهرة .

فلما جاءت الحرب العظمى كان الخليج الفارسى حبيبها ونور عينها ومفتاح الهند في يدها من شماله الى جنوبه ، وكانت جميع مدنه وجزائره وسواحله وامرائه وشيوخه خاضعين لها وقد امتد نفوذها الى شرق افريقا وسواحلها ، وذلك كله بعد أن استتب لها الامر في الهند كلها ، فهي ورثت البورتغال ، ولكنها لم تحارب البورتغال ، بل تسلمت التركة الشرقية من الدولة الاسلامية التى تعينت وصياً على التركة وقامت باعباء تصفية التركة خير قيام ، فطردت البورتغال وطردت العجم ، ونظفت الخليج الفارسي من الاجانب واستولت على زنجبار وشرق افريقا ، وسلمت هذا كله لقمة سائغة الى انجلترا . ولم يكن بقاء هذا المقيم الانجليزي في مسقط عبثا . فانه قنصل ووكيل سياسى ، وخبير بالامور ، يدرس الأحوال ويمتزج بالامراء والزعماء ويبث العيون والارصاد ويوزع الاموال السرية وبالجملة يمهد السبيل في رفق وهوادة الى أن تسنح فرصة الاستيلاء التام . فان سير پرسي كوكس الذي عرف منذ عشر سنين بأنه مندوب سام في العراق لم يكن كما يظن بعض الناس غريبا عن العراق والعرب بل انه كان في سنة ١٩٠٢ وكيلا لبلاده في الخليج الفارسى . وهؤلاء الوكلاء يقبضون على زمام الأمور بطريقة تشبه طريقة السلطان عبدالحميد فقد روى ثقة عن أحد الموظفين

في الوكالة السياسـية بالبحرين انه كان يجيء الى الوكالة ويخرج منها كثير من الرسائل والبلاغات السرية وفي الدار منهاما يملأ بضعة صناديق ويدهش فحواها كثيرين، حتى رجال السياسة في لندن

وكان من بوادر وجود الوكيل السـياسى الانجليزي في مسقط ان شركة الهنـد الانجليزية تمكنت من ارسال اسطول في ١٨٠٩ حارب بعض العرب بتهمة القرصـنة . وفي سنة ١٨١١ استعان السيد سعيد بأصدقائه الانجليز فاعانوه على قلعة شيناس فأخذها . وعاد الانجليز بقيادة الجنرال كير الى محاربة الذين وصفوهم بالقرصان وأعانهم السيد سـعيد لأنهم صاروا حلفاءه .

وسارالسيد سعيد والسادة الانجليز لقتال عرب جعلان الذين تركوا الاباضية وصاروا وهابية فقهرهم عرب جعلان وتوفى السيد سعيد عقيب هذه الهزيمة حوالي سنة ١٨٢٠

وما زال الانجليزية يجاملون حلفاءهم الى سنة ١٨٥٤ حيث احتل الانجليز بندر عباس وأراد السيد سعيد (أخو المتوفى في سنة ١٨٢٠) أن يحارب العجم فمنعه الانجليز من امرار جنوده فى البحر من ساحل العرب الى ساحل العجم لأنهم لايسمحون بحركات حربية في الخليج الفارسي . وصارت انجلترا من ذلك التاريخ تصارح بحقيقة مقاصدها وهي انها لاتطيق أن ترى على ثبج ذلك البحر مقاتلا واحداً ان لم يكن تحت رايتها .

ولما تولى السيد توينى حارب الوهابيـين وجرد أسطولا عظيما لفتح زنجبار فتحفز الانجليز له وحكموا بينه وبين حاكم زنجبار لورد كاننج حاكم الهند فقضى برجوع الاسطول ؛ وقتل توينى فى فرشه واتهم ابنه سالم بقتله ، ولـكن الانجليز عضدوا سالما وسلموه الملك ، وهو بطبيعة الحال أطوع وأضعف لأنه مدين بنجاته من عقوبة القتل ثم بالعرش للانجليز فلا يمكن أن يخالفهم . وكان الانجليز قد ادخروا لوقت الشدة عم توينى هذا واسمه تركى واحتفظوا به أسيراً في الهند ، فلما لم ينالوا كل بغيتهم من سالم وامتصوه لحما ولفظوه عظماً ، طردوه من الملك وولوا عمه الذي أحضروه من الهند فجاء من بمباي الى مسقط وتسلم زمام الأمور

وحصلت في ١٨٧٤ فتنة فتغلب عليها تركي بتعضيد الانجليز وصارت انجلترا صاحبة الحول والطول في الخليج الفارسي وعمان والبحرين ، تولي وتعزل وتنصر وتخذل من تشاء بغير حساب

كل ذلك فى مدى أربعة وسبعين سنة من ١٨٠٠ الى ١٨٧٤ وفي سنة ١٨٨٨ توفي تركي وخلفه ولده فيصل بن تركي وذلك بموافقة انجلترا التى أصبح أمير مسقط لا يصدر إلا عن رأيها وكانت قد دخلت مصر منذ أربع سنوات وحصرت الشرق العربي بما فيه العراق وبين النهرين والبصرة بين مصر غربا والهند شرقا ومن ذلك التاريخ بل قبله بعشرات السنين كانت قد رسمت خطة الاستيلاء على الجناحين ، فلم يبق الا الاستيلاء على القلب وهو جزيرة العرب

وانني لا أشك مطلقا بل أثبت بادلة تاريخية لاتقبل الشك ان انجلترا كانت من أكثر من مائتى سنة تريد وضع يدها على مصر ثم طمعت في بلاد العرب كلها ووضعت لذلك منهاجا دقيقاً أول بندفية تجريد العرب وأهل الشرق الأوسط من السلاح وكانت تريد دخول الجزيرة من الجنوب الشرقي فاستولت على عدن و بوغاز باب المندب ولكن أئمة اليمن الصالحين الأتقياء الشجعان وقفوا لها ومنعوا دخول الأجانب بلادهم و رضوا بتوحشهم وتأخرهم ورفضوا المدنية الخلابة البراقة التى وراءها السيف والمدفع وسلاسل الاسر الدائم . فلما خابت في الجنوب ورأت أئمة اليمن يكونون جيشا ويدخلون مع دول أخرى لشراء الاسلحة هاجمت العرب من الخليج الفارسي كما شرحنا وقد استعمل الانجليز في تنفيذ سياستهم كل وسيلة وأنا أشيد بفضلهم على وطنهم لأنهم لايدخرون رجالا ولا مالا ولا عقلاً في سبيل عظمتهم الاستعمارية والضحايا نائمون يغطون غطيطا أو يتمتعون بالمال والنساء وقد استفادوا بنص القرآن في تعدد الزوجات وهو مخالف لما يقصدون فصار الملك أو الأمير يعدد الزوجات بحجة ربط أواصر النسب والمصاهرة فساعدوا الانجليز بالفتن الشائعة في بيوتهم فتعددت الزوجات ونشأ عن ذلك ضغائن بين الاخوة ومنافسة بين الامهات أساسها تباغض الضرائر الذي أراح

الله منهن أمم اوروبا حتى ان مؤرخا انجليزيا قال لهم الحقيقة في كتابه «التاريخ القديم» وهو رولنيسون حيث يقول في ص ٢٧

« ان تعدد زوجات الملك يزيد في عدد السباهلة في البلاط ويقتضى بناء القصور المتعددة التى توجب نفقات طائلة ويقتل شعور الولاء والمحبة في الاسرة الواحدة شعور الابوة والبنوة والاخاء ، ويفسد الاخلاق و يعلم النفاق ويضعف قوة البدن والروح ويبعث على الخنائة والترف ويمكن من النفوذ والسيادة في الاحكام طبقة من أحط الطبقات »

و كل ما رأيناه في عمان وغير عمان من الفتن والقلاقل سببه نزاع بين الاخوة حتى ان الأخ يغتصب حق أخيه والولد يقتل والده (كما وقع للأمير تويني من ولده سالم).

وكذلك يسعى الانجليز بوسائلهم المعروفة بتأجير قوم من العرب يضربون على أوتارهم وينشرون الدعاية لهم ويلبسون ثياب الغش ويقولون عن أنفسهم بالباطل أنهم من مفكري العرب أومصلحى الاسلام ولاهم لهم الا ترويج السياسة الأجنبية الاستعمارية .

وكما أن المسلمين كانوا يعدون في أيام قوتهم بلاد الافرنج بلاد حرب ويعلنون ذلك ويثبتونه في أحكامهم الشرعية والمدنية والجزائية ولا يزال هذا الأمر حتى هذه الساعة في كتبهم ، كذلك الدول الاوروبية الاستعمارية تعد جميع بلاد المسلمين بدون استثناء ممالك أعداء ، فهم يسعون بكل الوسائل الى منعهم من تسليح أنفسهم وسواء أكانت البلاد الاسلامية صديقة لأوروبا أومعادية لها فمحكوم عليها عندهم بالسقوط تحت نير الاستعمار فلا يجوز لها أن تتسلح .

٧

وهذا الحكم نفسه جرى على بلاد عمان .

فانه قبل الحرب العظمى بسنتين (١٩١٢) حاولت انجلترا تجريد أهل عمان من السلاح ، حتى تريح بالها من جهتهم ، ولأن ثغورهم كانت مشهورة بتجارة السلاح شهرتها بتجارة اللؤلؤ والتمر الاسود ، فأوعزت الى السيد تيمور أمير مسقط بجمع السلاح من أيدي الاهالي

وشددت عليه في ذلك وهي تعلم أنه لايخرج من يدها ولا يخالف أمرها وقد سافر الى بلاد الانجليز مراراً وقابله الملك جورج واحتفى به ، ولأن تيموراً تربطه بالانجليز معاهدات كثيرة أشد من معاهدات الحماية . فلما حاول ذلك انتقض عليه الأهلون و بايعوا غيره وامتدت الثورة وعظم الخطب وزحف الثوار الي مسقط وحصروا الأمير وكادوا يوقعون به لولا ان وردته نجدة انجليزية حفظت له حياته ودامت الثورة عامين واستقل الثائرون بالداخلية والجبل الأخضر وولوا عليهم اماما هو الرويحي وخلفه الخليلي وقنع تيمور بالساحل ومدنه ، وأخذت الداخلية في تدبير شؤونها وقد فاز أهلوها باستبقاء أسلحتهم

هـذه مملكة عمان التى كانت أقوى دولة بحرية في أسيا ، قد آل أمرها بتلاعب انجلترا واستسلام أمرائهم الى سقوطها وصارت امارة صغيرة محمية لاتملك لنفسها نفعاً ولاضراً . ولا يقدر أميرها أن يأتى بأمر مهما كان تافها الا اذا أشار به المعتمد الانجليزي الذي غرس اقدامه من سنة ١٨٠٠ في مدينة مسقط .

فنزف هذه الحقيقة الى أولئك البله من أبناء جلدتنا الذين لايزالون يحلمون بأن انجلترا لابد أن تؤسس لهم دولة عربية ولا سيما الذين ينادون اليوم بضرورة تأليف الحلف العربي . .

وأما زنجبار والمستعمرات التى كانت لعمان في شرق افريقا فقد اقتسمتها انجلترا مع المانيا وايطاليا ولم يبق لسلطان زنجبار على بلاده الا الاسم وكان آخر امراء زنجبار برغش ابن سعيد المتوفي فى سنة ١٨٨٨

وقد هدم الانجليز والالمان دولة زنجبار التى تأسست سنة ١٨٥٦ كما هدموا دولة عمان ودمروا أسطوليهما كما دمروا أسطول البحرين .

وقد هدموها حتى لايبقى لهم معارض ولامنازع في استعمارها لأن كل دولة عربية عزيزة الجانب على جوانب الاوقيانوس الهندي هي قذى فى أعينهم وخطر على الهند في نظرهم .

٨

ولا يقل تاريخ الانجليز في البحرين والمحمرة والكويت غرابة واغتيالا عما رأيناه في عمان فقد تدخلوا في شؤون البحرين فى سنة ١٨٦٧ بسبب وقعة دامسة وكان حاكم البحرين الشيخ محمد بن خليفة وكان رجلا أبله فقد تقرب اليه الانجليز بواسطة وكيلهم السياسى الذي جاءه من أبي شهر يخطب وده ويدعوه لعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده ومساعدة بريطانيا . ومن شروط المعاهدة أن يتنازل عن حقوقه فى تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية وانجلترا ترد عنه كل غارة . فلما وقعت موقعة دامسة وسافر الشيخ محمد الى قطر ليطفىء الفتنة انتهز الوكيل السياسى الانجليزي هذه الفرصة وأمر باطلاق مدافع البارجة علي القلعة بالمنامة حتى هدمها وطلب الوكيل من على أخ محمد أن يتولى الامارة ففرح على بذلك وخان أخاه ولكن محمداً تربص به حتى تمكن من محاربته وقتله ومات محمد بن خليفة في ١٣٠٧ منفياً أو مهاجراً فى مكة وتولى الشيخ عيسى وقد أحسن الظن بالانجليز خمساً وخمسين سنة فاذلوه وامتهنوه وانتهكوا حرمة ملكه المرة بعد المرة وذلك ثمن اخلاصه لهم بعد الذى رآه من فعلهم بعمه محمد بن خليفة وموافقته على المعاهدة السابقة بينهم وبين عمه التى قضت على أسطول البحرين ووكل الدفاع عن البلاد الى بريطانيا .

وكان الشيخ عيسى يخلص للانجليز ويخون سواهم فقد فاوضه مدحت باشا فى معاهدة الدولة العثمانية فأبى وسلم خطابه الى الانجليز وخابره الألمان في المعاهدة فأبى وأعطى مكاتبتهم للانجليز فماذا كافأه الانجليز ؟ شددوا عليه الخناق فى سنة ١٣١١ وسلبوا منه امتيازات قضائية لرعاياهم وفي سنة ١٩٠٣ أنزل سير برسي كوكس (بعد ذلك بعشرين عاما المندوب السامي فى العراق) جنوداً انجليزية الى البر وطلب احراق بقية أسطول البحرين ، ونفى أحد الامراء الي الهند خمس سنين ، واختصت الوكالة الانجليزية بالفصل فى دعاوى الاجانب كلهم . وفي سنة ١٩٢٣ عزل الانجليز الشيخ عيسى وولى ابنه الشيخ أحمد مكانه .

هذه قصة البحرين من حكومة مستقلة ذات أسطول حربى الى حكومة بغير

أسطول ، الى حكومة يراقبها وكيل سياسي انجليزى الى حكومة تشارك في ادارة شؤونها الداخليـة والخارجية حكومة انجلترا الى حكومة تعزل انجلترا أميرها وتولى سواه والأمة جامدة لا تحرك ساكنا . حتى حق الهجرة تأباه انجلترا على بعض أهل البحرين الذين يأبون الضيم والمذلة .

فانه بعـد عزل الشيخ عيسى خشى أهل البحرين على قوميتهم ودينهم فكتبوا يريدون الهجرة :

« إذا حالت القوة النارية بيننا وبين الاحتفاظ بشريعتنا الاسلاميـة وكرامتنا القومية غادرنا الوطن » .

وقد باشرت بعض العشائر الهجرة فعلا .

فأجابهم الوكيل الانجليزي :

« ان دولة بريطانيا تساعد الشيخ حمد (خليفة عيسى) فى كل عمل معقول يجريه لمنعكم من الهجرة فاذا أقدم أحـد على الهجرة عوقب بمصادرة أمواله ، واسقاط ديونه على الأهالى ، ومنع سفنه من الغوص . » .

وكل ذلك في سبيل اللؤلؤ والهند .

٩

١

لم يبق في قراء العربية في العشر السنوات الاولى من هذا القرن العشرين قارئ لم يشغل وقته وفكره باخبار الكويت والمحمرة فكنت في عصر كل يوم تتناول الصحف فلا تجد الا أخبار الكويت ومبارك الصباح. وكان هؤلاء المكاتبين المأجورين يرسلون برسائل تمليها الاغراض الشخصية والمنافع المادية. فلم تكن تستبين الحق. ولم يفطن في مصر الا القليل من النبهاء الى أن وراء الستار ماوراءه فانه ما كان يصل الينا من الاخبار سوى نتف، عن حوادث خطيرة تحدث في جزيرة العرب. فهؤلاء الأمراء وهم من علمنا خلقاً ونشأة وحباً للمال والشهوات قاموا يجلسون على العروش بعدل وبغير عدل ويقترفون الجرائم ويبددون الأموال وقد أخذنا هذين الرجلين نموذجاً لغيرهما من أمراء العرب كلمة كوت معناها بيت ومنها كوت الامارة الذي اشتهر فى الحرب والكويت تصغير كوت وهو اسم لامارة في الخليج الفارسى لها عاصمة هو ثغرها. وعائلة الصباح التى حكمت الكويت أصلها من عرب خيبر حيث يكثر اليهود فى التاريخ القديم وقد توطنوا في الكويت منذ مائتين وخمسين عاما. وقد نسج صباح رأس الاسرة خيوط الدسائس حتي تمكن من الامارة على كويت وكان الحكم شوري بين العشائر الى أن تولى صباح بن جابر ثالث أورابع هذه الاسرة. وقد تقلص ظل تلك الشوري تماماً فى أيام ابنه مبارك الذي كان ظالما مستبداً فهذه آسرة عربية اسلامية توصل مؤسسها الى الملك بحيلة وأخذ يعدل بين الناس هو واثنان من خلفائه الى أن فسد الجيل الثالث والرابع فوصل حكمهم الى الظلم والاستبداد والقتل وبيع الضمائر ودس الدسائس والعيش فى جو من الفتنة والدنايا. وبدلا من أن استتباب الأمر للأمراء يؤدى بدولتهم الى الترقى فى سبيل المدنية والنظام والعدل، تراهم يتأخرون وينحطون وتفسد مشاربهم وتندثر تقاليدهم، ويجرون الى الفساد والهاوية تلك القبائل والعشائر التى

ملكتهم عليها . حكم الفرد والغنى ، وعدم المسؤولية والميل الشرقى للاستبداد وتقلص ظل الفضيلة وعدم الوازع الديني والخلقى . وانحطاط دول الشرق والاسلام فى أنحاء العالم قد تعاونت كل هذه العناصر على تسميم عقول هؤلاء الرؤساء وقضت عليهم . ولو أنهم وجدوا مثالا حسنا فى تركيا أوفى مصرأو فى جزيرة العرب أو فى شمال أفريقيا فلعلهم كانوا يخجلون من أنفسهم ومن الامم الاخرى ان لم يستحوا من الله ورسوله . فهذه نفوس فطرية تستعمل الحيلة في الحصول على السلطة وقد يكون منهم الذكي والشجاع والقائد المغوار والسياسى الداهية ولكن لا يكون منهم الحاكم العادل الرحيم ، فيستغلون الشعوب لمصلحتهم ثم يستنجدون بالعدو الأجنبي على اخوتهم وأعمامهم وأبنائهم وعلى شعوبهم أنفسها فضلا عن الامراء جيرانهم ثم يقعون في يد المغتصب أو المستعمر ويموتون ميتة المجرمين والجناة ، بعد أن يقضوا حياة خاصة مخزية في الشهوات والخمور وتبديد المال واعتلاء صهوة الاهواء والانغماس في كل رذيلة . أما الحياة العامة فهى عندهم الدسائس والقتل والتقرب من الدول القوية لتنفيذ المآرب الشخصية . أما الأمم ، التى وكلت اليهم شؤونها ؛ والتى كانت وديعة في أعناقهم ، أما حياة الشعوب ، أما الرعية التى هم مسؤولون عنها بوصف كونهم رعاة فعليها السلام والاكرام . وبعدهم الطوفان .

٢

كان مبارك الصباح الذي حكم الكويت أكثر من عشرين عاما شابا قويا ذكيا وقد ولد حوالى نصف القرن التاسع عشر واشتهر فى شبابه بالشجاعة والفروسية ، وقد روينا فيما مضى من هذا الكتاب أنه في سنة سبعين المسيحية عند ما كانت حرب المانيا وفرنسا بالغة أقصى شدتها كان في جزيرة العرب حرب أخرى ولكن ليس بين دولتين متعاديتين مثل بروسيا وفرنسا ولكن بين أخوين هما عبد الله وسعود ولدا فيصل بن تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود الكبير . وهذان الولدان هما من أعمام الملك عبد العزيز ملك الحجاز الحالى وقد كان له ثمانية أعمام . فلجأ عبد الله الى الدولة العثمانية وفاوض مدحت باشا الذى كان والى بغداد وعلمنا ان مدحت عين عبد الله قائمقاماً وانتهز الفرصة وأرسل جيشاً ففتح القطيف

والاحساء ، ولما رأى مشايخ الكويت جيش الدولة العثمانية انضموا اليه وتولى مبارك الذي كان شابا جيشاً كبيراً من رجال العشائر وساعد على فتح الاحساء واعتبرت الدولة امارة الكويت موالية لها واعترفت الكويت بسيادة اسمية للدولة .

في سنة ١٣١٣ هـ توفي الشيخ عبد الله شيخ الكويت وخلفه أخوه محمد ، وكان له اخوان طامعان في الملك هما مبارك وجراح ولكن محمداً علم بتلك المنافسة فأراد ان يضعفها بضم أحد أخويه اليه فأشرك معه أخاه جراحاً في الحكم كما لو كان وزيراً أو وكيلا، فهنا أخوة ثلاثة لم يكونوا من أم واحدة وقد ورثوا البغض من أمهاتهم وليس لهم مايشغلهم عن التطلع للامارة كما هى الحال عند امراء اوروبا مثل الانشغال بأعمال البر أو طلب العلم أو اقتناء التحف أو السياحة في انحاء العالم .. وقد رأوا بأعينهم أو سمعوا أن سلاطين آل عثمان يضطهدون اخوتهم وعمومتهم وأولياء عهودهم ، وقد يلجأون الى خلع بعضهم بعضاً ، ويسجن السلطان الجالس على العرش أخاه او عمه ان لم يدس له السم فى الدسم أو يناوله فنجان القهوة المشهور ، وهؤلاء العرب محاربون بطبيعتهم قد يغدرون في سبيل السلطة وقد يخونون العهود أما الله والدين والعقيدة والذمة والشرف فقد وضعوها فى « الخرج » من زمن طويل

وهذا ماتراه مجسما في حياة عائلة صباح المنكودة .

فاليك ثلاثة أخوة : محمد وجراح ومبارك

محمد أمير الكويت بالميراث . وقد أشرك جراحاً ليتقى شره وليأمن مغبة اتحاد جراح ومبارك ضده . وكان محمد ضعيفاً وكان جراح صاحب النفوذ الأكبر في الحكم وكان يحب المال ويدخره ويضن به على غيره .

كان مبارك طموحا للمجد شديد البأس حديد الطبع ماضى العزيمة متهوسا متسرعا في أعماله ، عصبي المزاج ، كثير التقلب فيه من أسد الغاب ومن الحرباء له طبع بدوي وذوق حضري يجعله يميل تارة للعزلة وطوراً للترف يحبه عدوه حيناً وحيناً يخشاه ، فيخاص له أولا ويداريه ثانياً وصاحب مثل هذا الخلق يميل الى النعومة فى العيش ميله للمغامرة فى الحياة ،

فهو يحتاج الى المال لاليكنزه كما يفعل أخوه جراح ، بل لينفقه ويسرف فيه ويجود به ولهذا كان محبوبا من العشائر يلتفون حوله ويترون له بالزعامة .

ولكن محمداً الضعيف وجراحا البخيل لم يكونا من علماء النفس فم يطلعا على خفايا عقله وقلبه .

لقد أراد مبارك ان يتسلى عن الملك بالغزوات فنزع اليها والتفت حوله العشائر فغدا في حاجة دائمة للمال لينفقه فى الحروب ، وكان أخواه محمد والجراح يبغضان ذلك ، لاخشية تفوقه عليهما بل خوفا على المال الذي كان يطلبه دائما فكانا يضنان عليه بالنوال ويسيئان اليه وقد يمسكان عنه حتي نفقة بيته وعياله فصبر مبارك على ذلك صبراً جميلا وكان حتى هذه اللحظة عاقلا وبصيراً ، وكان صبره عليهما فضيلة ينبغي له ان يتمسك بها ليكون رجلا عظيما . وربما ظن مبارك أن أخويه محمداً وجراحاً لم يكونا عثرة فى سبيل مجده الشخصى بل فى سبيل عظمة الكويت فنفد صبره ، كما نند صبر مكبث ، وتحرك فى نفسه شيطان الغدر والانتقام ، وتخيل نفسه ملكا على البلاد ، ولكن لاسبيل الى الملك الا بزوال محمد وجراح وهو عاجز عن اشهار الحرب عليهما .

٣

وأخيراً صحت عزيمته على الجريمة .

فنهض في ليلة من شهر ذي القعدة ، وهو من الأشهر الحرام ولكن السنة كانت سنة شؤم سنة ١٣١٣ للهجرة ، ونهض معه ولده ودخلا على الرجلين وهما نائمان محمد والجراح واستل مبارك وولده سيفيهما وذبح مبارك أخاه محمداً وأمر ابنه ان يذبح عمه جراحاً .

وعند الصباح ، صباح الجنايتين ، لم يجن مبارك ولا ولده ، وان كانت الكويت قد ضجت لمقتل الرجلين . بل تمكن مبارك من اخضاع أهل الكويت فأذعنوا له اذعان الضعيف للقوي وفر أولاد الذبيحين الى البصرة فشكوا أمرهم الي واليها التركى الفريق حمدى باشا ، وعلم مبارك بمسعاهما فسبقهما الي بغداد يلجأ الى واليها رجب باشا ، وكان رجب باشا

أعظم شأنا من حمدي وأعلي مقاماً ، ومبارك يعرف أخلاق الترك لاسيما أخلاق الولاة في البلاد العربية ، وهذه امور يحسن فيها التلميح دون التصريح ، فتمكن مبارك و يداه مخضبتان بالدماء من استمالة رجب اليه بواسطة بعض الرجال ، وبعض الهدايا طبعاً ، وكتب رجب الى القسطنطينية عاصمة الاسلام من ترك وعرب وعجم ، يقول «ان الحادث بسيط وهو من الحوادث العادية المألوفة بين البدو ، وخير للدولة ان لاتتدخل فى الأمر لئلا يؤدي ذلك الى تدخل الانجليز » .. ولعله يشير من طرف خفي الى ان الانجليز يحمون مباركا ، أو يشدون أزره مادام قد قتل وغاب وملك ، وهم دائما يحبون هذا الصنف من الرجال لأنهم يملكون زمامه و يقدرون على الانتفاع به و يتهددونه دائما بالقصاص لجريمته ، وهكذا كان شأنهم مع سالم بن تويني حين قتل أباه فانهم حموه الى حين حتى امتصوه وأخذوا منه ما كانوا طامعين فى أخذه ثم طردوه وجلبوا عمه الذى كان سجينا عندهم في الهند وسلموه زمام الملك .

بيد أن الانجليز لم يكونوا غافلين ولم يكونوا نائمين ولم تكن أعينهم المبثوثة مغمضة ولا آذانهم المرهفة صماء فقد سمعوا بالخبر واهتموا بالأمر . وكذلك لم يقصر أولاد القتيلين وهما فى البصرة ، عن الالتجاء الى قنصل انجلترا في نفس الوقت الذي التجأوا فيه الي الوالى حمدى باشا . وهم معذورون ، لأن الموتور معذور ، وصاحب الدم يستنصر أياً كان في سبيل الانتقام . ولم يكن هؤلاء الأولاد من الدهاء السياسى والوطنية الحارة بحيث يهدرون دم والديهم ليقال عنهم انهم أهل شمم واباء فلم يلجأوا للأجانب . وكان القنصل الانجليزى فى البصرة طويل الباع في الدسائس فنصر أولاد محمد وجراح على عمهم مبارك وسعى فى سبيلهم وسبيل سياسة دولته في الخليج الفارسي سعياً حثيثاً أرغم الدولة العثمانية على التخلى عن مبارك وتخييره بين عقوبات ثلاث تنطوى اثنتان منهما على النفي .

(١) اما ان يحضر مبارك الى اصطامبول ويقبل عضوية فى مجلس شوري الدولة

(٢) واما ان يسافر الى بلد يختاره وترسل اليه الدولة معاشاً مدى الحياة

(٣) واذا عصى الأمرين فان الدولة تجرد جيشاً لمحاربته .

قد تقول ان هذا ليس عقاب قاتل ، ولكنه في الحقيقة عقاب لأنه حرمان المجرم من ثمرة الجريمة وخلعه من العرش الذي طمع فيه واستولى عليه بالغدر والدم .

ولكن عزيمة مبارك لم تقف عند هذا الحد ، ولم ييأس من النجاة فاستجمع ارادته وقصد الوكيل السياسى الانجليزي في أبي شهر وهو يعد حاكم الخليج الأكبر .

وأنت ترى أن مباركا يحب العلا في كل شيء فقد قصد رجب باشا والى بغداد وخصومه لجأوا الى والى البصرة وعند مالجأ خصومه الى قنصل البصرة لجأ هو الى الوكيل العام في الخليج الفارسى وهو أكبر شأنا من قنصل البصرة .

لقد انتصرت انجلترا على يد قنصلها بالبصرة وأرغمت الدولة على الشروع فى معاقبة مبارك . ولكن انجلترا نفسها وجدت فرصة سانحة بالتجاء مباوك الى وكيلها في الخليج ، وهي يهمها أمران أن تخذل تركيا أمام العرب وترجع فى كلمتها ، وأن يبقى على عرش الكويت رجل يكون لانجلترا عليه يد كما قدمنا .

أوعزت انجلترا الى تركيا ان تضغط على مبارك ، وتكشر له عن أنيابها حتى أيقن مبارك أنه فقد أسباب النجاة ، فالتجأ الى انجلترا فلبت طلبه وأكرمته وغسلت يديه الملطختين بدماء أخويه وطيبت خاطره ، ولا يعلم الا الله ماذا جرى بين رئيس الخليج وبين مبارك ، ولعله ليس بأقل مما جرى بين مفستوفيليس وفوست الشهير . ضمنت له انجلترا الحياة والملك ، وعاهدها على العبودية والولاء .

وعند ماوصل المركب الحربى العثماني الى الكويت يقل نقيب البصرة وبعض موظفي الدولة حاملين الأمر العالي الهمايونى وهم يصممون على تنفيذه جاء مركب حربى آخر ينقذ الشيخ مبارك ويطرد المركب العثمانى من مياه الكويت

وكان هذا المركب الآخر يحمل راية « يونيون جك » وشعاره : فرقي يابريطانيا وسودى !

٤

وعاد الشيخ مبارك الى الكويت ونجا من خصومه في البر والبحر ، وتعاهد مع آل سعود على آل الرشيد وما زال ينصر آل سعود حتي أخذوا الرياض وقتلوا خصمه الألد عبد العزيز الرشيد . فأخذ يرهق الرعية بالضرائب التى لم يسمع بمثلها فى الشرق ولا فى الغرب، فشارك الأهالى بالثلث فيما يملكون أو يبيعون أو يستأجرون وشيد القصور وفرشها بأفخر الأثاث والرياش ومتع نفسه بأنواع الملاذ ، لاعب العشائر وغالبها وغازل الدولة العثمانية وأقسم لها يمين الولاء ثم انقلب عليها وعاهد الانجليز وأخلص لهم لينقذوه من أعدائه العرب والترك . قرب آل سعود وربي عبد العزيز ملك الحجاز الحالي في قصوره ، ولكن لم يكن الحب خالصاً لله بل ليضرب بهم خصمه ابن الرشيد .

أظهر الحب للعجمان ثم حاربهم وأشعلهم ناراً على ابن سعود .

كان ككثيرين من الأشرار في هذه الدنيا سواء أكانوا شعبا أوملوكا ، موفقين سعداء الحظ فلما عاد الى الكويت ظافراً وهو الخارج منها هائما على وجهه ملطخاً بدماء أخويه ، سبقته شهرته بالنفوذ والغلبة والانتصار على سياسة الدولة العثمانية والاحتماء ببريطانيا . فان الانجليز كما لا يخفي على اللبيب عقدت معه حلفاً « انجلوكويتيا » خلاصته أن لا يكون للشيخ مبارك علاقة مع حكومة أجنبية سواها ، لأن البيون الخؤون غيور لا تحب لاحد من رجالها أن يغازل أخرى..والقلب لا يسع اثنتين ولو كان قلب مبارك أو خزعل.. وتعهدت هي من ناحيتها أن تحميه من كل اعتداء خارجي من البحر وليس لها في البر شأن فلا تتدخل في شؤون العشائر .

وغني عن البيان أن اندحار الترك ورجوع مركبهم بالوالى والموظفين والخط الهمايونى ، قد قطع علاقة الكويت بالدولة وعلم مبارك أن الترك قد « نقعوا الخط الهمايونى » وشربوا منقوعه قبل أن يصلوا الى شط العرب ، وربما احتفظوا بالسمالة والسؤر للصدر الاعظم ووزير الخارجية بالمابين والباب العالى .

وكانت هذه المعاهدة سنة ١٣١٣ التي كتبت حتما بمداد أحمر، ليكون بينها وبين فعلة مبارك وجه شبه ولو في اللون، مقدمة المعاهدة الكبري التي حصلت عليها انجلترا في سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العظمى بعام واحد بين تركيا وبريطانيا. وفي تلك المعاهدة العامة تنازلت الدولة العثمانية رحمها الله عن سائر حقوقها فى قطر والبحرين ومسقط وعمان لبريطانيا وأخذت على عاتقها (مسكينة حامية حمي الامم الشرقية المستضعفة!) واجب إنارة الخليج وحراسته من الاعداء!! (من هم؟)

امتد نفوذ مبارك الصباح الى البصرة والمحمرة وصارت له كلمة مسموعة في أبي شهر مقر الوكيل الانجليزي منقذه. ولكنه مع كل هذا النفوذ في الجزيرة والخليج وشط العرب وشاطئ فارس ومع توفيقه في الحرب والسياسة لم يكن موفقاً للخير فقد بني لنفسه قصوراً عدة ولم يبن لله سوى بيت واحد، ولم يهتم بتعليم شعبه ولا صحة أبدانهم. ولم يفعل الا جمع المال وتبديده في ملاهيه وشهواته. ولم يخلص لاحد وعاش ومات في محرم سنة ١٣٣٤ والحرب العظمي في ضحاها (١٩١٥).

٥

استغفر الله بل كان له صديق من نوعه أحبه حباً جماً صافياً هو الشيخ خزعل فبني له في الكويت قصراً، كما بني له خزعل في المحمرة قصراً. لقد أعطاهما الله الملك فليتمتعا به ولتهلك الشعوب العربية ولتسقط الدولة العثمانية ولتنتشر خراطيم الاخطبوط البريطانى في كل مكان! فليس هذا بضائرهما شيئاً قليلا ولا كثيراً مادام الخوان ملآنا والدن عامراً والندامى يتقاذفون من كل فج عميق يصطحبون الغوانى والراقصات من مصر والعراق والشام!!

وقد كانت بينهما رابطة أخرى وهى رابطة الاجرام فقد قتل خزعل أخاه كما ذبح مبارك أخويه.

ولما تبادل خزعل ومبارك القصور كما كانا يتبادلان الكؤوس كلما كانا يجتمعان

على ضفاف قارون أو على شاطئ الخليج ليقضيا أياما وليالي بين أسراب من القيان والعازفات ويديران أقداح الطلى قبل أن تفاجئهما كأس المنون الدهاق . وقد سبق مبارك صديقه الى العالم الآخر . أما خزعل فلا يزال على قيد الحياة في أحد سجون طهران . وخزعل هذا واسمه الرسمي أطول من أسماء أمراء الاسبان سمو السردار أقدس معز السلطنة الشيخ خزعل خان ابن نصرت الملك الحاج جابر خان الجاسبي المحيسني الكعبي العامري أمير نويان وسردار عربستان الخ الخ .

وهو من أمراء العرب ولكنه يحكم ولاية فارسية . وكان غنياً وكان كريماً على الشعراء والغواني والندمان ، كأنه أحد أمراء البرامكة في عهد الرشيد . يحب اللهو والغناء ويميل الى الأدب والشعر ، ويحب أن يهاجر اليه الشعراء بقصائدهم المسروقة أو المصطنعة فيجيزهم ويملأ أفواههم دراً كما يملأ حقائب الغواني ذهباً وجوهراً . وكان شعاره وهو في امارته « الدنيا بحذافيرها الخفض والدعة » وقد قتل أخاه أيضاً كما قتل مبارك أخويه

لقد كان هذا الشيخ الخليع متفانياً في حب الجمال والفن ، كأنه أحد أعيان باريس في عهد الديكادنس ، أو أحد أمراء الأندلس الذين سبقوا سقوط بني سراج . كانت تنقصه شجاعة مبارك وسياسته ، ولكنه كان يحبه لتشابه بينهما في الدهاء والدس وحب الملذات روى الاستاذ امين الريحاني في كتاب ملوك العرب ج ٢ ص ١٧١ عنه ما يأتي :

« تجيء المغنية من حلب أو الشام الى المحمرة وهي لا تملك الا خلخالها فتقيم عدة أشهر في القصر وتعود غنية مثقلة بالحلي . يجيء الادباء والشعراء وفي جيوبهم قصائد المديح فيعودون من المحمرة وفي جيوبهم أكياس من المال » اه

وكان الرجل شيعياً ولكنه يحب أهل السنة ومسلما ويكرم النصارى واليهود والوثنيين ، ويقرب القسيس ويصادق المبشر ويستفيد من محادثة البنائين الاحرار . يعاقر بنت الحان ، ويلعب البوكر مع أصدقائه وضيوفه فان عز أو دعا أولاده الى المائدة الخضراء المخمسة الاضلاع .

أما الشريعة السمحاء ، فهو يحبها وينفذ منها زواج المتعة وكان له في مقر ملكه ستون زوجة وهو قل أن يعرف أولاده واذا ناوأه أحد من مشايخ القبائل وخرج عليه وكانت للشيخ الثائر بنت صالحة للزواج زاره خزعل وشرفه بالمصاهرة فتبرد نار الفتنة وتحل محلها أفراح التعريس والزفاف. وكان الى سن الخامسة والستين يسافر من عاصمته في سبيل النكاح .
وكانت علاقاته مع ملوك الارض حسنة فجمع بواسطة السفراء والقناصل والوسطاء عشرات الاوسمة والنياشين من سلطان تركيا وشاه الفرس وملك الانجليز وبابا روما بنديكتوس الخامس عشر . ولكن أعظم نيشان كان يحمله في قلبه الاخضر الخصب وهو نيشان الغرام وشعاره

ادين بدين الحب كيف توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

هذا الشيخ الذي وصفناه ، وكان صديق شيخ الكويت الخاص وعند ما أعلنت الحرب العظمى وسعت الوفود اليهما ذاك يجذبهما الى الترك والالمان وهذا الى الحلفاء ، والشيخان يعدان ويخلفان ويقولان ولا يصدقان ، ويتظاهران بالود للواحد في غيبة الآخر فاذا خلوا بهذا الآخر قالا له اننا معك انما نحن مستهزئان وهما في كل دقة يجلبان المال ، ويخزنان التحف والهدايا ويظنان أن الأمر قد ينتهي بفوز النفاق بغير حاجة الى الطعان .
يقول أحدهما ا كتب للترك تنفعك عندهم ولا تضرك عند الانجليز ، ويقول الآخر ابتسم لليتشمان وشكسبير ، أحسن معاشرة لورنس زعيمهم الكبير .

وما زالا هكذا حتى تمكن الانجليز من هزيمة الترك في البصرة فانهم اتخذوا الكويت مخزنا للذخائر والسلاح ، وأمروا خزعل باعداد جيش جرار قوامه عشرة آلاف جندي فقطعوا خط الرجعة على الاتراك وداروا حولهم فاضطر الاتراك للتقهقر وفاز الانجليز .
وهكذا ضاع العراق على يدي هذين المجرمين الخائنين العابثين بحقوق الدول والشعوب .

ولكن ربك المرصاد .

فان شيخ الكويت قضى غير مأسوف عليه في سنة ١٩١٥ ، اذ كان ربيبه ابن سعود

قادماً لتأديبه وهو الذي نشأ في بيته وكان يدعوه قائلا أنت ولدي . وعبد العزيز ابن سعود : يقول أي نعم ياوالدي ولكن في أخلاق ابن سعود مالا يلتئم مع كل هذا الخبث والغدر العظيم .

أما الشيخ خزعل فقد أسره الفرس بحيلة غريبة بعد أن استفحل شره وتحققوا من شدة لؤمه وكيده . فقد كان جلالة الشاه بهلوي خان وزيراً للحربية ، فأرسل الى خزعل هذا ضابطاً من الجيش الفارسي نزل في ضيافته وتودد اليه ووافقه على خطته في سروره ولذته . ثم دعاه الى نزهة بحرية في زورق جميل فلما أن بلغا الشاطيء الفارسي انقضت عليه شرذمة من الجند وقبضت عليه وساقته في سيارة الى أحد سجون طهران ووضعت حكومة الفرس يدها على المحمرة لانها ملكها واحدى ولاياتها . وصادروا أملاك الشيخ الخليع الرقيع فلم ينفعه شعر الشعراء ولا عزف القيان . وتشفع الانجليز لدى دولة الفرس في شأن الشيخ فأبقوا على حياته وهو لا يزال في طهران سجيناً .

لا تقول ان أمراء العرب كلهم من هذا القبيل ، فان بينهم رجالا أشداء في الحق ، أمناء على العهود أهل صدق ووفاء واخلاص ، محبين لاوطانهم يذودون عنها ويتفانون فى حمايتها والحرص عليها وفى مقدمتهم الامام يحيى أمير اليمن . وكان أمراء مسقط وعمان في عهدهم الاول وقبل أن يدب بينهم دبيب الشقاق وتفرقهم المطامع والاحقاد في أعلى ذروة من علو الهمة وصفاء النية وحب الاسلام .

ولكن الكثرة الغالبة ولاسيما في العهد الاخير أخلاقها كأخلاق هذين الاميرين من أمراء دار التمثيل . اللذين يثيران البكاء حيناً وحيناً يثيران الضحك العميق . على أنهما لم يخلوا من الذكاء والشجاعة والاقدام وسعة الصدر ونباهة الذكر وصفاء الفكر ولكن مافائدة هذا كله ان كانت الارادة ضعيفة وحب الاستبداد متمكنا وظلم الشعب ديدنهما وبيع الوطن داءاً دفيناً في فؤاديهما. بل ما فائدة المواهب اذا كان المال يعمى صاحبها ويصمه ويسهل له التفريط فى حقوق البلاد ، وأى نفع يعود على العرب من كثرة الزواج وتبذير المال فى مجالس المدح والشراب ، وملأ حقائب أهل الخلاعة بالذهب والفضة ؟ ثم تكون لها هذه الخاتمة الخاسرة .

١٠

١

لقد بدأ البحث في المسائل الاجتماعية في مصر منذ ألف المرحوم قاسم امين كتابه فى تحرير المرأة . لأن المرأة هي قوام الحياة الاجتماعيـة في كل بقعة وقطر . فالمرأة الانجليزية اشتهرت بتدبير الدار والدأب على العمل فيسبيل اسعاد الاسرة ، وتوفير وسائل الهناء حول الموقد والخوان ، والمرأة الفرنسية معروفة بذكائها وفطنتها وحضور بديهتها وحسن بزتها والمبالغة فيصنوف التجمل والزينة والمرأة الالمانية وفية لزوجها تحبه الحب كله ، وتودعه كما تستقبله في كل صباح ومساء بدموع الفرح أو الاسى وهي بعـد تجيد الطبخ وصنع الفطائر والمرقات وتحب الموسيقى وتشارك زوجها في حـمل اعباء الحياة والمرأة البولونية لاتصلح للزواج بقدر ماتصلح للعشق فهي شديدة الشغف بالمغازلة والمرأة الروسية عاقلة عليمة صبور على الشـدائد تعـين زوجها وتساعـده واعجابها بالذكاء والشجاعة أعظم من اعجابها بالجمال أو بالقوة وقد كان لها أوفر نصيب فى الثورات الروسـية والاستقتال فى سبيل الفكرة التى بها تحيي ولأجلها تموت .

أما المرأة الشرقية ولاسيما المسلمة فيندر أن يكون لها مشاركة في أعمال الحياة الخارجة عن بيتها . ان اليابانية شاركت رجلها في الحرب والتجارة والسياسة والمرأة الهندية التى ذات خاملة قد نهضت في العشرين سنة الاخيرة وأخذت تعـمل مع الرجل وذلك بفضل تعلمهن تعليما حديثا في اوروبا .

وكان منهن سيدات شواعر وخطيبات أعنّ غاندي وحللن محله عند اعتقاله في ثورة سـنة ١٩٣٠ [١] . وكانت المرأة التركية ذات نصيب وافر في الثورة التركية ، فقد وصفت

(١) السيدة سارچوينى نايدو وقد رأيناها مع غاندى سبتمبر سنة ١٩٣١ على ظهر الباخرة ببورسعيد

السيدة مارسيل تينير في كتابها « مذكرات سائحة في تركيا » باريس سنة ١٩١٠ ما رأته من أعمال هؤلاء الهوانم اللواتى كن لا يعرفن قبل حركة الدستور سوى الحريم والطنافس وأوانى المسكرات والحلوى فاذا هن قد اشتركن في الثورة اشتراكا فعلياً وكان لهن فضل يذكر . وكذلك المرأة المصرية منذ ظهور كتاب قاسم امين ، الذي هاجمه خصومه من كل جانب ، قد خطت خطوات واسعة في التربية والتعليم وحاولت رفع مستوى الحياة المصرية على الخطط الافرنجية .

وبعد ان كانت الكاتبة الفرنسية المرحومة زوجة حسين رشدي باشا الأولى تصف حياة المرأة المصرية المعذبة في حالتى الزواج والطلاق فى كتابيها عن « الحريم » وعن المطلقات « ليربيوديه » ١٩٠٤ و١٩٠٨ وكانت السيدة چان ديڤراى وهى سيدة من جنوب فرنسا وزوجة لطبيب مصري اسمه سليم فهى تطعن على المصريين أشد الطعن فى كتبها ، رأت الثانية منهن ؛ ولم تعش الأولى لترى ، الحركة الوطنية المصرية فى ١٩١٩ فكتبت معجبة فى مجلة باريس بعنوان « فى مصر » تقول

« اننى قد أصبحت أشهد العجائب والغرائب فى هذه البلاد ! ان مثلى ممن عرف مصر فى عهد توفيق ليهوله كل الهول ما يشهد بعينه من تطور شأن المرأة المصرية فى هذه الاعوام الاخيرة هذا التطور الاشد غرابة من كل ماحدث من أنواع الانقلاب فى وادى النيل ان من كان يعرف تاريخ حياة المرأة المصرية ، حياة الاهمال والانقباع فى كسر بيتها ، بمعزل عن أى شأن تشتم منه رائحة سياسية أو اجتماعية ليدهش دهشا كبيراً حيال ما قد حدث من التطور فى هذه الأشهر الاخيرة فقد قامت فى مصر مظاهرات كبرى فى صيف العام الماضى (سنة ١٩١٩) فاحتشد النساء فى القاهرة فى مواكب جليلة فهرعت الجنود البريطانية للحال واصطفت نطاقا من حول الموكب مصوبة نحو النساء البنادق وفى رؤوسها الحراب المسددة اللامعة واذا هدد جندى سيدة اسرعان ما دارت اليه زائرة زأرة أنثى الأسد تحمي اشبالها وكشفت عن صدرها وصاحت به « اغرس أيها الجندى حربتك فى صدرى فيعرف العالم ان هناك واحدة

من النساء أمثال الآنسة كافل » اه كلام زوجة الطبيب .

وقد حدثت هذه الحادثة في شهر ابريل سنة ١٩١٩ فان السلطة العسكرية كانت صرحت بمظاهرة نسوية ثم منعتها ومنشأها رغبة السيدات المصريات فى تقديم احتجاج لقناصل الدول فلما صـدر الأمر بمنعها أحاطت بالمظاهرة صفوف من الجند الانجليز الذين أخذوا يطاردون الجماهير فى شوارع قصر العينى وشارع سعد زغلول وما حولها وقد حاصر الجنود هؤلىٓ السيدات ومنعوهن عن التقدم نحو غايتهن ومن العودة الى منازلهن فتقدمت واحدة منهن وقد قيل انها السيدة استير ويصا ابنة المرحوم اخنوخ فانوس الذى كان أخطب الاقباط ، وأثبت محمـد صبرى المؤرخ المصرى فى ص ٤٣ من كتابه « الثورة المصرية » أنها السيدة هدى هانم شعراوي . فقد تقدمت تلك السيدة وكشفت عن صدرها كما كانت تفعل احدى الرومانيات أو العربيات وقالت « اقتلنى ليكون فى العالم ميس كافل اخرى » وقد رأيت بنفسى هذه المظاهرة بصحبة قاض مصرى (الآن مستشار بالاستئناف) كانت زوجته بين هؤلاء السيدات ، وقـد بقين ساعتين تحت وهج الشمس ولولا تدخل قنصل امريكا وقنصل ايطاليا اللذين لجأت اليهما صفية هانم زغلول ماتمكن السيدات من العودة الى منازلهن ، وأثبت المؤلف السالف الذكر أن فتاة مصرية خطبت بالفرنسية أمام حفل من الاجانب على شرفة فندق شبرد فقالت « اننى لن أتزوج لئلا ألد ولداً يكون عبداً للانجليز » وأنا أرجح أن صاحبة الحادثة الاولى هي أستير.

ورأينا عشرات المرات طوائف من النساء المصريات العاميات راكبات على مركبات النقل ، يطفن بالشوارع مهللات فرحات ، وحولهن الأعلام الخافقة « كانت حملة وانشالت ياسيد! » يقصدن بذلك الى زوال الاحتلال الانجليزى وقد كانت هذه النداءات والهتافات والاغانى صادرة عن اخلاص وسلامة فطرة فحركت فى نفوس كل من رآها أسمى العواطف واستمطرت الدموع من العيون . ولـكنها كانت سابقة لاوانها وآسفاه !

فحق للسيدة چان ديفراى ان تدهش مما لم تـكن تحلم به قبل اليوم .

٢

غير ان المرأة المصرية مزيج من المرأة العربية والمرأة المصرية والمرأة التركية، وهى سريعة الانفعال والتأثر وجديرة بأن تشعر بما شعرت به ابان الثورة المصرية وقد ثابر بعضهن على العمل فى صفوف المجاهدين فى سبيل الاصلاح السياسي أو الاصلاح الاجتماعى. ولكن حب النفس والغيرة قد تؤثر في بعضهن فتختط كل منهن خطة تورثها الظهور والشهرة ولا تود ان تعمل هادئة فى الصفوف، وذلك لمجرد شعورها بمكانتها أو ثروتها أو طيبة أرومتها فهي لا تريد ان تخضع لأحد ولا ان تكون مرؤوسة لأحد.

ولكن الدور الذي مثلته المرأة المصرية فى الثورة المصرية لم يغن شيئاً فى ميدان المعترك الاجتماعى لحياة البيت المصرى لا تزال كما وصفنا والمرأة المصرية الغنية المتعلمة المتزوجة تنهب زوجها وتبدد ثروته فى تجميل نفسها وتجميل منزلها لجعله علي النمط الاوروبى.

ولم تعمل واحدة منهن ما عملته أم محمد على الهندي ولا ما عملته مدام كاما أو السيدة سارجويني نايدو ولا ما قامت به السيدة خالدة أديب فى النهضة التركية الحديثة.

وكان العهد الأخير على مصر عهد اسراف وتبذير وبلاء ولا سيما منذ تهتكت المرأة فى لبس الثياب ورفع الحجاب وركبت رأسها بغير رقيب ولا حسيب، وعذرهن وعذر من يدافع عنهن انما هو وجودنا فى طور الانتقال أو التحول. ودور التحول هو بحكم الضرورة دور فساد فى الآداب وانحطاط فى الاخلاق وعبث بالدين مما قد يظنونه عرضاً يزول أو مرضاً يبرأ ولكنه فى الحقيقة داء مزمن لا يشفى الا بكر الأعوام.

فكل من يرى المرأة المصرية ولا شغل لها الا زينتها وحليها وتجميل شخصها الفانى واعجابها بكواكب السنما، وغشيانها أماكن الملاهى وسماع الغناء وترتيب الحفلات اليومية لشرب الشاي وتبادل الأفكار في مستحدث الأزياء، ليرتاب فى مستقبلها من حيث قبولها الاصلاح، وقد يثبت فى نفس المفكر الحزين ان أظهر نتيجة لهذا الدور أو هذا التطور، البادئ بالتواليت والمنتهى بقيادة السيارات، هي تزلزل نظامنا القديم الكريم

القائمة عليه حياتنا البيتية وعاداتنا الاجتماعية وتضعضع المعتقدات الدينية وتزعزع حياتنا القومية فان النظم العتيقة على مابها من عيوب كانت مشتملة على فضائل جمة ، وانني وان ذكرت الدين فلا أقصد العبادات فحسب ، لأنه من المعلوم والمسلم به أن المرأة المصريه المسلمة لاتمارس شعائرها الدينية وربما كانت الصلاة أو الصيام موضع السخرية في نفسها

وانني لاتهمني اقامة الشعائر على مافيها من الفضائل وتهذيب النفس وطهارة البدن والروح والنهي عن الفحشاء والمنكر بقدر مايهمني أثر الدين فى النفس من حيث المحافظة على الفضائل والأعراض ، والتعود على الزكاة والاحسان والقيام بأعمال البر والصدقة التي تقوم بها المرأة الاوروبية، التي يدعون انها غير متدينة ، والمرأة المسلمة المصرية قبل ان يكتسح أخلاقها تيار ظواهر المدنية الجارف .. ان امهاتنا كن جاهلات ولم يكن يقرأن مؤلفات الفرنسويين والانجليز فى القصص ، ولم يكن يتقن رقصة الشارلستون ولم يذقن طعم الشمبانيا ولا الشاى الحديث ولم يتسامرن مع أصدقائهن أو أقاربهن على دقات الجازبند ولكنهن غرسن في نفوسنا بعض المبادىء الصالحة وحثثننا بفضائلهن الصامتة على طلب العلم والاستزادة من الاخلاق الطيبة وقد رأينا خطبة مولانا شوكت على وافية فى هذا المعنى [1].

٣

وربما كانت المرأة المصرية معذورة في الخطة التي تسير عليها لأنها لاترى أمامها قدوة حسنة لافى زوجها ولا فى أبيها بعد ان انقرض جيل أمها وجدتها . وكانت الصورة التى تراها من الأخلاق صورة بشعة مؤلمة . فان المصريين المستجدين تحت ستار النهضة الحديثة والتجدد واستقلال الفكر ، والشخصية البارزة وما اليها من الألفاظ والتعبيرات العقيمة قد قضوا على صفات الاحترام الماضى ، واكرام الكبار والشيوخ واعتبار الحكم والنصائح الصادرة عن المجربين من الأهل والأقارب ، وبعد ان كان الوالد رب الأسرة وولي العترة ورئيس العشيرة وكانت كلمته فيها هى المطاعة وأمره النافذ المقضى وكان حارس مقامها

---

(١) التى القاها على لفيف من سيدات مصر فى العام الماضى قبل ظهور فضائحه ومساعدته للاستعمار .

وراعى حرمتها كما هو مصدر رزقها فقد أصبح مجرداً من تلك الصفات وصار أصغر فرد من أفراد العيلة يبغى ان يستوى معه فى كل شأن من الشؤون وينازعه السيادة فى كل أمر من الأمور ، وقد روى لى والد أنه أصبح لايستطيع ان يصدر لابنه الناشىء أمراً لأنه واثق من مخالفته ، وان أراد الولد طاعته لبقية احترام أو خوف ، تعضده الأم وتنصره على أبيه فتفسد النظام وتحدث النفرة بين الوالد والولد التى تتلوها الهوة التى تفرق بينهما الى الأبد وما قضية البنت الا كقضية الولد فى هذا السبيل . وقد صارت الفتاة فى الثالثة عشرة مثل أمها فى الثياب والزينة ، وربما كانت موضع سرها ومحل ائتمانها وكاتمة أمورها فى شؤون لايطلع الوالد عليها ، وقد صار الطلاب فى المدارس فى العقد الثانى من أعمارهم يعرفون من خفايا الحياة وأسرارها مالم يكن ابن الأربعين يعرفه منذ خمسين عاماً ، فبعضهم يشرب الخمر ويلعب الميسر ، ويخاصر النساء وهو بعد لم يتم دراسته ولم يتخط دور العلم وقد رأيت بعيني رأسى والداً وولده على شرفة فندق كنتننال وكلاهما من موظفى الحكومة وأحدهما برتبة الباشوية يعاقران الخمر ويغازلان غادة واحدة . فلما ذكرت ذلك لأحد أصدقائى ، قال لى ليسا وحيدين فى هذا المجال وأمثالهما كثيرون ، وقد صار الولد والبنت كلاهما مرهقين لوالدهما فى طلب المال للانفاق منه لافى الثياب والمأكل والنزهة البريئة بل فيما لايستطيع القلم تدوينه وتسطيره .

ولا أنكر ان بعض الآباء قد يشجعون هذا السلوك ، بتغاضيهم أو رضاهم عنه رضى تاما ، وقد يعرف عن بيته الانحراف عن جادة الاستقامة وهو صابر صامت اما لحاجة اقتصادية واما لبلادة فى الخلق ، واما لضعف الارادة وانطباع نفوسهم على الذل والفساد وقد ترى رجلا عظيما مستقل الرأي يشغل منصباً كبيراً ويبدو للناس كالأسد فى العرين أو كالنخلة العالية ، واذا هو فى بيته كالقط أو كالكلب يبصبص ويخنع لمولاته وهي زوجة شابة تغلق عليه الباب من الخارج ولا تنبئه بموعد خروجها ولا عودتها . والأولاد بين هذا وذاك ضائعون ، وقد يكون الآخر ، أثناء تغيب زوجته غيبة شبه منقطعة قد ألف مجالس الشراب

والغزل ولا يعود الى منزله الا فى مطلع الفجر فيلتقى هو وهي على عتبة الدار بمشهد من الجيران والاولاد والخدم .

وماذا تنتظر من أمة طلقت كل جليل جميل فى ماضيها واتخذت أزياء الافرنج وأقمشتهم وأساليبهم فى معيشتهم ولم تكتف بذلك بل جاوزته الى عادات شرب الخمر وادمان المخدرات والمقامرة وحفلات سباق الخيل التى يتزاحم فيها كبارنا وصغارنا كما لو كانت حفلات دينية أو وطنية وتنشر الصحف صور بعض أعياننا وشباننا وتقول في وصفهم « هذا فلان بك وقد ربح بضع مئات من النقود وحوله ثلاث غوانى أوروبيات فى حفلة السباق الفلانية » . أى تحريض على الفجور والنزق بعد هذا التمجيد والتخليد على صفحات الجرائد اليومية ؟

بيد أننا لم نتخذ شيئاً من الفضائل الاوربية كالاتحاد والمناصرة والتضحية وبذل المال فى سبيل الخير ، وشد أزر المشروعات الوطنية وازدرينا ديننا وآدابنا القومية وتاريخنا وتقاليدنا ولم ندرس ماضينا ولم نطلع على صفحات حضارتنا ولم نبن ركناً جديداً كما كانت أوائلنا تبنى ولم نفعل كالذى فعلوا . بل هدمنا وعشنا بين الأنقاض وسترنا أنفسنا باسمال من بضائع اوروبا وزينا أدمغتنا ببعض قشور من علومهم ولم نشيد لمجتمعنا قواماً قوياً حديثاً بدل الذى تهدم فأفسدنا حياتنا فساداً يبدو كأنه لاصلاح له . فوجب علينا إذن مداواة العلة قبل استفحالها وعلاج الداء قبل الاعضال

هل كان قاسم امين يحلم بكل هذا ؟ هل كان يتمنى ان تصل المرأة المصرية الى هذا الدرك من الانحطاط فى سبيل السفور ، ان دعاة السفور الآن ليخجلون من دعوتهم . بعد ان جرت المرأة المصرية شوطاً بعيداً في ماهو عكس الحرية المقصودة . لقد كان قاسم رحمه الله يرمى الى تحرير عقلها من قيود الجهل ، وتحريرها من قيود الاسر المنزلى واسترجاع حقوقها التى شرعتها الشريعة المحمدية السمحاء ولم يكن يقصد الى الابتذال والتردى الذى صارت اليه المرأة المصرية بفهم الحرية المعكوس ..

٤

أما الأفندى المصرى وهو الطبقة السائدة فى المدن ، فهو مثال محزن من الخليط الافرنجى والشرقى ، وتعليمه بحكم الضرورة عاجز عن ترشيده ، وقد قضى كرومر أربعين عاماً في تعليم المصريين تعليما يؤهلهم ليكونوا موظفين فى الحكومة وخداماً للانجليز وقد رأيت رجلا صار فيما بعد وزيراً وكان إذ ذاك وكيلا لاحدى الوزارات ينتظر مستشار الداخلية فى محطة العاصمة فلما وصل المستشار أهوى الرجل على يده يريد تقبيلها ثم قبل يد زوجته ثم ذهب الرجل فى أمر اعداد المتاع للنقل ، فالتفت المستشار فلم يجده فناداه بأعلى صوته « يافلان » فجاء المسكين يعدو ويشق صفوف الناس وهو يجأر : يس سير ! بالانجليزية .

وقد تمثل لى في هذا المنظر ليس فقط الذل الذي وصل اليه المصرى ، وليس الثمن البخس الذى بيعت به الكرامة الشرقية (ووكيل الوزارة هذا عالم فاضل ، وشاب نبيه ، ومن سلالة تركية عالية) بل تمثل لى نجاح سياسة كرومر ودنلوب فى نصف قرن ، وقد بلغ من تركز المهابة الانجليزية فى قلوب هذه الطبقة من الحكام أن رجلا شغل مناصب القضاء عشرات السنين ثم عين وزيراً لاحدى الوزارات ، وحالما كان يباشر أعماله فى غرفته علم ان سير برونيات مستشار العدل السابق فى مصر وعدوها اللدود الذى شبه الثورة المصرية بشرارة نار تطفئها بصقة انجليزية ، قد وصل الى باب الوزارة ليزوره وكان برونيات قدخرج من الحكومة المصرية من زمن وعين رئيساً لجامعة شنجاهاى وكان يسافر فى مصر سائحاً لاأكثر ولا أقل ، وقد رأى من المجاملة أن يطوف بالوزارات ليتعرف الى وزراء العهد الجديد فلما علم المستوزر بقدومه وقبل وصوله الى درج السلم الموصل الى غرفته نهض ولم يلاحظ ان مفتاح أحد الأدراج مشتبك بسلسلته الذهبية فانقطعت السلسلة وكان المستشار لم يصل بعد وبقى فى انتظاره بباب غرفته بضع دقائق ولم ينل من تحيته واستقباله غير قطع « الكتينة » الذهبية وقد روى لى هذه الحادثة كاتب سره وكل منهما لايزال حياً يرزق .

طبعاً اننا لاننكر قيمة التعليم الاوروبى وقد استفدنا به أعظم الفوائد ، وأنا لاأتصور

ماذا تكون حالة أحدنا ان لم نتفقه بآدابهم ولم نقرأ كتبهم ولم نطلع على مجلاتهم وصحفهم .

ولكن قد عرفنا بالابتلاء وتقرر لدينا بالاختبار منذ شرعنا نقوم بذلك أن التعليم مع كونه الدواء الشافي لامراض عديدة وكونه ضروريا لابد منه لاتمام الارتقاء الاجتماعي الصحيح فانه اذا لم نحسن ادارته كل الاحسان وتوفى وسائل تدبيره القسط الأكبر من الاجادة والاحكام انقلب بقوة فعله وعمله سما قاتلا تتولد منه جراثيم الفساد والاضطراب لان شأنه أن ينقض ما ينقض ويجرف ما يجرف ويهيج ضعاف الادمغة و يستثير مساريع الاطماع وبعيدى الآمال مما لايستطيع تحقيقه في الحال ، فيحمل الاخفاق أهل البلاد على السخط والغضب فتضطرم نار ذلك اضطراماً .

٥

وقد كانت هذه خطة كرومر فى التعليم في مصر وبقينا عشرات السنين نصرخ ضد دنلوب وزير المعارف المقنع ، ونحتج على سياسته ولا من يجيب نداءنا وكان وزير يذهب وآخر يجيء ودنلوب رابض في كرسيه لايتزحزح كأنه ورثه عن أجداده الاسكتلنديين ومنحه الانجليز لقب دكتور على جهله وقد كان حقا دكتوراً في الاستعمار وخنق الآمال القومية وقتل اللغة العربية ودراسة الدين وفى عهده انقلبت المشيخة الى افندية بطرابيش كالطراطير وكانت لهم هيأة مضحكة ومحزنة وهم يلقنون دروس النحو والصرف والبيان والبديع وعادوا بعد بضع سنين يلبسون العمائم والقفاطين فكانوا كالغربان فى تقليد الطاووس .

وعلى الرغم من كل جهود الانجليز ونجاحهم في صبغنا بالصبغة الافرنجية مع نقص التعليم وحقارة شأنه وقلة العلوم التى تلقيناها واختصار المناهج وتلقيننا التاريخ والجغرافيا والرياضيات والطبيعيات بالانجليزية ولم يكن ينقصهم الان يعلمونا اللغة العربية بالانجليزية ، على الرغم من هذا لم يفوزوا بمآربهم فقد تعلق بعضنا بالمثل الأعلى وتعلمنا اللغة الانجليزية لزيادة ثقافتنا وقد لمح كرومر من خلال الرماد وميض نار فعاد يقول في تقاريره انه يرتاب شديد الارتياب فى شأن المصريين الذين تلقوا العلوم الغربية ، والحقيقة ان المستعمرين بعد

ان رأوا في الحي رجالا أمثال مصطفى كامـل وقاسم امين بدأوا يعزون السبب في انتشار روح المقاومة للاستعمار، الى التعليم الذى جاءوا بمناهجه وأساليبه وكان أول البادئين بهذا لورد ما كولى ثم كرومر وغيرهما من رجال السياسة فأخذوا يحذرون حكوماتهم من اتقان التعليم فى المستعمرات بحجة ان الغالب على الناشئين هو النزوع الى الثورة اذ كانوا يقرأون أموراً تسىء عقولهم هضمها و يقيسون أقيسة فاسدة فيتعبون و يتعبون فهم يرغبون قلع العلوم الشرقية من بين الشرقيين ولكنهم يضنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية لئلا تحيا بها نفوس هذه الامم اذ يعلمون انه لايجتمع العلم والذل فى محيط واحد سواء كان علما شرعيا اسلاميا أوعلما اوربيا عصريا أو علما جامعاً بين الامرين .

١١

١

يوجد شبه شديد بين الرومان والانجليز فى طريقة استيلائهم على ممالك الشرق . وذلك فى عدم مقاومة الممالك التي استولى عليها الرومان فى اوروبا وآسيا . فان الشعوب التى هاجتها روما كانت بحال من الضعف والاستسلام لاتمكنها من المقاومة لأنها قضت قرونا عديدة في الجهاد فى سبيل الاستقلال وقد فشلت وما لقيت بعد الجهاد والعناد الا الظلم والاستبداد والضيق . فجاءت رومه والبلاد المفتوحة منهوكة القوى فاستولت عليها بدون مقاومة . هل كان هذا من حسن حظ الرومان أومن بعد نظرهم وترقبهم الفرص لانتهازها . ولم تكن رومة فى حاجة الى استخدام عدد كبير من جنود الاحتلال بل كان عدد تلك الجنود بمثابة قطرة الماء فى المحيط

وما أشبه حظ الانجليز فى الهند بحظ روما فى فتوحها القديمة فان الانجليز استولوا على الهند بسهولة تامة بعد الدولة الموغولية ولم يستخدم الانجليز في الهند الا بضع عشرات الالوف فى بلاد أهلها يعدون بمئات الملايين ، فى حين ان هؤلاء الانجليز أنفسهم احتاجوا الى ٤٥٠ ألف عسكرى لتهدئة جهورية البوير في أوائل هذا القرن في جنوب افريقا . وهم لم يجندوا خمس هذا العدد فى القضاء على ثورة الهند التى قامت فى سنة ١٨٥٧ .

وقد أسس الانجليز شركة فى ١٦٠٠ وطلبوا من دولة الموغول فى ذل وخضوع أن تمنحهم بعض الامتيازات الاجنبية اسوة بالبرتغال والهولانديين الذين سبقوهم فمنحوا تلك الامتيازات فى الربع الأول من القرن السابع عشر والى أوائل القرن الثامن عشر لم يفكر الانجليز فى الفتوح لقوة دولة الموغول فى نظرهم ولكن موت الملك أورنجزيب أدى الى انحلال الدولة وانقسام البلاد وظهور امراء الطوائف والدويلات الصغيرة فاستقل كل أمير وكل راجا وكل نواب بمملكته فجاء دوبلكس الفرنسى الى الهند واحتل بونديتشرى وتلاه كايف ووارين هستنجز

وكورنواليس و ولزلى من قادة الانجليز واختصموا مع الفرنسيين في الشرق كما اختصموا معهم في الغرب وقد استولى الانجليز على الهند بسكون وهدوء وبغير مقاومة وكان ذلك مقدمة لتأسيس امبراطوريتهم العظيمة التى تمتد على جميع بلاد الهند والسند والبنغال وبرمانيا وسيلان وتبلغ مياه المحيط الهندي جنوبا وجبال هيمالايا ونهر الاندوس شمالا.

٢

لقد قامت في الشرق فتوح متعاقبة من الشرقيين أنفسهم وأشهرها في التاريخ فتوح العرب ثم فتوح الموغول ثم فتوح الترك وفى العهد الأخير بعض فتوح الجنس الاصفر (اليابان والصين) أما فتوح العرب فليس هذا مجالها لأنها مقترنة بفتوح الاسلام ولا يتسع المجال لبيان ملخصها وهى معروفة للجميع ، وقد تخللت هذا الكتاب نبذ عنها واشتهرت تلك الفتوح سواء أكانت فى الشرق الأدنى أو الأوسط أو الاقصى بالرحمة والعدل ونشر العلوم والمعارف والتعاون مع الشعوب المغلوبة فى سبيل الحياة والمدنية وحيثما حل الاسلام كان قوة ممدنة مهذبة معينة .

اما فتوح الموغول فكانت بلاء على الامم التى غلبتها فان هذه القبائل المتوحشة أوتلك الجماعات من الشياطين في شكل البشر لم يعرفوا الانسانية حتى يرعوها ولم يفهموا العدل أوالعلم حتى يعدلوا ويعلموا . ولاتزال أسماء جنكيز خان وتيمورلنك الأعرج وهولاكو تحمل الرعب فى ثنايا احرفها حتى لدى كتابتها أو قراءتها ـ فان هؤلاء الاشرار الذين ذكرنا بعض أخبارهم قد كرهوا العلم واحتقروه الى درجة انهم في تركستان قصدوا الى مدينة بخارى التى كانت مشتهرة بمكاتبها وثقافتها العلمية والدينية ومنها البخارى صاحب الحديث المشهور فقدنزل الموغول بالبلد فذبحوا رجالها وأسروا نساءها وأطفالها (قتلوا الرجال واستبقوا النساء لمآربهم) واحرقوا المدينة بكل ما فيها من ثروة وعلم وجعلوا الكتب القيمة وكلها مخطوطة طعاما للنار

اما فتوح الترك فلم تكن من قبيل هذا الفتح وكان للترك كرامة ودين وعقل وان

لم تكن لديهم مدنية عريقة فهم ان فتحوا لا يحرقون المدن ولا يبيدون الشعوب ولا يسلمون الكتب طعاماً للنار .

ولكن أهل الجنس الاصفر لا يقلون فى القسوة عن الموغول وان كانوا متمدنين فهذه اليابان تذيق شعب كوريا منذ أوائل هذا القرن الي الآن صنوف العذاب وتسقيهم ألوانا من الظلم مع انهم جيران وأبناء عمومة وبينهم وبينهم خليج ضيق من الماء ولكن أحد الكاتبين فى الاستعمار اليابانى شبه كوريا بايرلاندا بالنسبة لليابان التى هى شبيهة بالدولة البريطانيـة . وكما ان انجلترا ظلمت ايرلاندا سبعمائة سنة وهى اوروبية مسيحية وجارة مستأمنة كذلك لا يستغرب سلوك اليابان في كوريا .

أما الصين التى صارت جمهورية والتى أذلتها اليابان في ١٨٩٥ وحاربتها اوروبا وقهرتها مرات عدة فقد استولت على تركستان الشرقية وهى بلاد اسلامية واستعمرتها وعدد سكانها لا يقل عن عشرة ملايين وهى تحكمها الآن بحاكم مستبد مطلق وصفه السـيد منصورخان أحد أبناء تلك البلاد وقدجاء مصر أخيراً لنشر الدعوة لوطنه ، بأنه أشبه الحكام بالبر و قنصل الرومانى الذى كان حاكما بأمره مفوضا له كل شئ فى البلاد المحكومة

٣

لقد كان للاستعمار الاوروبى تأثير شديد في تطور الشعوب الشرقية عامة وفى العالم الاسلامي خاصة ، ولكن هذا الاستعمار الاوروبي وحده لم يكن العامل الحقيقي فى ذلك التطور بل ان الشعوب الاسلامية بدأت تنفعل وتتأثر منذ خمسين عاماً بحكم مؤثرات ذاتية قائمة بامزجتها وتكوينها ومعتقداتها ، كأن الاسلام يحمل فى ثناياه نظام الاندثار والتجدد الذي يجعله قريب الشبه من الكائنات الحية . فخلايا الجسد البشري تحيا وتموت فى كل لحظة والكائن مع ذلك يتجدد ويتقوى وينمو ولولا تلك العملية الفيزيولوجية لوقفت حركة الحياة . وكذلك فى الاسلام قد تندثر بعض الدول أو بعض الانظمة ويموت بعض الزعماء ، وتنطوى صحف نهضة من النهضات ولكن الحياة لا تنقطع والجسم لا يموت . وقد

كانت صدمة الاستعمار الذى بدأ بشدة متناهية منذ خمسين عاما حتي أيقظت تلك الامم التى مضت عليها أجيال طويلة فى سبات عميق . فلما نهض الاسلام والشرق كجبار عظيم أصابته لطمة قوية أخذ يزحف على يديه وقدميه ، ويرفع رأسه رويداً ، وينحني ليقف ويتحفز ليهجم ، وهو فى نفس الوقت مأخوذ بشدة الضربة ، فى رأسه دوار ، وفى جسمه ألم وفى ذهنه خبال ودهشة ولكنه ناهض لا محالة وقد أحسن سير فالنتين تشيرول وصف هذه الحالة حيث يقول :

« أمواج وغمار تتلاطم وتتكسر بعضها على بعض ومتناقضات تتناحر ، وآراء وأفكار غريبة تتدفق من الغرب الحديث على حضارة قديمة بنت أجيال طوال فبعض يأخذ ولا يحسن الاخذ وبعض يعرض ويطعن وعقائد تتبدد ثم تعود فتحيا ونظم صناعية مضطربة ومناهج تعليم وتهذيب غير مستمسكة ومبادىء غربية فى أفق الادارة والتدبير والقضاء تنتشر في مجتمع متنافر الوحدات وسنن الاقتصاد الحديث تندفع بتيارها الهائل على بلاد ما برحت صناعتها وتجارتها على الحالة الاولى من السذاجة وتصادم عنيف مستمر لابد منه بين أقوام السكان والحكام الغرباء وحروب مستديمة الاتقاد ، وبعد جميع هذا يتلو نهوض شعب شرقي جبار في الشرق الأقصى »

وقال كاتب فرنسوى « الحق أن الشرق على العموم والعالم الاسلامى على الخصوص لفى دور من الانتقال عظيم ، يجوز الشرق اليوم برزخا فيه يعارك الماضي الحاضر ، وتتنازع العادات القديمة والجديدة الدخيلة ، فبدت صور غريبة ومشاهد عجيبة . »

وعندما خطب شوكت على فى جمعية الشبان المسلمين ووصف حالته هو وأخيه لدي عودتهما من جامعة اكسفورد أشار الى هذا التناقض في الحياة الشرقية التى غمرها الاستعمار الغربى فكنت ترى بعين الخيال قصوراً هندية تشبه في طرازها تلك الهياكل البديعة التي وصل فى اتقانها الفن الموغولي والفن الاسلامي الي أعلى درجات الكمال

وقد زينتها الامتعة المجلوبة من محل مابل وشركاه ببلاد الانجليز ، فنبذ الشرقى مدنيته وأخذ باحقر مالدى أوروبا من مظاهر حضارتها وأصبح فى عقله خليط من عناصر فتاكة بعضها موروث وبعضها مجلوب فأورثه ذلك التناقض اضطرابا وخللاً .

٤

وكأن هؤلاء المستعمرين الاوربيين قد درسوا سياسة ماكيافيلي ومبادئه التي دونها في كتاب الامير ، فقد اخضعوا بعض بلادنا الشرقية بالقوة العسكرية كما صنعت فرنسا في الجزائر ومراكش باتحادها مع اسبانيا بعد الحرب العظمى وكما صنعت ايطاليا في طرابلس وروسيا في أواسط أسيا وانجلترا في مصر ، وفرنسا في سوريا وبريطانيا فى العراق وكذلك تم بعض الفتح بواسطة الطرائق الاقتصادية وهو ما يطلقون عليه وصف الفتح السلمي بأن تقبض بعض دول أوروبا على خناق بلاد شرقية مستقلة ، برؤس الاموال الأجنبية ، ومتى تمت عملية الخنق أخذت السيطرة السياسية تبدو شيئاً فشيئاً وقد حدث هذا في بلاد العجم وفي مصر لعهد اسماعيل ، واستمر بعد الفتح العربى فى سنة ١٨٨٢ وكانت أوروبا فى كلتا الحالتين تقضي على الحكومة الاهلية المستبدة القليلة الحول والطول وتقيم مقامها حكومة استعمارية منيعة الجانب شاكية السلاح شديدة الشكيمة فتثبت النظام الظاهر وتبدأ الدولة الفاتحة تستدر الخيرات وتبتزها .

وهذه هى الخطة التى سلكتها فرنسا في الجزائر ثم رأت فشلها ، فنشأت العداوات في قلوب أهل الجزائر بعد أن تشتت شمل أسرة الداى وهاجر هو وأهله الى مصر حيث مات ودفن فى الاسكندرية وعاشت بناته من بعده عيشة اليتم والمذلة ، وقد عرفنا أحد احفاده الذى روى لنا تفصيل هجرة الاسرة وما صادفته من صنوف الهوان بعد فقد ملكها وثروتها. وبعد أن انتهت مقاومة الامير عبد القادر الجزائري الذي كتب بسيفه صحيفة من أنصع صحف الجهاد الوطني . فلم يبق في الجزائر قلب واحد يحب فرنسا أو يحترمها أو يصدقها ، وهى من جانبها لم تعمل علي ترقية الشعب أو تمدينه فلم ينبغ منهم حتي الساعة عالم ولا طبيب ولا رياضي ولا فلكى مع أنهم شعب يزيدون عن عدد سكان هولاندا و بلادهم من أغني وأجمل بلاد أفريقيا . فنهض علماء السياسة الاستعمارية في فرنسا وأعادوا النظر فى كتاب ماكيافيلي وأشاروا على حكومتهم بتغيير خطتها ولم يكن ذلك ممكنا في بلاد الجزائر التي كان قد مضى

على فتحها خمسون عاماً فرأوا أن يأخذوا بلاداً أخرى لينفذوا فيها تجربتهم الجديدة ، وكان القطر التونسي أمامهم لا يزال مستقلا تحت حكم الباي ، وكان الوزير خير الدين باشا عائداً من أوروبا بأفكار الاصلاح ومشروعات الحياة النيابية التي بدأ في تنفيذها . فأدركت فرنسا أن انتقال تونس من القديم الى الجديد على يد حكومتها الوطنية قد يجعل الاحتلال صعباً في المستقبل ان لم يكن مستحيلا فـدهمتها قبل احتلال انجلترا لمصر بسنة أو سنتين وطبقت فيها خطة سياستها الجديدة واليك ما كتبه هانوتو الذي كان وزير الخارجية في ذلك الحين عن تونس !

« قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد بدون جلبة ولا ضوضاء نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس والمحافظة على مركز الباي وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبـة على الامور الادارية والسياسية من التدخل في شؤون البلاد والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها (كذا)

« تم هذا الانقلاب بسرعة واين فلم يتألم منه الاهلون ولم ينخدش له احساساتهم اذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها وتركت أزمة الاحكام بايدي القواد والقضاة ولم يغير شيء من القوانين الاهلية الا برضى وتصديق من الاهالي وربما كان يطلب منهم وقام باعمال هذا التغيير والتبديل وهـذا المسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين وجملة القول أن انقلاباً عظيما حصل بدون أن يجر وراءه ألماً أو توجعاً أو شكوى بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدي واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقتراناً لم تغشه سحابة كدر

« اذا يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد

الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض ، اذا توجد أرض تنقلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الاسيوي (يقصد الاسلام) أرض نشأت فيها نشأة جديدة نبتت في قضائها وادارتها وعاداتها وأخلاقها، أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ونموذجاً ينسج على منواله الا وهى البلاد التونسية » اه كلام هانوتو

٥

كتب هذا المقال في مايو سنة ١٩٠٠ ولم يمض على دخول فرنسا فى تونس عشر سنوات ، وعلى دخول انجلترا مصر ثمانى سنوات . وكان كرومر قد سبق الفرنسيين الى تطبيق هذه السياسة ، ويكفى أنهم دخلوا مصر وضربوها بالمدافع وخربوا حصونها وقتلوا جيشها بدعوى أنهم يدافعون عن عرش الخديوي، فمن المعقول والمنتظر انهم سيحافظون عليه لدى الدخول أشد المحافظة وما زالت هـذه محبتهم للتفريق بين الشعب والحاكم من جهة ولتبرير مركزهم أمام الدول ، وان لم يكونوا في حاجة لذلك لانهم في الاغتصاب سواء ، الى أن خلعوا ذلك الخديوي نفسه فى سنة ١٩١٤ وحينئذ ابتدعوا حجة المواصلات الامبراطورية ، وما زالوا يترقون بها الى أن أعلن شمبرلين زواج مصر ببريطانيا في خطبة برلمانية رنانة فقال « لقد أراد الله أن يتزوج هذان القطران ، ولا يفرق البشر بين من جمعهم الله !! »

ولـكن ماذا كانت نتيجة حكم فرنسا فى تونس وانجلترا في مصر هل فصم الحبل حقاً الذي يربطنا بالامم الاسلامية ؟ وهل محى من ذهننا ذلك الماضى الاسلامي الذي يمقتون وهل انطلت حيلة المستعمرين علينا فانخدعنا لهم ؟ ان جهاد تونس فى سبيل استقلالها معلوم ، والحركة الوطنية قـد قامت في سنة ١٩٢٠ ، وهي الآن على أشـدها يقودها رئيس الحزب الوطني التونسى السيد محمد محيي الدين القليبي ، وليس فى تونس رجل واحد يخلص للحكم الاجنبى الا اذا كان يهودياً أو خائناً لوطنه أما نتيجة الحـكم البريطانى في مصر فقد ظهرت في حادثتين الاولى حادثة دنشواي التي انتهت بخروج كرومر من مصر فى مايو سنة ١٩٠٧ ملوماً محسوراً ، والثانية حادثة الثورة الـكبرى التي شبت نارها في ١٩١٩ .

وسواء أكان في فرنسا أم في انجلترا فقد أجمع ساسة القرن العشرين من المستعمرين على مادونه كرومر في كتابه عن حكم انجلترا في مصر من ١٨٨٢-١٩٠٧ مجلدان (ظهرا في سنة ١٩٠٨) فقد وصف خطط الاستعمار الحديث بقوله .

« يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة ويجب أن تكون أصول أحكامنا التى هى الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة في حكمنا من حيث الاعتبار السياسى والاقتصادي والأدبى قواعد صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة والنقص هذا هو حجر الزاوية في بناء الامبراطورية . ان المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جليا في حسن التصرف بما في أيدي هذه الامبراطورية من القوى فان استطعنا ذلك فكنا فيه من الحكماء واينا وجوهنا شطر المستقبل رفيعى الجباه لا نخشى أن يعرونا ماعرا الامبراطورية الرومانية من قبل من الفساد والدخل وان لم نستطع فكنا فيه من الجهلاء الاغبياء فقد استحقت الامبراطورية البريطانية الانهيار من عل ولسرعان ماتتناثر حلقاتها وتتبدد بعد الاجتماع »

وظاهر من كلام هذا الرجل المسمى باللورد كرومر انه ينسج على منوال هانوتو الذى سبقه الى ذلك بسبع سنين ، ويتميز عليه بأن هانوتو كان وزير الخارجية ولم ينفذ سياسته بشخصه في تونس ، ولكن كرومر نفذها بنفسه ورأى ثمارها في مصر ، ومن الجلى انه لم ينصح بالرفق والحكمة والالفة لخدمة الشعوب المحكومة ، ولا لاستدرار خيراتها ، وهو شئ مضمون ولكن خوفاً على كيان الامبراطورية من التزعزع فقد اخذ الناس يلهجون في بداية القرن العشرين بقرب زوال الامبراطورية بعد حرب الترنسفال ، وأخذوا يقارنون بينها وبين امبراطورية الرومان ولما كان كرومر أحصف وأقدر حكامهم وكانت عقليته تشبه عقلية بروقنصول رومانى ، لاينقصه الا الخوذة والبلطة والطيلسان والفولاذ ، وما اليهما من مظاهر الأبهة والسلطة ، فقد رأى أن يتفضل على العالم بنصائحه ، ليقال انه أول بان في أركان تلك الامبراطورية البريطانية ، ومنقذها العظيم الذى رسم لها خطة النجاة من الوقوع في الخطر

الذى وقع فيه أسلافها العظماء الذين نشأوا على ضفاف نهر طيبر

ولكن كرومر لم يحسب حساب دنشواى التى اهرق فيها دماء الفلاحين ، ولم يحسب حساب الحرب العظمى ، ولم يحسب حساب نهضة الشرق والاسلام التى نرى مظاهرها في كل قطر وأمة . فمضى بحسرة سقطته عن عرشه الوهمي ، وعاش بعد خروجه من مصر عشر سنوات تجرع فى أثنائها كؤوس الندم على ماجنت يداه فى تلك القرية الصغيرة ، ورأى بعينه بداية الانحلال الذى أخذ يدب فى عناصر الدولة البريطانية وها هم رجال كان يحسبهم لعهده صعاليك أو فاليك من شعراء السياسة وأرباب الاحلام يتولون السلطة العليا فى جميع أقطار اوروبا ، فلشد ما كانت رجعية كرومر ، عند ماظن أن عهد روما سوف يعود وان انجلترا المسيحية المتحضرة ستكون وارثة ذلك الصولجان الوثنى الغشوم .

٦

ولواننا تمشينا مع كرومر ، الذى أراد لورد لويد أن ينسج على منواله فى مصر ، وأخذ يتمشدق بذكره ، وانتحل سياسته « فاصوخة » وتميمة وحجابا ، فكانت عاقبته السقوط والفشل من جراء سياسته نفسها ، لواننا تمشينا مع فلسفته الاستعمارية وصدقناه طرفة عين وقسنا علمه بعمله ، ونظرياته بتنفيذه لكانت النتيجة بالمثل السائر « اقرأ تفرح ، جرب تحزن ! » فان عهد كرومر كان عهد استئثار واستبداد وقسوة واندثار للشخصيه المصرية ، وفى أثنائه ورد تلغراف جرانفيل الذى يؤذن بخضوع الرئيس المصرى للمرؤوس الانجليزي . وكان الجفاء على أشده بين الحاكم والمحكوم ، فكان نادي تيرف كلوب ، أشبه الاشياء فى القاهرة الحديثة بجبل أولمپ عند اليونان القدماء مهبط الآلهة ومسرحهم ، وكان الانجليز يعيشون فى مصر عيشة الارباب فى البلاد القديمة وكانت علاقة الاساتذة الانجليز الذين كان يحشدهم دنلوب من شوارع لندن وابردين ، بتلاميذهم المصريين علاقة السيد الآمر المطاع المتعجرف بالعبد الخاضع الذليل . وقد ذقنا نحن وعشرات ألوف التلاميذ مرارة هذه المعاملة فى المدارس الثانوية والعالية ولم نر قط اجتماعا يلم شمل المصريين والانجليز ، ولم يتبادلوا قط كلمة مودة أو اخاء ، بل كانوا يعيشون فى السماء الثالثة وان خاطبتهم في ذلك قالوا :

« اننا لانريد أن نختلط خوفاً من سقوط الهيبة » أما فى الهند فالحال على أبشع ما يكون فان الوطنيين لايركبون الا فى الدرجة الثالثة واذاركب أحدهم فى الدرجة الأولى يوقف القطار و يرمى به وبمتاعه فى أقرب محطة ، وروى انا الاستاذ الثعالبي عن هولاندا، أن الحاكم الوطنى اذا دنا من الهولندي يركع ويجلس القرفصاء ولايرفع عينيه فى وجه محدثه .

ومع هذا فان الكاتب الفاضل والعالم المدقق لوثروب ستودارد مؤلف حاضر العالم الاسلامى الذي نقله الى العربية الاستاذ النابه النابغ عجاج نويهض بك (مصر سنة ١٩٢٦) يقول فى ص ١٠ من الجزء الثانى

« ففى القرن التاسع عشر كانت جميع الدول المستعمرة أخذت تشعر شعوراً حقيقيا عميقا بالغاية الفضلى المثلى وهى واجب الانسان الأبيض .. معتقدين الاعتقاد الراسخ كله أن امتداد السيطرة السياسية الغربية انما هو الذريعة الفضلى وربما الوحيدة لانهاض الجانب المنحط المتدلى من العالم وللأخذ بنصرته فى سبيل التجدد والارتقاء . والحقيقة التى لامراء فيها أن المستعمرين لم يغيروا من خطة الاغتيال والاستثمار والاستعباد ، ولكنهم عدلوا طريقة الاستعمار بما يعود عليهم من الفوائد ، ويديم سلطتهم ويحفظ كيان امبراطوريتهم من الزوال . والحقيقة التى لامراء فيها أيضاً أنه ما كادت تطلع سنة ١٩٠٠ حتى كانت الشعوب الشرقية كافة قد نفضت عنها خلقانها و بددت غياهب جهلها وحطمت عقال خمولها وخرجت عن تلك الدائرة المغلقة وأنشأت تمهد لنفسها مهيعاً مفضياً الى التجدد الصحيح والارتقاء » .

وان كان الشرق قد تبدلت شئونه غير أن سياسة اوروبا الجائرة لم تتبدل

يكاد الباحثون لايدركون تعليل هجوم اوروبا فى هذه الآونة الاخيرة على الشرق ذلك الهجوم الفظيع والحق ان اوروبا كانت صابرة ومتمهلة على افتراض سكون الشرق ونومه واستسلامه فلما رأت بوادر نهوضه فى أواخر القرن التاسع عشر وفجر العشرين طفقت اوروبا تتجهم فى وجه الشرق المستيقظ الناهض وتستبيح لنفسها مناهضته وتسميم عواطفه الثائرة وروحه الهائج فساءت اليه بذلك فى بضع سنين معدودة اساءة تفوق جميع ما ناله منها من

الشر والهوان طيلة مئتى سنة خلت

وما أصدق ما كتبه سيدنى لو الانجليزي في سنة ١٩١٢ وتمثل به ستودارد :

« ماشبه غالب الدول النصرانية فى سلوكها هذا الذى مابرحت تسلكه منذ عدة سنوات ازاء الامم الشرقية بعصابة من اللصوص يهبطون على الحلل الآمنة ، أهلها ضعفاء عزل فيثخنون فيهم ثم ينقلبون بالغنائم والاسلاب مابال هذه الدول لاتنفك تدوس حقوق الامم المجاهدة في سبيل النهضة وعلام هذا العسف الذى تضرب به الشعوب المستضعفة وهذا الجشع الكلبى لانتياش مابين أيديها وماخلفها . ان هذه الدول الغربية النصرانية هى بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة ان القوى الشاكى السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل وآتية بالبرهان القاطع على ان مكارم الاخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها ألبتة حيال القوة المسلحة . لقد تجردت تلك الدول عن كل حسنة فى معاملة الشعوب الشرقية تجرداً لم يسبق له مثيل حتى بين أشد الجيوش همجية في الزمن القديم »

هل يوجد وصف أصدق من هذا، لحالة هذه الدول الاوروبية « المتمدنة » ؟ لقد كانت هذه الخواطر تجول في نفسنا ونعجز عن تصويرها وان كنا تصورناها ، ولعمرى ان التاريخ الوسط والحديث كليهما يؤيدان صدق هذا العالم الفاضل فان قبائل النورسمان التى انحطت من الشمال على بلاد الأنجليز واستعمرتها لم تكن الا قبائل رحالة ، هجامة ، سارقة متلصصة ، فلما عاشت وتحضرت ، وتدربت استمرت خلتها النفسية ، وان كانت تخفيها الثياب الرسمية والقبعات العالية . ولكن روح النورسمان الخطاف القاتل الفاتك لاتزال تخفق بين جنوبهم وهى التى أوحت اليهم تلك الاعمال فى الشرق والتي يضج منها كتاب من بنى جلدتهم ويشهد بها شاهد من أهلهم .

١٢

١

واذا نظرت الى الشرق من حيث الفقر والغنى وعلمت أن النقاد الاجتماعيين يعتبون على الانجليز لوجود طبقتين اجتماعيتين واحدة فى أقصى الثروة والأخرى فى أشد الفقر ، فانك ترى فى الشرق الحال نفسها لأن الشرق مثال انجلترا من حيث الغنى الباهظ والفقر المدقع . ماعدا طبقة صغيرة من الموظفين الذين أخذوا فى العهد الأخير بفضل تراكم مرتباتهم يدخلون في الطبقة الأولى من حيث استثمار ثروتهم .

وقد ظهر هذا الفرق العظيم منذ ارتقت أسباب المعيشة وأصبحت نفقاتها لا تطاق بالنسبة للفقير وأصبح الفقير لا يجد المال الذى يكفيه نفقته ، فهو مضطر لأن يقتر على نفسه تقتيراً لكى يتسنى له بذلك الحصول على قدر مايستطيع من حاجاته الجديدة . واننا للأسف نرى شعوب الشرق عامة ومصر خاصة لم تكن يوما بعارفة للاقتصاد ولا التوفير بل ان الفقير منهم لا يزال مبذراً حتى يرد موارد التلف وكان الفلاح المصري وابن البلد سواسية فى اقامة الاعياد والمهرجانات والاعراس والمآتم فيبذرون حتي يرزحوا تحت أعباء الديون و يقترض من الرومى واليهودى و يبيع محصولاته قبل ظهورها بعدة أشهر حتى اذا جاء المحصول خرج منه واضطر لقطع ثمنه بابخس قدره ولا يلبث أن يشعر بالتحرر من الدين وتحويل بعضه الى العام المقبل بفوائظ مركبة بعد رجاء وتوسل حتي يعود الى الاستدانة من جديد وهكذا دواليك الى أن يتلاشى وينتهى بالافلاس . وهكذا تستطيع أن تتصور مبلغ ماانتهت اليه الحال من الضيق والازمة فى سنوات ١٩٠٧ و ١٩١٤ و ١٩٢١ و ١٩٣٠ .

لاأنكر ان التعليم الحديث قد جاء فى العهد الأخير بنتائج حسنة فقد عادت مؤخراً من البعثات الاوربية بضع فتيات تخرجن من جامعات انجلترا فى العلوم الطبيعية والرياضية

وعينت احداهن فى منصب أستاذ معين في كلية العلوم بالجامعة المصرية (١٩٣١) وفتحت أبواب مدرسة الطب للطالبات وهن يدرسن فى المعمل والمستشفى بجوار زملائهن من الفتيان

وقد كانت المرأة المصرية قبل ذلك مستغرقة فى الجهل والغباوة واذا كانت هكذا فما أسوأ التربية التى تنشىء بها أولادها الذين على صدرها وبين ذراعيها وهل من بلية أعظم من هذه البلية التى تحول دون ارتقاء الفتى الشرقى والفتاة الشرقية ارتقاء عقلياً وهما يشبان فى مخادع الحرم على جهل شديد يتضاءل به الاستعداد الفطرى وتضيق به المدارك ، لأن ماينطبع فى نفس الابن ويرتسم فى لوح ذهنه وهو يرتضع ثدي أمه في السن التي يكون هو فيها أكثر طواعية ولينة منه فى سائر العمر لأبقى أثراً من جميع مايتلقاه الابن فيمابعد على المعلم وبهذا الاعتبار مادام نصف الشرق لم تصل اليه عوامل الارتقاء ، فنهضة الشرق الاسلامى على الجملة تظل ناقصة بتراء ولا سبيل الى إكمالها مالم يشمل التهذيب الصحيح المرأة والرجل معاً .

وقد صرخ المرحوم فتحى زغلول فى حفلة تكريمه فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٣ قائلا « علموا الأمة » فأجابه صوت « علموا الأم تتعلم الأمة » . فاننا بتعليم الأمهات وتهذيبهن نبدل حالة الشرق تبديلا تاماً فان البنات متى ما تلقين معارف وعلوماً صحيحة مع مايحفظنه من آيات القرآن وأدب الاسلام استطعن أن يقمن بتدبير المنزل قياماً حسناً سواء كن بنات أم أخوات أم أمهات أم زوجات. ان الحياة القديمة التى كانت تقضيها المرأة فيما مضى جالسة على الديوان لاهية لاتعرف شيئاً أكثر من تناول ضروب الحلواء آونة بعد أخرى ومضغ الصمغ واللبان وماجنة مع الخوادم اللواتى حولها تارة وطوراً مع صواحبها الجاهلات مثلها ، والتحدث عن الزار والجن ، والشبشبة والرقى والتمائم والأحجبة و زيارة الأسياد ، أوعن الأزياء وثمن الثياب وفائدة الأصباغ ، والأدوية الناجعة فى إزالة الشعر وصبغه ، وتطرية الوجه وصقل الأظافر ، ووسائل السمن المصطنع والتدفئة أمام المنقل قد انقضت وجاءت من بعدها حياة جديدة ترى فيها المرأة المهذبة رفيقاً لزوجها وشريكا أميناً لاجارية

ولا سلعة بين يديه . نعم اننا لانطمع فى أن تصحبنا زوجاتنا الى حفلات الصيد والقنص ، ولا فى لعبة الجولف والتنيس ولا ركوب المطهمات من الخيل كما يصنع نساء الانجليز ولكن نطمع فى أن تكون المرأة عوناً لنا لاحرباً علينا . وصديقة تعيننا لاعدواً . يعطلنا ويقاومنا .

٢

ومن الظواهر العجيبة التى نراها فى الشرق منذ التغلب الاوروبى زيادة عدد السكان فقد كان المصريون فى أول القرن لايزيدون عن مليون وبلغوا فى سنة ١٩٠٠ عشرة ملايين وفى سنة ١٩١٧ أربعة عشر مليوناً وفى سنة ١٩٢٤ سبعة عشر مليوناً وكانت الهند فى أول العهد الانجليزى مائة مليون وبلغت الآن ثلثمائة وخمسين مليوناً وكانت اندونيسيا فى أول الاحتلال الهولندى عشرة ملايين وهي الآن ستون مليوناً .

وبعض ممالك أوروبا آخذة فى الازدياد مثل هولندا وايطاليا والمانيا ولكن انجلترا وفرنسا آخذتان فى النقصان أو باقيتان حيث كانتا .

وهذا طبعاً راجع لجملة أسباب منها تقدم علوم حفظ الصحة وانتشار مبادىء المعرفة فى مقاومة الأمراض وتقليل نسبة الوفيات وفضلا عن ذلك فان الشعوب الشرقية مضروب المثل بميلها وبكور قابليتها للتناسل والتوالد والديانات الشرقية لاسيما الاسلام تحض على التناكح والتناسل وتنهى عن وأد الأطفال الذى كان شائعاً فى الجاهلية . وتقليل النسل وممارسة الاجهاض معدودان جريمتين دينيتين كما أن الأخيرة منهما يعاقب عليها القانون . وكل شرقى عقيب الزواج يطمع فى أن يكون له ولد يرثه ويحفظ اسم أسرته ، كما لو كان امبراطوراً عظيما ! وأتباع المعرى فى اعتبار التناسل جريمة وجناية قليلون فى الشرق الاسلامى وهذا ناشىء أيضاً عن شدة العاطفة الجنسية وعن أسباب اقتصادية فان الرجل الفقير فى الشرق يحب أن يولد له أولاد ليعينوه فى الحياة بعملهم المبكر سواء فى الحقول أم فى المدن .

وقد نعى أحد كتاب الفرنسيس وهو ڤان جنيب السوسيولوجى على أهل شمال افريقا كثرة الزواج والتبكير بالتناسل وقرر فى مقالة قيمة نشرها فى مجلة مركوردى فرانس

(اكتوبر سنة ١٩١٦) ان الافراط فى الزواج والتناسل قد أديا الى هبوط المواهب العقلية وأورثا تلك الشعوب نوعاً من الخمول الذهنى .. وهذا الأمر مشاهد فى مصر أيضاً حيث يفرط أفراد الطبقة الوسطى فى تعاطى المخدرات ولا مأرب لهم منها الا الاستمتاع فيأتى النسل عرضاً غير مقصود بالذات وتتراكم هموم الحياة وأثقالها على رب الأسرة فيذهب هو وأسرته ضحية لذة قصيرة تعقبها أفجع الحسرات من الفقر والدمار ولا يغيب عن الذهن ان العهد الحديث قد جلب معه قضية المعيشة وكيف نبتغى أسباب الرزق فى هذه الدنيا مع مابلغناه من الفقر المدقع فى جميع ناحيات الحياة فان الفقر أكبر بلية وهو أبو البلايا وقد قال النبي كاد الفقر يكون كفراً وعزى الى الامام على أنه قال « لو كان الفقر رجلا لقتلته » .

واننا نرى بأعيننا ماهو منتشر فى البلاد الشرقية والمصرية من ضروب الشقاء والعذاب الناشئين عن كثرة النسل والولد ونشعر بما يقاسيه جانب كبير من أبناء الأوطان الشرقية من النصب والمضض فى ابتغاء أسباب الرزق وقد سنت الحكومة المصرية قانوناً يجعل سن الزواج ست عشرة سنة للبنت وثمانى عشرة سنة للولد ، ولكن الفقهاء والمحامين الشرعيين ابتكروا طرقاً لعقد الزواج العرفى الذي يجعل القانون حبراً على ورق ، بل ان محاكم الجنايات حكمت بأن تغيير السن فى ورقة الزواج لايعد تزويراً يعاقب عليه ، لأن عقد الزواج عمل لاثبات النكاح لا لاثبات العمر .

وهكذا سقط القانون فى الماء وان حجة أضداده قوية ، فان المحامين الشرعيين يرون فية معطلا لأعمالهم ، لأن الزواج بين من هم أقل من هذه السن يمنع من سماع الدعاوي الشرعية فى النفقات والطاعة وثبوت الأبوة وماشا كلهما والرجل القضائى ، الواقف على حقائق الأمور يرى فى زواج بنت الخامسة عشرة أو الرابعة عشرة انقاذاً لها من خطر أشد من لزواج بالنظر الى الحالة الاجتماعية الحاضرة . وعلى كل حال فالزواج والشروع فى تأسيس الأسرة أخف ضرراً من الدعارة أو التفريط فى العرض .

ولكن أضرار الزواج الباكر مؤكدة ومعلومة ولابد من مقاومته بكل الوسائل

ثم بعد هذا ماذا يفيد أن تكون الأسرة مكونة من عشرة أطفال اذا كان تعليمهم ناقصاً وغذاؤهم غير كاف ، ومستقبلهم غير مضمون فى حين أن الأسرة المؤلفة من ثلاثة أو أربعة أطفال تكون أقدر على مكافحة الدهر والخروج من ربقة الجهل والفقر .

٣

ان أهل الشرق جميعاً سواء كانوا من المدن أم من أهل الريف والقرى يكادون لايجاوزون فى ابتغاء الرزق حد الكفاف . وفى كل يوم ترى موظفاً يموت فجأة ، فترى غداة موته طلب استرحام من أسرته على صفحات الجرائد منبئاً الحكومة التى كان يخدمها ، والأمة التى كان يعيش بين ظهرانيها أنه لا يملك شيئاً وأن له أربعة أو خمسة أولاد قصر وأن معاشه الذى يبلغ ثمانية جنيهات بعد ان كان يتقاضى أربعين أو خمسين جنيهاً لا يكفى لقوت أولاده فتنفحهم الحكومة مائة جنيه أو مائتين أو خمسمائة فلا تلبث أن تنفد ثم تعود الكرة ويكون الموظف الأمين المتوفى قد نسى واصدقاؤه قد انفضوا من حول أولاده ، وأقاربه تنحوا عن أرملته ، كما هى العادة فى بلاد الشرق ، فلا يجد نداؤهم أذناً مصغية فيقضون البقية من حياتهم فى المسغبة والمتربة . وقد ترى قاضياً كبيراً وضابطاً عظيماً أو طبيباً شهيراً وقد صار أولاده كتبة أو موظفين صغاراً فى أحد المصارف لأن الرجل لم يستطع الادخار لهم والأم لا تملك طرق تدبير الحياة والتعاون فى الشرق مفقود ، وفكرة التأمين على الحياة غير شائعة وتقوم ضدها فكرة القضاء والقدر وتحديد الأجل وترك الأمر لله لأنه يضمن الأرزاق . وعند ما مات المرحوم الشيخ محمد عبده لم يكن يملك شيئاً سوى بيت مبنى بالطوب النيء ، على أرض أخذها هبة من لادى بلنت ، فمنحت الحكومة أسرته ألف جنيه . مع أنه كان فى مقام رئيس أساقفة كانتربري أو أسقف باريس ، ولو مات أحد هذين لوجدوا وراءه ثروة ضخمة وقد مات قاسم امين وانتفعت أسرته بمال التأمين وغيره كثيرون . فقل لى بربك ماهذه الحال التى نحن عليها وماذا تكون نتيجة حياة رجالنا المهددين فى أرزاقهم وقديماً قال الامام الشافعى « لو شغلت ببصلة ماحلت مسألة » أليست هذه عقدة اجتماعية كفيلة بانشغال بالنا ، بل ان المشتغلين بمسائلنا السياسية لم يكونوا أسعد حظاً من علمائنا العظام فى العهد الغابر فلم يترك مصطفى

كامل ثروة، ومات محمد فريد شريداً طريداً لايملك شيئاً كأنهما بعض الزهاد فى صوامع الأديرة!

واذا انتقلت الى الطبقات النازلة من الفلاحين فان مايعانونه من الفقر الذى وصفنا طرفاً منه لاتصل البلاغة الى الالمام به. وذلك ناشىء عن تبذيرهم وعدم تدبيرهم.

قال بريلسفورد الاقتصادى يصف حالة الفلاح المصرى فى مستهل هذا القرن :

« ان مناظر الفاقة التى رأيتها فى القرى لم أشهد قط مثلها فى جبال مكدونيه ولا فى بقاع دونجال • فهذه القرى فى مصر انما هى ركام من الاكواخ « العشش » المبنية من الطين لايتخللها أشجار ولاازهار ولا غياض ولابساتين ، والأكواخ من الداخل ليست مستوية الأرض وليس لها نوافذ فهي أشبه بالسراديب الصغيرة مؤلفة في الغالب من غرفتين صغيرتين غير مشيدتين بالجص ولا مفروشتين بالبسط والطنافس ولم يكن فيها من الاثاث والماعون سوى بعض أدوات الطبخ من النحاس والفخار وجرة مملوءة من طعام الذرة وأخري ملآنة بالماء العاكر الذي تنقله المرأة على رأسها صباح مساء »

ولم يشأ بريلسفورد أن يجرح احساس الانجليز ويذكر مجاورة الانعام للانسان ولا روث البهائم ، ولا تراكم حطب القطن على السطوح مما يبعث على اشتعال النار لابسط شرر ، ولم يذكر المستنقعات ولا أكوام الطين والتراب ولا قذارة الملابس وصفرة وجوه السكان وقلة تغذيتهم وانتشار البلاجرا والانكلستوما والبلهارسيا . لأنه يعلم أن الانجليز حكموا البلاد منذ أربعين عاماً لترقية الفلاح وانقاذه من مخالب الافلاس وطالما افتخر كرومر بأنه صديق أصحاب الجلاليب الزرقاء . التى قال ظريف فى وصفها أنها مصبوغة بالنيل الهندى رمزاً على حدادهم لماهم فيه من البؤس والضراء . وقال « رأيت بنفسي في قرية ط. أكواخا مصنوعة بأيدي الفلاحين وهى عبارة عن حوائط من الصفيح والبوص مغلفة بالوحل وليس لها نوافذ ولابد للداخل اليها أن ينحني لينساب داخلها انسياب الكلب في وكره أو الثعبان فى جحره وعلى مقربة منها ، وعلى قيد بضعة أمتار قصر مشيد على ألف متر ، له نوافذ وأبواب وشرفات وأعمدة يتخلله الهواء والنور وحوله أشجار وجنان وفيه سائر أنواع النعيم

الأرضى ومداخنه تعمل ليل نهار فى تسخين الماء وطهي الاطعمة وهـذا القصر لصاحب الأرض التى يزرعها سكان تلك القرية . وهو يراها منـذ عشرات السنين ولم يخطر بباله أن يحسن حالة ساكنيها ، كما أنه لم يخطر ببال ساكنيها أن يقتصدوا لتحسين حالتهم . قد رأيت هذا فى سنة ١٩٠٨ ، وتكلمت في هذا الشأن مع صاحب القصر فضحك من قولى ، وقال ان الفلاحين لا يحبون الا هذه المساكن ، وانهم لا يقبلون على السكن في سواها » اه .

ومنذ خمس سنين قامت ضجة حول بناء مساكن نموذجية للفلاحين وشيد أحدها فعـلا في المعرض الزراعى ، ولكن ما لبث أن شيد حتى هدم ولم ينفذ المشروع فى احدى جهات القطر المصري

أما المدن فان الاحياء الوطنية منها لا تزال على ما كانت عليه في القرون الوسطى ، وقد قال فى وصفها لويس برزان يصف أهل القاهرة مانصه :

« لعل الفقر والفاقة في بيوت الطبقة الفقيرة في القاهرة وسائر بلاد مصر أشد منهما في سائر الاقطار الشرقية ، فمثل هذه البيوت مؤلف فى الغالب من غرفتين أو ثلاث لانوافذلها لدخول نور الشمس والهواء النقي متصلة بايوان ، لا يقل عنها ظلمة وترى الدمام يتساقط من السقوف ومن ألواح الجدران الخشبية النخرة على أرض المسكن القـذرة ، والهوام والحشرات مستقرة على الحصر والفرش » .

« واذا التفت الى وسائل العيش وأسباب القوت رأيت أجور بعض العمال لم تتناسب مع غلاء الأسعار ، بحيث أن العامل لا يستطيع مماشاة السوق وأصبح عاجزاً عن تحصيل ضروريات الحياة . وهذه الحال هي أشد ما يكون فى المدن والمراكز الصناعية . حيث أهل الطبقات الدنيا من عملة وساقة وحوذيين وباعة وغيرهم لاطاقة لهم ألبتة على احتمالها فنشأت عن هذه الحالة العامة البلوى ، الشادة للخناق ، المستحكمة عرى الضيق ، مظاهر فساد الاخلاق كشرب الخمر وانتشار الفجور وارتكاب الجرائم والجنايات » اه .

وفى نظرنا أنه لا علاج للفقر والجهل في الريف والمدن الا بنشر التهذيب الديني والتبشير بمبادئ الاقتصاد والادخار . فالدين والاقتصاد وحدهما دون غيرهما كفيلان بالاصلاح .

١٣

١

لو تنبأ خليفة أو سلطان بأن مظاهر الاكرام وحسن الضيافة التي منحها كبار الاجانب الذين حلوا بلاد الشرق فى سبيل التجارة أو الاستكشاف ستنقلب بعد بضعة قرون أنواعاً شتى من البلاء على تلك الامم الشرقية ما كان منحها ، ولعله ما كان يفتح أبواب مملكته للقادمين الذين تمكنوا على مر السنين من قلب المجاملة الودية سيفاً مصلتاً على أعناق تلك الأمم التى استضعفت في الارض بعد العظمة والقوة

ولكن أي خير فى ممالك الشرق عامة والاسلام خاصة لم ينقلب شراً وأى مسالمة لم تصر على كر الاعوام بيننا وبينهم محاربة . ان تلك الشوكة التي ما فتئت تخزنا في جنوبنا كيفما تقلبنا هي بلا ريب من أشد النكبات وقعاً — وقد فرت فرصة الحرب الكبرى ولم ننل من إلغائها أربا وتمكنت أمم شرقية مثل الصين والفرس والترك من محوها من سجل حياتها القومية ولا نزال نحن ننظر بعين المريض الى صفحتها في سجل حياتنا كما ينظر المقضى عليه في كتاب يشمل الحكم عليه بالعذاب المؤبد وقد تحركت تلك المسألة بضع مرات فى العهد الاخير بمناسبات خطيرة وتحفزت الجهات المختصة نحو العمل ولكن على أية خطة ؟؟

كانت السياسة المصرية منذ ثلاثين عاماً ذات صبغتين صبغة قومية وصبغة حكومية من حيث الامتيازات . وقد ألف فى ذلك الحين الاستاذ بلسيه دوروزاس مدير مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة كتابا قيما في الموضوع فالتفت الآراء المصرية حول بعض نظرياته فنشأت لدى الوطنيين في عهد من العهود الوسطى فكرة تحبيذ الامتيازات والاحتفاظ بها بوصف كونها سياجاً دوليا ذالون قانونى يقضى بشبه المساواة بين انجلترا وغيرها من الدول الاجنبية وقالوا لو أن تلك الامتيازات زالت فقد نمسى مع انجلترا وجهاً لوجه دون

حسيب أو رقيب واذن تفقد المسألة المصرية صبغتها الدولية ولعلها تسعى لنشر حمايتها دون منازع من الدول الاخرى وكان المرحوم مصطفى كامل من أنصار هذه الفكرة لاعتماده على فرنسا في ابان نزعته الاولى — وما زالت هذه عقيدته الى أن حلت سنة ١٩٠٤ وتوثقت علاقة انجلترا بفرنسا وظهر في الوجود « الاتفاق الودي » الذى سبق الحرب العظمى بعشر سنين ومهدلها السبيل . وحينئذ دب اليأس الى قلبه

وندب حظ مصر في رسائل بليغة أرسلها الى صديقته ومعينته الأولى مدام چوليت آدم وتزعزعت ثقتنا في نظرية التفضيل ولكننا كتمنا أمرنا

أما الوجهة الحكومية منذ ثلاثين عاما فكان يمثلها لورد كرومر وكان هذا السياسي المحنك يظهر آراءه ولا يخفيها ويكتبها ولا يكتمها ويبغض الكتمان في الامور العامة — كما كان نصيراً لحرية الصحافة — ويعتبرها صمامة أمان للتنفيس عن الكروب التى تعانيها الشعوب المحكومة — وكان يطلع على العالم في كل عام بتقرير مدبج بأسلوب خاص يعد من أعلى الاساليب في المدونات السياسية فماذا كانت خطة هذا النابغة في الامتيازات ؟ كان يميل الى الغائها ويوالى الحملات عليها في صفحات تقريره السنوي وينسب اليها تعطيل أعمال الاصلاح — ولكن حيرته — على شدة حذقه وبراعة حيلته — كانت ظاهرة في الوصول الى حل يوفق بين رضاء الدول وحسن التخلص ومجاملة أرباب الأموال وتنفيذ السياسة الأنجليزية في وادي النيل الى أن دلته التجارب وهدته اناته الطويلة على فكرة وسط تخفف ويلات الامتيازات ولا تمحوها تمام المحو — وهى فكرة لاشك مكيا فيلية — فكرة اشراك الاجانب معنا في مجلس تشريعي تكون قوانينه نافذة على جميع سكان مصر — وهذا المشروع نفسه الذي جمع كرومر شجاعته للبروز به بين ظهرانينا هو النواة لمشروع سير برونيت الذي قامت له مصر وقعدت، صاغه كرومر بصورة مخففة ملطفة ولكن برونيت أراده كاملا شاملا قاضياً على كياننا القومى . فضلا عن الفرق بين العهدين عهد كرومر وعهد برونيت فقد كان كرومر يستمد قوته من نفوذه الذاتى ومن شخصيته القوية ومن تاريخ أعماله فى مصر —

وكانت تلك الخطوة الجريئة منه بمثابة اعلان للعالم بأن انجلترا تنوي البقاء عملا بالمبدا القائل «سأبقى حيث أنا» .

وكان قبول الاجانب نظرية الاشتراك فى التشريع بمثابة رضاء ضمني بشرعيـة الاحتلال -- فلم يلق كرومر تشجيعاً فى مصر ولا فى الخارج — في مصر قامت عليـه قيامة الوطنيين الذين تشبثوا باهداب الامتيازات للنظرية التى شرحتها والدول الاجنبية لانها أدركت مغزى الخطة الكرومرية التى تحولت فيما بعد الى نظرية حماية الاجانب — ولم تكن أمة شرقية قد اجترأت بعد على الغاء الامتيازات بل كانت الدولة العثمانية غارقة من أخمصها الى قمة رأسها فى بلوى الامتيازات . بل كانت اليابان زعيمة الشرق الاقصى خارجة من حرب الروس الدامية التى انتصرت فيها أمة وثنية على أمة مسيحية فمدت لها دول أوروبا التى تعرف كيف تحترم الحديد والنار يد المودة وصافحتها على اشلاء الجيوش القيصرية المحطمة فلما نطق أقزام طوكيو الاذكياء الاقوياء بكلمة المساواة بين الشرق الاقصى والغرب وطلبوا الغاء الامتيازات وقالوا اننا نحسن الطعن والضرب ونتقن تدبير خطة الحرب فاذن نستطيع احسان الحكم بين الجميع ونلغى الامتيازات الأجنبية !! فطأطأ الغرب رأسه وأجاب : نعم! فلما جاءت الحرب العظمى وأعلنت انجلترا الحماية الغت امتيازات الأمم المعادية لها ولما تبلشفت روسيا أسقطت امتيازاتها ولكنها لم تمس امتيازات الأمم الموالية على ما في هـذا العمل من التناقض الظاهر فان الحماية معناها تحمل مسئولية الحكم فلم يكن هناك معنى للتفرقـة في المعاملة بين الدول

وعقـدت المؤتمرات وسويت المسائل بين الدول ومصر صامتـة ساكنة ولم تحرك ساكناً بصفة جدية نحو الغاء تلك الامتيازات والخلاص من أغلالها

ولكن اليوم عادت المسألة بشكل جديد فمصر تريد تعديل قانون المحاكم المختلطة لمحاكمة تجار المخـدرات والرقيق الابيض (وغيرهم من نوعهم) جنائياً أمام تلك المحاكم وهـذا يتطلب تعديلاً فى نظام الامتيازات وتريد التسوية بين المصري والاجنبى في أداء

الضرائب المحايـة التى تنتوي ايجادها لتعمير الخزانة المصرية . فخطت البلاد خطوتين
الخطوة الأولى اصدار قانون الجنسية الذي جلب علينا احتجاج دولتين من الدول العظمى
فقد رأت كل من فرنسا وايطاليا وهما دولتان مفترض لديهما الولاء لمصر وحسن المجاملة أن
فى المادة الخامسة عشرة من ذلك القانون مساساً بحقوق رعاياها وهذه المادة من أهم مواد
القانون وهي تعطي وزير الداخليـة حق اخراج السكان الذين أصلهم من حزر الارخبيل
التابع لايطاليا وسكان البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي وقد أثمر الاحتجاج ثمرته النافعة
للدولتين العظيمتين المشار اليهما ، ووافقت الجهات المختصة على أن النص ينصب على الرعايا
غير المرغوب فيهم (Indesirable) وتعهدت وزارتا الداخليـة والخارجية بتنفيذ هـذا
التفسير وسوف يعطي هذا الحل فرصة للمشاكل ـ فمن له الحق في الوصف وكيف تـكون
طريقة المعارضة وهل تتخلى الدول عن حماية رجل من أقوياء رعاياها ـ بعد الذي رأيناه من
حوادث القتل الواقعة من زعانف الاجانب على المصريين فينقلون الى عواصم الممالك الحامية
وتصدر في حقهم أحكام مخففة تـكاد تـكون أحكام الأم الحنون على الولد المدلل ـ يجب
في مثل هذا المجال فعل حاسم واظهار رغبـة صريحة و كان العقل لا يقبل أن مصر تتعرض
لأجنبي مسالم أو مستقيم وهذه الحلول تسمى انصاف الحلول وهي أشد خطورة من بقاء المشاكل
بغير حل و بقاء القديم خير من حل ضعيف .

أما الخطوة الثانية (ومن غرائب المصادفات أنها خاصة بالمادة الخامسة عشرة أيضاً
ولـكن من لائحة ترتيب المحاكم الاهلية) فخاصة بوضع حـد للأقضية التى سارت عليها
المحاكم المختلطة حين بسطت اختصاصها على الاجانب من غير ذوي الامتيازات استناداً الى
المادة التاسعة من لائحة ترتيبها وكانت تلك المحاكم وهى جهات قضائية أولى برجع الحق
الى نصابه وحسن تفهم النصوص والآن لقـد تغير الزمن وألغيت الامتيازات من سائر أمم
الشرق ولم تعد مصر فى حاجة إلى الالتجاء الى نظرية الامتيازات الأجنبية لحماية الفـكرة
السياسية بفـكرة قانونية فقد كشفت أوروبا قناعها ومدت يدها الحديدية وظهرت نياتها واضحة

صريحة فى جميع أنحاء العالم وإن لم نكن حاربنا الحلفاء وانتصرنا لنحوز الاحترام فى نظرهم فقد حاربنا فى صفوفهم وقد أظهر القضاء المصري في خلال الأربعين سنة الماضية قدرته واستقلاله فلاولى بنا أن نصارح الدول الممثلة لدينا والتي لنا شرف التمثيل السياسي لديها بحقيقة أفكارنا وهي أن الامتيازات الاجنبية أصبحت أنظمة غير لائقة وغير جديرة بكرامة الطرفين

٢

لاريب فى أن مصر الآن فى فترة سكون ومراقبة ، ومثلها كمثل الجالس فى برج عال يشرف على ماحوله من الأمم القريبة والبعيدة ، ولايمكن من كان في مثل موقفها ، أن لايتأثر بما يقع أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ، من الحوادث الكبار ، وقديماً تأثرت مصر بأوروبا في السياسة والتجارة والتعليم والصناعة والصحافة واتخاذ المخترعات الحديثة والانتفاع بالمفيد منها ، ولا يخلو الامر من انها أوذيت فى هذا السبيل بالتقليد أو باتخاذ الضار من الاخلاق والعادات

ومصر ليست متصلة بالغرب والشرق مجرد اتصال . وانما هى مشتبكة اشتباكا وثيقاً ، وكل خطوة من الخطوات التى قطعتها في المائة سنة الأخيرة ، كانت تدنيها من أوروبا ، ففى عهد محمد على الكبير كانت دولة حربية صناعية في دور التكوين وكانت معنويا تابعة لفرنسا في علومها وسياستها وتقاليدها لقرب العهد بالفتح الفرنسى ، ولرغبة محمد على فى محالفة تلك الامة لاسباب يطول شرحها فحاربت وتقدمت واستتب الأمر لحاكمها الذي كان من نوع المستبد المحب للخير Benevolent Despot وفي عهد خليفته ابراهيم باشا حاربت في الشرق وانتصرت فى الشام وفي تركيا ووقفت عند حدها وعرفت شخصيتها بين الامم الغربية والشرقية ، وفي عهد سعيد نبتت فكرة قناة السويس في رأس الفرنسى فردينان ديلسبس المنحدر من مدرسة سان سيمون الفلسفية ، واتصل البحران على يد المصريين الذين هلك منهم مئات الالوف في سبيل الانسانية وتقريب المسافة بين انجلترا والهند ، ولما رأت انجلترا عجزها عن منع حفر القناة انصرفت إلى الاستيلاء عليها ، وتم هذا الاستيلاء أوكاد في زمن

الحاكم الذي احتفل بافتتاح القناة ، وكان المغفور له اسماعيل باشا حاكما حديثاً يحب أن تكون بلاده جزءاً من أوربا ، فمدن المدن ومصر الامصار وشق الطرق وحفر الترع واستقبل الامبراطورة والسلاطين والملوك واستدان حتى اضطر لترك وطنه بعد أن أثقل كاهله بالملايين في سبيل المدنية الحديثة ، ولم يجد له من أوربا ناصراً ولا معيناً سوي ملك إيطاليا الذي ضافه وفي عهد خليفته نضج « الخراج » وعملت العملية الجراحية ، وظهرت الثورة العرابية ودخل الانجليز مصر ، وكانوا في أول عهدهم شبه مسالمين لأنهم لم يشاءوا أن يكذبوا دعواهم بحماية العرش ، فلما مات توفيق إلى رحمة الله وخلفه ابنه على العرش وكان فى ريعان الشباب ، بدأ عهد المقاومة بين انجلترا ، يمثلها ذلك الكهل المحنك المدرب لورد كروس ، وبين الوطنية المصرية ، إلى أن أعلنت الحرب العظمي سنة ١٩١٤ فكانت فترة الاستسلام والحماية تحت حكم القهر ثم ظهرت الحركة الوطنية الأخيرة وكان من تاريخها ما لايزال عالقاً بالاذهان

وفي كل فترة من تلك الفترات كانت أوربا تزداد منا تقرباً وبنا احتكاكا وتتدخل في شؤوننا الصغيرة والكبيرة ونحن نقبل الحوادث تارة بالارغام وطوراً بالمساومة وقد وضعت الحرب أوزارها وخشيت ممالك أوربا الظافرة التى كانت تسمى « الحلفاء » أن لاتسفر تلك المذبحة البشرية البشعة عن شيء من الخير الذي كانت تمنى به جموع الانسانية المجرحة المظلومة المغلوبة على أمرها ، وتلك الشعوب الصغيرة الدامية . وأرادت من جهة أخرى أن تكوّن لذاتها نواة دفاع ضد حوادث المستقبل الخفي . فابتدعت فكرة عصبة الأمم . ولم تكن تلك الفكرة حديثة العهد بل قال بها كثيرون من ساسة أوربا لاسيما الفرنسيون منهم وفي مقدمتهم موسيو ليبرچوا الذي كان يرجو اتقاء الحرب بوسيلة التضامن بين الامم المتمدينة (راجع كتابه الذي نشره قبل الحرب La Paix par Solidarité internationale وكان ظاهر هذه العصبة خلاباً خداعاً لكل الامم حتى أن بعض ساستنا كان يعد الانضمام اليها نعمة كبرى . فما لبثت حقيقتها أن انجلت عن كونها عصبة الامم الغالبة وقد اخترعت نظام الانتداب وهو استعمار حقيقي يلبس ثوب الصداقة ودليله ما حدث فى سوريا والعراق . وقد

أراد الله فلطف بنا ولم تمسنا ريح ذلك الانتداب المنحوس ولعل السادة السياسيين أدركوا أننا تعلمنا ما يكفى لعدم قبول تلك الحيلة . ولم تدخل أمريكا تلك العصبة فأظهرت انها تعرف بواطنها . ودخلتها المانيا ليكون لها صوت مسموع فى تخفيف وطأة الدين وتعجيل الجلاء عن بعض أراضيها المحتلة واسترداد بعض مستعمراتها .

وقد قرأنا من المباحث الاخيرة فى الكتب والمجلات ومحاضرات أساتذة الحقوق الذين انقطعوا لدرس روح عصبة الامم وتفهم طرقها Mécanisme مايجعلنا نعتقد أن حياة تلك العصبة رهينة قوة الدول الكبري التي تتألف منها وعند ماتضمحل تلك الدول في حرب كبري (يقول الكثيرون بضرورة اشتعال نارها و يحتمونها تحتيما) تنحل طبعاً تلك الجمعية فتكون أمريكا حينئذ هى دولة المستقبل بقوتها المادية وقوتها المعنوية و بنبوغها فى الاختراع والابداع وتسخير الطبيعة للانسان وثروتها التى تكاد لاتفنى فى جوف الأرض وعلى سطحها ، وأوربا العجوز تعلم ذلك وتنتظره وتلمح كوكب تلك الجمهورية الساطع ، وتدرك أنها نفسها فى طور الانحلال والذوبان .

فلا تستطيع مصر أن تجهل ذلك أو تتعامى عنه أوتغفله بل ينبغى لها أن تسلك عين السبل التى سلكتها جمهورية الولايات المتحدة للتقدم بالعلم والصناعة والاجتهاد ، وأن تسعى للتقدم والاصلاح في جميع ناحيات الحياه ، فان الامريكيين المشهورين بالعجلة والتقليد والا كتفاء بمظاهر الاشياء ، ، إنماهم في الحقيقة رجال عمليون وتبدو حياتهم للجاهل بطبيعتهم بتلك الحالة السطحية ، وليس أمام أمريكا مايعوقها عن سيادة العالم كسيادة الرومان ،ولكنها لاتريد ، وقد أسفت على دخولها فى مأزق الحرب العالمية ، ويؤكد ساستهم وعلماؤهم انه لو ظهرت حرب أخرى فلن يكون لهم شأن فيها . وكفاهم ما أصابهم من ضياع الرجال والمال ومماطلة الدول المدينة وظهور مبادئ و يلسون الذى كان يمثلهم بمظهر الرجل العالق بالمثل الأعلى المندفع وراء الخيال اندفاعاً أفقده ميزان الحقائق الجارية بين الدول

ولعل من أعظم ماننتفع به من أمريكا طرق التعليم فيها وتأسيس المدارس الحديثة

القائمة على مبادئ علم النفس ودرس معقولية التلاميذ والطلاب . وقد كان أعظم فلاسفتهم في العصر الحديث وهو ويليام جيمس استاذاً مدرساً،ثم نقل مصر من الزراعة الى الصناعة.

ولا يمكن مصر أن تجهل ماهو حادث في أوربا ذاتها وفي أحضان جمعية الامم التى عجزت عن تطبيق نصوص نزع السلاح أوتخفيضه في العالم إلى الحد الأدنى الذى يتفق مع سلامة كل دولة . وهـذه النصوص المنقولة عن عهد جمعية الامم مطاطة وقابلة للتأويل والتفسير على هوى كل دولة وكل دولة تستطيع أن تتملص من أى تخفيض حقيقي في سلاحها. وستبقى هذه المسألة من المشاكل الاوربية المعقدة التي يصعب حلها . وقد ثبت لمن يرقب حالة العالم السياسية ان الدول الاوربية تستخدم العصبة لتبرير مقاصدها الخاصة ولتصبغ سياستها بصبغة قانونية لتبريرها أمام الشعوب . أما أمريكا فليست في حاجة إلى الدخول في هذا المأزق ولا يهمها البرنامج البري أو البرنامج البحري . . . كما رأينا فعلا . واليك إيطاليا واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وتركيا وكل منهن تعيش تحت نظام حكومة مطلقة يتصرف فى شؤونها رجل واحد تميز بمحو النظم الدستورية وجعلها أثراً بعد عين فى حين ان أمريكا مع نموها وتقدمها وتطورها لم تحتج لتغيير نظام حكومتها ولا للقضاء على دستورها . وهذا النظام المطلق معلق بحياة شخص واحد أو بضعة أشخاص ولا يعلم مستقبله ومآله بعد حياته إلا الله الذى يعلم السر وأخفي !

أما المانيا وفرنسا فهما الدولتان المنهوكتان اللتان تعيشان بين الرجاء والخوف وقد حدثت في المانيا عين الظاهرة السياسة التى حدثت فى فرنسا بعد الهزيمة فان فرنسا انقلبت من امبراطورية الى جمهورية بعد حرب السبعين وكذلك المانيا انقلبت الى جمهورية بعد حرب ١٩١٤ . وكلتاهما فى كفتى الميزان ، وترقبان انجلترا (التى استفادت وحدها من الحرب) بعين الحذر وتحسدانها على ماأفادت من مستعمرات وانتدابات وآبار للزيت والنفط فى الشرق ، ونفوذ خارق فى الغرب ، على حساب برتاومار يان الداميتين . . . وكل هذه الدول الغالبة المغلوبة . الخادعة المخدوعة تشرئب بأعناقها في ثياب الوجل والحيرة وتحارب بكل

قواهامنفردة و مجتمعة الدولة الروسية التى غامرت فى مجهولة تاريخية تشبه معادلة جبرية معقدة الحروف والاعداد ، وعندنا أن روسيا لاتزال في دور التكوين الاجتماعي وهي أشبه الاشياء بطهى ينضج فى مرقه الدسم الكريه الرائحة . فان المشاعية ، حسب مبادئ الدولية الثالثة ، تجربة شديدة الخطورة ، ومجازفة غير مأمونة العاقبة . وليس لدي الروس ما يمكن مصر أن تستفيد منه أو تقتدي به لمخالفة مبادئها لعقائدنا ومدنيتنا وآدابنا . فلنتركها « تستوي في صلصتها » على حد قول السياسى العتيق كرومر عن السودان في عهد المهدي ولنتجه قليلا نحو الشرق فاذا هو أيضاً قدر يغلى على نار متأججة . فمن ثورة وحرب يعقبهما فتور وخمود فى سوريا الى حرب الجوريلا في شرقي الاردن وحدود العراق وهذا الحجاز ونجد والربع المعمور والربع الخراب لاتزال كالبوتقة المصهورة في يد صائغ ماهر تعوزه المادة اللازمة لصنع الذهب

وإذا رفعنا بصرنا إلى ما وراء العـراق رأينا تلك الدولة الفتية التى أوقعها تسرع صاحبها في حب الاصلاح في هاوية الفوضى وحرب القبائل وقد نزع التعصب الأعمى ودسائس الأجنبى تلك السلطة غير المحدودة من يد أمان الله ووضعها في يد آفاقى هو أقرب الى زعامة اللصوص منه الى سيادة الممالك[1]، ولاتزال الدولتان الاسلاميتان اللتان فتنته مظاهر الاصلاح فيهما وهما تركيا والفرس بعيدتين عن معاونته ومناصرته ، لأن تركيا تكاد بشق الانفس تبلغ غايتها التى رسمها لها ونفذها رجـل واحد نابغ في الحرب والسياسـية والتشريع يعمل في جيل واحد مايجب عمله في بضعة أجيال ، ولايشبهه عن بعد الا شاه الفرس العصامى الذي يستغويه التقـدم والارتقاء و يعوقه الجمود القومى الذي يشـبه قباءً عتيقاً مزركشاً بالخز والديباج ومرصعاً بالجواهر ولكنه من ثياب القرون الوسطي يرغم صاحبه على التدثر به للدخول فى محفل حديث العهد بين المتعاصرين من أهل المدنية الجديدة .

أما الهند فقد تنازعتها الانقسامات القومية و بددت أوصالها خناجر التعصب وهذه الصين التي لم يكن يرجى لها تنبه من سباتها العميق الذي جعلها أشبه شئ

(١) المقصود بهاچى سقا ، فقد كتب هذا الفصل فى عهده .

بأهل الكهف قد تنبهت وهى تحارب بعضها بعضاً كما كانت تفعل احدى الدول الاوربية في القرون المظلمة ، ولكنها حروب تعقبها الحياة والسلامة والسير الى الامام اذا استطاعت أن تتخلص من المؤثرات الأجنبية المضرة بها والتي لا يقبلها عقلها ولا تندمج فى مدنيتها .

ومصر الناهضة الرابضة الساكنة المراقبة ترى كل ذلك وتفهم وتدرك ولكنها صامتة لأنها تتعلم وتتنور وتنتظر وترجو أن تنتفع بالدروس التي تتلقاها من الداخل والخارج وما يراه البعض كبيراً خطيراً قد تراه مصر صغيراً دقيقاً عديم الشأن في نظر التاريخ وفي حياة الامم . لأنها هى الأخرى التي حلت فيها روح أبى الهول العظيم صابرة ترمق بعين الهدوء والألم ظهور شمس الحياة والامل من وراء الأفق .

٣

ان الأنظمة النيابية نعمة الامم الحديثة . ولكن يجب أن يحسن تكوينها وانتخابها فان انجلترا وهى سيدة الامم النيابية وبرلمانها شيخ البرلمانات . واقعة في خطأ واضح . فان تسعة أعشار الامة الانجليزية عمال ولا يملكون شيئاً الا تعب أيديهم . وتجد تسعة أعشار البرلمان من الملاك الذين لم يعرفوا هم وآباؤهم عمل اليمين ولا عرق الجبين حتى في عهد سيادة العمال فان حزب العمال في الحقيقة اسم ومنهاج ليس الا ، ومن أعضائه لوردات وسيرات ومسترات من أغنى متمولى الدنيا . فلا يعقل أن برلماناً كهذا يسد حاجات شعبه . والا فأين أعماله فى مقاومة تكويم الثروات الفردية غير الالتجاء الى التشريع الاستثنائي مثل الضريبة على الدخل وغيرها . وانك اذا حولت نظرك الى البرلمان الفرنسى وهو وليد الثورة الفرنسية العظمى فان منظراً محزناً يقابل نظرك من تعدد الاحزاب ذلك التعدد المهلك ، وتهافت الأعضاء على اقتناء الثروات بطرق غير مشروعة فكانت فضيحة بناما الشهيرة التي سجن بسببها دي لسبس وفضيحة أوستريك وغيرها بل ان بعض أعضائه بعد أن تولوا الوزارة وهي أرفع منصب فى الأمة اتهموا بالخيانة العظمى وثبتت عليهم وحكم عليهم بالنفي وغيره : وقد ظهر ضعف النظام البرلماني المقرون بسوء الانتخاب إذ تغلب عليه فريق من الرجال الذين صاروا

ديكتاتورية مثل موسوليني فى ايطاليا وبريمودي راڤيرا في اسبانيا وغيرهما فى بعض بلاد الشرق . فظهر وجوب تشريع حازم يحمي النظام النيابى و يصونه لدى عواصف الاستبداد الفردي، وحسن الانتخاب. حتى يمكن الانتفاع به والا فيصير حلماً مزعجاً للأمة وداعياً للسخرية من الاقوياء الذين يريدون الاستئثار بالسلطة الا أن حالة الفلاح والعامل لما يدعو الى الحنان والشفقة فان انتشار الفقر فى تلك الطبقة مع سيادة الجهل مما يفتت الاكباد فانهما فريسة للشقاء وللامراض الفتاكة وظروف حياتهما اليومية تكاد تكون من آثار القرون المظلمة . ولم أدرك حالة الفلاح والعامل قبل التسلط الاجنبي ولكنني لا أظن أنها وصلت الى ما هي عليه الآن في الشرق . فان أوروبا لم تكتف بالفتح الحربى والسياسي بل فتحت البلاد فتحاً اقتصاديا وكان ذلك الفتح أوسع نطاقا من الحرب السياسية وأرسخ قدماً فان أوربا التى انتقلت في القرن الماضي من عهد الزراعة الى عهد الصناعة والتجارة تراكمت لديها المصنوعات وأرادت أن تجد لتصريفها أسواقا فلم تجد أروج من أسواق الشرق .

واذا رجعنا الى تلك الصناعات نجد انها من نتائج الاختراعات والاكتشافات العجيبة التى وفق اليها الاوربيون بمحض اجتهادهم وذكائهم وليس لشرقى واحد أي فضل فى اختراع منها فحيث حولت نظرك وجدت اختراعا أوربيا أوأمريكيا أى صادراً عن الأمم الغربية .

وقد حضرت مرة مناقشة حادة بين رجل مثقف على الطريقة الحديثة وأحد علماء الرسوم فكان العالم يقول : إن الاسلام هو دين الله وأممه هي الشعوب المختارة وهى أحب الأمم اليه سبحانه وتعالى لأنه وفقها الى عبادته على أفضل الطرق وأسماها فاعترض عليه المثقف قائلا : كيف تقول ذلك ياسيدي،مع أن الله سبحانه وتعالى لم يفتح على واحد .. واحد فقط من أبناء هذه الأمم باختراع واحد نافع مثل الكهرباء أو البخار أو ما اشتق عنهما منذ ستين أوسبعين عاما كالبرق واللاسلكى والتليفون والمحرك الكهربائى والطيارة . فسكت العالم قليلا ثم قال : وهل نسيت علماء العرب وما أحدثوه في الفلك والكيميا والرياضيات.

فقال المثقف : كلا ! لم أنس ولكن هذه كانت أعمالا بدائية ، ولو أنني سلمت جدلا بان الأوروبيين اتخذوا ثمار قرائح العرب أو غيرهم من الشرقيين كالصينيين ، فان هذا لا ينفي أنهم طبقوها تطبيقا عمليا في كل ما أنتجوه وعاد على الانسانية بالخير العميم .

على أن الذى يريده الرجل المثقف على الطريقة الافرنجية هو أن الدين المسيحى لم يكن عائقا لاهل أوروبا عن الاختراع والانتاج المجدي وكذلك لا يجوز أن يكون الدين الاسلامي عقبة في هذا السبيل ، وحينئذ لا دخل للدين في ترقية العقول وتقوية الاخلاق وتربية الرجال تربية صالحة تؤدي بهم الى الأعمال الجليلة . وماذا يجدينا الآن أن يقال ان أول من اكتشف أمريكا رجل مطوحون من العرب وصلوا الى المكسيك أو البرازيل وعادوا الى ثغر « وأسفاه » بشمال أفريقيا ، في حين أن الذى اكتشف أمريكا حقيقة هو خريستوف كولومبوس وفريق من البحارة الاسپان . فيجب إذن أن نعترف أن كل الاختراعات الحديثة التى بنيت عليها الصناعات هي ثمرة عقول أهل أوروبا دون سواهم ونتيجة اجتهادهم ودأبهم ويصح أن يقال في حقهم « كل ميسر لما خلق له » لأننا رأينا أشخاصا منهم يقضون عشرات السنين في سبيل اتمام جزء بسيط من اختراع مهم . وأمامنا أمثلة واضحة فى اديسون وماركونى. واينشتين وهم من الاحياء وباستور وكوخ ورونتجن وفارادي وڤولتيرا وهم من الموتى ..

٤

وقد هجم الاوربيون بصناعاتهم وبضائعهم على الشرق الذى لا يزال حتى اليوم فى دور الزراعة وهو الدور الأول في حياة الامم . وكان الفلاح الشرقى منذ خمسين عاما ولا يزال الى الآن يحرث بالمحراث الخشبي ويسقى الأرض بالناعورة والشادوف .

وبديهي أن الكثرة الساحقة من شعب زراعي تكون مستغرقة في الفقر والجهل فلا يتمكن أحدهم من الظهور بعمل نافع حتى ان المرحوم محمد على باشا كان يأمر بخطف الاولاد من الحقول لتعليمهم في المدارس ومن هؤلاء المخطوفين والمساقين الى التعليم رغم أنوفهم خرجت فئات النوابغ الذين كانوا فخر مصر فى مستهل القرن التاسع عشر وأواسطه أما الفئة

القليلة التى اشتملت على الاشداء أهل الجراءة والاقدام الذين كانوا من الهمة والنشاط بحيث لا يبالون بنسخ العادات العتيقة والاوضاع القديمة البالية ويريدون الخروج من القيود التي قيدتهم بها الاجيال السالفة فكانوا من الفقر بحيث تعوقهم قلة رؤوس الاموال عن الأعمال الجليلة وانني لا أنكر أن في الشرق أموالا مكدسة ولكن الشرقي مفطور على دفن المال وتخبئته في بطن الارض وقد روى خصمنا اللدود ايفلين بارنج المسمى لورد كرومر في أحد تقاريره أن رجلا في صعيد مصر اشترى ألف فدان ودفع ثمنها ذهباً صفقة واحدة وجاء المال من جهة مجهولة محملا على قطيع من الحمير التي تستعمل في نقل السماد • وقد شهدت في العهد الاخير (١٩٣٠) حادثة وقعت في قرية الكلح من مديرية قنا خلاصتها أن رجلا كان يخفي تسعة وعشرين ألف جنيه في بيته المبني بالطين فاتفق ابنه مع آخرين على سرقتها وسرقوها ثم اكتشفت وردت الى صاحبها : وهذا الرجل لم يفكر فى استثمارها فى أى عمل نافع . وغيره مئات بل ألوف في الشرق عامة وفي مصر خاصة يكومون الثروة النقدية ويضنون بها على الاعمال ويحبسونها حبسا قبيحا ويبخلون حتي على أنفسهم وأولادهم كأنهم حراس عليها لمن يبددها بعدهم أو يسرقها . ومن هذا النوع نظام الوقف المنحوس الذي يحبس عقار الواقف ليضمن أرزاق أولاده واحفاده الى أن يرث الله الارض ومن عليها .. وهذا الحبس نفسه دليل علي عدم تمسك المسلمين بالقضاء والقدر وضمان الارزاق اذ لو آمنوا بذلك لعلموا أولادهم وتركوهم يسعون في الارض فى سبيل معايشهم كما يصنع أغنياء الاوربيين والامريكان . وكأنى بالشرقى والمصري لا يحسب المال وسيلة للكسب والربح أو ذريعة لتبادل المنافع بل كان يحسبه كنزا يجب على صاحبه أن يحرص على اخفائه ودفنه ليوم عبوس قمطرير ومن أمثالهم « القرش الأبيض ينفع فى النهار الاسود » فكان استجلاب البضائع الأوربية وسيلة لاستخراج تلك الكنوز بحيلة شيطانية فان الاوربى عمل على تعطيل نهضة الشرق وانتقاله من طور الزراعة الى طور الصناعة فتراكمت الأموال لديه والشرقى محتاج الى تلك الصناعات فاقبل مضطرا في أول الامر على شراء منتوجات أوروبا حتى النسيج الذى يصنع

منه ثيابه . والعجيب أن القطن المصري الذي كان يباع بأقل الأثمان يذهب الى أوروبا ويعود في شكل قماش فيباع بأغلى الأثمان وربما كان قنطار القطن الذي ثمنه أربعة أو خمسة جنيهات يباع لنا بمائة أو مائتين من الجنيهات . فالفرق بين ثمن الخام وبين المصنوع يقع في جيوب الاجانب فينتفع به عمالهم وأرباب المصانع وذوو رؤوس الاموال وشركات النقل والملاحة . وكان الجدير بنا أن تكون لنا كل تلك الثمرة . والادهى أن الجيد من محصولاتنا لا يصل الى أيدينا فالقطن الجيد تصنع منه أقمشة لا نراها ولا يرد الينا الا المصنوع من القطن الوسط والردئ . وكان رجال فضلاء أمثال المرحوم الجمال يسافر في كل عام الى انجلترا ليطلب « طلبية » من المصانع ويتفنن في اختيار الرسوم والألوان ويشدد في عدد الخيوط التى تدخل فى النسيج سدى ولحمة ، ولكنه لم يفكر يوما في أن يصنع بنفسه نسيجاً لمتاجره . ولعله لجأ الى بعض الأغنياء فخذلوه أو حسدوه وأبوا أن يكون له الفضل فى مثل هذا الابتكار . وفى حين أن أكابر السائحين كانوا يقبلون على شراء منسوجاتنا الجميلة من الحرير والقصب والمخمل ويدفعون الالوف ثمناً للسجاجيد الشرقية أو الاواني النحاسية المنقوشة أو للخشب المطعم بالصدف والعاج كنت ترانا مرغمين بحكم الاستعجال والفقر والاضطرار مقبلين على شراء أحقر الأقمشة التى ترد الينا من فبريقاتهم وقد كان المرأة المصرية الجاهلة أعظم نصيب في خراب المصرى الوسط والغنى ، لان جهلها وبذخها وغرورها و بغضها للبساطة والجمال الطبيعي أغرتها جميعا على الاقبال علي المتاجر الافرنجية لتشتري منها صنوف الحرير والمخمل والكريب دي شين والكريب جورجيت والفايلا والمانيلا والباتستا والحرير الهندى (اسما فقط) والدنتلات والشرائط والخروجات والخرز ومئات الاصناف من حاجات لبسها وزينتها فكانت المرأة المصرية الآخذة باهداب المودة ، تنهب أموال أسرتها المصرية لتصبها فى جيوب الاجانب باسراف لم يسبق له مثيل ، دع عنك ما تنفقه فى أسباب الزينة والتواليت الخداعة من دهون ومساحيق وكحل وعطور بعد أن أعرضت عن « حسن يوسف » و « خضاب الميدان » وصنوف الطيب والعطور التى تملأ حوانيت التربيعة ، وان كان معظمها مستجلباً واأسفاه

من أوروبا ولم يكن الرجل الشرقى باقل اقبالا علي خراب نفسه من هذه الجهة فانه اذا كان يلبس الملابس الافرنجية فهو من رأسه الى أخمص قدمه مجهز من أوروبا فطربوشه من النمسا وزره من تركيا وقميصه من فرنسا وربطة عنقه من ايطاليا وزرايره من تشيكوسلوفاكيا وقماش بدلته من شفيلد أو برمنجهام أو واثرهامبتون وجواربه من أمريكا أولندن وحذاءه من انجلترا أو سويسرا وثيابه التحتانية الصوفية منها والقطنية من ألمانيا أو اليابان ولم يبق بعدذلك الا صورة اللحم والدم والله أعلم كم من الأمم اشتركت في تكوينها! دع عنك عاداته الأخرى اليومية فهو يركب فى سيارة انجليزية أو فرنسية ويشرب مشروبا اسكوتلنديا ويدخن سجاير من هولاندا و يقبض على عصى مصنوعة فى يوجوسلافيا

٥

وقد كانت اوروبا في ادخال صناعاتها ومتاجرها فى بلادنا حاذقة ماكرة فانها عرفت أن عرض البضاعة يجذب الأفكار اليها وان شراءها يوجد فينا عادة تتأصل فى نفوسنا ، والانسان بطبيعته أسير عادته . ورهن حاجته التى تصبو نفسه اليها . وقد قرأت مرة أن رجلا أحب فتاة فقيرة جميلة وأراد أن يستولى عليها رغم ارادتها فأرسل اليها من عودها على التأنق فى الملبس والمأكل ثم فارقها فاحتاجت الى ماذاقته من أطراف النعمة فوقعت فريسة سهلة فى حبائل عاشقها الذى أسرها بما كان ينقصها مما تعودته من ضروب البذخ والرفاهية فباعت نفسها له بيع السماح وقد كان هذا هو عين الدور الذى لعبته معنا اوروبا فانها فتنتنا بمخترعاتها وصناعاتها حتى تعودناها ثم تركتنا نجرى وراءها . وقد قال أحد علماء الاقتصاد الغربى :

« ان الاطلاع على المخترعات العصرية وأنواع الأغذية والآنية الحديثة مما لم يكن موجوداً من قبل قدعا الى ظهور حاجات جديدة مالبثت أن ساقت المنازع النفسية حتى رسخت واستقرت فيها »

لقد أتممت دراستى الثانوية والعليا على نور مصباح البترول ، ولكننى منذ تعودت

القراءة على نور الكهرباء لاأستطيع الرجوع الى غاز الاستصباح الا مضطراً وفى ظروف قاهرة وكنت أنام قبل سفرى الى اوروبا على سرير من الحديد (صنع فيلبس من فضلك !) فلما رأيت فى اوروبا أسرة الخشب ونمت عليها واستطبتها لم تعد أسرة الحديد تحلو لى . وكنت قبل سفرى الى اوروبا آكل مع أهلى على « الطابلية » أوالخوان وأجلس متربعاً ، والآن لاأملك الاكل الا جالساً على كرسي أمام مائدة اوروبية .. وقس على ذلك تلمس داءنا الدفين الذى تواطأنا بجهلنا مع اوروبا على تمكينه من أفئدتنا وعقولنا. لقد رأيت عمالا من اليابان في احدى البواخر الاوربية اذا حان وقت الطعام ينتحون جانباً ويأخذون فى الأكل من أوعية ملئت ارزاً وفي أيديهم قضبان صغيرة من الخشب يلتقفون بها حبات الارز بسرعة مدهشة تدعو الى العجب ثم يشربون الشاي الذى صنعوه في آنية يابانية فعجبت لهم ، وعجبت كيف انهم وهم يخالطون الاوربيين ويعملون في خدمتهم قد أعرضوا عن الموائد الحافلة بصحاف اللحم والمرق والاسماك والخضر والبقول واكتفوا بطعامهم هذا على طريقتهم الوطنية . وقد اقنعت ان تمسكهم بعاداتهم (حتى انى رأيت بعض النبيلات منهن على ظهر تلك الباخرة يحملن وراء ظهورهن وسائد هي رمز الشرف ولم يتخلين عنها) لم يكن ذلك التمسك عائقاً لهم عن مجاراة الاوربيين في المدنية المادية والقوة الحربية وحشد الجيوش وتجهيز الأساطيل واطلاق المدافع .

هذا هو المصرف الأكبر الذى ذهبت اليه ثروة الشرق المخزونة . على أن الاوربيين الذين أرسلوا الينا بضائعهم لم يقتصروا على ذلك بل انهم أرسلوا الينا رؤوس أموالهم لغايتين الأولى : رهن الاراضي العقارية وامتلاكها بالتدريج وسلب أموالنا أرباحاً مركبة وفوائد باهظة وهذا عمل المصارف العقاريه في مصر وسواها . والثانية استثمار موارد ثروتنا المعدنية التى لاتزال بكراً سواء بصنع السكك الحديدية أو مد خطوط الترام أو تسيير سيارات حافلة (كشركة ثورنيكروفت) أو استخراج البترول أو تأسيس المدن التى صارت آهلة بالسكان منا وقد شادها عمالنا والثروة للاجانب (هليوبوليس) والآف من المشروعات الأخرى

ووظيفة المصرى فيها وظيفة العامل الأجير والعبد الحقير الذي يعمل بقوت يومه ويطرد فى أى وقت وعند شيخوخته يلقى به ليموت في الطريق أو في أحضان عيلة هي من الفقر بحيث لا تملك ثمن أكفانه . والاوروبي هو الرئيس والمدبر العام ، والمتسلط على كل صغيرة وكبيرة حتى ان النور فى عاصمة القطر المصري في يد شركة أجنبية والماء ، الماء الذي نشربه من النيل السعيد أو الشقي بنا فى يد شركة أجنبية والنقل العام والخاص فى أيدى شركات أجنبية وأعظم الفنادق والمطاعم ومشارب القهوة والحانات كل ذلك في أيدى الأجانب . فالمصرى فى بلاده بل الشرقى فى أنحاء شرقه عامل حقير ووسيط ينقل المال ويتعب فيه بعمله وجده وكده ليعطيه هيناً ليناً عفواً صفواً للسيد الأجنبي وليس الأجنبي هنا هو الانجليزي المحتل للبلاد بجيشه وقوته بل الأجنبي هنا هو كل من هب ودب ودرج من بلاد الغرب كالرومى والبلقانى (أما كن بيع الفول المدمس ومطاعم الفقراء فى أيدى جماعة من البلغار وقد أحسنوا ادارتها أيما احسان) والايطالى والمالطى والطليانى والاسبانى والالماني وغيرهم . والانجليز قد تهاونوا مع هؤلاء الأجانب وسهلوا لهم العيش مع تمتعهم بالامتيازات الأجنبية ، ليكونوا لهم سنداً عند قيام الحركات الوطنية . فان الاوروبي غير الانجليزى يعلم يقيناً انه لولا الانجليز ما كان له أن يتحكم فى مصر هذا التحكم الجائر ، ربما كان له حق الضيافة والارتزاق فى حدود المعقول ولكن التملك والصولة لم تكونا له ان لم يشد أزره البريطانى الذى يحلب البقرة ويسمح لغيره بحلبها أيضاً . .

وبعد أن كان اليهودى والأرمنى هما وحدهما المشهورين بتعاطى الربا والرهون فى المنقول أصبحت جميع الطوائف تستغلنا من هذا السبيل أيضاً وتنسف أموال الأسر الكريمة بالاستيلاء على أفئدة السفهاء من أبنائها وأحفادها

٦

وكانت ثالثة الأثافى أن أخرجت لنا اوروبا منذ عشرين عاماً صنوف المخدرات والسموم البيضاء فجاء الكوكايين والهيروين قاضيين على البقية الباقية من أموالنا وعقولنا

وأخلاقنا . وعليك أن تقرأ تقرير رسل باشا حكمدار القاهرة لتعلم مقدار تفشى هذا الوباء بين ظهرانينا وهو وباء لم تصل الى عشر معشار أذاه صنوف المخـدرات التى تعود عليها الشرقى قديماً كالقنب الهندى والأفيون والمعجون المصنوع من حشيشة الدينار وأشباهها . وعليك أن تدخل الى احدى جلسات المحاكم الجنائية فى أنحاء القطر المصرى لاسيما محاكم العواصم لترى أن تسعين من مائة من القضايا هي قضايا المخدرات واحرازها وتعاطيها والاتجار بها ، حتي تظن أن الجرائم الأخرى المنصوص عليها فى قانون العقوبات قد اختفت وتلاشت، ونسخت من الوجود جرائم السرقة والاحتيال والتعدى على المال والعرض وأصبح العقل المصري مشغولا بالتخدير . . وحتى ان بعض القنصليات الأجنبية ، بواسطة بعض موظفيها الممتازين كانت لهم أيد فى تهريب تلك المخدرات دع عنك بعض قباطنة البواخر وضـباطها وبحارتها وبعض ضباط الجيوش الأجنبية وجنودهم، كل هؤلاء قد اشتركوا فى القضاء علينا وعلى أموالنا وأخلاقنا وقد أعلنوا علينا حرباً عواناً سوف تنتهى ان لم نتيقظ فى اللحظة الأخيرة بهلاكنا وابادتنا عن آخرنا . كما فنى أهل استراليا وأهل امريكا الاصلاء .

ومعظم البلاء فى كل ماتقدم واقع على الشرقى والعربي والمصرى فهم الذين يذهبون ضحية اولى، ومثلهم كمثل الجنود العاديين فى الميدان .

أما الطبقة الوسطى والطبقة المتعلمة فربما كان لديهما شيء من المقاومة بفضل قشور العلم وبفضل البقية الباقية من المال والنشب ولاعتماد أفرادهما فى الغالب على مرتبات الحكومة التى يتقاضاها الموظفون وكادت تستغرق نصف ميزانية الدولة أو ثلثيها

وقد ادعى بعضهم أن مصر خالية من العمال لأن ليس بها مصانع وأن معظم سكانها زراع يعيشون فى الحقول . وقد كان هـذا صحيحاً الي أواخر القرن التاسع عشر أما من بداية القرن العشرين فقد أخذ جيش من الفلاحين يتدفق على العواصم والبنادر للسعي على القوت أو لانجذابهم نحو المدنية البراقة الخلابة بفعل الميل الى كل جديد . وكانوا يترامون على المدن كما يترامى الفراش على النار .

وقصة هؤلاء التعساء محزنه للغاية . فان قراهم فى الصعيد أو فى الوجـه البحرى قد وصلت الى أسفل درك من الفقر والقذارة ، وقل العمال فيها لأن معظم سادتها وأرباب الأملاك فيها هجروها . والناس على دين سادتهم فقلدوهم أو تعلم بعضهم تعليما أولياً فأصبحت الحياة فى القرية لاتروقه . فجاءوا الى المدن زرافات ووحداناً . ومن هؤلاء تجد فى شوارع القاهرة ألوفاً مؤلفة وبعضهم يعملون فى العمارات والمبانى أجراء يربحون عيشهم مياومة وبعضهم يرتزقون ببيع الخردوات القليلة الثمن وبعضهم يبيعون أوراق النصيب والبعض يرتزقون ببيع الفول السودانى والحمص والحلوى والصحف وانك لتدهش إذ ترى أمامك جيشاً من العمالقة الأصحاء الأبدان والأبصار الأقوياء البنية يحومون حول المارة والراكبين يعرضون بضائعهم الحقيرة ويبيعونها بأبخس الأثمان مما تتخيل أنه لايكفى لقوتهم فى وجبة واحـدة وتنحى على الأمة باللائمة لأنها لاتستثمر قوة هؤلاء الأشخاص فى الأعمال النافعة المنتجة وتحدثك نفسك أن حكومة رشيدة تستطيع أن تحشد منهم جيشاً يفتح افريقا لأنهم لايقلون فى طول القامة وتقسيم البدن وقوة الجلد عن حرس الامبراطور فردريك الأكبر . وهـذا هو الذي حدث فعلا فى أثناء الحرب العظمى فان انجلترا جندت منهم فرق العمال ، الذين كان لهم نصيب فى نصرة الحلفاء كما قال بذلك لورد للنبي في خطبة ألقاها بمصر الجديدة . ولـكن مصر فى زمن السلم ليست بحاجة الى جيش والمعاهدات الدولية تعوقها عن تـكوينه .

وانك اذا سرت متغلغلا فى الأحياء الوطنية التى يسكنها هؤلاء الناس فى خط الزهار أو عشش الترجمان أو ضواحى بولاق وناحية العطوف وطولون رأيت مظهراً آخر من مظاهر الحياة فان هؤلاء الأشخاص يعيشون في غرف ضيقة مظلمة وقد يحشد عشرون منهم فى غرفة واحدة ويعرضون أنفسهم لفساد الأخلاق ، ومنهم يحشد جيش الجريمة فمنهم تجار المخدرات بالقطاعى ومنهم الذين يؤجرون على القتل والضرب وشى الوجوه بحامض الكبريتيك ومنهم حماة الدعارة ومنهم من يأوى اللصوص ويؤلف العصابات لقطع الطريق وسرقة المنازل ليلا ونهاراً . وهم ليسوا في القاهرة وحدها بل فى جميع أنحاء القطر المصرى سبب لخلل الأمن

وذهاب الطمأنينة من النفوس وعامل من أقوى العوامل في الشر والأذى وقد اتخذ بعضهم أماكن لتعاطى المخدرات بالحقن تحت الجلد يسمونها « عيادات » وهي مغاور تحت الارض ينتشر فيها الموت والقتل وبذل النفس والعرض في سبيل ملاذ التخدير بالسموم البيضاء وقد ذهب الكثيرون ضحية هذه المغاور التى لم تصل اليها جحور الأفيون التي وصفها مؤلف قصة روكامبول .

بيد أن هؤلاء الناس لو نظرت الى حقيقة أمرهم وهم يستحقون في نظرك الاعدام شنقاً أو على الأقل عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة ، لرأيتهم فى نهاية الأمر يستحقون الحنان والشفقة . لأنهم ضحايا الجهل والفقر ، وقد ألقى حبلهم على غاربهم. فتراهم يهيمون على وجوههم كبهيمة الأنعام . وكأنهم بعثوا قصداً ليعيثوا فى الارض فساداً وليهلكوا أنفسهم بأيديهم ويهلكوا سواهم . وهم قصر ،لاولى لهم ومضيعون ليس لهم من يرشدهم .

ولو عرفت أن هؤلاء هم خيرة الرجولة المصرية الحقة وأن سواعدهم القوية يمكنها أن تعمل فى الحقول وفي المصانع وفى الجندية ولو أنك علمتهم ربما ظهر منهم نوابغ لو علمت ذلك لأدركت أن الداء دفين وأن الجرح أبعد غوراً مما تظن وأن الشر المنتظر أكثر مما يصل اليه حساب حاسب .

بيد أن هناك فريقاً آخر من الأمة المصرية هم الذين يعملون في المعامل منذ بداية هذا القرن . وقد لجأوا للصناعات الموجودة مثل محالج القطن ومصانع الدخان والمطابع . وهؤلاء لهم قصة أخرى . فقد زار فى مصر عام ١٩٠٨ المستر بريسافورد الكاتب الانجليزى الاقتصادى وكتب في جريدة الديلى نيوز مقالات وصف بها مارآه خاصاً بالعمال ونقلت مقالاته الى الصحف العربية . قال :

« ليس فى مصر قانون للعمال ، لأنه لم يكن بها مصانع وأغلبية الشعب تعمل فى الحقول . ولكن فى مصر محالج للقطن يعمل بها العمال ثلث العام أو نصفه وهم يعدون القطن للشحن والتصدير بعد حلجه وتخليصه من البذور ويعمل فى هذه المحالج أطفال ونساء ورجال

فأجرة البالغ تتراوح بين ثلاثة قروش وأربعة وأجرة الصغير من قرشين الى قرشين ونصف إن كان ماهراً أما ساعات العمل فلا قيد لها فقد يعمل الكبير والصغير اثنتى عشرة ساعة أو خمسة عشرة ساعة بدون رقيب ولا حسيب وعند ازدياد العمل قد يعمل الأطفال اثنتى عشرة ساعة ليلا فضلا عن النهار » . فأين بربك يوم الثمانى ساعات وأين الرحمة بالأطفال وقد قامت كاتبة انجليزية في ١٩٣١ تنعى على بعض المصانع سوء معاملة الاطفال وذكرت أنهم يعملون فى مصر ووراءهم قائد يسوقهم بالسياط كما لو كانوا فى عهد الفراعنة أو كأنهم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة . وقد قامت بشأنهم ضجة ثم خفت صوت الاحتجاج فكأننا من سنة ١٩٠٨ الى ١٩٣٠ لم تتغير الأحوال من حيث عمل الأطفال فى المصانع المصرية.

من الاقوال الشائعة عن مصر أنها لم تتغير أدوات الزرع والحرث والري التى ألفتها منذ آلاف سنين ، وقد أخذ هذا دليلا على الجمود ، والتمسك بالقديم ، والاعراض عن الابتكار والتجديد ، وعندما اخترعت أدوات حديثة لاستخراج الحجارة من المقالع قعد المصريون عن الانتفاع بتلك الأدوات وبقيت مبانيهم على ما كانت عليه وما ذلك الا لانطباع المصريين بطابع الجمود. فهم أسرى العادات والنظم المتفق عليها ، حتى فى أروع المواقف وأفجعها تراهم على حال من الفتور ، تدهش اللبيب ذا الحساسة .

ولا يقف نقد الناقدين عند هذا الحد فقد ادعى أحدهم أننا ينقصنا المثل الأعلى وأن تاريخنا القديم كله لم يخرج شخصية قوية ولم يغن العالم بشرارة عبقرية واحدة . لأن التقليد ديدننا ولأن مواهبنا محدودة بالمحافظة على كل عتيق. وقد استشهدوا بآثارنا فادعوا أن تماثيلنا كلها تصور الشخص الانسانى في وضع واحد لا يتغير وهو وضع مصطنع مستحيل فترى الشخص جالساً أو واقفاً مطبقاً يديه ومحدقا بك كأن التمثال الحجرى منقول عن شخص من جماد . وليس بين الآثار المصرية ما يدل على نبوغ المثال سوي تمثال الكاتب فى متحف اللوفر وهو من أعمال الأسرة الرابعة .

١٤

١

وأنهم يعللون هذه الحال بأن أرض مصر هى مخلوقة النيل وهبته وصنيعته فلا حياة لها الا بالزراعة فان النيل جعل من الفلاح زارعاً وكان نجاح مصر وتفوقها راجعاً الى استثمار الارض فلم تستطع مصر الخروج عن هذه الدائرة دائرة الطين والزرع وأن انحطاطها العقلى راجع بلا ريب الى أسباب اقتصادية . فان الطبقات الحاكمة استولت على ثروة البلاد لمصلحة أفراد متمايزين يعدون على الاصابع . وان هؤلاء الأفراد لم تكن لهم الا غاية واحدة وهي أن يستبقوا الفلاحين في العمل الدائم ، ليجلبوا لهم خيرات الارض فينفقوها هم فى شهواتهم وصنوف تمتعهم ، فى حين أن الفلاح يبقى طول حياته عاملا كالرقيق أما أرباب الصناعات فقد قسموهم فرقاً ولم يجعلوا لهم افقاً من المطامع ولم يفسحوا لهم مجال التقدم والنجاح فسرعان ماسقطوا الى مستوى منحط بين البلادة والكسل وفقد الرجاء فى المستقبل . أما الكتابة والتدوين وصنعة القلم فقد أمست رهن ارادة الامراء يستخدمون أربابها فى مقاصدهم ويسخرونهم فى أعمالهم ككتابة السر وتقييد أرقام الدخل والخرج ومخاطبة الفراعنة العظماء وكتابة الأحجبة والتمائم .

وكانت غاية المصرى أن يعيش لشهواته فى هذه الحياة وأن تستمر تلك الشهوات مع مايحيط بها من التمتع حتي بعد الموت وما وراء القبور فانصرفت همة الفراعنة والمهندسين ورجال العمارة الى تشييد تلك الآثار من اهرام وغيرها وتزيينها فى سبيل الموت وبقاء الجسد وما غايتهم من تلك المبانى المشيدة والحصون التى تناطح السماء وتحارب الدهور الا الاحتفاظ بالأجساد المحنطة وصيانة الحلى والجواهر والتحف التى أودعوها قبورهم

ولم يغب عن ذهن الناقدين لتاريخنا أن الأمم التى تغنيها الطبيعة وتوفر لها جميع

مطالبها المادية هيهات أن تتطلع الى شيء من صنوف المجد الذى تتطلع اليه الأمم الفقيرة المدفوعة بحكم الطبيعة الى الجهاد والعمل .

فان الطبيعة السخية فى قطر من الأقطار تمنع أبناءه عن البذل وتوفر عليهم الجهود لأن الفرد الانسانى انما يبتكر ويتحايل ويتفنن فى حالة الحاجة والعوز . انما اذا لم يكن معوزا ولم يكن تنقصه مطالبه المادية فهو بمثابة رب المال الذي يعيش من ايراده ، فما عليه الا أن يمد يده ليقتطف ثمار الارض الغنية . وترى الرجل الذى لايؤمل ربحاً سريعاً مباشراً في بلاد أرضها خصبة لايمد يده للعمل أما الرجل الذى يعيش فى واد غير خصيب أو فى أرض جبلية فهو يرى صعوبة العمل ولا يرجو النتيجة الا فى المستقبل فيبدأ بالاجتهاد . فلذا كان غني الأقطار من البلاء على أهلها فى بعض الأحيان .

لقد خلق الرجـل ليجدد ويخلق و يبتكر و يوجد مثلا عليا ، حيث لا توجد ، فاذا ما كانت الطبيعة سخية خصبة يمسى الرجـل الذى هو الزعيم والمقدم بين مخلوقاتها ، وهو لايزيد عن أحد خدامها وكأنه جزء ضئيل في آلة صناعية مهولة لارأي له ولا ارادة، و بالتدريج تبطل مواهبه وتتعطل فيعود فرداً عادياً عاملا كالرقيق

ولا يقتصر الجمود والعقم علي ذكاء الاستثمار المادى بل يتعـداه الى الفنون فتجدب أرضها أيضاً وتفتقر العقول فلا يظهر شاعر ولا كاتب ولا مصور وتبقى تلك الفنون النفيسة وقفاً على فريق صغير من الأغنياء الذين لديهم من المال والأرزاق مايضمن لهم فرص الفراغ ، يتلهون فيها بالفنون ولـكن هؤلاء مهما بلغت ثروتهم ومهما أنفقوا من ملايين فلا يصلون الى شيء ذي قيمة من الفنون فان العبقرية الأدبية والفنية لاتبيع نفسها بالمال .

غير أن زيادة الغنى ليست وحدها هى التى تقضى على العقول والمواهب بل ان الفقر أيضا يقضي على العقول والمواهب ويقبرها . وان بقاء الحكم في أيدي فرد أو جماعة يرهقون الشعب ارهاقا مستمراً فى سبيل الحصول على المال سوف يعقبه العقم العقلى .

ولقد كانت المدن المصرية ملـكا للأغنياء ، ولا يؤمها الشعب الذي انقطع لخدمة

سادته فى الحقول فكانت المدن المصرية أو المكسيكية (لشدة الشبه بين المدينتين) مظهراً للثراء والأبهة . ولم تكن فيها طبقات من الفقراء الا مسخرين فى خدمة مواليهم .

أما المدن التى تأسست في ممالك أخرى ولم تكن الطبيعية قد حبتها من الخصب ماتمتعت به بعض المدن الشرقية فى التاريخ القديم فقد كانت على فقرها السابق مصدراً للنور فى العصور الحديثة ، لأن فقرها وفقر سكانها أعدهم للنجاح فى الجهاد وجعلهم مصدراً للأفكار الوهاجة التى دفعت بالانسانية الى الامام لأن الجهاد والكفاح قد دربا أهل تلك المدن وفتحا لهم الطريق فكانت تلك المدن مصدر المدنية الحديثة سواء مباشرة أو بالواسطة واليك أمثلة أثينا وروما واورشليم ومكة وفلورنس وباريس.

٢

وانك اذا رجعت الى حقارة الأجور التي يتناولها العامل المصري وقارنتها بالأجر الذي يتقاضاه العامل الافرنجي في مصر ذاتها وفي العمل نفسه سمعت من يقول لك ، وقد يكون المجيب مصريا « كيف تنتظر أن يستوي المصرى والأجنبي في الأجور هل غاب عن فطنتك ان العامل المصري يأكل الفول والطعمية ويلبس الخلقان ، و يعيش فى كوخ أشبه بقن الدجاج ، في حين ان العامل الافرنجي يأكل اللحم والبقول ويشرب النبيذ ويلبس السراويل والقبعة ويعيش في بيت محترم وله زوجة وأولاد » . .

وقد صدق المعترض فاننا قد رضينا من شظف العيش وقشف الطعام وقنعنا بأقذر الثياب وأحقرها وأدنى السكني وأرذلها فقيمتنا لاتتجاوز مظاهر حياتنا . وقد فرط العامل المصرى في أشد الاشياء مساسا بكيانه وهى القوت والثوب والسكن ، التى من أجلها يعمل فان لم تتوافر له على أسلوب مقبول فبئست الحياة وبئس العمل و بئس الوجود ! ولعمرك ماذا يرغمه على الصبر على هذه الحال والبقاء عليها أجيالا بعد أجيال ، ثم هو ينشئ أولاده عليها ويلقنهم الرصوخ لها ظنا منه أوزعما أنه لايجد أفضل منها ، ثم ماذا تنتظر من ذلك العامل التعس الحقير الذي يتناول نزر الأجور ويعيش العيش الشظف و يأكل الطعام القشف ؟ ألا

تراه يغدو بعد ذلك ضعيف البنية قليل العزم فاتر الهمة نادر الانتاج مهما أمعن فى العمل ومهما قضى من ساعات الليل والنهار . لقد رأيت منذ عشرين عاما عمالا في بعض مصانع الحرير في مدينة د. . يعملون في بناء متهدم وقد جلسوا صفوفا رجالا ونساء وأطفالا وهم نحال الابدان صفر الوجوه قد دب الى أبدانهم داء السل وفشت فيهم الانيميا والبلهارسيا وهم يعملون صابرين طوال النهار لمصلحة رجل يعيش بجوارهم في قصر منيف محاطاً بأفخر الاثاث والرياش و يلبس أفخر الثياب ويأكل أشهي الطعام وله أولاد كالخنانيص وكلهم من الجهل على أعظم نصيب فتخيلت ان الشيطان قد أوصل أنبوبة من هؤلاء الفقراء الى شرايين هذا الغني حتى أفرغ دماءهم القوية في جسمه وجسم أولاده وترك العمال كما تترك دودة القز بعد اخراج خيوطها .وقد علمت ان مصنعا فخما قد شيد وتحسنت حال العمال

وفى سنة ١٩٢٠ رأيت فى القاهرة في جهة « السبع قيعان» خرائب يسمونها معامل يعمل فيها رجال على هذه الطريقة عينها لحساب أرباب الاموال من تجار الشاهى والقطني فعلمت أن الامر ليس قاصراً على الارياف بل انه أيضاً فى قلب العاصمة وبين سمعها وبصرها . وهؤلاء العمال مسؤولون عن حالتهم لعدم استقامتهم فى أمورهم .

وليست طبقة العمال فى مصر فى عهدها الحاضر بصالحة للاستفادة من الانظمة الحديثة لأن معظمهم من حثالة الطبقة العاملة ولايدخلون في حظيرة المعمل الا بعد أن يطرقوا جميع سبل الرزق فيجدوها منسدة فى وجوههم فينقلبون الى تلك الخرائب التي لاتحسن الا للحشرات ويقنعون بما فيها لأنها ملجأهم الأخير . وهمهم أن يخطفوا أجورهم لينفقوها فى طعام قليل وشر كثير ، وقد رأيت في مصنع حاطون الذى يصنع التحف الشرقية عاملا يعمل فى حفر النحاس ويتقاضى جنيهاً في اليوم ولكن هذا العامل الحاذق الماهر الهادئ ينفق كل ربحه فى تدخين الحشيش ، فالعامل وحده هو المخطئ والمسؤول عن فقره .

وعلمت من بعض أرباب الاعمال ان معظم العمال المصريين اذا تحسنت حالتهم قليلا أسرعوا الى ترك العمل لينفقوا ما ادخروه فى الكسل والرقاد والملاهي الدنيئة حتى اذا

جف معينهم عادوا يتلكأون و يتوسلون الى صاحب العمل ليقبلهم . وإما يزايلون العمل بتاتا لينتظروا عملا أفضل من الأول فلا يعودون الى مصنعهم الأول بتاتا . وانك اذاغشيت محا كم الجنح والجنايات رأيت فريق المتهمين بالسرقة والنشل والتخدير والاحتيال كلهم من طبقة هؤلاء العمال الذين أتقنوا صنعة من الصناعات ثم تركوها الى الاجرام بحكم سوء التربية أورفقاء السوء أو العدوي الخلقية من السجون وسواها . وقد يفضل أحدهم بعض الاعمال السهلة كأن يكون كمساريا فى الترام أو في السيارات الحافلة لأن العمل فيها أهون وربحها أوفر ولأن الصناعات المصرية قد اضمحلت وماتت ولم يعد لها شأن يذكر فسدت في وجوههم أبواب الرزق وامسوا عاطلين . فالعامل هو الملوم وهو وحده المسؤول .

ولوكان العامل من هذه الطبقة يعيش بمفرده لهان الخطب وعلمنا انه فرد يذهب ضحية أخلاقه و كسله وتهاون الامة فى شأنه وضحية الاستعمار الاوروبى ، ولكن قد يكون أحدهم رب أسرة وله زوجة وأولاد بل قد يكون له زوجتان أو ثلاث وله من كل منهم سلسلة من الاطفال. وقد اشتهر المصرى بأنه اذا كان أعزب ووجد فى جيبه قليلا من المال ، لجأ الى الزواج ، وقد تطول فترة الزواج أولا تطول لأن باب الطلاق مفتوح وان هو لم يطلق امرأته تركها أشهراً بغير نفقة ولاقوت ولا كسوة وربما أنفق ما يربحه في زيجة أخري أو فى حب امرأة فاسدة من طبقته . ولو اتبعوا الدين ومكارم الاخلاق حسنت حالهم .

فكيف السبيل الى النهوض من تلك العثرة ، والخروج من تلك الورطة والنجاة من ذلك المأزق . ونحن نيام وخصومنا متيقظون وكلما خطا الشرق خطوة (على افتراض انه يخطو مع انه ساكن لايتحرك) خطا الغرب خطوتين وعند ما شرعنا في ركوب الدراجات والسيارات تكون اوروبا قد وفقت الى صنع الطائرة والمنطاد و بلغ فن الطيران غاية الكمال ، كما حدث فعلا بعد الحرب العظمى فان اوروبا استفادت من الكارثة ببعض الفنون فخلقت الطيران المدنى للنقل والبريد . وسار المقيم فى القاهرة يستطيع الوصول الى بغداد عاصمة هرون الرشيد فى ثمانى ساعات ! ! بعد أن كان يقطع المسافة فى الصحراء فى خمسين يوماً مستهدفا

لاخطار البر والبحر والسماء وقطاع الطريق . وذلك لعمرى نجاح لم يحلم به سليمان ولاعفاريت سليمان .

والأدهي اننا وان كنا نركب الدراجة والسيارة فاننا حتى الساعة لانملك صنعهما ولا تصليحهما كما يجب وقد قال لى أحد أصحاب ملاجئ السيارات بالقاهرة « ليس ياسيدى في مصر ميكانيكى واحد يمكنه أن يصلح مانيتوه فضلا عن صنعه » .

٣

واذا تركت حالة العمال قليلا وماهم عليه من الكذب وعدم الوفاء والاهمال والفقر وانتهاز القرص وسوء معاملة عملائهم سواء فى النجارة والحدادة والتنجيد وصنع الأحذية حيث تجد أسوأ أخلاق واردأ السلوك ورجعت بنظرك الى جهود بعض المصريين الاغنياء فى انقاذ بني وطنهم دهشت حقاً . واليك مأساة صنع الطرابيش فى مصر فانه عند ما نشبت حرب البلقان الأولى وصمم المصريون على مقاطعة الطرابيش النمسوية ولبس المرحوم محمد فريد بك طاقية من الصوف الابيض من صنع شمال افريقا ودخل على حسين رشدى باشا قابله الباشا المذكور بالسخرية وقال له «سلامة عقلك يافريدبك ! » ونالت منه جرائد الاحتلال اذ ذاك حتى لم يقو الرجل على الاستمرار واضمحلت حركة المقاطعة شيئاً فشيئاً . فرأي اسماعيل باشا عاصم وهو أحد أبناء الاعيان الاغنياء ان القرصة سانحة لايجاد صناعة رائجة في القطر المصرى فتقدم بشجاعة وشمم وبذل جزءاً كبيراً من ثروته في تأسيس مصنع للطرابيش فى بلدة قها ، وقد رأينا هذا المصنع فاذا هو لايقل عن مصانع اوروبا في شئ وقد أوجد الطربوش المصري الوطنى حقيقة واستخدم عمالا من المصريين وأوجد حركة نشاط لم يسبق لها مثيل فى تجارة الصوف وصناعة الاصباغ . وكانت ظروف الحرب ملائمة لانقطاع ورود الطرابيش من اوروبا . وكل أعمى وجاهل وأحمق يرى بعينيه عماه أو جهله أوحماقته ان صناعة كهذه لابد أن تنجح في مصر أعظم نجاح لأن كل مصرى يلبس الطربوش ولو كان متوسط عدد اللابسين في مصر خمسة أو ستة ملايين وأحدهم يشترى طربوشين فى كل عام فلا أقل من صنع اثني عشر مليون

طربوش وكان من الممكن تصدير مثلها على الاقل أوضعفها للاقطار الشرقية العربية كسوريا والعراق وشمال افريقيا والهند و بعض ممالك افريقيا الوسطى والشرقية .

وقد سار العمل في طريق النجاح واستبشرنا خيراً ، وكنت فاتحة لا يستهان بها فماذا جرى ؟

كنت تذهب الى الطرابيشي المصري وتطلب اليه أن يصنع لك طربوشا وطنيا من واردقها . فيقنعك ذلك المأفون اللئيم بان طربوش قها ردئ ولا يعيش وقابل للقذارة بسرعة، فاذا ألححت زاد في لجاجه ، وان لم تباشر صنع الطربوش بشخصك فهو يغشك ويدس عليك طربوشا آخر وارد ايطاليا ماركة الفلة أو طربوش انجليزى وارد موروم ؛ وكنت اذا بحثت في علة هذه المحاربة الدنيئة . تجد ان ربح الطربوش المصري يقل عن ربح الطربوش الأجنبي لمصلحة الطرابيشى قرشا أو قرشين ، ولأن وسطاء النمسا وايطاليا كانوا يرشون الطرابيشى ليطعن في الطربوش الوطني و ينفر منه العميل ، وهذا نوع من الدعاية التجارية وربما يبيع الطرابيشي المصرى ذمته ببضع ليرات ويحارب الطربوش الوطنى حتي قضى على سمعته في السوق.

ليس هذا فحسب بل ان الحكومة المصرية التى كانت تشترى عشرات الالوف من الطرابيش للجيش المصرى ، اعرضت عنه تحت تأثير الضغط الأجنبي وهكذا تضافرت الظروف السيئة على المشروع حتى دب دبيب اليأس الى قلب صاحب المصنع بعد ان كان أدخل من ضروب التحسين على الطربوش ماجعله يضارع طربوش النمسا .

وفجأةوبدون انذار سابق قرأنا ان اسماعيل عاصم باشا باع مصنع قها لأرباب مصانع الطرابيش بالنمسا وان هؤلاء جاءوا الى المصنع وخربوه واتلفوا عدده واغلقوا أبوابه بعد أن دفعوا ثمنه . وقد ذاع في تلك الايام ان شريكا سوريا هو الذى أتم تلك الصفقة غدراً مقابل مبلغ من المال وذاع غير ذلك . وأنا لا أعلم مقدارها من الصحة ولكنني عذرت الباشا في ذلك الحين ولم أر على مسلكه غباراً . فهذا رجل كاد يخرب نفسه في سبيل خدمتهم وهم

يخذلونه كأن بينه وبينهم ثاراً قديما . وهكذا خرج ذلك البطل القدير من ميدان المزاحمة الاوروبية مكسوراً مهيض الجناح والفضل فى ذلك راجع الى أبناء وطنه وملته وعمالهم .

والآن وبمناسبة المعرض الزراعى (فبراير سنة ١٩٣١) قام فريق من الرقعاء يلبون دعوة تشجيع الصناعات الوطنية (مرحى ! مرحى !!) ويطوفون وعلى رؤوسهم الفارغة طاقية من اللباد مصبوغة بالتفتاء الحمراء ، ويعرضونها للبيع بخمسة قروش ، وهى لاتساوى نصف قرش ، ويلومون أرباب رؤوس الاموال من المصريين لانهم لايريدون ان يؤسسوا مصنعاً للطرابيش ليعيدوا تمثيل الفاجعة الأولى ، والادخل من هذا كله فى باب العجب

ان الطرابيشي الذى عرض على هذه القذارة وشكا لي من الاغنياء كان يحارب الطربوش الوطني ويروج للطربوش الايطالي والنمسوى

٤

واذا اتجهت قليلا شطر القرية المصرية وجدتها خرابا يبابا فان بضعة مساكن من الطين لا يدخلها النور ولا الهواء وما عرف ساكنوها النظافة قط يمر بها مجرى من الماء الآسن العكر ، المملوء بالديدان وجراثيم البلهارسيا والتيفوئيد . محاطة باكوام من الطين مملوءة بميكروب الانكاستوما ، وفى كل ناحية مستنقع يمرح فيه بعوض الملاريا والدواب تعيش جنبا الى جنب بجوار صاحبها ، والروث يمتزج بالغذاء وأعين الأطفال قلما تنجو من العمى والرمد الحبيبي . هذه صورة صادقة للوسط الذى يعيش فيه الفلاح المصرى الذى يخرج خيرات مصر من قطن وقمح وقصب وحبوب وفاكهة وحالة المسجد والكتاب مما يرثى له . ودوار العمدة نفسه مهما بلغ من الغنى لا يختلف كثيراً عن هذا الوصف . فكانت نتيجة ظهور المدن وتراكم الثروة الزراعية ان الاعيان والاغنياء يهجرون ذلك الجحيم الذي لا تستطيع فيه أن تشرب قطرة ماء نظيفة ، الى المدن والعواصم حيث يبنون القصور أو يشترونها ويتزوجون من النساء « البيض السمان » ويركبون السيارات الفخمة ويلبسون الثياب الحديثة ويحصلون على الرتب والاوسمة من رتبة ميرميران الرفيعة الشأن (وكانت فى العهود

السابقة تباع نهاراً جهاراً بقيمة معلومة) ثم يغشون المجالس ولا يلبثون أن يتعودوا شرب الخمر ولعب القمار فيطلقون بلادهم رويداً رويداً وإذا فنى المال الموروث والمدخر انقلبوا الى سماسرة الرهون فيرهنون أراضيهم في المصارف التي تعاملهم بالربح المركب ومن تلك اللحظة يصبحون نهبا للوسطاء والمرابين ومصاريف العقود والمحاكم ويعجزون عن تسديد الاقساط ثم ينقرضون واحداً فواحداً وهذه مأساة تتكرر عاما فعاما وشهراً فشهراً . وتباع تلك الاطيان الخصبة بأبخس الأثمان فى المحكمة المختلطة .

وقد خربت القرى وضعفت الزراعة وفسدت الاخلاق وأخذ صغار الفلاحين يقلدون سادتهم من كبار الملاك وأخذوا يزايلون أراضيهم التى ورثوها من آبائهم وأجدادهم فأصبحت القرى وقدامتصت دماؤها وجفت عروقها خربة منحطة حتى العدم . فكانت تلك الهجرة من الريف أفظع من الهجوم الأجنبي وقد جرت الفلاحين الى انتحال الخدمة حتى صاروا لها عبدانا وقتلت روح استقلال الفلاح حتى سلبته جميع قوته وعرقلت الأسباب والوسائل التى تجنى بها أقواتنا وثروتنا وقد قضت القضاء المبرم على حياة الزراعة والريف .

وان هذه الحال التي وصفتها عن خبرة فى مصر حيث أرى وأسمع ، هى بعينها الشائعة فى كل أنحاء الشرق العربى فقد وصفها كتاب الهنود عن الهند أمثال المستربوز وموكرجي ووصفها الثعالبي في كتاب تونس الشهيدة وهي الحادثة في سوريا والعراق وفي كل قطر حط الاوروبى فيه رحاله .

١٥

١

لقد بدأ النزاع بين الشرق والغرب قديما فقد هاجم الفرس أتيكا ثم أحرقت أثينا فى ٤٨٠ ق . م وتمكن الأثينيون من صد الفرس في موقعة سلامين . ولما ظهر اسكندر المقدونى أراد أن يثأر لقومه بفتح الشرق ومهاجمة الفرس في وطنهم فهزمهم في موقعة جرانيكا ٢٣٤ ق . م . ثم هزم دارا فى ايسوس في ٣٣٣ . ثم سقطت بابل وسوس وبرسوبوليس فى يد الاسكندر فاهلكها ثم فتح الهند وقهر الملك بوروس

وهلك ذو القرنين في صيف ٣٢٣ قبل المسيح فى حدود الثلاثين بعد أن قضي على مملكة الفرس وفتح مصر والعراق والهند .

ومؤرخو الافرنج في هذا الزمان يعدونه أول حماة المدينة الاوروبية لانه صد هجمات الشرق عن الغرب ورد غزو الشرقيين فى نحورهم واحتل بلادهم وأحرقها وغلب ملوكهم وقهرهم . ولولاه ولولا تمستوكليس لكان الغرب قد وقع ضحية للبرابرة الشرقيين .

يزعم الهر كيرت ريزلر في كتاب ألفه في تفسير عظمه انجلترا الاستعمارية انها « مدينة لحسن حظها فى التأليف بين النظريات والمصالح » وهو يقصد بذلك الى أن الانجليز يوفقون بين المثل العليا فى المعتقدات والأخلاق وبين منافعهم ، ويجدون من سياستهم وكتابهم فريقاً قادراً على التأويل والتخريج والاجتهاد، بحيث يجعلون النظريات والمبادئ منطبقة على كل زمان ومكان ، وهم فى ذلك ينتفعون بمرونتها وسهولة تمثيلها مع الحوادث فيخضعون للتقلبات السياسية ، وهم أبداً يعتمدون فى أعمالهم على آراء يتمسكون بها ، هي فى الظاهر خلابة مقنعة للعقول المتوسطة التى هي عقول الكثرة من الناس ، ويرى المدرك حقيقتها ويفطن إلى مواطن الضعف فيها فيهاجمها ويهدمها ولكنها تبقى فى حدود المعقول حتى

يفهم أصحابها وهم من ذكرنا من الساسة والخطباء ورجال الصحف وغيرهم من الكتاب انها أصبحت غير صالحة فيغيرونها ، ويلبسونها ثوباً جديداً فتبدو للعيان مقبولة معقولة حتى يطول عهدها فتخلق فيجددون كسوتها بثوب جديد ، يعني أن السياسة الاستعمارية الانجليزية ترتكز دائماً على سند يبرر العمل السياسي أو العمل الحربي ؛ وأظهر مثال على ذلك فكرة الاستعمار لخير الانسانية ، وادعاء بعضهم بان في أعناقهم أمانة يؤدونها للجنس البشرى وهي مأمورية التمدين والتحرير ، فان تضاءلت تلك الفكرة زعموا بعد حين أنهم يتكبدون مشقة الفتوح والاستعمار لحماية الضعيف من القوى بين الأمم أو مناصرة العدل فى أمة واحدة أو حماية عرش أمير أو سلطان أو انصاف المظلومين من القلة ، فلا يدخل الانجليز مملكة ولا يفتحون بلداً الا وهم مسلحون « بوجه حق » فوجه الحق الذي يطلونه بطلاء القانون يكون صورة محدثة لفكرة الاستعمار

هذا ما فهمناه من نظرية كيرت ريزلر فى تفسير نظرية الخطر الاستعمارى ، الذى صحب الفكرة الامبراطورية من عهد الملكة اليزاباطا الى يومنا هذا ، وفى الحق أن بعض الحوادث تؤيد نظرية الرجل ، فان عظمة انجلترا بدأت بانتصارها البحرى على أسطول الارمادا الأسبانية ثم انتصارها على فرنسا فى حروب أمريكا فى الثلث الاخير من القرن الثامن عشر ، وهى الحروب المعروفة في التاريخ باسم « الحرب الهندية » نسبة الى هنود أمريكا الحمر . بدأت كارثة عليهم الى أن تولى أمرهم وليام پيت الكبير « إيرل شاتام » فأرسل إلى كندا القائد ولف وزوده بالمال والسلاح فاندحر أمامه القائد مونتكام الفرنسى في موقعة كويبك ، وأرغمت فرنسا على التنزل عن جميع أملاكها فى أمريكا الشمالية ومن ذلك التاريخ (حوالى ١٧٦٠) أخذ نجم انجلترا فى الصعود ، ولم يتزعزع مركزها بعده الا مرتين الاولى عند ظهور نابوليون والثانية في الحرب العظمى لدى حدوث الانقلاب الروسى وسقوط عرش رومانوف لان السوفيت زعموا أنهم جاءوا للانسانية بفكرة جديدة . ففى المرة الاولى خشيت انجلترا جانب نابوليون لأنه كان يحمل الى الشرق رسالة الثورة الفرنسية بمبادئ

الحرية والاخاء والمساواة ، وهذا أعظم مما كانت انجلترا تنوى التلويح به لمستعمراتها فلم تكن انجلترا ترهب نابوليون لاجل جنوده وأسلحته وشجاعته واقدامه وعلو كعبه في القيادة ومساعدة الاقدار اياه فى الواقع بقدر ما كانت تخشى دعايته التى من دأبها تنبيه الأمم الغفلانة وايقاظها من سبات الاجيال المتراكمة ، والانجليز أبداً يخشون الرجل الافذاذ ، لأنهم يحملون آراء وأفكاراً ، والافكار تعمل بأقوى مما يعمل الجيش العرمرم ، لان الجيش قد يصمد وقد يفنى ولكن الفكرة تحيا وتسير ، والفكرة السائرة أخطر من الجيش الفاتح ، لانها تغزو ولا تفقد شيئاً من قوتها بل تربح رجالا وأقواماً وتنمو كما سارت . لهذا وحده جمعت انجلترا كل قواها ووجهتها لمحاربة نابوليون — لا نابوليون القائد البطل الطموح ، طالب المجد والملك العريض ؛ ولكن بونابرت ابن الثورة ، وربيب حقوق الانسان

ولكن هل صدق كيرت ريزلر في تعليله عظمة انجلترا الاستعمارية بحسن الحظ وقدرة الانجليز على سياسة الامم المغلوبة وحبهم السيادة على الشعوب التى تستهدف للوقوع تحت نيرهم ؟ نعم صدق ولكن ليس هذا كل التفسير ، فقد أخذ الانجليز يقلدون الثورة الفرنسية ، فيما دون أنى ذهبوا بالحرية ، وقد يحررون أفراداً معدودين وهم أثناء ذلك يطوون أقواماً فى ثنايا الامبراطورية ، وقد يعتقون الرقيق من ربق العبودية الممقوتة ، ثم يقيدونه غداة عتقه بانظمة اقتصادية وسياسية أشد في حقيقتها من سلاسل رقه الاول

يدعى مؤرخ ألمانى اسمه ويلهلم ديبليوس درس الحياة الانجليزية فى انجلترا والمستعمرات أن حظ المستعمرات الانجليزية أفضل من حظ سواها وأن رعايا انجلترا أسعد حالا وأوفر نصيباً من العلم والحرية والميسرة ممن عداهم من رعايا فرنسا وهولاندا وبلجيكا والمانيا وايطاليا والبورتغال ، وبنى على هذا « نظرية أخف الضررين » التي تنتهى بتفضيل انجلترا في الاستعمار على سواها وهى نظرية جارحة مؤلمة فوق كونها فاسدة ، فقد يلقاك أحد الخوارج من الشرقيين فيقول لك « الحق أحق بأن يتبع يا أخي ! ان حكم الانجليز أفضل من حكم غيرهم . . تصور انك خاضع لدولة كذا أو كذا ، أفكنت تقدر على كيت وكيت

من النعم المعنوية والمادية ، التي أنت متمتع بها ؟ » .. هؤلاء الخوارج الذين في قلوبهم مرض وفي بصائرهم زيغ ، يفرضون أولا وقبل كل شيء أن الشرقى محكوم بالفطرة ومملوك بإرادة أزلية محتومة ، فخير له أن يحمد حظه على نعمة الاستعمار الانجليزى الذى هو أفضل من غيره . ونحن لا نجادل هؤلاء لان فساد حجتهم ظاهر والدافع لهم على لبس مسوح المبشر معلوم لنا ولكم . ولكننا نجادل الهير ويلهلم ديبليوس الذي يمتدح الاستعمار البريطانى لانه أقل ضرراً من غيره ، فقد غاب عن ذهنه أن المستعمرات الانجليزية أنواع منها ماهو خاص بأجناس سكسونية أو أوربية مثل كندا واستراليا ونيوزيلندا وهذه سلكت انجلترا معها مسلك المسالمة والملاينة والمحاسنة بعد ما كابدت من ثورة أمريكا (الولايات المتحدة) التي دارت رحي حروبها من ١٧٧٥ الى ١٧٨٣ والنوع الثانى مستعمرات شعوبها تنتمى الى أجناس ومعتقدات أخرى كالهند وسيلان وزنجبار وأفريقا الشرقية وغينا وهذه الأمم تعاملها انجلترا معاملة خاصة في سياستها وتعليمها وحكومتها ، قد لا تختلف كثيرا عن معاملة هولاندا لاهل جاوه وفرنسا لاهل الجزائر ومراكش ؛ وأن الذى يوغر صدر المؤرخ المنصف على الممالك الاوربية فى مستعمراتها هو حكمها لشعوب تخالف جنسها ومعتقداتها فلو أن هولاندا حكمت شعباً أوربياً هل كانت تسلك فى معاملته مسلكها في معاملة أهل جاوا والهند الشرقية ؟ وهل مسلك فرنسا فى الالزاس واللورين (مهما صرخ المطالبون بالاستقلال) يقرب فى شيء من معاملة فرنسا لاهل الجزائر أو أهل سنجال ؟ طبعاً لا ! إذن أفضلية الحكم البريطانى ان كانت هناك أفضلية ظاهرة فهى فى مستعمرات أوربية بالجنس والفطرة ، وها هى إيرلاندا الجزيرة الزمردية التى لا تبعد عن لندن إلا بضعة أميال لم تنل استقلالها الذاتى الا بشق الأنفس وبعد أن خربت مدائنها العامرة وفنى عظماء رجالها وقاست فى الحروب الاهلية ما لا يزال ذكره حاضراً فى أذهاننا

ولعل الهر ويلهلم ديبليوس لم ينس قانون الاصلاح الذى أدخلته انجلترا على مستعمراتها فى سنة ١٨٣٢ بعد أن رأت تغير الأحوال فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، فقد

أرغم ساستها على اعطاء الاستقلال الداخلى أو الحكم الذاتى لكندا واستراليا ونيوزيلاندا وجعلوا لكل من هؤلاء دستوراً وبرلماناً ووزارة مسئولة أمام النواب (وهذا هو الشيء الذى يريد الانجليز اعطاءه للهند الآن) بعد ان أعطوه لاستراليا واخواتها بمائة سنة ، والهند تأباه وليست فكرة الاستقلال الذاتى حديثه العهد ، انما ترجع الى أوائل القرن التاسع عشر واليك نصاً يؤيدنا من خطبة أحد الوزراء الانجليز سير ويليام مولزورث فى سنة ١٨٥٠ قال :

« يجب علينا أن ننظر الى مستعمراتنا ، كأجزاء من الامبراطورية ، يسكنها رجال ينبغى أن يتمتعوا فى أوطانهم بما يتمتع به كل انجليزى فى انجلترا ، وما دام هؤلاء المستعمرون لا يتدخلون فى ادارة شئوننا المحلية ، كذلك لا يجوز لنا أن نتدخل فى ادارة شئونهم المحلية ، ان لنا الحق فى الاحتفاظ بادارة شؤون الامبراطورية العامة ، لأن هذا الاحتفاظ ضرورى لصيانة الوحدة الامبراطورية ولأننا أغنى وأقوى جزء فى الامبراطورية

وعلينا أن نتفق على المطالب العامة ، وان صح للبرلمان البريطاني أن يستأثر بالسلطة الامبراطورية ، فأرى من دواعى قوة الامبراطورية أن يكون فى برلماننا ممثلون للمستعمرات ، فنشعر بأنها والشعب الانجليزى كل لا يتجزأ » اه كلام الوزير الانجليزي من خطبة فى أثناء القراءة الثانية لقانون حكومة استراليا ١٨ فبراير سنة ١٨٨٥ ألقاها فى البرلمان الانجليزى

هكذا كانت الفكرة الاستعمارية فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولعل النبذة التى اقتبسناها من خطبة سير مولزورث أبلغ وصف للنظرية الاستعمارية الانجليزية فى عهدها وهي طبعاً فكرة متناهية فى الحرية فى ظاهرها ولكنها تنطوى على الخوف من انقلاب المستعمرات كما انقلبت الولايات المتحدة

وأعجب تطبيق لنظرية مولزورث انتخاب أعضاء ايرانديين للبرلمان الانجليزى ، باعتبار ارلندا جزءاً لا يتجزأ من المملكة ، مع أن الارلنديين الوطنيين كانوا يأبون ذلك وما زالوا يأبونه حتى صار لهم برلمان خاص بهم فى عاصمة بلادهم .

وكان من رجال السياسة الانجليز آخرون يبغضون الاستعمار ويجاهرون بذلك ومنهم ريشارد كوبدن زعيم الفرقة الحرة فى منشستر ومن أقواله المأثورة ان أسعد يوم فى تاريخ انجلترا هو اليوم الذى لا يكون لها فيه فدان أرض فى آسيا ، كما كانت عظمى أمانيه أن تقطع كل علاقة سياسية بين انجلترا وكندا فى أسرع فرصة ممكنة

وربما سارت انجلترا فى طريق وسط بين نظرية مولزورث ونظرية كوبدن فيخف ضغطها عن خلق الله فى الشرق والغرب ، لو لم تحدث حروب اوروبا فى سنة ١٨٧٠ فقد ظهرت المانيا بوطنيتها وحربيتها وأمبراطوريتها ورغبتها فى التوسع وظهر بيسمارك ومولتكه والحلقة الأولى من سلسلة هوهنزلرن الرهيبة وأيقنت انجلترا ان فرنسا لن تغتفر مذلتها ولن تنسى ثأرها ، وأن الشعوب الأخرى ستستيقظ ثم تنهض ، وان صليل السيوف وصدى أصوات المدافع سوف يتجددان بعد حين فى اوروبا وغيرها ورأت تدخل بعض الممالك الاوربية فى المحيط الهادى فخشيت استراليا ونيوزيلاندا على استقلالها فأرغمت انجلترا من جديد على تعديل خطتها الاستعمارية باشراك المستعمرات المستقلة فى شؤون سياسة الامبراطورية وخافت عاقبة الحروب المفاجئة فنبتت فكرة « المواصلات الامبراطورية » وكان البخار حديث العهد . وكذلك أسلاك البرق فحسنت استعمالها وأتقنت كل اختراع من شأنه تقريب البعيد وتسهيل شقة الأسفار ليكون ذلك لها عوناً لدى نقل الجنود والذخيرة من أدنى الامبراطورية الى أقصاها ، وقد مضى على نظرية مولزورث ثلاثون عاماً ، وحل محله غلادستون زعيم الأحرار فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فتوطد حب الامبراطورية فى قلوب الانجليز وصار مبدأ ثابتاً لدى الاحرار والمحافظين على السواء فألقى غلادستون فى ١٧ مارس سنة ١٨٨٠ خطبته الشهيرة فى ادنبرج التى قال منها :

«أعتقد أننا جميعاً متحدون فى تعلقنا بالمملكة العظيمة التي ننتمى اليها ولتلك الامبراطورية الكبرى التى وضعت أمانة فى أعناقنا ، وما هي الا أمانة وتكليف من العناية الآلهية كأعظم وأخص ما كلف به فريق من الجنس البشرى ، وكلما أذكر تلك الأمانة وذلك

التكليف أشعر بأن الألفاظ تعوزني وان الكلام عاجز عن التعبير عما يخالج نفسي ، لا أستطيع أن أصارحكم بما أعتقده من نبل الميراث العظيم الذى كان من نصيبنا ولا عن قداسة الواجب علينا فى الاحتفاظ به .

«ولن تسمح نفسى بالتنزل به الى مستوى الجدل السياسى لأنه جزء من كيانى بل من لحمى ودمى ومن قلبي وروحى ، ولأجل بلوغ هذه الغاية عملت دائباً طول شبابى ورجولتي وأكثر من ذلك ، الى أن شابت كل شعرة فى رأسى وفى هذه العقيدة وهذا القيام المقدس حييت ، وبهذه العقيدة وهذا القيام المقدس سوف أقضى بينكم ! » اه . نقلا عن جريدة التيمس في ١٨ مارس سنة ١٨٨٠

انك لا تسمع وزيراً يتكلم ، ولكنك تسمع كاهناً أو واعظاً يبشر وهو مقتنع أعظم اقتناع ، بل مؤمن الايمان كله ، رجل خالط حب المستعمرات لحمه ودمه وملك قلبه وروحه وهو يعتقد ان مأمورية الاستعمار ليست عملا سياسياً ينطوى على مصالح عادية . بل انه أمانة وتكليف سماوى ، كما كان يعتقد ملوك فرنسا وانجلترا أنهم انما يحكمون الشعب « باسم الله وارادته » وكما كان يعتقد امبراطرة الصين انهم أبناء السماء ، ومن هو الذي يتكلم ؟ هو غلادستون رئيس أحرار انجلترا العظيم ، الذى رسم بهذه الخطبة خطة الاستعمار لا لحزبه فقط بل لجميع الاحزاب السياسة من محافظين وأحرار وغيرهم ، كما أثبتت لنا الحوادث

٢

كان كثيرون من الشرقيين يبنون صروح الآمال على تغيير الحكومة الانجليزية وانتقالها من أيدى المحافظين الى أيدي الاحرار ، باعتقاد ان انتساب الاحرار الي المعنى الذي تتوق اليه أنفسهم يمتد حتما الى مبادئهم فى السياسة الخارجية وتطبيق نظريات الحرية فى معاملة الشعوب المغلوبة أو الأمم المحكومة ، وهم معذورون فى ذلك لأن كلمة الاحرار وما يشتق منها من الألفاظ والمعانى تغرى الرجل البسيط ، وغاب عن ذهنهم ان التفريق بين المحافظين والاحرار يرجع الى طريقة الحكم الداخلية فى بلاد الانجليز نفسها ولا يمتد الى

خارج حدود الجزر البريطانية ، وها نحن قد أثبتنا نبذة من خطبة مستر ايورت غلادستون زعيم الاحرار فى القرن التاسع عشر ، وان كان ينقصنا الدليل بعدها فاليك ماحدث فى سنة ١٩٠٥ عند ماانتقل الحكم من يد بلفور المحافظ وابن اخت سالزبري وربيب بيت سيسيل الى يد سير هنرى كامبل بانرمان زعيم الاحرار فى أوائل القرن العشرين ، فقد تنفس كثيرون فى الشرق ، وظنوا ان نظام الحكم سيتحور تبعاً لتغيير الدولة ، فأسلم بانرمان زمام وزارة الخارجية الى ادوارد جراى الشهير الذى كانت له فى توطيد أركان الاستعمار والسياسة الامبريالية مواقف مشهورة وكلمات جوامع لاتزال ترن في آذاننا وكان ادوارد جراى من أصفى الاحرار مبدأ وأقدر ساستهم على تسيير دفة الامور ، وما زال حاكما بأمره فى الشؤون الخارجية حتى أعلن الحرب على المانيا وساير الحرب العظمى حتى شبت عن الطوق وشارفت على دورها الاخير فأصيب بالكمه ، وأمسى كفيفاً فتخلى عن العمل لسواه ، وطالما صرح سير جراى (وقد صار الآن لورداً) بأن سياسة انجلترا الخارجية لا تتغير ، ومسلكها نحو الممالك المحكومة لايتحول ، وان مصالح الامبراطورية خارجة عن حومة المنازعات البرلمانية وكان صادقاً ، ولم يقل الا الحق ، فان انجلترا فى عهد الاحرار لم تخسر شبراً من أملاكها لا وراء البحار ولا أمامها ، بل كسبت بفعلهم مستعمرات جديدة فى افريقيا وآسيا ، وآراء سير جراى مشروحة بما فيه الكفاية فى مذكراته التى نشرت أخيراً ونقلت الى اللغة العربية

وقد نسج علي منواله أحد زعماء الاحرار الانجليز فى التصريح بالخطة السياسية وهو سير هيربرت صمويل المندوب السامي السابق فى فلسطين فقد ألف كتاباً ذا شأن عنوانه « سياسة الاحرار » أو الليبراليزم ، قدم له لورد اسكويث زعيم الاحرار المتوفى بفصل طويل

فشرح سير هربرت نظرية الاستعمار البريطانى فى عهد الحكومات الحرة ، وحدد مسؤولية الاحرار في موضوع الامبراطورية فى الصفحتين ٣٤٣ و ٣٤٤ قال ماترجمته :

« اذا صح أن مبدأ الامبريالزم ينطوى على العزم المؤكد والحزم الصحيح فى الدفاع عن الامبراطورية التى نملكها وعلى عاطفة الاتحاد بيننا وبين المستعمرين الانجليز ؛ والرغبة

الشديدة فى تقدم الامبراطورية بدون الحاق أذى بالغير وتنمية التجارة البريطانية دون العمل على خراب الشعوب المحكومة ، واستمرار السلطة البريطانية والنفوذ الامبراطورى مع تمهيد الطريق للتوسع فى حريات الأجناس الوطنية (كذا) وعدم السعي فى مهاجمة جيراننا والكف عن المغازي والفتوحات في سبيل امتلاك أراضى جديدة الا اذا زادت منافع تلك المغازي حتما عن مضارها (كذا) مع اتقاء سفك الدماء ماأمكن ،واذا كانت الامبر يالزم مدفوعة بالتحمس الشريف الذى يقبل النقد في سبيل الاصلاح ، اذا صح ان الامبر يالزم ينطوى على ذلك إذن وجب علينا أن نصرح بدون مخاطرة ولا خوف من الانكار أن حزب الاحرار الانجليزي هو حزب أمبر يا لست استعمارى »

وهر برت صمويل مؤلفاً ، يعد فى نظري،خليفة لغلادستون سياسياً وخطيباً ، فقد تقدم لوضع أساس للمبدأ الحز بى في غير تردد ولا تلكؤ ، وعندنا ان كتابه يعد نبراساً لكل سياسى شرقى ير يد الوقوف على سياسة الانجليز الاستعمار ية فهو يؤكد ان الامبر يالزم والليبرالزم مبدأ واحد وانهما ينطو يان على القواعد الآتية :

أولا — شدة اليقين فى الدفاع عن المستعمرات .

ثانياً — عاطفة الارتباط والتوحيد بين الاحرار والمستعمر ين (أى المقيمين في المستعمرات)

ثالثاً — العمل على تقديم الامبراطور ية بدون الاضرار بالغير على قدر الامكان ، والمقصود بالغير هنا الأمم المغلوبة أوالمحكومة من الأجناس الأجنبية

رابعاً — التوسع فى التجارة الانجليزية وايجاد أسواق لها بدون اهلاك متاجر الأمم المحكومة

خامساً — عدم المساس بحقوق الجيران من الدول الاوروبية لاتقاء الحروب التى تؤدى الى زعزعة أركان الامبراطور ية

سادساً — اتقاء الفتوحات التى فيها اهراق الدماء وتكبد المتاعب ، الا اذا كان فى تلك الفتوح نفع مؤكد

سابعاً — استعداد الاحرار والامبريا لست لقبول كل رأى فيه نصيحة الاصلاح يساعد على تقوية الامبراطورية وخلاصها من الشوائب وأوجه الضعف

٣

إذن وجب علينا وعلى كل شرقي أن ينزع من فكره معونة الاحرار في أي ظرف سياسى ولهذا لانعجب ولا ندهش اذا علمنا ان لويد جورج زعيم الاحرار الحالى وقف عقبة كؤوداً في سبيل أى اتفاق أو معاهدة تنطوي على شيء من الخير للبلاد المغلوبة ، وليس صحيحاً في نظري ان الدافع له وجود رؤوس الاموال للممولين الاحرار في أي بقعة من بقاع الارض كالسودان أوغيرها فان رؤوس الاموال وان كانت ذات شأن عظيم في نظر أربابها ولكن الاحتفاظ بها ليس المحرك الاول وانما المحرك الاول هو تلك المبادئ السبعة التى شرحها صمويل في كتاب منشور

لأن الانجليز دائما يخضعون التدبير المالى والاقتصادى للمصلحة السياسية ، لان السياسة أساس والمال بناء يشاد على الاساس ، والى هذه الفكرة كان يرمى چوزيف تشمبرلين في سياسته «الحماية الجمركية» فكان يقصد بذلك الى شد أواصر أجزاء الامبراطورية الى بعضها بعضاً بالاتحاد الجمركى ، تقليداً لخطة بيسمارك الذى أنشأ الاتحاد الاقتصادى بين ممالك المانيا المختلفة قبل أن يعلن اتحادها السياسى ، وعلى خطوات تشمبرلين سار لفيف من ساسة الانجليز الذين اتخذوا مجلة « المائدة المستديرة » لساناً لحالهم . .

بيد أن الحكم الذاتى الذي تمتعت به المستعمرات الانجليزية فى كندا واستراليا ونيوزيلاندا خلق فى أنفس أهاليها عاطفة وطنية وفى سنة ١٩٠٠ اتحدت الولايات الاسترالية على هيئة ولايات متحدة فارغمت انجلترا على قبول الفكرة خوفاً من النتائج التى قد تترتب على مقاومتها ، وكان بين ساسة الانجليز رجال ينظرون الى المستقبل فأذاعوا فكرة المؤتمر

الاستعماري فى ١٨٩٧ ودعوا الى لندن رؤساء وزارات المستعمرات التى تحكم ذاتها وقد ظهر للعيان أن سياسة الاستعمار ستلبس ثوباً جديداً يتفق مع تغير الزمن ، وقضوا عشر سنوات فى تمهيد السبيل لقبول التطور الجديد وفى سنة ١٩٠٧ اجتمع المؤتمر الاستعماري الثانى فى لندن وقرر المجتمعون عقد المؤتمر مرة فى كل أربع سنين وبدلوا اسم المؤتمر الاستعمارى فصار المؤتمر الامبراطوري وان الحكومات التى تشترك فيه (كندا واستراليا ونيوزيلاندا) صارت تدعي دومنيون لا مستعمرات وان رئيس المؤتمر يبقى دائما رئيس وزارة انجلترا لا وزير المستعمرات وذلك لأن كلمة مستعمرة أصبحت منبوذة ومذلة لمن تطلق عليهم فما على الانجليز الا أن يبدلوها بغيرها لأنهم خبيرون بعلم النفس ويعلمون أثر الألفاظ فى العقول ، وهذا يذكرنا بما كان يقوله سير فالنتين شيرول من ان بعض الشعوب المحكومة تقنع باللفظ دون المعنى ، بيد أن هذه الالفاظ وان كانت فى ذهن واضعيها قليلة الأثر الا أنها تنشىء على الرغم منهم حالات نفسية جديدة وأوضاعاً قانونية لم تكن فى الحسبان .

بيد أن السياسى الانجليزى لا يكترث لذلك اكترائه للواقع ، ففى سنة ١٨٨٥ تطوع جنود من استراليا وكندا للحرب في السودان وفي سنة ١٩٠٠ تطوع جنود استراليون في حرب البوكسر بالصين ، وفي حرب البوير اشترك الاستراليون والكنديون مع الانجليز ، وأخذ رجال السياسة الانجليزية يقنعون أصحاب الدومنيون بأن الدفاع عن سلامة أوطانهم ليس محصوراً في شواطئهم ولكنه يمتد الى وراء البحار فحياتهم واستقلالهم تابعان لقوة انجلترا بأساطيلها وجيوشها ، وما دامت « الأم الرؤوم » فى عز وسؤدد فهم في أمان واطمئنان ، فنتج عن ذلك أن مجلس أركان الحرب الانجليزي اتسع نطاقه فصار فى سنة ١٩٠٧ مجلس أركان حرب الامبراطورية (وهو عين موعد اجتماع المؤتمر الامبراطوري الثانى وقبيل الحرب العظمي بسبع سنوات)

فجمع مجلس الحرب الأعلى لفيفا من الضباط من جميع أركان الامبراطورية ودربهم تدريباً منسقاً علي وتيرة واحدة ، وطاف كتشنر بعد ذلك ببضع سنين فزار استراليا

ونيوزيلاندا وأسس مدرسة للضباط وأوعز الى حكومة الاتحاد الاسترالى بتشريع المران العسكرى الاجبارى واقتفت أثرها نيوزيلاندا وجنوب أفريقيا ، فاستفادت انجلترا من كل ما تقدم وقوف الملايين من الرجال في سائر انحاء الامبراطورية على قدم الاستعداد للحرب

فلما كانت سنة ١٩١٤ أرسلت الدومنيون مليون رجل للميدان وأنفق عليهم ٨٦٢ مليوناً من الجنيهات الانجليزية أي أن الجندي الامبراطورى الواحد تكلف أثناء الحرب مايقرب من تسعمائة جنيه ـ فلما بذلت الدومنيون هذا المال وهذا العدد العديد من الرجال رأت أن لها حق الاشتراك في ادارة شؤون الحرب وفي تلك السياسة الخارجية الامبراطورية التي أدت الى اشتعال نيرانها ، ولم يكن هذا التطور الا نتيجة محتمة لتغيير كلمة مستعمرة بكلمة دومنيون ـ وخلقوا في لندن مجلس وزراء امبراطورى مكوناً من رؤساء وزارات الدومنيون أعضاء يرؤسهم رئيس الوزارة الانجليزية

وانبني على ذلك ان وزراء الدومنيون جلسوا في مؤتمر الصلح بفرساي ووقعوا علي المعاهدة بأسمائهم وصفاتهم ولما تألفت عصبة الامم دخلت كل دومنيون بشخصيتها مستقلة عن سواها ، وما فتئت وزارة انجلترا منذ سنة ١٩١٩ تستشير حكومات الدومنيون فى كل أمر ذى شأن ، واتسع نطاق الحكم الذاتى حتي وسع تعيين سفير كندى للولايات المتحدة بعد ان كان سفير انجلترا يمثل كندا وسواها لدى البيت الأبيض وفى سنة ١٩٢٥ انشقت وزارة المستعمرات فصارت وزارتين واحدة للدومنيون وثانية للمستعمرات (١)

وبهذا نصل إلى أن تطبيق مبادئ الحرية والمساواة على المستعمرات التى يقطنها البيض قد نجحت وأثمرت وأنقذت انجلترا من ورطة الحرب الكبرى وشدت أزرها فى مؤتمر الصلح وفى عصبة الامم ، ففي كندا امتزج العنصران الفرنسى والانجليزي حتى صارا شعباً واحداً وكان سير ويلفريد لوريه الفرنسي الجنس أعظم سياسى كندي وحل محلا متميزاً

---

(١) وفى سنة ١٩٣١ صدر قانون وستمنستر الذى غير كيان الدولة البريطانية وتكلمنا عنه مطولا فى غير هذا المكان .

علي مدي ربع قرن فى الامبراطورية البريطانية كلها وكان مالكا ناصية اللغة الانجليزية التى لم تكن لغة آبائه وأجداده كما كان مدركا تمام الادراك لاسرار الانظمة الحكومية فى انجلترا والمستعمرات وهكذا كانت الحال فى جنوب أفريقا

هـذه كانت خطة انجلترا مع مستعمراتها وأملاكها التي يسكنها أوربيون أو قوم متسلسلون من أجناس أوربية. أما المستعمرات الأخري كالهند وأفريقا الشرقية فكانت لها شؤون أخر غير انه لن يغيب عن أذهاننا ان انجلترا حاولت في العهد الأول من الاستعمار أن تفرق لتسود وهو المبدأ الرومانى الشهير سواء أكان في المستعمرات الاوربيـة الجنس أم في المسـتعمرات الشرقية ، ولـكنها خشيت عاقبـة البغضاء والفتنة فأخلصت مع أبناء جنسها واستمرت على خطتها الاستعمارية في المستعمرات الشرقية التى ادعت امتلاكها بحجة تمدينها

١٦

١

لقد لفتت الفرس أنظار العالم المتحضر ، ولا سيما أهل الشرق في العصر الحديث ، للمرة الاولى فى أوائل القرن العشرين عند ما منح الشاه الدستور لبلاده فى سنة ١٩٠٧ ثم استخلف ولده محمد على واستحلفه أن يحافظ على تلك الامانة للأمة .

ولما كانت للفرس علاقة عظمى بتاريخ الاسلام منذ نشأته الاولى الى الآن فقد آثرنا أن ننظر قليلا فى تاريخ تلك البلاد معتمدين على جملة مراجع منها ما كتبه ما كسمولر المستشرق الالمانى وهيرودوت المؤرخ اليونانى والبارون جوبينو المؤرخ الفرنسي صاحب كتاب الفلسفة والاديان في أسيا الوسطي ومادونه الكاتب الاديب والشاعر الفاضل ميرزا رفيع مشكي والاستاذ العالم المغفور له ادوارد براون مؤلف كتاب « عام بين الفرس »

هاجرت القبائل الآرية التي كانت نازلة قبل التاريخ حول « البامير » فنزح أكثرها الى أطراف الهند وايران وكانت أكثر القبائل النازحة الى ايران نفوذاً وقوة قبيلة پارسيان فقد نزلت في جنوب ايران في القسم الذى يسمي الآن فارس أو پارس واتخذت مدينة « استخر » مستقراً لها وعاصمة سلطانها . وجاء الميديون فانتشروا في الغرب والشمال الغربى لايران واتخذوا مدينة هاكاماتانا وهى المعروفة الآن باسم « همدان » عاصمة لملكهم . وانتشرت قبائل أخرى على شواطيء بحر الخزر ، ثم باختراو بلخ ثم افغانستان وخوارزم وما عداها وسموا انفسهم اريان واتخذوا لهذه الممالك اسم اريانا ومن ذلك يأتى اسمها الآن وهو « ايران » واسم أهلها ايرانيان .

وقد بدأ نفوذ الپارسيان يقوى على من عداهم من مجاوريهم منذ سنة ٥٥٠ ق . م . حتى ان ملكهم كورش الاكبر تمكن من اجتياح بلاد الميديين فخلع سلطانهم استياج

وأسس سلطنة هخامنشى .

وقد انتشرت الديانة الزردشتيه بين الپارسيين أكثر من غيرهم وقدعالجنا الزردشتيه بايجاز فى صفحتي ٥١ و ٥٢ من هذا الكتاب وأحدث المعلومات تدل على ان زردشت كان من أهل آزربيجان وان وفاته وقعت فى أيام اجتياح الپارسيين لبلاد الميديين وقد انتشر مذهبه فى بلخ عند مادخل كشتاسب فى دينه ومن بلخ انتشر هذا الدين فى جميع أنحاء ايران وخصوصاً فارس فى مهد السلاطين الهخامنشيين . واذن تكون كلمة پارسى التى تطلق على الفرس المهاجرين الى الهند (ومعظمهم في بومباي) ليس معناها زردشتي وأما كلمة مجوس الشائعه فأصلها بارسية « مغ » ومعناها الحرفي أو اللغوى « حارس النار المقدسة » وهى تطلق على المبشرين بالدين الزردشتى ، فليس الپارسى مجوسياً واذا قلنا سلمان الفارسي أو الپارسى فليس معناها المجوسى بل معناها سلمان الذى أصله من پارس أى من تلك القبيلة التي نزلت الى جنوب ايران عند رحلة القبائل التي ذكرناها آنفاً

أما كلمة عجم فقد أطلقها العرب على كل أجنبى عرفوه ولما كان احتكاكهم بالفرس أكثر من احتكاكهم بغيرهم من الاجانب فقد أطلقت كلمة عجم على الفرس مجازاً من قبيل اطلاق اسم الكل على الجزء . ولا تزال كلمة العجمة معناها فى العربية الابهام أو الغرابة أو البعد عن العربية وأهل الفرس لا يحبون أن يوصفوا بأنهم أعجام .

وكانت عرب الجاهلية مقسمة قبائل متنافرة متباغضة فتمكنت الدول القوية من استعمار بعض بلاد العرب فكان لليونان والرومان والفرس نصيب من بلاد العرب بالاستعمار والاستغلال والاذلال . وكانت دولة الاكاسرة تسوم بعض قبائلهم سوء العذاب فيما جاورها من شرقى الجزيرة وشمالها وجنوبيها . وما زالت الحال كذلك حتي جاء محمد بن عبد الله ﷺ فانتصف العرب لأنفسهم وانتقموا ثم انتصروا فى يوم ذى قار ويوم القادسية .

ولكن العرب والفرس كانوا اعقل من أن يتطاحنوا أو يتباغضوا بعد انتصار الاسلام على دولة الاكاسرة فحصل بينهم التآخى والامتزاج والمحبة واستفاد الفرس من سلطة العرب

ونفوذهم ودينهم وآدابهم الجديدة ومعتقدهم الذي جاء بالتوحيد وقضى على الوثنية الشمطاء كما استفاد العرب من حضارة الفرس وتمدينهم وتنظيم جيوشهم ودواوينهم وأنظمة حياتهم ومؤسساتهم . وبقوة الاسلام العجيبة امتزجت الامتان وصارتا أمة واحدة وكان لابناء فارس أوفر نصيب في خدمة الدولة الفتية وكان لهم القدح المعلى في ترقية الحضارة الاسلامية والآداب العربية بنفس اللغة العربية ومنهم ظهر الأئمة في التفسير والحديث والفقه واللغة.

ومن العجيب أن دين الاسلام على بساطته وقلة تكاليفه وسهولة مآخذه وحداثة عهده قد تغلب على جميع العقائد السابقة له وبالاخص على المجوسية التي كان يدين بها أهل فارس وهي العقيدة التي جاءهم بها نبيهم زردشت في كتابه المكتوب بالذهب في اثني عشر ألف مجلد على ما قاله المسعودي مبالغاً ، وهو كتاب البستاه الذي يسميه ياقوت البستاق باضافة القاف في محل الجيم . وهذا الكتاب هو المعروف عند الافرنج باسم Avesta . ومن الطبيعي أن بعض هؤلاء المجوس استمروا متشبثين بدينهم فهاجروا الى الهند وأقاموا ببومباي كما قدمنا ويبلغ عددهم الآن نحو مائة ألف ومنهم كثيرون من المجاهدين في سبيل الهند

٢

وان كان الشعب الفارسي حديث العهد بالنهوض في الجيل الحاضر فقد كان من أوائل الشعوب التي تحفزت للنهوض فقد تواطأ الروس في عهد القياصرة والانجليز على اقتسام تلك البلاد الايرانية وقد وقع بعض رجالها الرسميين معاهدة لوندره التي تقر هذا الاقتسام من غير ارادة البلاد وبدون علمها فهبت الأمة من رقدتها وقامت قومة الأسد الرئبال (الذي هو شعارها في علمها) فاستجمعت صفوفها ووحدت جهودها ونقضت المعاهدة ومزقتها ارباً وبذلك نفضت عن نفسها غبار العار وعادت الى الحياة وضربت المثل لغيرها من أمم الشرق

كان ناصر الدين شاه امبراطورا لفارس وقد تولى في ذي الحجة سنة ١٢٦٤ ه . ومات رغم أنفه في سنة ١٣١٦ ه . وقد قاسى أهل ايران في عهد هذا الملك كل أنواع الظلم والاستبداد وكان كثير السياحة في أوروبا ولكن تلك السياحات بدلاً من أن تدله على طرق الخير

والحضارة لبلاده كانت تزيده اكباباً على الشهوات وبغضاً في رعيته تلك الرعية التى كانت تدفع من أموالها ومن دمائها ما كان ينفقـه الشاه عن سعة على شهواته وأغراضه في تلك الرحلات . وكان الشاه الذى يكثر من الرحلات الى بلاد أوروبا ليتمتع ، يمنع شباب الامة الايرانية من السفر فى سبيل العلم أو التجارة أو التنور ولما لمح بريق الذكاء والنبوغ فى بعض رجل الفرس عمد الى القضاء عليهم بالنفى والسجن والقتل ليقضى على زهرة البلاد وهم أمثال ميرزا تقي خان أمير كبير وهو الذى شادبذكره الاستاذ أدوار بروان فى رسالة تاريخ الدستور الايرانى (١٩٠٩) والسيد جمال الدين الاسدابادى المشهور بالافغانى وميرزا حسين خان سباهسالار وغيرهم .

ولما قلت مصادر المال ونضب معينها وصار الشاه فى احتياج واضطرار أخذ يتاجر بحقوق أمته فباع للبارون يوليوس روتر في سنة ١٨٨٩ حق تأسيس بنك شاهانى ايرانى وحق اصدار البنك نوت باسم الدولة ، وباعه حق استخراج المعادن من جميع المناجم الايرانية وحق انشاء سكة حديدية بين طهران وأهواز . وأسرف الشاه فى منح الامتيازات و بيع حقوق البلاد وقد تشجع المستر تالبوت فأخذ احتكار التمباك فى مارس سنة ١٨٩٠ لمدة خمسين سنة بشروط بخسة تعود كلها على المحتكر وعلى جلالة الشاه . فهاج الشعب وثار وتكاتف الاحرار على مقاومة ذلك الشاه المبذر المسرف المتهاون فى حقوق الامة

وتقدم لفيف من الاحرار والعقلاء بالنصح والرجاء للشاه للعدول عن التفريط فى حقوق البلاد وعلى رأسهم الوزير الوطنى العظيم أمين الدولة فلم يسمع الشاه لهم نصحاً ولم يرع لهم جانبا بل أخذ يعتقل الزعماء ويضطهدهم ويسجنهم ومنهم ميرزا محمد رضا كرمانى وكان من شيعة السيد جمال الدين الافغاني . وبدأت المدن بالقيام فهاجت تبريز ثم أصفهان وشيراز ويزد وأرسل حجة الاسلام المرحوم المبرور الحاج ميرزا حسن شيرازى المجتهد الأعظم الي الشاه كتابا فيه مافيه من التحذير وأن اعطاء الامتيازات وبيع حقوق الامة للأجانب من الامور التي يحرمها الدين وتأباها الشرائع والقوانين واشتد سخطهم وازداد هياجهم

ولما يئس المصلحون والاحرار من اصلاح الشاه أفتى حجة الاسلام الحاج ميرزا حسن شيرازى فتواه الشهيرة بتحريم التمباك وقد أصدرها من مقره وهى « سر من رأي » فأجاب الايرانيون جميعهم دعوة المجتهد الأعظم وفى طرفة عين أطاعوا أمره ولبوا نداءه ولم يترددوا لحظة على شدة تعلقهم بالتمباك وشغفهم الشديد بتدخينه فى النارجيلة على عادتهم المعروفة والتى سرت من بلادهم الى جميع العالم ، والنارجيلة بتمبا كها فى ايران كالبيبة في بلاد الانجليز والسيجارة فى مصر والشبق عند الاتراك . فتخيل ان اسقف كانتربري يصدر أمراً الى جميع الانجليز بالتخلي عن تدخين البيبة ، فيتركونها جميعا فى طرفة عين وهكذا حصل في ايران ، فان مخازن التمباك اقفلت أبوابها وأبى البائعون بيعه وامتنع الطالبون والمستهلكون عن شرائه . وعمد كل مدخن الى نارجيلته فهشمها والى ماعنده من التمباك فنبذه قصياً (راجع مقال ميرزا رفيع مشكى فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢٣ الاهرام) وفى جميع البيوت والاكواخ وحتى فى قصر الشاه نفسه لم تكن لترى مدخناً واحداً أميراً كان أوحقيراً . حتي ان الشاه نفسه طلب صباح اليوم التالى للفتوى التى صدرت بالتحريم وهو فى مجلس من وزرائه نارجيلته فتقدم اليه رئيس الخدم مندهشا معتذراً وقال للشاه :

« لقد صدرت يا مولاي فتوى حجه الاسلام بالتحريم فلم نبق فى القصور الملكية نرجيلة ولا تمباكا ! !

الشاه : (بغضب) وهل استأذنت مولاك قبل الاقدام على ذلك ؟

رئيس الخدم . (بشجاعة وسكون) لقد أمر الشرع ! فلا حاجة بنا لاستئذان السلطان !

وفي أواخر ديسمبر سنة ١٨٩١ أنذرت الامة حكومة الشاه بضرورة الغاء امتياز التمباك والافيقع بالاجانب أعظم ضرر . ولجأت الحكومة لسائر وسائل الحيلة والقوة والتهديد وايذاء الزعماء فلم تفلح ، وتهدد الشاه بنفسه مقام المجتهد الأعظم فلم يزدد المجتهد الا تمسكا بفتواه وفي أوائل يناير سنة ١٨٩٢ أذعن الشاه وحكومته لرغبة الامة وتم الاتفاق بين الشاه وشركة الاحتكار على بطلان الامتياز الممنوح للمستر تالبوت فكانت صدمة مؤلمة

للنفوذ الانجليزي في ايران

لقد كان في حادثة احتكار التمباك الايرانى درس نافع عظيم لاوروباذات المطامع الاشعبية التى أطلقت لنفسها العنان في الشرق تسلب خيراته وتنهب أطايبه وتدس بين أهله أسباب الشقاق والفراق والنفاق لتتمكن من نصب شباكها والتظفر بالصيد وتبطش بالفريسة والشرق عنها غافل لاه بصغائر الامور .

نعم لقد كلف بطلان امتياز التمباك أهل ايران الشئ الكثير من النفوس والاموال ودفعت البلاد لشركة الاحتكار (تالبوت وشركائه) نصف مليون جنيه تعويضاً ولكنهم مع ذلك كسبوا الحياة التى دبت فى نفوسهم وهيأتهم للنهضة العظيمة التى قاموا بها في سبيل حريتهم .

٣

وقد حكم ناصر الدين (ياله من تهكم !) بلاد ايران خمسين عاماً وقضى نحبه رغم انفه في ختام الخمسين عاما وهو على وشك الاحتفال بمرور نصف قرن على عهده . وان السلطان الدى يحكم الامة خمسين عاماً لاينصف فيها مظلوماً ولايزجر ظالما وتشتبه عليه الامور فلا يطلب لها ايضاحاً ولا يعمل تحقيقاً جدير بأن يخلد ذكره في التاريخ باللوم والتقريع وقد أعدم ميرزا رضا فى ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣١٤ هـ . وكان أعظم المقاومين لحكم ناصر الدين شاه وكذلك كان من زعماء الامة فى ذلك العهد الحاج شيخ هادي نجم ابادى وميرزا ملكم خان الذى أسس جريدة قانون ومنهم الشيخ أحمد روحى كرمانى وميرزا اقاخان كرمانى وميرزا تقى خان وهؤلاء مع من ذكرنا هم الابطال الامجاد الذين هيأوا الامة الايرانية للنهضة الحديثة وربما كان أعظمهم شأنا المرحوم ميرزا تقى خان أمير كبير فقد كان عصامياً وصل بجده واجتهاده واخلاصه في العمل الى أعظم المناصب فقد كان من عامة الشعب وارتقي الى الصدارة العظمى ، أو ان الصدارة العظمى قد صعدت اليه فاتخذ من منصبه اداة لتحرير الامة لا لانتهاك حرمتها فانشأ فيها المدارس الكثيرة وأسس داراً للفنون ونظم الجنود ورتب الاحكام وأظهر غيرة خالصة على مصالح الشعب جعلت الشاه ناصر الدين يحنق

عليه وكان جزاءه على اخلاصه لوطنه أن يقتل في حمام « فين » بكاشان ولما وصل خبر قتله الى قيصر الروس استبشر وقال « لقد مات أكبر أعدائنا ، وذهبت أشد العقبات من سبيلنا » .

وقد حكم مظفر الدين اثني عشرة سنة من ١٨٩٦ الى ١٩٠٨ بعد أن حكم أبوه خمسين عاماً . وكان عهد ناصر الدين معاصراً لعهد الملكة فيكتوريا كما كان عهد مظفر الدين محاذيا لعهد الملك ادوارد السابع تقريباً . ولكن عهد فيكتوريا كان عهد حرية واصلاح ورخاء ومجد وعظمة لدولتها وأمتها على عكس عهد ناصر الدين الذى كان عهد ظلم واستبداد وضيق وتعذيب واضطهاد وفتنة وانحطاط واستغلال فلما جاء مظفر الدين حاول أن يحكم كأبيه ولكن الامة كانت قد تنبهت فما زالت تطالب بحقوقها حتى نالت بعضها في سنة ١٩٠٧ واعلان الدستور وتأسس البرلمان ولما أدركته الوفاة احضر ولده محمد على وأخذ عليه العهود والمواثيق (فبراير سنة ١٩٠٨) بأن يحتفظ بالدستور والبرلمان ولكن محمد على كان رضيع الاستبداد الروسى فوعد أباه وعداً كاذبا ولما مات أبوه نقض عهده وهدم البرلمان بالقنابل ومزق الدستور الايرانى وشتت شمل أعضائه وطرد الاحرار واعتقل من اعتقل وقتل من قتل . ولم يطل عهده فطرد من وطنه والتجأ الى الاتراك ثم الى الروس ، وتولى ولده بعده ولكن عهد هذا الاخير لم يطل كعهد أبيه وعزل وطرد من وطنه وتولى الملك الشاه الحالى جلالة بهلوى . ومن غرائب المصادفات ان محمد على عاش الي أن رأى زوال دولة القياصرة الروس وانهيار صروح مظالمهم وتحكم جماعة من العامة والدهماء فى الدولة . وكان القياصرة أعظم سند له . وكذلك لم يطل عهد ولده فى الحياة وقد لقى حتفه فى باريس وهو آخر أسرة كشغر التى حكمت بلاد الفرس جملة أجيال . وكانوا جميعاً ملوكا محبين لانفسهم يفضلون مصالحهم على مصالح الشعب ويبذرون فى أموال الامة على شهواتهم وغاياتهم التفهة الوضيعة . وتعد بلاد فارس الآن من أقوى ممالك الشرق الاسلامية المستقلة . وربما كان اتحادها مع تركيا والعراق وافغانستان مما يحيي الآمال بوجود جبهة شرقية قوية في غرب آسيا قد تسترجع المجد القديم وتقاوم غوائل الاستعمار . ولكن يجب عليهم قبل ذلك حسن التفاهم وتوحيد الثقافة والمقاصد . وتوجيه الهمم الى مثل أعلى واحد وهو احياء الشرق وانتشاله من وهدة السقوط والانحلال .

١٧

١

لم تقف محاربة الانجليز للهند عند حد الاستعمار والاستثمار والتملك ، وغرس بذور الشقاق لتكون لها السيادة على تلك البلاد العظيمة التي أثبت العلم الحديث أنها من أصل آرى وان شعوب اوروبا كلها تفرعت من القبائل التي نزحت منها في القرون الماضية ، بل انهم لجأوا في محاربتها وقتل نهضتها الى كل سلاح . فانه عند ماقامت حركة غاندي ، منذ سبع أو ثماني سنين ، وظهر في الهند كتاب وشعراء وعلماء اشتهروا فى الغرب وصارت لهم مكانة مثل تاغور الذي نال جائزة نوبل والسير بوز الذي نبغ فى العلوم الطبيعية واخترع أداة أثبت بها حياة النبات وخفوق قلبه (١٩٢٦) ، وانتشر الهنود في اوروبا وامريكا يدافعون عن قضيتهم وينشرون ظلاماتهم ليحسنوا سمعتهم في نظر العالم المتحضر ، وألف بعض كتاب الانجليز كتباً في صالح الهنود مثل سير هنرى كوتون (كتاب الهند الجديدة) ، ونشر الهنود كتباً قيمة مثل كتاب حرب الاستقلال عن ثورة ١٨٥٧ (تأليف ساڤاركار وطبع لندن سنة ١٩١٠)

ولما كانت أعمال المؤتمر الوطني منذ ١٩٠١ و١٩٠٢ قد بهرت ساسة الانجليز وأقنعتهم برجاحة عقول الهنود وكفاياتهم للاستقلال (راجع وصف مستر سوينى للمؤتمر الوطنى الذي عقد في أحمد آباد) رأى الانجليز أن يلجأوا الى السلاح الذى نفعهم في الحرب العظمى وفي كل أدوار هجومهم على الشرق فاستأجروا سيدة اسمها كاترين مايو امريكية الوطن انجليزية الأصل وسهلوا لها كل الوسائل ونقلوها الى الهند حيث فتحوا لها كل باب مغلق ورفعوا أمامها كل ستار فألفت كتاب « امنا الهند » وقد ظهرت الطبعة الاولى في يوليو سنة ١٩٢٧ وطبع بعد ذلك خمس عشرة طبعة آخرها سنة ١٩٣٠ وقد صادف نجاحاً لم يسبق له مثيل ، لأن المرأة الكاتبة حشدت في هذا الكتاب من الفظائع والقبائح مالم يحشد مثله من قبل فى عشرة

كتب ، فصورت الهند فى أفظع صورة من حيث المعتقدات والأدب والحياة ، ووصفت الزواج المبكر وقذارة الوالدات واحراق الجثث وتعذيب الأرامل وأذاعت أموراً عن العادات السرية لايخطر ببال انسان أن المرأة تكتبها أو تعرضها على قرائها كاعلان بعض الباعة عن عقاقير مقوية فى العلاقات الجنسية « اثنان وثلاثون عموداً من القوة تصلب عودك المتداعى، وتعيد اليك قوة الغرام ثمنها روبية واحدة »

وروت أن الهندي ابن الثلاثين يبدو فى جلد الشيخ الذي جاوز الستين لشدة افراطه فى علاقه الزواج ، وغايتها من وراء ذلك أن تصور الشعب الهندي المطالب بالاستقلال في صورة الشعب المنحل المضمحل الذي ذهبت رجولته في سبيل شهواته البهيمية وادعت أن حكومة بنجاب وحدها حاكمت إحدى عشرة صحيفة يومية لنشرها مثل هذه الاعلانات . وفات السيدة كاترين مايو أن الدكتورة ماري ستوبز الانجليزية نشرت كتاباً بلغتها في لندن فى بحث المسائل الخفية من الحياة الزوجية وقد طبع هذا الكتاب أكثر من سبعين مرة من سنة ١٩١٧ الى يومنا هذا ، وفعله فى أذهان قارئيه أكثر من فعل الحبوب التى تشير اليها كاترين . ولم يقلل وجود هذا الكتاب وما يدعو اليه من الفسوق والتحريض على الشهوات من رجولة الشعب الانجليزي الذى اشتهر عن بعض رجاله فى المستعمرات أمور يندي لها الجبين . وتدعي كاترين مايو أن أكابر البراهمة يبغضون اصلاح المرأة ويقولون « ان الزوج للبنت البرهمية أعظم وأصدق وأعز من كل المصلحين الاجتماعيين فى العالم » ص ٤٣ كتاب امنا الهند

فكأن الرجال ليسوا وحدهم المتردين فى هوة الشهوة بل ان النساء أيضاً أكثر ميلا من الرجال الى التردى فى تلك الهوة . وادعت أن فى كل جيل تموت ٢٠٠ر٣ ٠٠٠ر امرأة من آلام الوضع والولادات العسرة لصغر سن الزوجات الفتيات .

٢

ووصفت فى ص ٥١ أن فى مقاطعة مدراس ينذر الوالدون أطفالهم للمعبد ، تقرباً الى الآلهة وزلفى ، فاذا ولدت إحدى الامهات بنتاً سلمتها الى سدنة الهيكل فتناولها النساء الخادمات للآله بتعليم الرقص والغناء حتى اذا ترعرعت و بلغت ست سنين أو سبعاً يراها الكهنة صالحة للرجال فيتمكنون منها وفاء للنذر و باسم الآلهة كالى أو الرب فشنو و يطلق على مثل هـذه البنت اسم ديفاداسيس أو « عاهر الارباب » وان الاطفال الصغار قد تفشت بينهم الامراض السرية المزمنة والحادة . وأن الرجل الذى بلغ الخمسين من عمره يجد من اللائق أن تزف اليه بنت الخمس أو الست ولا يرى هو ولا أهلها فى ذلك غضاضة (٥٧)

و روت عن طبيبة انجليزية أن المرأة الهندية تبقى حياتها في حال خمول عقلى ، لأنها دائماً مصابة بأحد الأدواء السرية ومنهوكة القوي من تكرر العلاقة الجنسية التى يمارسها زوجها ثلاث أو أربع مرات فى اليوم الواحد (ص ٦١)

وقد نقلت كاترين مايو فى ص ٦٣ مقالة بقلم المهاتما غاندى نشرها في مجلة « الهند الفتاة » ١٧ اكتوبر سنة ١٩٢٦ ص ٣٤٩ ضد الزواج المبكر . ونسيت أن غاندى قال فى ختام هذه المقالة ان الذنب فيما وصلت اليه حالة الهند الاجتماعية واقع على رأس الحكم الانجليزى لأن « الرجل والمرأة فى الهند كانا من خمسين عاماً أقوى وأصح وأطول عمراً ممـا هما عليه الآن » . وعادة الانجليز فى المستعمرات أن يعملوا جهدهم فى إضعاف الشعوب المحكومة خلقياً وعقلياً لتدوم سيادتهم فى حين أنهم فى بلادهم وبين الانجليز العائشين فى المستعمرات يشرعون التشريع الذي يحفظ صحتهم وينمي قواهم العقلية ويطيل أعمارهم ، وليست حرب الافيون التى شنت غارتها علي الصين لامتناع أهلها عن تعاطى ذلك المخدر القاتل ببعيدة وقد سميت حرب غوردون لأن الجنرال شارل غوردون كان قائد تلك الحملة المشؤومة ، وهو نفسه الذى لقى حتفه بعد ذلك ببضع سنين فى الخرطوم على أيدى الدراويش .

وادعت فى (ص ٧١) أن الهنود كانوا يئدون بناتهم فقد ادعت أن أحد المهراجات قال لرجل انجليزى « صاحب ! أنت تعرف عاداتنا ، كانت البنات تولد حقاً ولـكن منذ

جيل مضى لم يكن مسموحاً لهن بالبقاء على قيد الحياة » .. وأكدت مايو فى ص ٧١ أن هذه العادة لاتزال سائدة فى أنحاء كثيرة من الهند وقالت ، والعهدة عليها ، فى تعليل إحراق الارامل عند البراهمة ، وهي العادة التي أبطلها الانجليز ، ان رجلا هندياً اعترف للمؤلفة بأن الازواج يسيئون معاملة الزوجات الى درجة أنهم يخشون على حياتهم من القتل غيلة بدس السم فى الطعام ، فسنوا سنة إحراق الأرملة ، حتى اذا فكرت فى قتل زوجها تعلم أنها لن تعيش بعده طرفة عين فتحجم عن الجريمة !! » وقررت أنها رأت فى بعض السجون نساء مسجونات بتهمة قتل أزواجهن ، ونسيت ماتنشره صحف الاخبار في اوروبا وامريكا كل صباح ومساء عن ألوف النسوة اللواتى يتآمرن مع عشاقهن على قتل أزواجهن بالسم ، اذا أعوزهن المسدس ولم يضمن صدور الحكم بالبراءة من محاكم نيويورك ولندن وباريس وقالت إن الاحصاء الرسمي الأخير الصادر فى سنة ١٩٢٥ أثبت أن فى الهند ٨٣٨ر٨٣٤ر٢٦ أرملة أى ضعف سكان القطر المصرى من ذكور ونساء وصغار وكبار ومرضى وأصحاء !!

٣

أما وصف عملية الوضع ، اذا جاء للمرأة الهندية المخاض الذي لطخت به كاترين مايو كتابها فى الصفحات ٩٠ وما بعدها فما يحمر له وجه الانسانية خجلا ، وتظهر فيه رغبة المؤلفة في التشنيع والفضيحة ، ولا يقصد منه إصلاح البته. ولو افترضنا صحة بعض ماجاء فيه لأن الهنود يعتبرون كل ماله مساس بالوضع نجساً، فماذا صنعت الاداره الانجليزية فى هاتين المائتى سنة التى دامت خلالها السلطة البريطانية في الهند وأين التمدين والحضارة ، والخدمة الانسانية وهل يعقل أن وضعاً يدوم خمسة أو ستة أيام وأن الداية (وهذا اسم القابلة باللغة الهندية) تمزق رحم الأم إرباً لتخرج الطفل حياً أو ميتاً (ص ٩٣) بحيث يمسى الوضع أبشع وأفظع وأفجع من الموت نفسه ثم أن المؤلفة لاتخجل بعد ذلك إذ تذكر أن نجاح الهند مطرد ومستمر ، وأن الشعب فى بحبوحة من العيش وسعة من الرزق . ثم تعود فتنتقد نظام الحجاب

« پوردا » وتدعى بعد أن تكلمت عن « نجاح الهند المطرد وسعادة شعبها » أن الدكتور لانكستر ذكر ارتفاع نسبة الوفيات فى النساء من السل الرئوى ارتفاعاً ذا خطورة . وان انتشار ذلك الداء الوبيل راجع الى عادة الحجاب « پوردا » وأن نسبة الوفاة السنوية تتراوح بين تسعماية ألف ومليون شخص يموتون مسانات بداء الصدر (تقرير الدكتور اندر و بلفور وكتاب صحة الامبراطورية ص ٢٨٦ سنة ١٩٢٤)

وبمناسبة ذكر الدكتور بلفور اقول أن الطبيب المذكور انتدب لفحص صحة سكان القطر المصرى فى سنة ١٩٢٠ أو ١٩٢١ (بوصف كونهم من رعايا الامبراطورية البريطانية) وقدم تقريراً وافياً فيه أبشع بيان عن حالة القطر الصحية وذكره سير ڤالنتين شيرول في مقالاته ، وكتبه ، ولعله محفوظ بين ثنايا « الدفترخانات » فى مصلحة الصحة ، ولم ينفذ منه شيء لأن السلطة القاهرة تمنع الأعمال التى تعود على هذه البلاد بشيء من الخير .

ولعل الانجليز يرسلون البعثات من هذا القبيل ، لا لاصلاح الفاسد وتقويم المعوج من شؤون الأمم التى بليت بحكمهم ، ولكن ليستشهدوا بانحطاطنا وتأخرنا وانتشار الامراض فى شعوبنا ، عند مطالبتنا بحقوقنا ، وليظهروا أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعفاء والمنهوكين الغير صالحين للحياة . ولذا ترى كاترين مايو تغترف اغترافاً من تقارير أطباء الانجليز وطبيباتهم وقد قالت ان النساء اللواتي لايرين الطريق منذ زواجهن الى يوم وفاتهن يتراوحن فى الهند بين ١١ مليون و ١٧ مليون وثلثمائة ألف نفس قد قضى عليهن بالسجن المؤبد بحكم العادات والزواج (١١٦)

٤

واننا نؤيد صحة هذه النظرية ، نظرية الاستشهاد بالاحصاءات الصحية والطبية ضد الحركة الوطنية بما جاء فى كتاب مايو نفسه فقد جاء فى ص ١١٧ « ان مقاطعة بنجال هى مقر الهياج السياسي الشديد ، ومحط العداوة المريرة بين الهنود والانجليز وتعد هذه الولاية مصدر الفوضيين وصناع القنابل ومنبت القتلة الذين يقدمون على القتل السياسي وهم قدوة

أصحاب القلاقل ونموذج لناشري أعلام الفتنة . وقد دلت مباحثي على أن أهل مقاطعة بنغال هم أشد الناس رغبة فى الافراط الجنسي (كيف علمت ذلك هذه المرأة ؟؟!) وقد لاحظ رجال الطب ورجال المباحث الجنائية العلاقة المتينة بين تلك الميول الشهوانية ، وبين تركيب العقول المشوهة التي تقترف الجرائم السياسية فان انهماك القوى البدنية والمعنوية فى الشهوات البهيمية يحدث ظمأ للدماء ورغبة فى التعويض عن الكمية المفقودة بالجرائم وإهراق الدماء ، وترى بنغال كذلك مركز التمسك الجديد بعادة الحجاب فترى المنازل فى حالة الموت والعدم فلا يجد الشبان الملتهبون غيرة على وطنهم مجالا لتصريف مواهبهم الاجتماعية ، ويجتمع ذلك الى المبادئ الاوروبية التي أساءوا هضمها فينتج الاجرام السياسى » اه كلام كاترين مايو

وليس لنا كلام على هذه النبذة ، والقارئ وحده يرى المجهود الشديد الذي بذلته تلك المرأة لترد الاعمال السياسية والثورات القومية التى ظهرت في الهند الى الهياج التناسلي وهذا أغرب تعليل قرأناه في حياتنا ، فهل كان كل الايرلنديين المطالبين بالحكم الذاتى والفرنسيين في عهد الثورة والانجليز لدى محاكمة شارل الاول ، والروس في الفتنة البلشفية والبولونيون والايطاليون وأهل الولايات المتحدة في حرب الاستغلال والاستقلال عند أخذ الدستور والصينيون في حركة الجمهورية وقد قام كلهم بأضعاف ما قام به الهنود ، هل كان كل هؤلاء مفرطين في العلاقة الجنسية ، وهل كانت كل نسائهم الأوربيات محجبات وبيوتهم مائتة ، لا تكفيهم ومبادؤهم التى تعلموها أو التي اكتشفوها ببصائرهم القوية ، كانت كلها مهضومة هضما سيئاً ؟؟

ألا ان البنكنوت الانجليزى يفعل أكثر من ذلك في مثل هذه المرأة .

هذا قليل من كثير مما جاء فى كتاب كاترين مايو ، وأنت ترى أن سادتها الانجليز سواء أكانوا فى دوننج ستريت أم في سكوتلانديارد لم ينفقوا أموالهم عبثاً ولم يضيعوها على باب كاترين مايو ، بل استوفوا ثمنهم وأخذوا « بحقهم حلفا » وزيادة ، وجاء كتاب كاترين مايو في وقته فنشرت منه مئات ألوف النسخ فى القارات الخمس فكان أبشع صورة ترسم للهند ،

وأفظع دعاية تذاع ضدها في الوقت الذى قامت فيه قيامتها الكبرى .

وقد ألف كثيرون من الهنود والانجليز أنفسهم كتباً قيمة في الرد عليه وتفنيد ما جاء به وكان في مقدمة الذين ردوا عليها المهاتاما موهانداس كرمشند غندي نفسه ، وقد عاب عليها أنها شوهت النبذ التى اقتبستها من كتبه ومقالاته ، ولامها على أنها طعنته من خلقه وهو راقد فى سجنه في ص ٣٨٧ إذ نسبت اليه أنه وقد أصيب بالزائدة الدودية طلب أن يعمل له العملية طبيب انجليزى لا طبيب هندى ، فى حين أنه قد نشر مقالا انتقد فيه الطب الغربى فكانت عدم ثقته بالاطباء من أبناء وطنه أكبر دليل على عدم صدقه فى نظر كاترين مايو .

وقد كذبها غاندي فى مواطن كثيرة منها ادعاؤها أنها طلبت اليه أن يبعث معها رسالة الى أمريكا فقال لها « أرسل الى أمريكا صوت هذا المغزل ! » ومنها ادعاؤها حدوث هتاف عظيم للبرنس دى غال فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٢ ابان الثورة الهندية الاولى

١٨

١

فى ٤ يناير سنة ١٩٣١ توفى الى رحمة الله المغفور له مولانا محمد على الزعيم الهندى الشهير وأحد أبطال الاستقلال العالمى في العصر الحاضر وكانت وفاته في منتصف الساعة العاشرة من صباح الاحد ٤ يناير وقد وصفته برقية روتر من لندن «بأنه المندوب الهندي المسلم الى المؤتمر الهندى العام وأحد الأخوين على المشهورين ، وقد اشتركا اشتراكاً وثيقاً مع غاندى فى حركة عدم التعاون الأولى في الهند ولكنه عارض حركة العصيان المدني الحالية وسينقل جثمانه الى الهند .ولكن جثمانه دفن بالمسجد الاقصي ببيت المقدس.

وكان محمد على زعيما لثمانين مليوناً من المسلمين فكان لنعيه مأتم عام فى جميع أنحاء الشرق عامة والعالم الاسلامى خاصة وأرسل غاندي الى أخيه يعزيه من سجنه ببرقية هذا نصها : مصابكم مصابنا » ويجب علينا أن ننوه بالفرق العظيم بينه وبين أخيه.

وقد جاهد هذا البطل الراحل فى سبيل جميع الشعوب المظلومة فناضل عن الهند وعن تركيا وعن فلسطين وعن كل أمة مسلمة أو شرقية واقعة تحت نير الظلم الاجنبي وقد وصفه بعض عارفيه بأنه كان أخطب مسلم في الدنيا باللغة الانجليزية وهو يعد من أكبر علماء المسلمين وأزهدهم وأطهرهم يداً وأغناهم نفساً

وقد سافر الى مؤتمر لندن وهو مريض وحالته الصحية سيئة ، ونهاه أطباؤه عن السفر وأنذروه بالخطر ، فلم يكترث وشد رحاله وأخذ معه أخاه وأهله فى انتظار الموت . ولما وصل نعيه الى فلسطين أعلن خبره على المنائر والمآذن في جميع مساجدها وأقيمت عليه صلاة الغائب وفى بومباى قررت المدينة وقف دولاب العمل وأغلقت مخازن التجارة وقد وافقت

وفاته مضى ثمانية أشهر على سجن غاندى فأغلق خمسون مصنعاً من مصانع القطن يعمل فيها مئة ألف عامل!

وكان لنعي الزعيم الراحل فى مصر أثر لايقل عن أثره فى فلسطين ، لان الرجل كان مغروفاً للعالم الاسلامى والشرق كله وكان متصلا بجميع أركان الحركة القومية فى العالم

وبادر المجلس الفلسطيني الاعلى الذى يرأسه السيد أمين الحسيني مفتى القدس الى تعزية أهل الفقيد ودعوتهم الى قبول دفنه فى المسجد الاقصى ، فلبيت تلك الدعوة . وكان لهذا القبول أجمل أثر فى العالم الاسلامى . فان وجود جثمان الفقيد فى فلسطين وفى احدى البقعتين الطاهرتين المقدستين للاسلام رابطة بين مسلمى الهند وبين مسلمي العرب لا تزول ولا تنفصم عروتها وتوثيق للصداقة بين المؤمنين .

وهى فكرة سياسية بديعة جاءت بها قريحة السيد أمين الحسيني نابغة فلسطين ورافع لوائها . وقد خدمت الشرق العربي أجل خدمة . وهى أكبر دليل على تمام الاتحاد والألفة بين المسلمين في أنحاء العالم ، وقدقال شوكت على لبعض المعزين العبارة الآتية :

« لقدأحببناالعرب من صميم أفئدتنا، وقدعزمناعلى أن نعطيهم أخاناليرقد بينهم »

وانها فى الوقت نفسه عاطفة تكريم جليلة للفقيد فانه طبعاً كان يجد مرقداً كريماً فى وطنه و كان قبره يكون كعبة للقاصدين من مقدريه من المسلمين والهندوس ، ولكن مثواه فى جوار المسجد الأقصى احدى الكعبتين ومهبط الوحى حيث قبة الصخرة وحيث مربط البراق الذي دافع عنه فى حياته ، لأمر ينطوى على أجمل الرموز وأسماها . وقد وفق السيد المفتى فى إيجاد الفكرة وتنفيذها كما وفق الى المكان الجميل الذى جادت به أسرة الخطيب من أوقافها

وقد فطن فحول اليهود الى خطورة هذه الفكرة فاحتجوا واعترضوا وأرسلوا برقيات المقاومة الى سادتهم الانجليز الذين أعطوهم وعد بلفور ، ثم رأوا أن صوتهم قد غرق فى

الزوبعة ؛ ولم يعد مسموعاً فرأوا أن يتقهقروا وهم يتقنون التقهقر عند اللزوم ، فلزموا الصمت أولا ثم أخذوا يرسلون برسائل التعزية لمولاه شوكت على ، عملا بالمثل المنسوب للأتراك « اليد التى لا تملك قطعها قبلها »

وهكذا مثلوا أيضاً فى هذه الفاجعة الاسلامية دوراً دنيئاً لا يصدر عن قوم يريدون المسالمة .

٢

وقد كان تاريخ حياة محمد على وأخيه شوكت . . . الله فى أجله تاريخ كل مجاهد مستنير فى الشرق المستعمر المغلوب على أمره فان الشاب الشرقى يولد وينمو فيتعلم ويتيقظ فيرى الويلات المنصبة على وطنه ويرى الهوة التى تفصل بينه وبين أصدقائه من قومه المائلين لاعدائه ، فيقاطعهم ويناصبونه العداء ، ثم اذا كبر شأنه ناوأته السلطة الأجنبية وضيقت عليه الخناق فاذا سنحت الفرصة شنقته أو نفته من وطنه أو سجنته وهذا أضعف العذاب فيقضي الاعوام فى غيابة السجن معتل الصحة أو مشرفاً على الهلاك ، وأهله وبنو قومه الذين يدافع عنهم لا يحركون ساكناً فى سبيل خلاصه الى أن يموت فيذهب من هذا العالم بعد أن ذاق مرارة العيش ولم تكتحل عينه برؤية وطنه فى بحبوحة الحرية أو في هناء الاستقلال .

هذه حوادث تتكرر منذ نهض هذا الشرق البائس تتكرر فى جميع أنحائه سواء فى ذلك الشرق العربي أو التركي الاسلامى أو الوثنى . ولكن كان نصيب المسلمين من البلاء والعذاب أعظم لان بلواهم مزدوجة فالزعيم الاسلامى أو المصلح الاسلامى يجاهد جهاداً ضد أعداء وطنه وآخر ضد أعداء دينه .

وهكذا كانت حياة المرحوم محمد علي الذى قضي وهو لا يزال كهلا فى العقد الخامس من عمره ولا يزال أقرانه في أكسفورد على قيد الحياة وعلى أتم ما يكون من الصحة والعافية ولكن جهاده هو أضناه وأضعفه وحياة السجن سبع سنين أدنت أجله .

أما ترجمته فهو من أكبر السلالات الاسلامية في الهند ذات التاريخ الحافل بالمفاخر

وقد ولد فى ولاية رامبور وكان أبوه يومئذ يشغل وظيفة عالية في الحكومة ؛ وذلك فى ١٨٧٨ فقد مات اذن في الثانية والخمسين من عمره . وقد توفى والده وهو طفل فكفلته أمه التى كانوا يسمونها « أم الهنود » لأنها أنجبت ولدين اشتركا فى خدمة الاسلام والهند أعظم خدمة وكانت تخطب في الجماهير وتحثهم على النهضة وكلما سجن أحد ولديها أوكلاهما معاً فرحت وشجعتهما وجعلتهما نموذجاً وقدوة لغيرهما من أبناء الهند ، ويلوح لى أننى قرأت في إحدى الصحف خبر اعتقالها حيناأو تهديد السلطةلها فى ابان اشتداد الثورة ، ولما ماتت الأم منذ بضع سنين كان لوفاتها رنة أسى فى جميع أنحاء الهند ورثيت من جميع الخطباء ورجال السياسة في شتى المحافل والمجامع اعترافا بفضلها وفضل ولديها على الهند والعالم الاسلامى .

وكانت الأم امرأة فاضلة ورعة ويرجع الفضل اليها فيما شب عليه الفقيد الشهيد من الورع والتقوى والغيرة الدينية والوطنية .

وعند ما شب كانت كلية عليجرا قد ظهرت فى الوجود فالتحق بها وأتم دروسه الثانوية فى معاهدها ثم صنع كما يصنع أعيان الهنود فشد رحاله الى اكسفورد لاتمام دراسته الانجليزية على النمط السكسوني وقد روي مولانا شوكت علي في خطبة القاهافى شهر رمضان فى جمعية الشبان المسلمين أنه بعد أن عاد هو من اكسفورد وكان يكفل أخاه محمدا أرسله الى اكسفورد ليتم علومه ، ثم التحق بلنكولنزاين حيث يتخرج رجال القانون وعاد حائزاً لأعلى الدرجات فى الأدب والتاريخ .

ومن تهكم القدر أنه التحق بخدمة الحكومة فى الهندفقلد منصباً رفيعاً فى ولاية بارودا أعظم ولايات الهند الوثنية وأغناها وأرقاها وقد أحبه راجاه بارودا وقربه وفضله على الوزراء الوثنيين وصارت الكلمة كلمة محمد علي والرأى له الى أن حدث خلاف بينه وبين الراجا فاستقال وأنشأ الصحف . وكان كاتباً قديراً باللغة الانجليزية فكتب المقالات الضافية فى عدة صحف وأسس جريدة الرفيق « كومراد » فنالت من النجاح ما لم تنله جريدة قبلها

وكانت غايته الشريفة بادية من خلال سطوره وكان شعاره التوفيق بين طوائف

الهندوس والحكومة والاهالى .

وقد صادف وقت جهاده وقت جهاد المرحوم مصطفى كامل وكانت بينهما مكاتبات اطلعت على بعضها بين المرحوم مصطفى كامل فى سنتى ١٩٠٦ و١٩٠٧ وكان يرسل مكاتيب التشجيع والمحبة الى البطل المصرى ولا سيما عقيب عودته من لندن بعد دفاعه المجيد في حادثة دنشواى . وكانت جريدة الكومراد ترد اللواء وتنقل عنها مقالات كثيرة فى تلك الفترة .

٣

وفي سنة ١٩٠٦ ألفت الجامعة الاسلامية المذكورة في الهند ويرجع الفضل فى الشهرة التي نالتها الجامعة الاسلامية لصيانة مصالح المسلمين الى همة المرحوم محمد على وجهوده . كما أنه ساعدفي انشاء مسجد كونبور وأسس جمعية الهلال الاحمر لاعانة منكوبى حروب البلقان وقام بأعمال كثيرة أخري في الاصلاح مما جعله محبوباً ومعروفاً في العالم الاسلامى بأسره وكان دائباً على العمل في ترقية شؤون المسلمين بعد أن أدرك بثاقب فكره ان طائفته كانت متلكئة في الرقي العصرى فمضى يعمل بلا كلال فى سبيل انهاضها واذكاء نار الحماسة الوطنية فى قلوب بنيها .

وعند مانشبت الحرب العظمى شعر مسلمو الهند بتنازع الولاء فى نفوسهم ووقعوا بين عاملين فكانوا من جهة يشعرون بانهم مرتبطون بالخلافة فى تركيا ويشعرون من الجهة الأخري بأن الواجب يقضى عليهم بأن يعترفوا بسيادة انجلترا واعانتها فى الحرب والانضمام الى صفها فى مقاتلة دولة الاسلام الكبرى وأخيراً اضطروا اضطراراً للانضمام الى انجلترا ولكن الصحف الاستعمارية كالمورننج بوست والتيمس اندفعت في القذف في تركيا ووصف الاتراك بأنهم مطايا الالمان ، وخدمهم فرأى محمد على أن تلك الحملة لاتطاق وأنها ليست من الانصاف في شئ فانبرى للمنتقدمين بقلم من نار وأخذ يحوض المسلمين على عدم محاربة الاتراك جهاراً فصودرت جريدتا الكومراد وجريدة « هواداراه » واعتقل محمد على نفسه فى شهر مايوسنة

١٩١٥ لاعتباره خطراً على الامن ، ولم يستطيعوا أن يوجهوا اليه تهمة الخيانة أو المروق من الوطنية وقد سار أخوه شوكت على على خطته فاعتقلوه هو أيضاً وقد بقيا فى السجن من مايو سنة ١٩١٥ الى عيد الميلاد سنه ١٩١٩ أى بعد الهدنة بعام وشهر

ولما وضعت الحرب الكبرى أوزارها وظهر الحلفاء بمظهر عدم الوفاء بوعودهم اشتد سخط المسلمين فى الهند وعظم تبرمهم بالحالة وزادت نقمة محمد على على الانجليز فاتفق هو والزعيم غاندى وشرع في نشر الدعوة للخلافة الاسلامية في طول البلاد وعرضها وسافر فى سنة ١٩٢٠ الي لندن من أجل النزاع الذى شجر فى سبيل الخلافة ولما رأى أن لاخير يرجى للاسلام من الانجليز قفل راجعا وانضم الى حزب غاندي وطاف البلاد يدعو السكان الى عدم المعاونة فاعتقلته السلطة الانجليزية فى سنة ١٩٢١ وبقي في السجن سنتين يقاسى أشد الآلام لأن الحكومة في هذه المرة وجهت اليه تهمة تحريض الجيش الهندي على العصيان وأخلى سبيله فى سنة ١٩٢٣. وكان اعتقاله هذه المرة أثناء سياحته مع المهاتماغندي فى نيزچاباتام فى جنوب الهند وحوكم فى كراتشي وكانت لمحاكمته ضجة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الهند وكان أخوه معه في المحاكمة والحكم . ونحن ننوه بفضل شوكت أثناء اخلاصه .

ولم تكن المدة التى قضاها فى السجن الالتزيده تمسكا بمبادئه الوطنية . وبعد خروجه من السجن اتخذت الحركة الوطنية شكل المجلس الوطني وخطت خطوة كبيرة فى سبيل التقدم وفى هذه الآونة طلب بعضهم اليه أن يرأس مجلس الامة في دلهي فادرك بفطنته مبلغ التطور مدة اعتقاله فاجتنب خطأ العثور وقاد النهضة الوطنية بهمة وحكمة فسارت فى سبيل النجاح . وفى العام التالى رأس مجلس الامة الذى عقد فى كوكندا للمرة الثانية وقبلت جميع الاحزاب خطابه وأجمع الكل على ان خطبته كانت من أبلغ الخطب وأشدها تأثيراً فى شؤون الهند السياسية ومنذ ذلك اليوم بات محمد على الحميم الصديق والحكيم المرشد لغاندي وأعاد اصدار جريدة كومراد وهامدارد فى دلهى فكانتا شعلة الايمان الوطنى ومثال الحمية المتوقدة

٤

وكان فى المباحث الخاصة بالتاريخ والاقتصاد والاجتماع فرداً متوحداً وأنداده نادرون وليس فى البلاد من يفوقه فى رجاحة العقل ولين العريكة وحسن السياسة وكان يعرف الناس وشؤون الحياة حق المعرفة ولذلك وجد السبيل الى قلوب الرجال فى القارات الثلاث أسيا وأفريقا واوروبا

وقدساءت صحته فى السنتين الاخيرتين من عمره فاعتزل السياسة وخفت صوته الى أن ذكرت أسماء المدعوين الى المؤتمر الهندى فورد اسمه فى طليعة المندوبين . وكان هو يشعر بالمرض بل بالموت وقد أخذ يسير نحوه حثيثا وأنذره أطباءه واصدقاءه بالخطر ولكنه لم يبال بحياته فى سبيل خدمة وطنه فسافر ور بما كان يشعر بأنه لن يعود الى وطنه حياً .

ولما افتتح المؤتمر جلسته التمهيدية ألقى المرحوم محمد على خطابا هاج النفوس ولمس أعماق الافئدة فطلب استقلال بلاده بعبارة مؤثرة وقال «انى لسوء حظى لن أعود الي الهند المستقلة ، ولعلنى أموت قبل أن أرى حرية بلادى ولعلكم تخطون لي قبراً في بلادكم»

وقد صدق ظنه وصحت نبوته . وكانت أعماله فى المؤتمر ختام حياته وتاج جهاده

ومن البديهى ان رجلا مثله عاش عهوداً طويلة فى بلاد الحرية أصبح لايرضى العيش فى غير آفاق الاستقلال وهو اذ كان يعمل لخلاص وطنه من الاستعمار الاوروبى لم ينس اخوانه المسلمين فى الهند بل جعل خلاص بلاده واسعاد طائفته وكفالة حقوقها أمرين متلازمين فى جهاده الدائم المستمر ، على أن الذين اختاروا أخيراً أن يثوى مثواه الاخير فى القدس وهم السيد أمين الحسينى واخوانه أعضاء المجلس الأعلى انما نفذوا ارادة الله الذي أراد أن يكرمه بهذا الجوار الطاهر في تلك البقعة المباركة ، كما نفذوا ارادته لأنه كان من أنصار الوحدة العربية الاسلامية وكانت كل أمانيه وآماله أن يجتمع العالم لاسلامي والعالم العربى على قلب رجل واحد ، وقد هب العالمان العربى والاسلامي لتشيع جنازته الى مقره الاخير وهما لايصنعان أكثر من انهما يوفيانه بعض الجزاء على مابذل في حياته من جهود أكبر من أن يوفيها جزاء ثم هما بعد ذلك يجتمعان على قبر رجل كان يعمل لأن يجتمع العالمان العربى

والاسلامي في صعيد واحد .

وقد وصل جثمان المرحوم محمد على الى بورت سعيد صباح الاربعاء ٢٠ يناير سنة ١٩٣١ (٢ رمضان ١٣٤٩) فى الساعة السادسة صباحا ومعه أخوه وزوجته وابنته وابن أخيه . وقد انزل الجثمان في السادسة صباحا بسعى بعض رجال الطرق المشهورين وساء مصر كلها ان النعش نقل الى المسجد وشيع من المسجد تشييعاً حكوميا محضاً في الساعة العاشرة صباحافي رمضان ، وقبل أن يستيقظ أهل بورت سعيد الذين لم يتمكنوا من الاشتراك في تشييع الجنازة ، ولم يكن هناك ما يدعو الى السرعة لأن النعش وصل الى المحطة في الساعة الحادية عشرة من صباح الاربعاء وبقى بها الى مساء الخميس ٢١ يناير حيث نقل في القطار الى القدس وكان يمكن تأجيل التشييع الى ظهر اليوم أو بعد الظهر بساعة ولكن هكذا شاء المتحالفون على عدم اشراك الشعب المصرى في تشييع جنازة الفقيد الراحل .

وقد رويت عن السيد عبدالعزيز الثعالبى الزعيم التونسى الشهير في خطبة رثائه في ظهر الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٣١ بالمسجد الاقصى نبذة من تاريخ حياته كما شهدها بنفسه قال :

« كنت نزيلاً عليه أيام اقامتي فى دهلى سنة ١٩٢٥ وكان يعالج بياض نهاره وهزيعا من الليل بالكتابة والخطابة والتفاهم مع الاحزاب وملاقاة الزعماء ومحادثة رجال الهند وأقطابها ولكن كان له عمل آخر لايشغله عنه شاغل فى الهزيع الاخير من الليل هو تزكية القلب وتصفية الروح فقد كان ينقطع للتهجد وقراءة القرآن حتى مطلع الشمس ثم يعود الى استئناف عمله وهكذا دواليك » وختم الثعالبى رثاءه بقوله :

« ان محمد على كان عظيما بكل ما فى هذه الكلمة من معانى ، وسر عظمته كان في عقيدته وفي ايمانه واخلاصه . لقد مات الرجل الذى وضع أساس تحرير الشرق ولكن هذا لايعنى أن العمل الذى بدأ فيه سوف يتوقف : ان المعول على الاخلاص ! لم تكن مواهبه في ذكائه وخطابته وعلمه ولكنها كانت على الاخص في ايمانه ويقينه واخلاصه .

ولا يقل فضل شوكت على عن فضل أخيه فقد كان مربيه وصديقه وقد خطب فى

جمعية الشبان المسلمين ٣٠ يناير سنة ١٩٣١ باللغة الانجليزية فذكر فتوح الاسلام وهمة العرب ونهضة الشرق ثم قال «انني ربيت أخي ثم صرت له تلميذاً . وكنا نعيش في بداية أمرنا كما يعيش الانجليز نحلق لحانا وشواربنا ونلبس الثياب الأجنبية ونشترك في الالعاب السكسونية ونتقنها وقد بنينا داراً على الطراز الانجليزي وأثثناها على الطريقة البريطانية وأخذنا نستقبل أضيافنا من الاجانب فكانوا يأكلون طعامنا ويشربون شرابنا ويطعنون في شعبنا أمامنا ثم يحتقروننا في قلوبهم . فلما بانت لنا الحقيقة خلعنا ثيابهم وأرخينا لحانا لتكون احتجاجاً على الظلم الأجنبي ورضينا بالثياب الوطنية التي تستر أجسامنا وتقينا البرد ، وهي أقل في مظهرها من الثياب الافرنجية الفاخرة ولكنها صنع أيدينا وبضاعتنا التي نفتخر بها . ومنذ صار لنا هذا المظهر الاسلامي الشرقي أخذ الانجليز ينظرون الينا بعين الاحترام والاعتبار ويعتبروننا أشخاصاً نمثل الاسلام والشرق فكفوا عن احتقارنا ، ونحن كففنا عن مظاهر الثروة ورضينا بالكفاف والزهد في العيش » .

ومن أغرب ما حدث انه في صبيحة القاء هذه الخطبة البريئة انبرت سيدة سورية تنتمي الى العقيدة المارونية في احدي الصحف السورية الموالية لفرنسا في الشرق تنتقد وترغي وتزبد وادعت باطلا ان خطبة شوكت على تمني وجوب مقاطعة كل فكرة جديدة وكل أسلوب مستحدث والاكتفاء بما خلفه الماضي من الافكار والاساليب ووسائل المعيشة ولم تكن تلك الآنسة أو السيدة قد حضرت الاجتماع أو سمعت الخطاب الذي ألقاه مولانا شوكت على ولم تكن قراءته في الصحف لتدلها على حقيقة أفكاره . ولكنها كانت آلة في يد أعداء الشرق والاسلام الذين أوعزوا اليها أن تهاجم شوكت على وتتهمه باطلا بأنه يدعو الى الرجعية والقهقرى وينشر فكرة المقاطعة والرجوع الى الماضي واحتقار اوروبا ومدنيتها . وهذه شنشنة عرفناها من أخزم

وفي الحق ان تلك الكاتبة المسترزقة وسادتها وأساتذتها ، ليس لهم دخل في شؤون الاسلام كما اننا لا دخل لنا في شؤون الموارنة أو الكثالكة ولكنها سلاطة واسفاف وغدر

مبيت تظهر بوادره كما سنحت من المصلحين سانحة فهؤلاء القوم الذين آواهم الاسلام وفرش لهم وأنا مهم وأسعدهم فى كنفه ، يفتأون يحاربونه بكل سلاح ولا يخجلون أن يسخروا صبيانهم ونساءهم لمناوأته . ومما يدل على جهل تلك الكاتبة وتعصبها وعدم فهمها الخطابين اللذين ألقاهما الثعالبي وشوكت على فى ذلك الاجتماع انها خاطت بين الخطابين خلطاً مدهشا .

فقد كان موضوع الثعالبى « انتشار الاسلام بغير حرب ولا سلاح » وكانت خطبة شوكت على شكرا للذين احتفلوا به وعزوه فى أخيه. فسرد الثعالبي وقائع تاريخية تؤيد نظريته وهى نظرية جاء بها كثيرون من المؤرخين الافرنج فى كتبهم مثل G. H. Wells وستودارد ومؤلف تاريخ عبد الحميد وغيرهم . وكلام شوكت خاص بتاريخ أخيه وأعماله فى الهند ومع هذا التباين العظيم فى الموضوعين ومع حضور مئات من العلماء والادباء لدى القاء الخطابين المختلفين فان السيدة الكاتبة المارونية الملة والمتعصبة النزعة قالت فى استهلال مقالتها :

« ومع أن خطاب الاستاذ الثعالبى كما نشرته الصحف فى وصف الاجتماع الذى أقامته جمعية الشبان المسلمين أوفر إسهاباً ، فانه في الجوهر وفى طائفة غير يسيرة من التفاصيل متوافق وخطاب مولانا شوكت على فحمدنا للاستاذ الثعالبى بيانه عن روح السلم والسماحة فى الاسلام كما حمدنا لكل من الزعيمين الكبيرين محبتهما لهذا الشرق العظيم ورغبتهما فى إنهاضه وتحريره وإسعاده باستعادة مجده السالف » .

ولكن هذه مقدمة ، ولين مدخل ، واستدراج للقارئ ليتناول السم المدسوس ، فى الدسم ، وهذه طريقة تنبيء بحسن القصد ، وسلامة النية والتجرد عن الهوى ولكن وراءها الغدر والنكاية وايغار صدر اوروبا والسلطات الحاكمة فى الشرق على هذين الزعيمين فانها بعد أن نبهت الى أنهما زعيمان يرميان الى انهاض الشرق ، حذرت اوروبا منهما لأنهما رجعيان ومتعصبان يقولان بمقاطعة اوروبا فى أفكارها وبضائعها قالت :

« وقد استوقفنا من خطابى الزعيمين القول الواحد الذي يعني وجوب مقاطعة كل فكرة جديدة وكل أسلوب مستحدث والاكتفاء بما خلفه الماضى من الأفكار والاساليب

ووسائل المعيشة»

واستمرت على هذه النغمة تنسج خيوطها وحبائلها للوقيعة والفتنة ، وهذا من أشنع أنواع التجسس والاختلاق والبلاغ الكاذب والنميمة التى يجب على كل عاقل أن يتبينها قبل أن يأخذ بها أو يصدقها .عملا بنصوص القرآن وأحكام القوانين .

وفى يوم الاربعاء ٢ فبراير سنة ١٩٣١ ألقى مولانا شوكت على خطاباً على نخبة فاضلة من سيدات القاهرة فقال انه مدين بكل ماهو فيه من حب الاسلام والشهرة المكتسبة هو وأخوه لامرأة وهي أمهما التى كونتهما وثقفتهما ولم تكن متعلمة ولكنها سيدة علمها الزمن وكان لها عقل راجح وصدر رحب فعلمت ولديها حب دينهما وأهله وكل ماقاما به من جهاد فى سبيل الاسلام والمسلمين انما هو ثمرة لهذا الغرس الذى غرسته أمهما في نفسيهما وكان محمد على عمره سنة واحدة عند ماتوفى والده وكان عمر الخطيب (شوكت) سبع سنين وكانت تركة أبيهما مستغرقة بالديون ،فقلبه مفعم بالحب لأمه العظيمة التى جاعت كى لاتبيع أرضهما المرهونة وباعت كل ماكانت تملك حتى ربتهما هذه التربية التى نشأ عليها ومن أجلها هو يقدس المرأة ويعمل كل مايمكنه في خدمتها إكراماً لأمه .

ثم تكلم عن حجاب المرأة الهندية وهو المسمى بنظام البوردا (ولعله مأخوذ من كلمة بردة أى ثوب) فقال ان سببه فتوح الموغول فأصبح الهنود محكومين بعد أن كانوا حاكمين فاضطر المسلمون الى حجب النساء وقاية لهن من التعدى والأذى . وان الذي ساعد والدته على تربيته وتربية أخيه وأخواتهما الأربع انما هو الحجاب لأنها اقتصدت ولم تر بذخ السيدات ولم تتأثر بأفكارهن بالعدوى فكان ذلك معيناً لها على الانصراف الى تكوين أسرتها بالطريقة المجدية النافعة وان أول واجب على المرأة المسلمة أن تكون الأسرة تكويناً يخرج الناشئة على جميع الأخلاق الفاضلة .

ثم قال :

اننا وقفنا مكتوفي الأيدي والروح الاسلامى يضعف شيئاً فشيئا وخصوم الاسلام

يعملون على هدمه والاستيلاء على مقدساته ويحاربون المسلمين فى دينهم وأعز شىء عليهم وان الأخطار التى تحوط جميع الأمم الاسلامية اليوم يجب التفكير الجدى فى وسائل صدها ودفعها عنها .

«لا ينبغى أن نبكى اذا أخذ وطننا منا مادمنا نصرف أوقاتنا فى التافه من الشؤون ونضن على الله ببعض أوقاتنا .

«لا نريد أن نتصوف ولا أن نتقشف ولكن نلبس زينة الله ونتمتع برزقه فى حدود الضرورة ولكن علينا أن نعطى أرواحنا قسطاً من التربية والتهذيب النفسى كما أعطيناها من الملاذ والشهوات» .

٥

ولم يكد المرحوم محمد على تجف دموع الباكين عليه حتى أطلق سراح غاندى ، وتوفى المرحوم متولال نهرو أحد عظماء الهنود وقد خرج من السجن الي القبر وانتهى مؤتمر لندن ، والتقى غاندى بلورد اروين الحاكم العام فى الهند واتفقا في النهاية على منهاج الهدنة ووقف الحرب السياسية ريثما تتم خطة الاتفاق النهائى التى تنيل الهند أمانيها المقدسة .

وربما كان هذا من المصادفات ، ولكن من العجيب حدوثها عقيب وفاة الزعيم الراحل . فقد صدق من قال ان دماء الشهداء تغذى شجرة الحرية . وهذا الشهيد قد سقط فى ميدان الوغى يدافع عن وطنه وعن دينه وعن الشرق أجمع وقد تحقق بعد موته أمله الذى كان يسعى اليه طول حياته وكاد يتحقق عن قريب باذن الله .

ان الذى حدث وظهر فيما يتعلق باخواننا الهنود المسلمين أمر على أعظم جانب من الخطورة . وقد سبب دهشتنا وغير مجرى أفكارنا . انه من المبالغة أن نقول اننا واقفون على أحوال المسلمين فى الهند . وكل مايمكننا أن نقول به هو ماظهر لنا من نهضتهم بسبب إنشاء كلية عليكده التى أسسها سيد احمد خان الزعيم الهندي المسلم وكانت جريدة المؤيد تدعو للاكتتاب لتلك الكلية وقد جمعت مبالغ لا بأس بها من كرام المصريين . وفى ظني أن فكرة

الوطنية أو الاستعمار لم تكن هى الحافز لنا في ذلك العهد على مد يد المعونة لتلك الكتابة .
بل كان الحافز لنا هو الرابطة الدينية بين المسلمين الهنود وبين المصريين . وأخذ بعض الهنود المسلمين المتعلمين لاسيما الذين ختموا دراستهم فى بلاد الانجليز يمرون بالقطر المصرى فيلقون إكراماً وعناية واحتراماً من رجالنا العموميين ومن هؤلاء ضياء الدين احمد الذى مر بمصر فى سنة ١٩٠٧ وغيره . وكان بعض العظماء أمثال أبو الكلام والسهر وردى وسير شافعى وبعض رجال حيدر آباد الدكن يمرون بمصر فيكرمون على اعتبار أنهم مسلمون . ولم تكرم مصر هندياً وثنياً على اعتبار أنه وطني قبل پرمشاور لال المحامى الهندوكى البنغالي الذي زار مصر في سنة ١٩٠٨ وكان من أهل النبوغ والفطنة والاخلاص لوطنه وللشرق .

ولم يكن جميع المصريين قاطبة ماعدا أفراداً يعدون على أصابع اليد الواحدة يعلمون أى شئ عن الحركة الهندية قبل سنة ١٩٠٩ عند ما اتصل بعضهم ببعض زعماء الهنود الذين كانوا يجاهدون فى سبيل وطنهم فى أوروبا أمثال كريشنا فارما بلندن وباريس ومدام كاما بباريس وجنيف وسافاركار بلندن وباريس . وهارديل وشاتوپادايا .

وكانت الهند مرموقة بعين الاحتقار فى الشرق ، ولا سيما فى القرن التاسع عشر .
فكانوا يضربون الأمثال بمذلتها للانجليز وكان بعض المصريين يظنون أن الانجليز يسرجون الهنود ويتخذونهم مطايا . وينذرون بعضهم بحظ سئ لا يقل عن حظ الهنود .
وقد تحققنا من صدق هذه الاقوال الي حد ما وان كان فيها بعض المبالغة فان الانجليز حقيقة يسيئون الى الهنود فى بلادهم ويهينونهم كما هى عادة كل فاتح أجنبي قليل العدد فى البلاد المفتوحة فهو يستعين على قلته بالقسوة والارهاب . ولكن يظهر أن الهنود الذين سافروا الى أوروبا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وتلقوا العلوم الحديثة فى انجلترا والمانيا وأمريكا تمكنوا من استرجاع مكانتهم فى أوطانهم ، ويرجع الفضل فى النهضة الأخيرة الى بضعة رجال من الهندوس والمسلمين . والى قسط من الحرية أرغمت انجلترا على اعطائه للهنود فكانوا يجمعون في كل عام مؤتمرهم الوطني . وكانوا ينشرون فى بلادهم وفى الخارج جرائد

ومجلات متطرفة فى الحرية ساعدت على تشجيع الهنود وهدم صروح الاوهام القديمة التى كانت قائمة فى وجوههم . وربما كان أعظم رجال النهضة الحديثة قبل « جاندهي » الاستاذ المرحوم تيلاك الزعيم الهندي الشهير الذى حوكم فى سنة ١٩٠٦ وحكم عليه بالسجن ست سنوات . وهو يعد بحق مؤسس حركة سواراج أوالاستقلال التي قامت فى الهند فى الثلاثين سنة الاخيرة . . ومن المسلمين سير شافعى الذى توفى اليوم[١]

٦

وأخبار النهضة الهندية الحديثة تهمنافى مجموعها كما يهمنا أمر المسلمين في تلك البلاد فانهم يبلغون ثمانين مليوناً . وقد رأينا منهم فى العهد الاخير عدداً وفيراً وكلما حادثنا أحدهم أبهم الأمر علينا لكثرة ماتراه من التناقض فى مقاصدهم ولكن يمكننا الاستنتاج بالاجمال أن معظم المسلمين الهنود جهال كغيرهم من المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، وان المتعلمين منهم أقلية . والذين يتعلمون منهم يتمايزون على غيرهم وتظهر كفاياتهم ونبوغهم بدرجة مدهشة . وليس كل المسلمين في الهند من أصول عربية أوتترية أو موغولية أو فارسية بل معظمهم من الهنود الاصليين الذين انتحلوا الاسلام عند دخول المسلمين فاتحين الى بلادهم وربما كان الكثيرون منهم من الطبقات المقصية أو القليلة المجد والتى وجدت فى الاسلام حرية واخاء ومساواة وضمانا لحقوق الضعيف والمظلوم فاتخذته درعا ضد اضطهاد البراهمة

غير أن هؤلاء المسلمين مهما كانت أصولهم فقد احتفظوا بكثير من شجاعتهم وسلطتهم الأدبية ؛ حتي ترى بعضهم يقول مفاخراً :

« نحن فاتحون ونحن حكام ، ونعرف وسائل الحكم والسلطة والسيادة فى هذه البلاد ، وهذا وجه خوف الهندوك منا فهم يخشون جانبنا لأننا سادة البلاد » وكان أعظم المصرحين بهذه السخافة السياسية الرجل المدعو شوكت على . الذى ثبت لنا كما ثبت لكل شرقى متصل بالحياة العامة أنه يعمل للاستعمار ويخدم الدول الأجنبية في بلاده وقد اتخذ

---

(١) لم يلبث أن يعود الى الهند من مؤتمر المائدة حتى مات بذات الرئة .

الاسلام والخلافة ستاراً يعمل وراءه لمصلحته الشخصية . لأنه لو سلمنا جدلا بصحة هذه النظرية وبصدق قولهم بأنهم سادة البلاد وحكامها ، فقد آن لهم أن يتنزلوا عن هذه الدعوى ويتخلوا عنها لمصلحة الوطن وهى أعظم من مصلحة فئة من فئاته أو طائفة من طوائفه . فان العالم المتحضر يسير في طريق المساواة لا فى طريق الاستبداد ، وان هذه الدعوى الباطلة ، لاتفيد مطلقاً الآن لأن المسلمين أقلية والهندوك يزيدون على ثلثماية مليون فأين يذهب سبعون أو ثمانون مليوناً في بحر هذه الأغلبية ، فضلا عن أن الهنادك متعلمون ومنورون ومنهم الشعراء والفلاسفة ورجال السياسة والاقتصاد والقانون . وقيام حرب بين الطائفتين الآن مستحيلة ولو قامت فانها تدور دائرتها على المسلمين لا محالة . ثانياً ان المسلمين بالاستمرار على اذاعة هذه النعرة السخيفة يعطون للانجليز سلاحاً قوياً حداً يتقربون به لدى الهندوس ويهددونهم به بعد أن يعيروهم بالتفريق الكائن بينهم وبين المسلمين . والهندوس أنفسهم اذا سمعوا ذلك القول تأخذهم العزة ويبغضون المسلمين ويضمرون لهم السوء . ولا يأمنون جانبهم مطلقاً وقد يعملون على أذاهم بكل الوسائل إما بنزع ملكية أراضيهم أو بأذلالهم أو بغوايتهم ليعودوا الى حظيرة الوثنية وقد حدث شئ من هذا فعلا . وهذا نفس ما ترغبه انجلترا لانه عين الشقاق الذى يمكنها من السيادة . والحكم المطلق في الهند . فنحن وان لم يكن لنا أن نلقى على الهنود درساً الا أننا نرى وجوب الاتحاد بين طوائف البلاد الشرقية جميعاً حيال العدو الاجنبي . ويسوئنا عزلة المسلمين عن غاندى .

وقد قابلنا كثيرين من الهنود المسلمين وغيرهم في طريقهم الى مؤتمر المائدة المستديرة ، وقابلنا غاندي ومن معه من الابطال والزعماء والقادة والشعراء والفلاسفة . وحادثناهم فكانوا جميعاً متفقين فيما بينهم على تمام الوفاق مع المسلمين . وقد رأينا من شوكت على بعد أن جمعنا بينه و بين غاندي وتعانقا على ظهر الباخرة « راجپوتانا » نفوراً وتكبراً ظنناه فى أول الأمر تهوساً بالعظمة،فاذا به تعلقاً بحكم الانجليز الذي كان شوكت على يدافع عنه بحياته حتى في المؤتمر الاسلامي الذى عقد في القدس فى ديسمبر سنة ١٩٣١ .

وقد سرنا أن رأينا أفضل عناصر الاسلام منضمة الى غاندى ولم يمكنوا الانجليز من أن يقولوا لهم « اتفقوا فيما بينكم أولا ثم تعالوا الينا لتتفقوا معنا » .

٧

وقد قابلنا من المسلمين الهنود شباناً متعلمين فى طريقهم الى لندن وهم من تلاميذ كلية عليجره التى أسسها السيد أحمد خان وحادثناهم على انفراد فاذا بعضهم متمسك بالفكرة الاسلامية وحجته فى ذلك أن الهنادك قد اضطهدوا المسلمين جملة قرون وقاطعوهم واعتبروهم من الانجاس تقريباً والذين لا تجوز معاشرتهم وقد تعطلت مصالح المسلمين فى البلاد وزاد جهلهم وصاروا في بلادهم أذلاء ، وكان الهندوس يبغضونهم بظن أنهم معادون للوطنية الهندية . فلما ظهر نوابغ من المسلمين ومن الهنادك تمكن الفريقان من جمع الكلمة ولم شمل الفريقين . وأخذ الجميع يعملون للمصلحة المتحدة فى الهند وانجلترا وعلى رأسهم المغفور له سير أمير على الذي ألف كتباً جليلة فى تاريخ الاسلام والشريعة والحضارة الاسلامية . ومن فضلائهم المرحوم أبو الكلام وسير إقبال وسير شافعى وظفر على خان وعباس طيبجى

وممن لقيناهم في العهد الأخير محمد على جناه وهو محام هندى مسلم متعلم ذكي وسياسي محنك ويكاد يكون انجليزى النزعة فى هيأته وحديثه وعاداته ولكنه وطني مخلص وهو شديد الحذر سيئ الظن برجال السياسة في الشرق والغرب ولكنه يتلهب غيرة على بلاده وهو قليل العلم بأحوال الشرق والاسلام وان كان قد انقطع لدرس المسألة الهندية . وهذا الرجل وضع منهاجاً مؤلفاً من أربع عشرة نقطة (تذكرنا بأربع عشرة نقطة وضعها ويلسون منذ أربع عشرة سنة) ومعظمها خاص بحقوق الانتخاب وامتيازات المسلمين في الولايات التى يكثر عددهم فيها . ومن آرائه التى تلقيناها عنه مباشرة فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣١ ان المسلمين والهنادك لا يجوز لهم أن يذهبوا الى مؤتمر المائدة المستديرة قبل أن يتفقوا فيما بينهم وهو قليل الثقة بغاندي ويتهمه بأنه يخدم طبقته وهى طبقة أرباب المتاجر الصغيرة . ولا يظن أن الهند تنال استقلالا على يديه لانه لابس « لا نجوته » أي سراويل قصيرة ، اشارة الى

الزى الذى اتخذه غاندي أما محمد على جناه نفسه فهو يلبس الملابس الافرنجية والقبعة الانجليزية ويدخن الجحشة على طريقة السكسون وهو يقدر ما حصل عليه الهنود من الانجليز حتى الآن بثلث حقوقهم وينتظر الحصول على الثلثين الباقيين . وقد علمنا أن محمد على جناه أشبه الناس فى السياسة بالاحرار الدستوريين وهو زعيم له أنصار من طبقة المتنورين وهو طبعاً يرفض زعامة شوكت على وأمثاله لانه يعتبر نفسه أرقى منه عقلا وعلماً ولا يقل عنه اخلاصاً وانتساباً للاسلام . وهذا النوع من الرجال نحترمه ونقدره قدره ولكنه ينفع وطنه بعد حصوله على الاستقلال المنشود أما الآن فانه يثير الشكوك وقد يخيب الآمال لأنه محام حريص أكثر منه زعيما وطنياً . ولعله مساوم أكثر من سياسياً . وقد قيل لنا انه خطيب قدير بلغته وهو يجيد الانجليزية . ولكن ليس بالدرجة التى يجيدها سير محمد اقبال الذى سموه بحق شاعر الهنود المسلمين وفيلسوفهم . فانه يمثل نوعاً آخر من الرجال فهو كهل فى منتصف العقد السادس أسمر اللون حسن التقاطيع سليم القلب صادق النظر ، مملوء بالعواطف الكريمة والآمال العالية وقد تلقى علومه فى ألمانيا وفى انجلترا واشتغل بالمحاماة والادب والفلسفة فى بلده لاهور . وهذا الرجل كان صديقاً حميما لمحمد على المتوفي فى العام الماضى (١٩٣١) وكان على ما ظهر لنا لا يحب أن يتحد محمد علي مع غاندى ، ولا يزال يجاهر بهذا الرأى لاعتبارات طويلة وجيهة فى نظره . ولكنه لا يرفض الاتحاد معه ولا يأبى العمل فى كنفه . ولكن له وجهة نظر قد تختلف عن وجهة نظر غاندي . ويهمني قبل كل شىء ان أقول انه ليس من نوع شوكت على وليس على مبادئه ولا علاقة بينهما فى شىء وقد قال لنا « لقد كان من سوء الحظ أن سافرنا من انجلترا الى مصر على مركب واحد » . وقد رأيناه فى أثناء اقامته القصيرة فى مصر يتهرب من مقابلة الرجل ويحسن التخلص من فرصة الاجتماع به ويصرح بأنه ليس على رأيه في شئ . وقد نزل في مكان غير الذي نزل به شوكت على وسافر بمفرده الى القدس لحضور المؤتمر ولم ينضم الى الرجل المذكور في فكرة أو رأى . وعندنا ان اقبال من نوع تاغور الشاعر الفيلسوف وهو مسلم بمعنى الكلمة ولعله من سلالة الفاتحين

وهو أديب فى اللسان الفارسى الذى يتقنه اتقانه للغة الهندوستانى والاوردى ، والانجليزى والالمانى ، وهو عظيم الأمل في نهضة الاسلام ومستقبله وظهوره بمدنيته ومجده كما كان فى سالف الزمان . وهو يرفض الوطنية الجنسية والفكرة القومية ويعتبر الاسلام رابطة ووطنا وجامعة أقوى من كل تلك الروابط . ويقول ان اوروبا أفسدت الشرق بأن أدخلت عليه فكرة الوطنية بالقومية أو بالانتساب الى بقعة معينة . فان الشرق تجمعه الروابط الروحية والدينية أكثر من الروابط الاخرى . وقد صرح لنا انه عند ماأراد محمد على الانضمام الى غاندى سنة ١٩٢٢ أو ١٩٢٣ زاره فى لاهور وعرض عليه الفكرة فعارضها اقبال وقدم حججه علي رفضها . ولكن محمد على أصر عليها .

و بعد حين عاد محمد على اليه وهو مريض قبيل سفره الى مؤتمر المائدة المستديرة (١٩٣١) وقال لاقبال انه آسف على انه خالف رأيه وقد رأي خطأه بالاختبار ، ولكنه يري نفسه مضطراً للسفر الى لندن . حيث لقى منيته . وقال اقبال عن نفسه انه لم يكن سياسيا ولم يكن مشتغلا بالسياسة وكان يعيش دائما بعيداً عن الاوساط السياسية وهو يحب أن يخدم قومه بالفكر والكتب والفلسفة والشعر . وله نظريات جديدة في تجديد التفكير في الاسلام ، وفي استنباط أساليب حديثة فى الفقه والحديث وعلم الكلام وفتح باب الاجتهاد لأنه عدو للجمود . ويعتقد ان القرآن ينطوى على كل شئ يؤدي الى تقدم المسلمين ونهوضهم . ويجاهر بأن الاسلام خدم المدنية والانسانية والعلوم الحديثة . فهو زعيم اسلامى أو مفكر اسلامي من طبقة أرقى من طبقة سيد أمير على المؤرخ ، لأن اقبال ينظر الي الاسلام باعتباره كائناً حياً قابلا للتطور والتحول نحو التقدم والاصلاح والنهوض بعد الركود والحياة بعد طول الرقاد والمرض . وربما كان هذا النوع من الرجال لايكترث كثيراً للحياة السياسية العملية ، لأنه ليس رجل كفاح فهو لايحارب الانجليز جهاراً ولا يشهر فى وجوههم سلاحا ، ويكفي دلالة على ذلك انه يحمل لقباً من ألقاب شرفهم ، ولكن هذا اللقب فى اعتقادى لايقدم ولا يؤخر ولا يقلل من وطنية الرجل فان كثيرين من الزعماء فى الشرق باشاوات دون أن يكون لتلك الباشوية أوالبك ميزانية

شأن فى أخلاقهم أو فى تقليل وطنيتهم . بيد اننا بعد أن عاشرنا اقبال وأحببناه واحترمناه ، لايسعنا الا الأسف على أن لايكون لرجل مثله فى خدمة بلاده نصيب أكبر . ولعل سياحته الاخيرة فى الغرب والشرق تساعده قليلا على الخلاص من موقفه الحالي . ومن أمثاله ذو الفقار على خان وجاودرى ظفر الله خان وشفاعت احمد خان وسردار سليمان قاسم الحاج ميتا وغيرهم

ومن الرجال الذين رأيناهم شفيع داوودى وهو محام هندى مسلم وشاعر وهو شيخ اشيب ولكنه محتفظ بقوة الشباب وحرارته وحياته وقد كان في اجتماعنا به فى نفس الوقت الذى التقينا فيه بمحمد على جناه تناقض غريب بين ذلك الشيخ الصريح الوطني المخلص الصادق النزعة المتمسك بالزي الشرقي في وقار واحتشام المملوء بالثقة فى مستقبل الاسلام الواضح الحديث الجلى الرأى . وبين الكهل النحيف الجاف المتفرنج الذي أخذ يساوم محادثه المصرى (وهو دكتور فاضل) وينظر اليه شزراً ولا يبوح له بكلمة الا اذا استدرجه فى عشر كلمات. ولكن شفيع داوودى من نوع أصدق معدناً وأرق جوهراً وهو من مندوبي الشعب وقد اشتغل بالحركة الوطنية منضماً الى جمعيات الخلافة التى تأسست وتطورت واندثرت ثم بعثت ولكنها دائما تمثل فكرة واحدة وهي وجود دولة اسلامية قوية ينضوى تحت لوائها جميع شعوب الاسلام . وهى فكرة سليمة في ذاتها وليس عليها غبار ولكن الذي يضعفها ويؤذيها هو دسائس المشتغلين بها وفتنتهم أمثال شوكت على الذى تلون وتلوى واتخذ جملة صور وأشكال فى بضعة أشهر . فقد كان أول ما رأيناه فى تشييع جنازة أخيه محمد على ودفنه فقد كان وطنياً هندياً مخلصاً يقول بقول أخيه الذى انضم الى مطالب غندي الى آخر لحظة من حياته. وسافر من الشرق ونحن نعتقده زعيما عظيما ومازلنا على اعتقادنا حتي عاد من الهند فى صيف عام ١٩٣١ يقصد مؤتمر الدائرة المستديرة فكان أول ماسمعناه منه من الحط من شأن غاندي والتقليل من مكانته في الهند واوروبا فدهشنا من ذلك وحذر من التصريح بهذا الرأي ثم ظهر الرجل بمظهر المصلح والموفق بين الاحزاب المصرية فقوبل فى بعض الاوساط بالاستهزاء والاحتقار فعذرناه وأعيد له النصح . وجمعنا بينه وبين غاندي على ظهر الباخرة

فظهر اخلاص غاندي وان كان غاندي ماكراً وماهراً في اخفاء مايبطن فيجب على الاقل أن ننتهز فرصة ظهوره بالاخلاص لنا والعمل على الاتحاد . ولكن شوكت على كان يضمر الغل ولما سافر الى انجلترا لم يسمع له صوت في المؤتمر سوى صوت الدسيسة والتفريق ولا غرابة فقد كان هو وبعض الهندو بين الآخرين ضيوفاً على حكومة دوننج ستريت ونزلاء سنت جيمس . ولما عاد من المؤتمر بعد فشله ، كان من الفرحين بهذا الفشل ومن الباهين بأنه كان من أدواته فشله وظهر في القدس بمظهر الدساس صاحب الفتن فحارب الاتحاد ونصر الانتداب والاستعمار وتلاعب بالافكار وتظاهر بجملة ألوان وعند اللزوم بكى بكاء مراً مثل النساء ووصف المعارضين بأنهم أعظم الشرفاء وخالف أصدقاءه في كثير من الأمور وانتهت الحال باكتشاف حقيقته وتسجيل فضيحته. والرجل في ظاهره أشبه الناس بصورة سانتا كلوز أونويل وهو الشخص الخيالى الذي يمثل الشيخ الذى يأتى للاطفال بالهدايا في عيد الميلاد . ومن سوء حظ الهندان شوكت على اوسانتا كلوز الهندى سيعود اليها فى عيد الميلاد يحمل في جعبته بدلا من الهدايا بضع مصائب وفتن وحيل دنيئة تؤدي الى اذلال الهند واعتقال الزعماء وضيعة آمال تلك الامة العظيمة . وقد لعب الرجل دوراً مخزياً وهو دور الخاطب أو الخاطبة بين أميرين من حيدر اباد وأميرتين من سلالة عثمانية وقال بعضهم انه يرمى بذلك الى تجهيز سلالة جديدة تتولى الخلافة الاسلامية تحت اشراف سادته الانجليز لاحقق الله له أملا ولا أسعده برؤية هذا البلاء . وترى هذا الرجل الغريب الاطوار يحيط نفسه في حله وترحاله « بزيطه وزنبليطه » من الاعلان عن نفسه في الصحف ونشر الاشاعات الكاذبة عن حركاته وسكناته كأن يقول انه سيقابل الملوك والامراء والوزراء والبابا وشيخ الاسلام ومصطفى كمال والخليفة المعزول فى سياحة واحدة ! كما يصنع سائح انجليزى في زيارة الآثار ! ! وشوكت لايبالى بالتناقض في خططه ولا بالشخصيات التى يجمع بينها فى رحلة واحدة . ونحن نمحو هنا كل ما أثبتناه فى هذا الكتاب من الثناء عليه مما كتبناه عنه عقيب وفاة أخيه فقد كنا كغيرنا نحسن الظن به ، ولكن هذا الظن الحسن لم تطل مدته وقد أبقينا ما كتبناه فى فترة

انخداعنا به ليكون حجة عليـه وعلى أمثاله فى تقلبهم وتلاعبهم . وقد أشاع بعـد عودته من القدس كعادته ان سيقابل « فلان وعلان وترتان » وانه ذاهب الى بلاد اليمن تلبية لدعوة الامام يحيى خليفة اليمن[1] ، ولعله ذاهب لينقل اخبار الرجل الى أعدائه ، أو ليحاول بلف « الزبود » كعادته فى بلاد الشرق والاسلام . ولـكن أهل اليمن أحرص وأعقل من أن يدخل مثل هذا المهرج المهوش في « زوارقهم » وهم الذين لم تنطل عليهم حيـل الانجليز والروس والطليان . واذا كان أهل الهند المسلمون لم ينخدعوا بهذا الرجل بعد ظهور حقيقة أمره وبرأوا الى شعوب الارض منه في جرائدهم وصحفهم وعلى منابرهم واعلنوا انهم كانوا يطلقون عليه لقب أسد الاسلام ، ولكنهم نزعوا عنه هذه الصفة وخلعوه بعد أن رأوا منه ما رأوا .

وحقيقة الامر تلخص فى كلمتين وهي ان محمـد على كان هو الرجل الصحيح العـقل والقلب السليم التفكير الصادق النظر وانه كان الروح المحرك وكان شوكت عـلى بمثابة الشبح له فمات الروح وبقي الجسم أو الشبح ، والاشباح عادة تكون دميمة ومزعجـة . والموت نقاد على كفه وقد إختار الافضل وترك الجعجاع والدوشن فلاحول ولاقوة الا بالله ! ولايجوز لنا أن نسيء الظن بمسلمى الهند لأجل شوكت على أو عشرة من السخفاء أمثاله

---

(١) وقد نفذ هذا البرنامج فى الوقت الذى اعتقل فيه غاندى وغيره من الزعماء (٤ يناير سنة ١٩٣٢) وعين شفيع داوودى سكرتير اللجنة الوطنية الاسلامية فانظر الفرق بينه و بينهم !

١٩

١

لايزال البحث دائراً بين لفيف من العلماء على أسباب الانشقاق الهائل بين الترك والعرب ، وهو الانشقاق الذي أدى الى زوال ملكهما معاً ، ومكن منهما أعداءهما حتى قضيا على البقية الباقية من دول الاسلام .

وقد رأيت وجهة النظر التركية منصبة على تخطئة العرب ، وكل ما قالوه فى هذا الباب صحيح ، وأيدته الحوادث التاريخية المصاحبة للثورة العربية واللاحقة للحرب العظمى وافتراس الحلفاء للدولة العثمانية ، وقد ندم العرب أنفسهم ولكن لا نفع فى ندم بعد فوات الفرصة ، وفاز من امراء العرب من فاز بالعروش والمناصب ، وضحى بأمم بأسرها .

أما وجهة نظر العرب المنصفين فى قضية الترك فهي أن الحركة التورانية كانت سبب البلاء . وأصلها أنه بعد الدستور العثماني ظهر في القسطنطينية احمد أغا ييف التركستانى (وهو الآن يعيش في موسكو) ومعه لفيف من أبناء وطنه في أواسط آسيا مثل تركستان الغربية وغيرها وكانت تحت حكم الروس ولاتزال وربما كان معه حميد الله صبحى وكانوا يعيشون فى الاستانة قبل إعلان الدستور ولكن فى الخفاء ، أو ان استبداد عبد الحميد لم يسمح لهم باظهار ماتكنه نفوسهم . فلما أعلن الدستور تشجعوا واتصلوا بالاتحاديين جهراً وأقنعوا زعماءهم أمثال المرحومين محمد طلعت واحمد جمال ودكتور ناظم ووهيب باشا وآخرين بان في آسيا شعباً يتجاوز عدده أربعين مليوناً يمتون كلهم الى الاتراك بأواصر القرابة والجنس والدين واللغة ، وتربطهم بالترك رابطتا التاريخ والماضى ، وأن هذا الشعب متعطش الى الانضمام الى تركيا ، التى يجب أن يكون مستقبلها فى آسيا ، بعد الذي رأته من تنمر اوروبا وتألبها وتهجمها على أملاكها ، ولا سيما بعد ظهور الدستور فان تعميمه في تلك البلاد الشرقية الاسلامية كفيل

بأن يخلق في وسط آسيا دولة اسلامية من أقوى دول العالم ، لاتقل بأساً عن اليابان فى الشرق الأقصي ، ويظهر أن أغاييف ومن معه كانوا مطلعين على فتنة العرب ، وما يبطنه بعض هؤلاء للترك ، لاسيما وأن ثورة اليمن كانت لاتزال مشتعلة وان كان قد مضى على قدح زنادها ثلاث سنين . فلقيت هذه الدعوة ارتياحاً فى نفوس الاتحاديين وقبلوها وخلقت فى أذهانهم سراباً جميلا وحلماً لذيذاً لو تحقق كان بمثابة تجديد للدولة العثمانية في صورتها الاولى ، ولاسيما أن العالم كان قد تخاص نوعاً من رابطة الدين ، وأخذ يسير حثيثاً في طريق الجنسيات . وأن الحق يقضى علينا بالقول بأن انور باشا رحمه الله لم تكن له يد في هذه الحركة ولم يمل اليها لأنه وبعض اخوانه كانوا يفضلون الرابطة الاسلامية ويرون إنعاش الاسلام واحياءه ، بغض الطرف عن الجنس والقومية ، وكان انور ومن علي شاكلته من أبطال الاسلام وحماته يعرضون على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ويرفضون أي نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبيتهم الاسلامية لأن المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو به عن جنسه وشعبه . وهذه كانت معقولية انور في سنة ١٩٠٨ ، ولكن سير الحوادث كان أقوي من العقائد وقد لقي انور رحمه الله حتفه وهو يقاتل مستبسلا في بلاد تركستان (اغسطس سنة ١٩٢٢) فاستشهد فى سبيل الفكرة التى لم يوافق عليها قبل ذلك بأربع سنين كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

ويظهر أن احمد أغاييف كان على نصيب من علم تاريخ الشعوب وأصول الأجناس البشرية فأدخل في روع الاتحاديين أن الشعوب (الاورالو الطايك) أو الجنس الطوراني لايشتمل على الترك العثمانيين فى اوروبا والاناضول ، بل انه يشتمل أيضاً على التركمان والتتر والقوقاس ، وتطرف بعضهم فصار ينادى بأن المجر والفنلنديين وولايات البلطيك والبلغار وأهل سيبريا والموغول والمنشوس كلهم أقارب واخوان أو أبناء عمومة وانهم أقرب الى الترك القائمين بأمر الدولة من العرب الذين يشقون عليها عصا الطاعة ويخلقون القلاقل والفتن .

على أن التحقيق العلمي لم يكن له مجال أبعد من هذا ، وكان يكفى التلويح بهذا

الخاطر ليعتقد الاتراك بأن مابينهم وبين الشعوب الآنفة الذكر من النسابة اللغوية والخلقية الغريزية وما هى عليه من التقاليد التاريخية الجمة الحية كاف لأن يحملها على الاعتقاد بأنها متحدرة من أصل واحد .

٢

فلما استتب الأمر للاتحاديين بدأوا يفكرون فى تنفيذ الخطة فاتفق أمرهم على ايفاد مائتى ضابط من أمهر رجال الجيش وأعلمهم وأشجعهم وكلفوهم بالسفر الى تلك الأقطار النائية تحت ستار المشيخة والأساتذة والدراويش فأتقنوا التخفى وساروا الى أواسط آسيا حيث انتشروا واتصلوا بالمدارس الأولية يعلمون الأطفال ويبثون فيهم روح الرابطة الطورانية في سر وخفاء . وكانت الحكومة العثمانية التى اتخذت لهذا الأمر ما يحتاج اليه من الحيطة والحذر ، قد حفظت حقوق هؤلاء الضباط في الترقى والمرتبات ، حتى لايضيع عليهم الوقت الذي يصرفونه في غاية الامبراطورية السامية .

وقد أقام هؤلاء الضباط المعلمون نحو سنتين لقوا فيها أكثر مما كانوا ينتظرون من حسن الاستعداد وكمال القبول ولمسوا بأيديهم علائم النجاح التى تبشر بتحقيق هذا الحلم الجميل .

ويظهر أنه فى أثناء تلك المدة أخذ الكتاب الاتراك في العاصمة ممن اقتنعوا بصحة الرأى يدعون اليه بالكتب والمقالات حتى بالاناشيد والقصص . ولما كان أمر كهذا لايمكن أن يبقي سراً مكتوماً على رجل الخفية والجواسيس الروس وغيرهم فقد اشتموا رائحة الخبر بما حرك شكوك حكومة بطرسبرج ، فأوفدت عالماً مسلماً تتريا ، ووكلت اليه تحقيق الأمر فى الاستانة فسافر اليها محاطاً بمظاهر الصلاح والتقوي ، وأظهر من ضروب الوطنية التترية والطورانية ماجعل زعماء الاتحاديين يتصلون به ويأمنون جنبه ويفضون اليه بحقيقة الأمر ، وقد طالت إقامته عاماً .

وعند ماعزم علي الرحيل زودوه بالمال والكتب وأطلعوه على أسماء الضباط ومهمتهم وفوضوا اليه معونتهم عن طريق العلماء والطلاب . فوعدهم خيراً وعاد محملا بالخيرات

والخطط ، ولكن لا ليشد أزر الطورانية ، انما ليبوح بالأسرار كلها لسادته الروس الذين أرسلوه وكانوا يدفعون اليه المرتب. فانظر الى خيانة عالم شرقي لوطنه واخوانه !

ولم يمض على وصوله شهر حتى صدر أمر الحكومة الروسية بالقبض على جميع الضباط الاتراك المتخفين ونفيهم من آسيا الوسطى وردهم الى تركية اوروبا . وكان قد مضى عليهم فى آسيا سنتان أو ثلاث ولكنهم عند ماوصلوا الى الاستانة فى يوليو سنة ١٩١١ ونقلوا الى الاتحاديين أخبار رحلتهم واقامتهم في التركستان وسمرقند وطاشكند وبخارى وخيوه ، كانت الفكرة الطورانية قد بلغت أشدها وقد ساعدتها كتب البحاثة المستشرق أرمنيوس ڤامباري المجري الذى هو في طليعة علماء الجنسيات فى العالم ولعل انتسابه الى الشعب المجرى هو الذي جعله يعطف هذا العطف العظيم البادي في كتبه ومقالاته على الشرق والترك والاسلام ، ولم يكن ليون كوهين الكاتب الفرنسى ليقل عنه سعياً في نشر الفكرة الطورانية ولكن غايته كانت علمية محضة .

على أن بعض الباحثين يرى أن الفكرة التى كان رسولها احمد أغاييف وعصبته لم تكن وليدة فرد من الأفراد ، ولم تكن اوروبية النشأة انما كانت ترجع الى الشعب التترى نفسه الذي تذكر ماضيه الحافل بأخبار الفتح والغزو ، والاستيلاء على الممالك ورأى نفسه فى أواخر القرن التاسع عشر رازحاً تحت قهر الروس واستبدادهم وتعصبهم فنهضوا نهضة جنسية وأظهروا من الذكاء والفطنة ما كان كفيلا بحفظ كيانهم السياسى ، الى أن جاءت الثورة الروسية الأولى في سنة ١٩٠٥ فظهرت نهضتهم واعتزت ، ولما كانوا يبلغون فى ذلك الحين نحو خمسة وثلاثين مليوناً فقد اشتمل مجلس الدوما الأول في روسيا على عدد كبير منهم كانوا في جهادهم السياسى عصبة متحدة فغالبوا الصعاب بغاية البذل في الذكاء والدهاء والحنكة حتى غدا الرأي العام الروسى على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقلل من عدد النواب المسلمين التتر كيما يقل بذلك نفوذهم في دور الحياة الدستورية الجديدة .

فاذا نظرت الى أن البرلمان الروسى سابق للبرلمان التركى بأربع أو خمس سنين ،

وأن التتر ، ومسلمي روسيا والقريم كان منهم مهذبون وكتاب وسياسيون أمثال المرحوم اسماعيل عضبر نسكي الذي زار مصر حوالى سنة ١٩٠٤ أو سنة ١٩٠٥ واسحق عياض بك المنفي والمقيم ببرلين ، دركت أن الحركة الطورانية كانت حركة محتمة الحدوث وانها كانت ذات شعبتين الأولى فى الشرق ومركزها تركستان وبطرسبرج والثانية في الغرب ومركزها في الاستانة . وان احمد أغابيف لم يكن الا رسول الطورانية الشرقية الى الطورانية الاوروبية وقد وجدوا غير قامباري وكوهين رجلا منهم يعد كاتب الحركة غير مدافع هو يوسف اقشورة أوغلى المسلم التتري مؤلف « الأنظمة السياسية الثلاثة » وهو يعد بحق الكتاب الابتداعى فى هذا الموضوع . وما ناله يوسف اقشورة اوغلى بكتابه ، نال أكثر منه أغابيف بجريدة تورك يوردي أو الوطن التركى التى كانت منتشرة في جميع أنحاء العالم الطورانى .

٣

وكان في هذه الفترة تياران عظيمان يتنازعان الدولة العثمانية الأول تيار الجامعة الاسلامية الذى كان بطله الأكبر عبدالحميد الثاني ، وكان هذا التيار يقتضى انضمام العرب واخلاصهم وهذا التيار قد ضعف وتلاشى بسقوط عبد الحميد وبتألب العرب واتفاقهم مع أعداء الترك من وراء ظهورهم ولم يبق الا التيار الطورانى الذى كان يرتكن أولا الى الجنسية وهي نظرية حديثة ملائمة للزمان والتطور ، وثانياً الى الدين لأن كل الطورانيين الحاليين مسلمون ، ولا نأبه مطلقاً لما شاع وملأ الأسماع من اتهام الاتراك بعبادة الدب الأبيض ورجوعهم الى الوثنية أو عبادة الفتيش . وان كان الدب الأبيض قد ذكر في بعض كتابات هؤلاء الدعاة فلعله ذكر بمثابة توتيم ، كما يذكر الرومان الذئبة التي أرضعت التوأمين روميلوس وريموس ، وليس في هذه الذكرى عبادة أو تقديس . ولا يزال بعض قبائل العرب ينتسبون الى « صقر » و « كلاب » ولا يطعن هذا فى دينهم ولكنه بقايا من عادة اتخاذ كل قبيل لشعار من فصائل الحيوان .

وانى على يقين من أن خرافة الدب الأبيض كانت دسيسة لاضعاف شأن الطورانية

فى نظر العالم وإهاجة الرأى العام الاسلامى ضـدهم . فإن طلعت وجمال وناظم وضياء كوك آلب وشكرى بك لم يكونوا وثنيين ، كما أن انور الذى كان متمسكاً بدينه كان يعتقد أن أتراك آسيا الذين كانوا يحنون الى أتراك اوروبا ويعقدون آمالهم على أهل صطامبول إنما يحنون اليهم لكونهم مسلمين لا لكونهم أتراكاً فلو كان أتراك اوروبا وثنيين ماعرفهم أتراك آسيا ولا سألوا عنهم . وقد دلل علماء تركستان على صدق إيمانهم بأعمالهم .

صحيح أن الاتراك أخـذوا فى صبغ كل شيء بالصبغة التركية ، وكانوا يضمرون أنهم اذا تقووا بأتراك آسيا يستطيعون استرداد قوتهم في العالم ، وربما كان ذلك يكون في مصلحة العالم الاسلامي كله . ولكن العرب ومن ورائهم الاوربيون المستعمرون والسوريون المسيحيون المتوطنون في باريس والقاهرة وبعضهم باعوا أنفسهم وضمائرهم للأجانب ، لم يمهلوهم ، وانتهزوا هذه الفرصة لاشعال نار الفتنة ، فكان رجال أمثال جورج سمنه وأيوب ثابت ويوسف هانى وشكري غانم وندره مطران ونجيب عازورى وغيرهم حلقة اتصال بين اوروبا المستعمرة وبين العرب البسطاء سواء في الحجاز والجزيرة العربية وفي سوريا وفلسطين وهاجوهم فعلا على الاتراك بكتب وصحف ومجلات ومؤتمرات .

وكنت في الاستانة فى شتاء سنة ١٩١٠ وأوائل سنة ١٩١١ وقد رأيت بوادر هذه الحركة ولقيت بعض زعماء العرب مثل شفيق المؤيد وعبد الحميد الزهراوي وكانوا إذ ذاك أعضاء في مجلس الأعيان العثمانى ، وحولهم لفيف من عرب الاستانة وطلاب العلم في المدارس العليا وهم من العرب ، وقد رووا لي أخباراً كثيرة عن اضطهاد الترك للعرب في الدواوين والمدارس والصحافة وغيرها .

وقد روي لى بعد ذلك أحد الثقاة المطلعين على دخائل تلك الحركة وممن عاشوا في الاستانة فى سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ ولم يكن ينقطع عن التردد عليها وكان على اتصال دائم بالاتحاديين ولا سيما المرحومين طلعت وأنور ، أن كوك الپ السالف الذكر كان كردياً وكان داعية الى الجامعة الكردية وألف كتباً في النحو والصرف الكرديين ورسم خطة للوحـدة

الكردية ولكنه انقلب فى عشية وضحاها الى الحركة الطورانية وسايرها ودعا اليها وألف فيها شعراً ونثراً . وأخذ شبان الاتراك لاسيما الضباط يغيرون أسماءهم ويبدلونها من الأعلام العربية الى أعلام أسيوية تترية مثل الب وجنكيز ، وتيمور وأخذ ولاة الأمور يتخلصون من الألفاظ العربية في لغتهم

وألف عبيد الله افندي النائب فى البرلمان العثمانى كتاب « قوم جديد » دعا فيه الى تقديس أسماء طلعت وأنور وجمال وناظم واحلالها محل محمد وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى في القبة الكبري بمسجد اجا صوفيا ، وأخذ الترك يضطهدون العرب الذين يشغلون المناصب فى الدولة فيضعون أمام كل عربى حرف « ع » وينتهزون الفرصة الأولى لفصله من خدمة الدولة باقصائه الى أطراف المملكة أو الى قلب الاناضول ليحلوا محله موظفاً تركياً يكون أكثر ائتماناً على أسرار الدولة . وسرت هذه الحركة الى الجيش فزعموا أنه بعد أن كانت الفرق تنهض صباحاً على أذان المؤذن والوضوء فالصلاة الاسلامية ، أخذوا يوقظونهم بأجراس لينشدوا نشيد الدب الأبيض . وقد أخذ شبان الأتراك يتقربون الى الارمن واليهود والأروام ، ويحتقرون العرب ويبتعدون عنهم كذلك كانت حال العرب نحوهم . وقد سمعت هذه الشكاوي بأذنى من بعض طلاب العرب في المدارس الحربية ومكتب الحقوق والطب

٤

وكان العرب المقيمون في الاستانة قد غضبوا لهذا ، مع أن أقاربهم واخوانهم فى الحجاز وسوريا واليمن هم أصل هذا البلاء ، فاجتمعوا وألفوا فيما بينهم جمعية العهد العربية السرية ليناهضوا بها جمعيات الوطن التركى والجنسية الطورانية التي تألفت فى الاستانة . وحسبوا أن العالم العربى فى العراق وجزيرة العرب وسوريا وشمال افريقا يبلغ نحو ثلاثين أو خمسة وثلاثين مليوناً وهم أغلبية بالنسبة الى أتراك اوروبا ، وان كانوا مغبونين فى التمثيل السياسى لأنهم مع كثرتهم فى الحقيقة لاتمثلهم فى البرلمان التركى الا اقلية ، لأن الأتراك احتفظوا لأنفسهم بالأغلبية .

وهذه حقيقة لاريب فيها ، ولكن العرب تجاهلوا المقصود منها وهو أن الترك كانوا حتى هذه الساعة هم العنصر الغالب فى الدولة فيجب أن يكون الحكم فى أيديهم ، ولا يكون ذلك الا بكثرتهم فى المجلس وتشكيل الوزارة منهم مع تمثيل العرب بوزيرين أو ثلاثة . وكان يمكنهم أن ينتظروا حتى يطمئن النظام الدستورى في البلاد ويطلبوا بالتدريج تعميم حق الانتخاب وتعديل قانونه بحيث يكفلون الكثرة البرلمانية على مر السنين. ولكنهم تعجلوا واتخذوا من خطة الأتراك التى كانت عبارة عن وسيلة من وسائل الدفاع عن الكيان التركى سبباً للمعاداة والشغب .

ومما يؤسف له أن رجالا من أعظم رجال العرب فى الجيش العثمانى ومن أشهر قواد تركيا، الذين أحلهم الأتراك أعلى محل كانت لهم أيد فى تلك الجمعية التى ضمت الى صدرها كثيرين من جهلاء العرب ودهمائهم ممن لم يكن لهم فى السياسة نظر قريب ولا بعيد .

وقد اشتعلت نيران الفتنة بفضل هذه الجمعية في المدارس ، حتي كان الطلاب الترك ينشدون الأغانى فى مدح جنكيزخان وتيمورلنك . فيجيبهم الطلبة العرب بذكر صلاح الدين وخالد بن الوليد والزبير بن العوام وطارق بن زياد والعبادلة السبعة .ومن تلك الأغانى ماننبته لا للاستشهاد ببلاغته وجماله ولكن لندلل على الروح التي أوحت به ،مانظمه سليم الجزائرى ، الذي ثبتت تهمته بالانضمام الى أعداء الدولة قبل الحرب العظمى وفي أثنائها ، الاغنية الآتية بعنوان « أم عربية تناجى طفلتها » قال :

لتدم هذه البنية	تنمو وتغدو صبيه
أزفها شجاعاً	فلا ترى مسبية
تلدن كل همام	من فارس مقدام
يمزق الطغام	بهمة عربية
تلدن كل «عزيز»	يجود بالنفيس
يدق هام خسيس	بشجاعة وحمية

يشعل نار الحرب لدق عنق الكاب
ونيل عز العرب من أمة تركية

ومما ساعد على اشتعال النار بين العرب والترك الاتحاديين انه لما تألف حزب الائتلاف وهو حزب تركى ينازع الاتحاديين السلطة حباً في المناصب ورئيسه الكولونيل صدقى بك (ويعيش الآن فى رومانيا) أفضى الائتلافيون بأسرار الاتحاديين للعرب وأطلعوهم على خططهم نكاية فى الاتحاديين وحباً بالانتقام منهم

وفي تلك الظروف السيئة المشؤومة أعلنت الحرب البلقانية وهي الهجوم الصليبي الأخير على الدولة العثمانية . وقد كانت أسباب هذه الحرب خافية على المعاصرين ، وظنوها جاءت مصادفة ، والحقيقة أنها كانت مدبرة من جهتين كما أثبتته مباحث المؤرخين الأولى روسيا التى شعرت بقوة الحركة الطورانية وخشيت عاقبتها لأن الاتراك كانوا يشيعون أنه لن تقوم للوحدة الطورانية قائمة الا بزوال الدولة الروسية فضلا عن اتجاه نظر الاتراك الى أواسط أسيا مع وجود وحدة الاصل واللغة والجنس والدين ، كان خطراً دائما يهدد الروس وهم يرون في التتر المسلمين والتركستان من قوة الشكيمة وحدة الاذهان ، وقوة الارادة والشجاعة الفطرية ما يجسم الوهم ويجعل حالتهم بمثابه « الخطر التتري » فدفعت بأذنابها وخراطيمها المسمومة وهي دول البلقان الى مناوشة الاتراك ومحاربتهم ليشغلوا بملكهم في أوروبا عن الحلم المؤمل فى أسيا . والجهة الثانية كانت ساسة انجلترا وفرنسا ، فانهم يطربون لهذه الحرب ويشجعونها لا من حيث أنها تضعف الاتراك وقد تذهب بريحهم بل لأنها تفقد المانيا حليفاً قوياً يخشون منازلته في ميدان الحرب الكبرى التى أمست في سنتى ١٩١١ و ١٩١٢ أمراً مؤكداً . وهكذا كانت حرب البلقان نتيجة هاتين المؤامرتين الأوربيتين . وكانت تركيا لا تزال ضعيفة من فتنة اليمن بحيث لم تستطع في ١٩١١ أن تظهر بمظهر الحرب ضد ايطاليا عند اعتدائها على طرابلس الغرب وهى احدى الولايات التركية التى اغتصبتها ايطاليا

٥

وكانت نتيجة تلك الحروب البلقانية ان خرج الترك من أوروبا وتقلص ظلهم عن تلك الديار حتى أدرنه مدينتهم المقدسة المحبوبة ، واذ رأوا ذلك أخذوا يحصرون آمالهم فى آسيا . وكانت الدعوة الطورانية قد اشتد ساعدها وظهرت قوتها وأراد الاتراك أن يضموا اليها فكرة الجامعة الاسلامية ، ولكن العرب كانوا قد خرجوا من أيديهم . فلما جاءت الحرب العظمى انضمت تركيا الى دول الوسط وتنمرت للحلفاء الذين كانوا يحكمون أعظم عدد من المسلمين والعرب فى العالم ، لأنهم أي الحلفاء الاعداء الفطريون للدولة العثمانية ولدول الشرق الاسلامى .

قلنا ان الترك لم يستطيعوا استنفار العرب لان العرب خرجوا من أيديهم للعوامل التى فصلناها آنفاً . وان العرب كانوا فى نفس العاصمة العثمانية يجتمعون ويتآمرون ليفصلوا ويمزقوا أجزاء الدولة العثمانية مملكة مملكة بحجة اللامركزية وهي فكرة في ظاهرها عادلة وفى حقيقتها خبيثة ضارة لأنها تؤدى حتما الى الانفصال والتمزيق لا سيما بعد أن ظهرت نيات العرب الذين كانوا يسلمون لحاهم لفئة المغامرين والافاقين من السوريين المسيحيين والمسلمين الذين كانوا يعيشون كالافاعي في باريس والقاهرة ولقينا بعضهم أحياء وعلمنا أن رؤوس بعضهم قد طارت عن أكتافهم ولا يزال بعضهم على قيد الحياة !

وقد وصف لنا أحد ثقاة المؤرخين المسلمين أنه فى سنة ١٩١٣ كان فى الاستانة فدعى الى اجتماع فى ادارة جريدة الحضارة التي كان ينشئها عبد الحميد الزهراوي واتخذ لها داراً في عمارة بجادة نورى عثمانية امام نادي الاتحاد والترقي . فوجد بالاجتماع عشرين شخصاً من خيرة رجال العرب فى الاستانة وكلهم من رجال البرلمان والجيش والبحرية والعلماء . ومعظمهم من سوريا وكان هؤلاء السادة قد اجتمعوا لينظروا في الوسيلة التى يطلبون بها وضع بلادهم تحت حكم فرنسا فاعترض عليهم أحد الحاضرين وبين لهم ما في ذلك العمل من الخيانة لأنفسهم ولدولتهم . وأن فرنسا اذا دخلت بلادهم لاترحمهم وتاريخ استعمارها حافل

بالمظالم والمغارم وظاهر كالشمس في أفريقيا وآسيا فانبرى له بعضهم واتهمه بالجهل وعدم الحضارة، وكان في مقدمة المعترضين عليه الزهراوي، الذى كان سليم النية وجاهلا بالامور السياسية وكان ظاهره يخدع ويغر، ولم يكن يصلح لأكثر من كتابة مقال في تاريخ الاسلام على الطريقة القديمة لانه لم يكن يعرف لغة أجنبية ولم يكن له اطلاع على العلوم الحديثة، وقد راح ضحية استسلامه لعمون وسمنه ومطران وغيرهم من الخونة.

فلما أخذ المعترض يشرح بعض مظالم فرنسا ويتهم المجتمعين بالغفلة والغرور انبرى له قبطان في البحرية العثمانية وهو سوري الأصل اسمه «سالم الغلبان» وقال له «كم قبضت من طلعت أمس؟» يتهمه بالرشوة والتجسس وبيع الذمة، وكان هذا دائما دأب الشرقيين لا يثق بعضهم ببعض ويسيئون الظن بأفاضلهم ولا يحسبون أحداً يخلص لله لأنهم خلو من فضيلة الاخلاص وأسهل شئ لديهم اتهام الناصح أو المخالف للرأي بالخيانة والرشوة! فسكت الناصح، وانسحب.

وقد شاءت الأقدار أن يلتقي المعترض ذلك القبطان بعد عشر سنين في أشد حالات الشقاء في شرق الاردن يستجدي بعد أن ملك الفرنسيون بلاده وطردوه منها، وكان بالأمس قبطانا في البحر، وكان يمكن أن يكون أميرالا لو أنه أخلص لدولته.

وكان بعض المجتمعين مواليا للاتراك، ويدفع مشروع التنازل عن الوطن بكل ما أوتي من قوة ولكن التيار كان جارفاً فاستدرجوهم الى مؤتمر باريس الذى عقد في تلك السنة نفسها برياسة عبد الحميد الزهراوي الذي لم يكن الا صورة، يخفون مقاصدهم السيئة وراء عمامته وجبته ولحيته الحمراء رحمه الله وغفر له.

وكانت الروح المحركة لهذا المؤتمر هم شكري غانم وجوج سمنه ويوسف هاني وأيوب ثابت وشفيق المؤيد وندره مطران وخليل زينيه ومنهم من وقع على الضبطة التى عثر بها جمال باشا فى سوريا وفيها يطلبون حكم فرنسا فى الشام وبناء عليها شنق بعضهم ولم تصل يده الى الآخرين ولا أشك في أن بعض الذين حضروا هذا المؤتمر كانوا مخلصين للاتراك مثل المرحوم مختار بيهم وغيره ولكنهم قلة.

وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر في الصحف وفي كتاب خاص .

ولكن المسيو باريتودي لا روكا أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية أفضى في سنة ١٩٢٠ بحقيقة أعمال هذا المؤتمر التى كانت جارية وراء الستار فقد قال «انه لما طلب السوريون الاحرار (كذا) عقد المؤتمر فى باريس لوضع سوريا تحت الحكم الفرنسوى (كذا) وطلبوا التصريح بذلك ، طلبنا منهم أن تكون جميع قراراتهم من صورة مزدوجة واحدة منهما ترسل الى وزارة خارجية انجلترا والاخرى ترسل الى كى دي أورساي مقر وزارة الخارجية الفرنسوية . وقد طلبوا الحماية الفرنسوية رسمياً . وان طلب السوريين حكم فرنسا لم يكن نتيجة الحرب العظمى ولا ثمرة المعاهدات السرية ولا معاهدة سايكس بيكو ، بل كان قديماً جداً » اه كلا دى لاروكا . أما الذين ذهبوا ضحية بريئة وشنقوا ظلماً على يد جمال باشا فهم شكرى العسيلي وعبد الوهاب الانجليزى وعبد الغني الفرنسي ولا رابع لهم .

وكان حنق الفرنسيين على الانجليز بعد الحرب بالغاً لانهم أضاعوا عليهم أبار الموصل وكليكية ، ولم يعطوهم سوى سوريا ولبنان ، مع أن سوريا ولبنان ، على حد قولهم كانت مضمونة لهم من قبل الحرب فكأنهم لم يربحوا شيئاً . وان حقدهم على فيصل لا يزول مطلقاً لأن الانجليز اتخذوه وسيلة للمساومة فدخل دمشق فى سنة ١٩٢٠ بوصف كونه قائداً خاضعاً للقائد اللنبي فعقد المؤتمر السوري وأعلن استقلال سوريا ونودى به ملكا عليها . وعين رضا الركابي حاكماً للبلاد الداخلية . فكلفهم ذلك العمل ثمناً غاليا لانهم حشدوا جيشاً قوامه ١٠٠ ألف عسكرى وهاجموا دمشق بثلثيه وحارب فيصل حرباً صورية فى موقعة ميسلون ، الشهيرة باستسلامه ، حيث مات يوسف العظمة وزير حربيته شهيداً وقبض على بقية الوزراء وحوكموا وحكم عليهم بالسجن المؤبد فى جزيرة أرواد ومنهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر الذى كان وزير الخارجية فى تلك الحكومة الخيالية التى لم تدم أكثر من بضعة أشهر .

وقد روينا فى مكان آخر من هذا الكتاب ما كان من شأن فيصل الذى سافر الى أوروبا وعاد بعد سنتين ملكا على العراق .

ولو رجعنا الى حقائق الامور والاستنتاج لرأينا أن الاتراك كانوا معذورين فى القيام بالحركة الطورانيــة لأنها مغرية ومطابقــة للحقائق التاريخيــة ، ولايلامون على انهم أرادوا انماش جنسهم وانقاذ اخوانهم في أسيا . ولـكن العرب لم يكن لهم عذر في فتنتهم لاسيما وان الدافع لهم عليها كانت مطامع الاجانب المستعمرين الذين كانوا ينصبون الحبائل لدول الاسلام. ولم يكن خافياً على زعماء العرب ان فرنسا وانجلترا وروسـيا كانت متربصة للدولة ، وكانت تترقب الفرص للبطش بها ولم يكن رجالها ووسطاؤها وجواسيسها بالغافلين . وقد نبه العرب الى حقيقة الحال بعض الأفاضل أمثال الامير شكيب ارسلان الذى كان عضو المبعوثان ، وكان على اطلاع مستمر بدخائل السياسة الاوربية وقد أنذرهم بأن الفتنة العربية ستؤدى الى القضاء على الدولة العثمانية . وكان الاتراك لايألون جهداً في بذل النصح لاخوانهم العرب بعد أن اطلعوا على مقاصدهم والترك قوم فى غاية الذكاء والفطنة وكانوا يعلمون «خائنة الأعين وماتخفي الصدور » ولكنهم كانوا فى السياسة مشربين بالرحمة ويأبون الغدر و يكرهون الخؤون . .

وكانت كل تلك الحوادث قد سممت عقول العرب وجعلتهم طعاماً طيباً لنار الحلفاء فلما نادى الحسين بالثورة لباه كل عربى فى انحاء البلاد والتفوا حوله لأنهم كانوا يتلمسون علما ينضمون تحتــه . والخطأ الذي ارتـكبه العرب أكبر من الخطأ الذى ارتـكبه الاتراك وكانت نتيجته ضياع دولة العثمانيين وضياع الممالك العربية وفقد استقلالها وتحطيم آمال العرب وخضوعهم للحكم الأجنبي .و بعضهم يظهرون الندم بعد الاوان و بعضهم فاز بثمرة الخيانة .

عند ماانتهت الحرب العظمى ، وظهرت حقيقة وعود الحلفاء الذين كانوا « يدافعون عن المدنية والحضارة من وحشية الالمان ، وانهم سينهون هذه الحرب بلا ضم ولاغرامة » . وأراد الانجليز القضاء على البقية الباقية من الدولة العثمانية باقتسام البـلاد العربية المتفق على ابتلاعها من عشرين عاماً ، سقطت سوريا فى أيديهم في أول الامر بغير حرب ولاضرب لأن سوريا كانت خالية من وسائل الدفاع ولأن بعض أهاليها ساعدوا الحلفاء على احتلالها وكان الناس موتورين من الترك بفعل الدعاية الاستعمارية والنعرة العربية ، ومخدوعين ببيان الحلفاء

ووعودهم وخطب ويلسون ونقاطه الاربع عشرة وكان الحلفاء فوق هذا مسلحين ولهم قوة عسكرية عظمى.

٦

وقد ثبت لكل ذي عينين ان العرب هم الذين جروا الخراب على الدولة العثمانية ولم يكن دخولها الحرب في صفوف دول الوسط هو السبب لأنها دخلت الحرب مرغمة وقد اختارت أخف الضررين لتدفع عن نفسها عادية الحلفاء الذين كانوا متآمرين عليها وقد بلغ من فجور هذه الدول المتحالفة انها جندت جيوشا من المسلمين فى شمال افريقا والهند وغيرها قبل اعلان الثورة العربية ، لمحاربة تركيا دولة الاسلام العظمي ولم تثر تلك الجيوش ولم تنشر علم العصيان لأنها كانت مقهورة بحكم الأنظمة العسكرية القاسية . ومما يتمزق له قلب كل مخلص شرقى ان هذه الامم التعسة التى اشترك جنودها في محاربة الالمان والترك بعد أن رأت ما رأت من انتصار الحلفاء ونكثهم بالوعود وخيانتهم للعهود قام منهم فريق (وكان بعضه فى جريدة عربية) يطالب الحلفاء بالحساب ، ويقولون لهم نحن ساعدناكم فى الحرب وضحينا بمئات الالوف فى سبيل قضيتكم فادفعوا لنا الثمن وهو حرية بلادنا ، وكان الحلفاء يضحكون من تقديم هذه الفاتورة التى لم تكن في الحسبان لأنهم يعلمون علم اليقين ان تلك الجيوش الشرقية لم تحارب فى صفوفهم مختارة ، ولكنها أرادت أن تستخرج نتيجة حسنة من عملية مشؤومة . . فلم يعيروها أقل التفات وعاملوا الناطقين بهذا القول معاملة الخادم الذى يقول لمولاه « كافئني اليوم فانني أحسنت الكنس والرش ولم أسرق من ثمن اللحم والبقول ! »

وكانت هذه النظرية هي التي حاول الاختفاء وراءها حسين رشدى طبوزاده رئيس وزراء مصر الاسبق ، فانه كان يدافع عن نفسه بأنه انتوي أن يمد الأنجليز بالمال (٣ مليون) والرجال (فرقة العمال مليون رجل) ليطالبهم فى نهاية الحرب بالحساب ! ! ! وتفصيل هذا التاريخ معلوم ولا يحتاج الى تطويل ، وقد حكم التاريخ على الرجل حكمه فى حياته وقبيل أن يموت باسابيع فلقى بعض ثمرات ثقته بالحلفاء قبل أن ينطوى في لحده .

على ان الانجليز لم تقف بهم تلك الحجج الواهية فانهم بعد أن احتلوا سوريا كلها الى ولاية اطنه سلموا لبنان وكليكية وساحل سوريا لفرنسا ، وسلموا دمشق وشرقى الاردن وحلب لفيصل وقبعوا هم فى فلسطين والاراضى المقدسة ثم نشروا منشورهم الشهير في أواخر اكتوبر سنه ١٩١٨ عن اقامة الحكومات الوطنية وتعيين القضاء العادل ، وانصاف الرعايا في البلاد «المخطوفة» حديثا. ولم يكن هذا المنشور الذي قابله العرب بالفرح أو بالخيبة الا مقدمة لمشروع التمزيق والتشتيت والتفريق أو عملية التشريح التى انتواها الحلفاء .

فان الانجليز فصلوا فلسطين عن سوريا وأنشأوا حكومة صهيونية فيها . فلما احتج العرب من مسلمين ونصارى على هذا العمل قال الانجليز : اننا لا نفعل أكثر من الوفاء بوعد بلفور الشهير الذى وعد بتأسيس وطن قومى لليهود ودهش الناس لأن الانجليز الذين اعطوا لمصر مائة وعد بالجلاء لم ينفذوها وكانت كلها صادرة عمن هم أعظم من بلفور وفي مقدمتهم الملكة فيكتوريا وغلادستون وسالسبورى وغيرهم . ويرجع بعضها الى سنة ١٨٨٢ ولم ينقطع سيل تلك الوعود طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وكان الحزب الوطنى لا يفتأ كل عام يذكر الانجليز بوعودهم ، حتى في أيام رئيسه الاخير الاستاذ محمد حافظ رمضان وقد ألفنا ذلك الا كليشه الذى يكاد يكون مطبوعا وينتهى دائما بالملحقات ، مما كان يضحك بعض الساسة السفهاء وصغار العقول ! ولكن الانجليز بروا بوعد بلفور لا وفاء ولا صدقا ولكن لأن وراءه السادة اليهود خزنة المال وسدنة الاله بعال العظيم !

٧

أما الفرنسيون ففصلوا لبنان عن سوريا وجعلوها حكومة مسيحية ودشنوها في الكنيسة الكاثوليكية فى بيروت وهم أنفسهم الذين يباهون بفصل الدولة عن الكنيسة من سنة ١٩٠٤ ويباهون بأن دولتهم لادينيه (لا ييك !) ثم تناولوا كليكية وأعدوها وطنا قوميا للارمن .

وكان الامير فيصل يحكم دمشق وحلب وشرقى الأردن ولم يكن لهذه الحكومة الفيصلية فى أول أمرها لون معروف فكانت تارة تعد تابعة للحجاز وان فيصل يستمد سلطة

الملك من أبيه الحسين زعيم العرب والمنقذ الأعظم وتارة يحسبونها مستقلة لا تصدر الا عن ارادته وارادة الشعب السوري وطوراً كانوا يعتبرونها تمت بحبل دقيق الى الفيلد مارشال اللنبي (الذي مر بمصر اليوم في طريقه الى بورما) رئيس فيصل الأعظم بحسب نظام الجيوش .

ولكن هذا النظام لم يكن يرضي الفرنسويين فكانوا يتشاجرون ويعربدون ويتنابزون بالالقاب في حظيرة الصالح تحت سمع ويلسون وبصره . فاخترع ويلسون فكرة الاستفتاء وتألفت لجنة امريكية برياسة مستر كرين سفير امريكا سابقا في الصين ، فلما سار في سوريا ووقف على حقيقة الحال بنفسه قال لزعمائهم « ان الانتداب لابد منه على كل حال لمساعدتكم موقتا على انعاش البلاد » .

وقد جرى في سوريا بعد ذلك ما رويناه في موضع آخر . أما العراق فلم يمالئ أهله الانجليز بل أخذوه عنوة بالحرب والقتال . وكان العراق دائما مشهوراً برجال أشداء أقوياء يفضلون الاستقلال على الحياة . ومنذ تولى الملك فيصل عرشه ، ظنوا أن وجوده يكون سبباً في تهدئة الخواطر واستسلام البلاد ، فكان الامر على غير ما يظنون . فقد تولاه أربعة من المندوبين السامين أولهم پرسي كوكس فالجنرال كليتون فالسير هنري دوبن فالسير فرنسيس همفريز . وكانت روح الادارة الانجليزية متقمصة في جسد الآنسة بيل الى أن ماتت . وقد خرج أحد هؤلاء الأربعة لأنه كان شديداً لا يطاق فاستغاث منه أكبر مقام في البلاد وخير الانجليز بين بقائه وبين استمرار دوبن فارضوه بعزله . واستمرت الوزارات في العراق تقوم وتسقط وكل زعيم يدخل الوزارة يفقد ثقة الشعب فينزوي بحيث أصبح عدد المستوزرين يربو على عدد الموظفين العاديين . ولكن كان بين العراقيين رجالا احتفظوا بكرامتهم داخل الوزارة وخارجها مثل ياسين باشا الهاشمي .

وفي كل حين تقوم في العراق حركة وخلاف فتؤلف وزارة جديدة ويعتقل بعض الاشخاص ، وتقفل بعض صحف . الى أن شرعوا في الغاء الانتداب وانضمام العراق الى جمعية الامم ، وان تحل محل الانتداب معاهدة تحفظ مصالح الانجليز ، وقد احتوت هذه المعاهدة

على شروط أقسى من شروط الانتداب وتجعل القول والفعل في العراق للمستعمرين الذين رضوا بنظام الاحتلال العسكرى ، ورأوا انه أفضل نظام .

وقامت فى سوريا ثورة ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وتخربت مدنها ، وتشتت شمل الدروز ، ومنح الدستور وعقد البرلمان ، ثم حلوه ، ونصبوا حكومة وطنية ترجع الى المندوب السامى فى كل الامور فليست سورية دولة لها مالك أورثيس ولكنها ولاية تابعة لفرنسا مباشرة يحكمها حاكم حربى تارة مثل غورو وفيجان وطوراً حاكم ملكى وهو الموسيو بونسو . وهذه الحكومة الوطنية قد فقدت صبغتها شيئاً فشيئاً وأصبحت خاضعة للحاكم فى كل الامور .

اما فلسطين فيحكمها حاكم انجليزى يكون تارة يهوديا وطوراً مسيحيا ويكون النفوذ طورا لليهود وطوراً لوزارة الخارجية الانجليزية . فتقوم الثورات والفتن ويقتل العرب واليهود ثم يسود السكون مؤقتاً خوفا من السلطة الحاكمة . ولكن تحت الرماد ناراً لاتنطفئ ويفكر الانجليز والفرنسيون في جعل امراء على تلك الممالك فينصبون ملكا على سوريا وآخر على فلسطين ولعله الامير عبدالله بن الحسين ، ولكن الفرنسويين يخشون من هذا النظام لأنهم رأوا عواقبه فى عهد فيصل ويخشون مناوأته لهم تحت ضغط الرأى العام .

أما عرب الجزيرة فقد أتينا على موجز أحوالهم . ففيهم الامام يحيي القوى باستقلاله وايمانه وجيشه ، والامير ابن سعود ملك الجزيرة باسرها ، ماعدا الجنوب وهذان لاينضجان فى قدر واحد ولا يتنزل أحدهما للآخر عن حق من حقوقه ، والجزيرة وان كانت هادئة في الظاهر الا ان ثورة فيصل الدويش دلت على ان المستعمرين يملكون خيوط الفتنة ويمكنهم في أى وقت شاءوا أن يشعلوا نارها و يحطموا أعظم قوة فيها بما لهم ورجالهم . وهم يطلبون ثمناً للهدوء تنفيذ رغباتهم بمثل الحلف العربي ، الذى يريدونه حماية لسككهم الحديدية وأنابيبهم

هذه هي حالة الامم العربية التى شقت عصا الطاعة على الاتراك من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩١٨ فكانت سبباً فى اضعافها وتمكين أعدائها منها فذهبت وذهب معها كل ما كان للعرب من استقلال وسلطان



٢٠

١

وقد آن لنا أن نبحث فى الأسباب التى أدت إلى انحلال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الذى هو آخر الخلفاء العثمانيين ، واننا مع احترامنا للسلطان رشاد الذى حدثت الحرب العظمى فى عهده أو السلطان وحيد الدين أو عبد المجيد أو غيرهما لا نعرف غير عبد الحميد خليفة ، لأنه كان الملك المطلق المستبد الذى حكم الدولة أكثر من خمسة وثلاثين عاما بفكره وارادته محكما عقله ومنفذاً سياسته في السلم والحرب . وفى عهده حدثت أعظم حوادث التاريخ العثمانى في دوره الأخير . أما بعد عزله فى سنة ١٩٠٩ فقد بدأ للاتراك عهد جديد هو عهد الدستور والبرلمان وسيادة الاحزاب وقد دام هذا العهد الى سنة ١٩١٤ عند ما أعلنت الحرب ، وفى فترة الحرب تغير العالم ومنه تركيا .

فكان سلاطين آل عثمان الذين جاءوا بعد عبد الحميد اشباحاً وخيالات الى أن محا مصطفى كمال آية الخلافة وأسس جمهورية أنقرة .

ولد عبد الحميد في سنة ١٨٤٢ وتولى عرش الخلافة في سنة ١٨٧٦ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره وخلع في ابريل سنة ١٩٠٩ فكان حكمه ثلاثا وثلاثين سنة ، وقد حدثت فى عهده حوادث ذات شأن عظيم فى تاريخ الشرق والغرب فقد شهد في شبابه وقبل تولى الملك ثورة الهند (١٨٥٧) والحرب الاهلية الامريكية والحرب النمسوية الالمانية وحرب السبعين وفتح قنال السويس وحكم ديزرائيلي وعند ما تولى بدأت الحوادث بفتنة بلغاريا وحرب الصرب وعهد الدستور الأول الذي دعا اليه مدحت باشا وحروب روسيا وتسليم بلفنا وموقعة شنوفا التى أسر فيها ستون ألف جندي ومعاهدة سان استفانو وضياع قبرص واستقلال بلغاريا والروملى الشرقية وثورة عرابى وضياع تونس وضياع مصر وحروب السودان

وظهور المهدي وحوادث كريت وأرمنيا وحروب اليونان ونهضة اليابان وهزيمة الترك فى فتنة اليمن وحرب البوير ثم الثورة الاتحادية فالدستور فالثورة الرجعية فلعزل والنفى الى سالونيك . حيث شهد ضياع طرابلس وحروب البلقان والحرب الكبري وهو أسير .

وانها فى الحق لصحيفة ملآنة بالحوادث التى لا تزال آثارها في العالم الى الآن وقد مضي على زوال ملكه أكثر من عشرين عاماً

فلنبحثن إذن في الاسباب التي أدت الى ضياع هذا الملك ، وانسلاخ أجزاء الدولة العثمانية الجزء بعد الجزء فى مدي ثلاثين أو أربعين عاماً مع أنها اقتضت لتأسيسها أربعمائة عام فكأنها هدمت في عشر الزمن الذى تأسست فيه .

فما هو هذا الداء الذي أزمن وتأصل ، وفشا فى عروق دولة الاسلام واستفحل ، وما هي تلك العلة التي انبسطت فى بدنها وسرت فى دمها وامتدت في شرايينها وتشعبت في أعصابها وصارت لا يرجى لها برء ولا علاج حتى أخذوا يمثلون تركيا بالرجل المريض !

ولقد زعم البعض أن الدولة العثمانية قد هرمت وشاخت وخارت قواها وانحلت عزائمها كالدولة الرومانية في أواخر أيامها . وترى أنصار هذا الرأى قد كانوا استسلموا للقنوط ويئسوا من رحمة الله وحياة دولتهم وأخذوا ينهبون الأموال ليدخروها وقاية لهم وأهليهم من الفاقة بعد انحلال الدولة ومن هؤلاء أحد الباشاوات بلغ العزة كلها فى عهد عبد الحميد ولكنه كان للدرهم والدينار عابداً ، فلما دق ناقوس الدولة فر على باخرة أجنبية الى مصر ونقل معه أمواله أو انها سبقته الى ضفاف النيل فاشترى القصور والضياع وعاش أمداً ممتعا ثم قضى كالكلب المدلل في فراش من حرير على سرير من ذهب وشيعته النفوس باللعنات ! وغير هذا الوغد الذي كان يحمل على ظاهر يده من الوشم آثار تاريخ حياته الأولى فى وديان سوريا وبلدانها كثيرون من الباشاوات والامراء والشيوخ قد انتظروا النهاية ليفوزوا بالاسلاب ، وقد نهبوا فعلا أموال المسلمين فكانت الدولة العثمانية فى نظرهم بمثابة بيت أصابه الحريق فتثال حوله الشطار من كل حدب لنهب ما احتواه من أثاث ومتاع والسعيد من

من اختطف شيئاً قبل أن تلتهمه النيران كأهل پومپى لدي خرابها . وقد فر هؤلاء بعد أن أفرغوا وسعهم فى الاغتيال ، وساعدوا على تعجيل ساعة الاضمحلال .

٢

ويرى فريق آخر أن السبب فيما وتم للدولة العثمانية هو تحزب أعدائها عليها وتمالؤهم على اضطهادها ومع تكوينها من عناصر متباينة تفتأ تتنافر ميلا الى الانفكاك وكلما شغبت تلك العناصر ساعدها الاعداء ومدوا لها أيدى المعونة والمناصرة ، بحيث لو كانت تركيا فى مكان بريطانيا العظمى ما جلدت على احتمال ما تحتمله ولا صبرت لمعاناة ماتعانيه

وقال فريق ثالث ان سبب سقوط الدولة العثمانية هو سيادة الفرد الذى يكون بشخصه ضعيفاً لأنه فرد ولكنه يتسلط علي الملايين من النفوس فيجور ويظلم ويسلب ويهتك وهم ذا هلون لا يقدرون على الملايين . واذا تكرر مثال هذا الحكم كان ذلك سبباً فى امتصاص دماء الدولة فلا تقدر على اليقظة من رقدتها وهذا الذى حدث فى تركيا وعند ما آن الاوان لانهاضها كان معين قوتها قد نضب وجاءت الحرب العظمى على البقية الباقية

وان الناظر في تاريخ الدولة أثناء تلك الحقبة ليسأل نفسه « أين القادة الذين فتحوا الممالك بمفاتيح السيوف ووضعوا على أعدائهم أقفال الصغار والهوان ؟ وأين الساسة الذين ضبطوا تلك الممالك بحكمتهم ودهائهم ؟

كيف انفصلت رومانيا واستقل الصرب وزال الجبل الاسود وذهب الروم ايلي الشرقى وانضمت بلغاريا وضاعت قبرص وبانت تونس وطرابلس وانسلخت بوسنه وهرسك وانقطعت باطوم وخرجت قارص وأردهان وانحلت تساليا وولت مصر وضاعت تركية أوربا وجزائر البحر وخطفت العراق ، والموصل وطارت بلاد العرب وانسلت سوريا وفلسطين ووقعت زيلع وطاحت مصوع وهجر السودان؟ دع عنك متدوينا وكريت وأرمنيا وساموس وعشرات أخرى من أجزاء الدولة التى تناثرت في مدى أربعين عاماً . كما تتناثر أوراق الشجر لدى حلول فصل الخريف .

فاول ما نراه فى حياة عبد الحميد انفراده بالملك واستبداده بالامر وسجنه أخاه مراد ثلاثين عاما في قصر أوسراى جراغان وانتشار الدعوى بانه مجنون مع أن أمراض العقل لا تصل بأصحابها الى سن الكهولة أو الشيخوخة وقد اعتقل مراد فى سنة ١٨٧٦ وتوفى في سنة ١٩٠٤ الى رحمة الله وقد أحاط عبد الحميد نفسه بفريق من المملقين والجواسيس والخصيان ومشايخ الطرق ، وجعل نفسه نهباً لتزاحمهم على الحظوة لديه ، بل جعل من قصره ميدانا لحروبهم فى سبيل الحصول على المال والنياشين والمناصب . فصارت هذه الطغمة مصنعا للتجسس والتضليل والاختلاق فطاف حول عرش عبد الحميد زمرة مختلفة الاجناس والانواع من نزاع الآفاق وقد تمكنوا بحيلتهم ودهائهم من كسب ثقة السلطان فصار يركن اليهم فشغلوه بالخوف على حياته ، وأبعدوا عن عرشه كل مخلص أمين وكل شهم صادق وصار كل واحد منهم يتجسس على غيره حتى تجسس الولد على أبيه والوالد على ابنه . وأخذوا يقلبون الحقائق للسلطان ويحسنون له القبيح ويقبحون له الحسن وقد صاغوا له أكثر من عشرين لقبا من ألقاب العظمة والابهة والمجد حتي مايكاد يشعر بمشاركته للقدرة الربانية أعظمها « ظل الله على الأرض » وأقلها « غياث الأمم وغيوث الديم » ! !

٣

كانت الدولة العثمانية فى سنة ١٨٧٦ من أجل الدول قدراً وأعزها شأنا وأبعدها صيتاً وأرفعها صوتاً . وكانت أساطيلها في الدرجة التالية للدولة الفرنسوية فى ترتيب قوى الدول البحرية وكان سكان الدولة يزيدون على سكان بريطانيا العظمى فى وقتنا الحاضر (٤٢ مليونا) فكان من رعاياها في أوروبا ١٠ مليون وفى آسيا ١٤٫٥ مليون وفى أفريقيا ١١٫٥ مليون وكانت لها رومانيا والصرب وعدد سكانهما ٦ مليون. وقد ضاع من سكان الدولة العثمانية أكثر من اثنين وثلاثين مليوناً ، ولا يتجاوز عدد الأتراك الآن أكثر من تسعة أوعشرة ملايين .

كانت فتنة البلغار فقامت دول أوروبا تطلب الاصلاح فوعدت الدولة بتعميم الاصلاح

فى أنحاء البلاد وصدر فرمان السلطان بتشكيل البرلمان العثمانى الأول . وأراد مدحت باشا تنفيذ هذا الوعد فعمل لذلك بكل قوته وقد اجتمع مجلس المبعوثان العثمانى الاول في ١٩ مارس سنة ١٨٧٧) وعين أحمد رفيق باشا رئيساً له وكان سفيراً لفرنسا في بلاط نابوليون الثالث ، وكان متعلما ولكنه كان متغطرساً مستبداً وقد شهد دكتور واشبورن مدير كلية روبرت الامريكية انه حضر احدى الجلسات حيث نهض أحد الأعضاء وكان معمما وأخذ يتكلم في موضوع يهمه فقاطعه الرئيس أحمد وفيق قائلا «سوس اشيك» أي « اخرس ياحمار ! » فسقط الرجل على مقعده كانه مصعوق (ص ٥١ تاريخ عبد الحميد تأليف سيرادوين بيرس طبع لندن سنة ١٩١٧ ونفى مدحت باشا لانه صاحب فكرة الدستور ، وخسرت الدولة حرب روسيا لان السلطان كان يدبرها من السراي وقد فعل ذلك أيضاً فى حرب تركيا واليونان ١٨٩٧ ، ولكن اليونان لا تعدل روسيا فى القوة والسلاح والشجاعة . ويقال ان كثيراً من الحركات العسكرية التى كانت تصدر الأوامر بها من يلديز الى ساحة القتال في حرب الروس كان مبنياً على التنجيم وضرب الرمل والاحلام وقد قاست الجنود العثمانية ما يفتت الاكباد ويذيب القلوب لعدم الاستعداد فى مأكلها وملبسها وعلاج جرحاها ودفن قتلاها وفى هذا الوقت والعساكر الذين يدافعون عن الاسلام والدولة على ما وصفنا من الشقاء والجوع والضنك كان السلطان يأكل فى آنية من الذهب ويغسل يديه فى طست من الذهب الابريز ولما عقد مؤتمر الصلح أرسلت الدولة العثمانية لتمثيلها فى المؤتمر رجلا يونانياً مثل صاحب السعادة فينزيلوس ومن وطنه اسمه اسكندر باشا قره تيودوري وقد كان نصيب اليونان من اسلاب الدولة تساليا وايبير مع انه لم يكن لها عضو فى المؤتمر ولم تكن لها يد فى الحرب . ولكن الدول كافأت وطن اسكندر تودوري على تساهله في حقوق تركيا . وقد عقد هذا المؤتمر فى باريس واشترطت فرنسا للاشتراك فيه أن لا يبحث فيه فى مصير مصر وسوريا وبيت المقدس (مما دل الانجليز ان الفرنسويين كانوا يبيتون لتلك الجهات كما أن ايطاليا كانت تضمر السوء لطرابلس) فبادرت انجلترا بوضع يدها على مصر كما هو معلوم وانتهى المؤتمر على استقلال

الممالك التى كانت تحت الدولة وانفصال بلادها عنها وعاد نائب السلطنة الرومى بنصفها وترك النصف الآخر علي المائدة الخضراء ... ياخسارة ! !

وقد تنبه عبد الحميد بعد هذه الصدمة التى أصابته في بداية ملكه فاختار أن ينتخب للدولة وزيراً من الخارج فوقع اختياره على خير الدين باشا التونسي وأصله شركسي ولد في أوائل القرن التاسع عشر وجاء تونس صغيراً وتقرب من الباي أحمد فعلمه وتقلب في مناصب عدة وسافر لفرنسا وتقلد وزارة البحرية فى ١٨٥٥ وتقلد الوزارة الكبرى بعد أن ألف كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك . فلما استقدمه السلطان عبد الحميد في سنة ١٨٧٨ بعد حرب الروس أقبل على الاستانة ، وكان الباي قد عزله وغضب عليه ومنعه الاختلاط بالناس فلما قابله السلطان عبد الحميد استحلفه علي القرآن والحديث أن لا يدخل فى مؤامرة على ذات السلطان ، وحلف له جلالته أنه لا يعزله وتولى الصدارة العظمي والدولة فى غاية الاضطراب فوضع التقارير للاصلاح فلم يتفق عمله مع رجال المابين وهم رجل البلاط الملكى العثمانى وهم من وصفناهم من الجواسيس والدساسين والمنافقين ومشايخ الطرق والخصيان والمخنثين والقواد الذين يكونون أسودا في الحرب ونعاما في السراي . لم يتفق طبعاً خير الدين مع هؤلاء الخطافين ولم يطل عهده أكثر من عام فاستقال في سنة ١٨٧٩ ولكنه أقام في الاستانة ولم يبارحها وعينه السلطان في مجلس الاعيان وأكرمه الى أن مات في سنة ١٨٩٠ وهو في الثمانين من عمره . وهنا يروى المرحوم ابراهيم بك المويلحى قصة لا أعلم مكانها من الحقيقة ولكن أذكرها ، قال في ص ١١٣ من كتاب ماهنالك « كان أول اعمال خير الدين باشا الانتقام من الصادق باي والى تونس ، فساعد (خير الدين) على عزل اسماعيل باشا خديوى مصر ، وبعث الى سيده الباى يهدده بأن ستكون له تلك العاقبة قريباً فاسرع الصادق باى بالالتجاء الى الحكومة الفرنسوية ليأمن على نفسه شر مملوكه الذى صار مالكا ووجدت فرنسا فرصة لاسكات الدولة عن تونس بتسليم مدحت باشا لها حين التجأ الى قنصلها في أزمير واشتغلت الدولة بمحاكمة مدحت وأصحابه واشتغلت فرنسا بادخال تونس تحت حمايتها فنجح

الفريقان». وقد كرر المويلحي هذه الرواية فى ص ٥١ حيث قال :

«أرادت الدولة أن تقبض على مدحت باشا وهو وال على أزمير فهرب الى قنصل فرنسا فطابته الدولة فتوقفت فرنسا فى تسليمه وانتهت المسألة بين الدولتين بعد المخابرات على أن فرنسا تسلمه بالشمال وتستلم تونس باليمين وتم الامر واشترت الدولة رجلا بمملكة . ولما قرب الفرنسويون من تونس صاح الباى وبعث بالرسائل والرسل يستنجد الدولة فما أصغى اليه مصغ » اه . كلام المرحوم ابراهيم المويلحي .

وقد كان هذا الفساد كله نتيجة حكم الفرد واستبداده بالأمر فكان تعظيم شخصه وخوفه على ذاته ومحافظته على كرامته من الاوهام واستسلامه للجواسيس واعتماده على الخصيان والمشايخ لانه نشأ بين الاولين وكان يستعين بما للآخرين من مسابح واحجبة وتمائم وأوراد لحفظ شخصه من كل مكروه وللوقوف على أمور الغيب وحوادث المستقبل . وهكذا ضاع ملك عظيم ضحية الرقاعة والتخريف والبله وعدم الايمان بالله الذى يجعل الانسان متكلا عليه .

أين هذا من عدل أمراء الاسلام العادلين ، الذين كانوا يعملون على سعادة أممهم وطاعة الله وأعلاء كلمة الايمان والتوحيد ونشر لواء الحضارة الاسلامية !

لقد سرى الجبن والخوف الى النفوس وصار النطق بالالفاظ جريمة يعاقب عليها بالاعدام والنفى . فمثلا أحرقوا كتاب الطريقة المحمدية للنابلسى لان فيه حديث « الأئمة من قريش» وصادروا كل كتاب فيه آية الجهاد أو آية (الذين كفروا) خوف أن تحاربهم أوربا على هذا ونفيت كلمة « الملة » والدولة ولم تبق الا الذات الشاهانية ونفيت من أحد القواميس كلمة « سيف » لأنها قد تنبه الارمن للحرب ولا يقولون جمهورية أمريكا بل مجتمعة أمريكا ولا ولى عهد روسيا ، واستنطق أحد المنشدين المصريين لانه تغنى بقصيدة منها أنت « المراد » خوفا من الاشارة الى الامير مراد المسجون . دع عنك الفاظ العدل والظلم والانصاف فانها من المحرمات . وعند صلاة الجمعة أو حفلة السلاملك أمر الخطيب أن يتجنب فى خطبته كل آية وكل حديث فيه ترغيب فى العدل أو تنفير من الظلم أو ايماء الى موعظة من نهي عن

منكر أو أمر بمعروف ولا يدور فى الخطبة الا حديث واحد اختاروه لبعده عن كل تأويل وهو «ان الله جميل يحب الجمال» فاذا جاء عيد الاضحى استبدلوه بقوله (سمنوا ضحاياكم) وهكذا صار القصد الحقيقى من السلطنة والدولة والخلافة والامامة والجيوش والمعاقل والحصون والرتب والنياشين هو حفظ ذات السلطان !!!

ومن نوادر خير الدين باشا بل من الحوادث التى أدت الى استقالته أنه استؤذن عليه يوماً لبهرام آغا أقوى خصى في عهد عبد الحميد وكان في ذلك الوقت باشمصاحب ، ولما دخل عليه قدم اليه قائمة بأسماء أشخاص يوظفهم وآخرين يزيد فى مرتباتهم فقال له الصدر الأعظم خيرالدين باشا : مالك وهذا ياوصيف ؟ قف حيث وقفتك وظيفتك بباب الحرم ولا تدخل في شغل غيرك !

ولما خرج بهرام آغا سأل عن معنى « وصيف » فقيل له معناه فى تونس الخويدم فامتلأ اهاب الآغا الخصى على الصدر الأعظم حقداً .

ودخل عليه عقب هذا السيد احمد أسعد ومعه قائمة كالأولى فسأله عن وظيفته فقال: «وكيل الفراشة الشريفة» فقال له أيها الشيخ وظيفتك هى أن تدعو لجلالة السلطان

فخرج من عنده يعض على ناجذيه لطلب الانتقام منه ولما رأى خير الدين باشا أن لاقدرة له على مقاومة أهل المابين استعفي من الصدارة كما تقدم وثبت له كما ثبت لكل محب لخير الدولة العثمانية أنها شاخت ودب الفساد اليها من رأسها كما هي العادة في الممالك والدول وعند الترك مثل شهير قديم وهو قولهم السائر « الشجرة تفسد من رأسها ، ويعتورها الفناء من قمتها » وقد صح هذا المثل وصدق فى تطبيقه على دولتهم .

فاذا كان القصد الحقيقى فى السلطنة العثمانية قد انقلب الى أن الغاية من الدولة والخلافة والامامة والجيوش والمعاقل والحصون هو حفظ ذات السلطان فكيف ترجى حياة لهم بل أين هذا من عمر بن الخطاب الذى أنزل رضى الله عنه نفسه في كثير من الأحوال منزلة واحد من أفراد الأمة ليبنى صرح المجد للاسلام وليقنع الأجنبي بعظمته ، فقد كان

يخرج بنفسه لما جاءه الخبر بنزول رستم الى القادسية فيستخبر الركبان كل يوم عن أهل القادسية منذ حين يصبح الى انتصاف النهار ثم يرجع الى أهله وكأنه قد تسلم أخبار البريد أو قرأ التلغرافات لو كان من أهل هذا الزمان .

فلما جاء البشير بالفتح لقيه عمر كما يلقي الركبان من قبل فسأله فأخبره فجعل يقول ياعبد الله حدثني فيقول هزم الله العدو ! وعمر يحث معه ويسأله وهو راجل والبشير يسير على ناقته ! فلما دخل المدينة اذا الناس يسلمون عليه باسمه بامرة المؤمنين ويهنئونه . فنزل الرجل وقال : هلا أخبرتني ياأمير المؤمنين، رحمك الله! وجعل عمر يعتذر له قائلا « لاعليك يابن أخي لا عليك يابن أخي ! »

٢١

١

يلجأ المستعمرون دائماً الى الوسائل الفعالة فى البلاد التى يرمون للاستيلاء عليها . فهم يجذبون الشعوب باحياء عاداتها القديمة أو بالضرب على الأوتار الحساسة فى نفوسها وليس الحلف العربى بدعة تخيلها الاجانب ، انما هو إحياء لعادة قديمة يريدون أن يتخذوا منها سلاحاً .

فقد ألف العرب في الجاهلية حلوفاً شتي لحفظ التوازن بين القبائل وذود القوى عن الضعيف ، وأشهرها وأقربها حلف الفضول وقد وصفه الخثعمى قال :

« كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه ، وكان أول من تكلم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصى ابن وائل وكان ذا قوة بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمح وعدى بن كعب فأبوا أن يعينوه على العاصى بن وائل وانتهروه .

فلما رأى الزبيدى الشر ، أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، وصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يالرجال و بين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال ماهذا مترك ! فاجتمعت هاشم و زهرة وتيم بن مرة في دار ابن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام قياماً فتعاقدوا

وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه، مابل بحر صوفة ومارسا حراء وثبير مكانهما، وعلى التأسى في المعاش، ثم مشوا الى العاصى بن وائل فنتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها اليه وقال الزبير :

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعًا أهل دار

نسميه الفضول وإن عقدنا يعز به الغريب لدي الجوار

ويعلم من حوالى البيت انا أباة الضيم نمنع كل عار

فيظهر من ذلك أصل الحلوف العربية انها كانت أنظمة عرفية غايتها إنصاف المظلوم من الظالم وحماية الغريب المسلوب من الوطنى السالب . أما الحلف العربى الذي ظهر فى السنين الأخيرة فلم تكن غايته الا خدمة السياسة الأجنبية ، ولم نسمع بحلف تكون لردغارة الاجنبي الفاتح أو لحماية الوطن من اعتداء صارخ ، إذ العرب لا يتحدون ضد الأجنبي ولكنهم يتألبونه للقضاء على أنفسهم . فهم يأبون الحلف حيث يجب الحلف ويسعون اليه حيث يكون ضد مصلحتهم .

وكان الملك حسين قبل أن يفقد عرشه في مكة ، ينادى بحلف عربى ، بل بالغ فى في الأمر فنشد الوحدة العربية . ولكن الواقفين على بواطن الأمور يعلمون أن دعوته لم تتعد حد التمنى، ولم يكن الحسين يعنى مايقول لأنه يعلم أنه مهما نادى فلن يتعد نداؤه آذان الحجاز وشرق الاردن وفلسطين وان كانت المملكتان الأخيرتان تحت الحماية الانجليزية . أما العراق فهو حتما أجنبى عنه وعن دعوته . فالوحدة العربية التى نادي بها الحسين قبيل هجوم ابن سعود عليه كانت خيالا لأنها ان لم تضم عامة أمراء الجزيرة فلا تعد وحدة . واجتماع كلمتهم فى عهد الحسين كان محالا ، لأن اليمن لا يعترف له بنفوذ وابن سعود يتحفز للهجوم عليه والقضاء على ملكه ، وامارة العسير في حكم الادارسة وواقعة تحت نفوذ الانجليز ، وأمراء البحرين وامام عمان ومسقط وشط العرب وكل السلاطين الذين على الخليج الفارسى كسلطان لحج والأمير خزعل وغيرهم لايلبون هذا النداء لأنهم لامصلحة لهم في الحلف وهم

يطيعون أوامر القنصل البريطاني ومعظمهم الماه الغنى أو المرتب الذي يتقاضاه عن المسائل السياسية فكيف يوجد حلف عربي أو وحدة عربية وكل الممالك التى يؤلف منها خاضعة لحكم الأجنبي ومغلوبة على أمرها . وكل حلف لايدخله الامام يحيي لايعد حلفاً . وبعدز وال الملك حسين كل حلف لايدخله ابن سعود والامام يحيي لايعد حلفاً واذا رأي صغار السلاطين والأمراء في الشرق والجنوب الشرقى كبار الجزيرة يأتلفون فهم لاشك يقلدونهم وينضمون اليهم

وكان الملك حسين فى الفترة التى دعا اليها للحلف العربى يبغض ابن سعود ويخشاه يخشاه لأن ابن سعود كان يهاجم شرق الاردن وقد هزم الأمير عبد الله فى وقعتين ، ويهدد فلسطين ، والحسين يعرف قوته وبأسه ، وكان يبغضه لأنه رأى أنه رجل المستقبل في الجزيرة بعد أن خاب هو في سياسته وحربه وبعد أن جر الخراب على العرب والاتراك معاً . فكانت دعوته الى الحلف العربي بمثابة الخدعة لنفسه والايهام لغيره بأنه لايزال الزعيم المفدي والمنقذ المرتقب . فذهبت صيحته صرخة فى واد .

٢

لما توفى الحسين بن علي ملك الحجاز الاسبق ؛ وخليفة المسلمين لبضعة أيام ، وسجين قبرص تحت إمرة صديقه ستورز ، وطليق مرض الموت الذى لجأ أثناءه الى عمان التى يحكمها ولده عبد الله ويزوره فيها الملكان فيصل وعلى والأمير زيد ، لما توفي المذكور في يونيو سنة ١٩٣١ ودفنوه في قبر فى بيت المقدس (كأن دفن المشهورين من المسلمين صار خطة تقتدى أو «مودة» تتبع بعد دفن المغفور له محمد على الهندي) أخذ كتاب العرب وغيرهم يتبارون في الكتابة عن الرجل كعادتهم ليقول كل منهم كلمته. فأجمع كلهم على أن الرجل كان حسن النية في ثورته ، ولكن الحظ خانه ورجال السياسة من الحلفاء خدعوه، وضحكوا على لحيته . ولكنه لم يخدع مجاناً بل خدع مقابل بضعة ملايين من الجنيهات وصلت الى يده ويد قومه والمحاربين من أتباعه والجواسيس والخونة وغيرهم ممن التفوا حوله في ظروف الحرب الحرجة وهم أشبه الأشياء بالطيور الجارحة التي تحوم حول الرميم والجيف . (انظر كتاب الثورة فى الصحراء تأليف لورنس طبع لندن سنة ١٩٢٧ وهو وجيز لكتاب «عمد الحكمة») .

وقد جمعتنا مجالس شتى برجال ممن عرفوا الحسين وعاشروه واختلطوا به وساعدوه في عمله أو نصحوه في أثناء قيامته وحذروه من المستقبل القريب والبعيد فكان الوصف الذى ظفر به من معظمهم هو العناد وشدة المراس في أفكاره التي تنبت في ذهنه المريض ، والاعتداد بالنفس الى درجة بعيدة جداً .

وكان يظن نفسه أعظم الناس طراً ، وأقدرهم فى مواطن السياسة والتدبير والحرب وان الانجليز وغيرهم لايقدرون على خداعه ونسب اليه أحد المقربين منه أنه قال أثناء الحرب

« ان الحلفاء الآن محتاجون الينا أشد الاحتياج فيجب علينا أن نستغل احتياجهم بأقصي ما نستطيع من وسائل الاستغلال ، لأنه سيأتى يوم يستغنون هم فيه عنا ، وحينئذ يلفظوننا لفظ النواة » . رواها الريحانى وارسلان والخطيب .

ولكن هذا الرجل لم يكن يعلم ان الحلفاء وغيرهم من الاوربيين ولا سيما الدولة التي استخدمته في الثورة تتخذ لكل الأمور عدتها وهى تدفع له المال وتبسط يدها لا على أنها مخدوعة أو مضحوك عليها ولكن على أنها تستأجره وتستخدمه هو ومن معه ومن يمت اليه بعلاقة وقد دفعت بسخاء حتي ان لورنس قال لبعض أخصائه أن الثورة العربية كفت خزانة الحلفاء سبعة ملايين من الجنيهات (وكان يقول من الفارس الخيال يقصد الجنيه الانجليزى) . حتى اذا جاء اليوم الذي يحتج فيه الحسين أو غير الحسين عليهم بنقض العهود وخلف الوعود ردوه بأن العرب كانوا مأجورين وقد أخذوا أجرهم وزيادة . وماذا يهمهم أن الحسين يبايع بالخلافة فى عمان أو في غير عمان اذا كانوا يعلمون أن العاقبة لهم ولمن يمدونه بأموالهم وأسلحتهم .

ان مسألة الخلافة كان لها خطرها وشأنها بعد أن طرد كمال باشا الخليفة والاسرة السلطانية من تركيا . قال محدثي وقد ظن الحسين ان الفرصة سانحة لجلوسه على عرش الخلفاء فجاء عمان في يوم من أيام يناير سنة ١٩٢٤ وكان استقباله فخماً جداً وصار العرب يهتفون له باسم المنقذ الأعظم وصاحب النهضة وألقوا علي مسامعه الخطب والقصائد . فرد عليهم بكلمة وجيزة جاء فيها قوله :

« أنا لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد ! لا أقبل بالتجزئة ولا بالانتدابات ولا أسكت وفى عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب، اذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذى اطلبه فانى أرفض المعاهدة كلها ولا أوقع المعاهدة الا بعد أخذ رأى الامة . انى عامل دائما في سبيل الوحدة العربية والاستقلال التام للاقطار العربية كلها فى الحجاز وسوريه والعراق ونجد ! »

وبعد الولائم والمآدب التى حضرها كبار الانجليز وهم الذين سمعوا الخطبة، بويع الحسين بالخلافة ونودى به خليفة على المسلمين وأميراً للمؤمنين، وكانت هذه المبايعة في نظر رجال السياسة « صحوة الموت » التي تسبق الوفاة بقليل ! ! ثم عاد الملك الى مكة وقد صار خليفة المسلمين ! !

وكان الانجليز يعلمون مدى هذه المبايعة ، وقد علموا من عناد الحسين وتشبثه ببعض الامور التافهة ما علموا فاعدوا ابن سعود لمحاربته . نعقد فى غرة ذى القعدة من السنة نفسها (١٣٤٣) مؤتمراً صوريا فى الرياض تباحثوا فيه فى ضرورة الذهاب الى مكة لأداء فريضة الحج ، وأفتى علماء الوهابيين ومنهم سعد بن عتيق بوجوب الحج وخطب ابن سعود خطبة من خطبه البدوية، وقال سلطان بن بجاد « اذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة ! »

ومما جاء فى أقوال ابن سعود :

« ان شريف مكة هو الوارث من أسلافه بغضنا وكلما دنوت منه تباعد عنا اى ورب الكعبة ! لا أرى الاستمرار في خطة لا تعزز حقوقنا ومصالحنا! »

فهتف الجميع « توكلنا على الله ! الى الحجاز ! الى الحجاز ! »

فاذن لفظ الانجليز عرب الحجاز وملك الحجاز والمنقذ الأعظم لفظ النواة وحركوا عليه الاخوان بعد أن رأوا تشبثه وعناده وحرصه (بعد فوات الاوان وضياع الفرصة) على الاستقلال والكرامة . ولكن السلطان عبدالعزيز لغرض حربى أمر بغزو الشرق العربى قبل الزحف على الحجاز . واتخذ عبدالعزيز ذريعة لذلك تغريم قبيلة بني صخر ٢٠٠ ألف ليرة

تضمينا لسلامة التجارة والتجار بين نجد وسوريا ولم تكترث حكومة عمان لهذا الحكم فلجأ ابن سعود الى القوة وسار بجيش لمحاربتها .

ووقعت معركة بين النجديين وعرب الاردن وكان بيك باشا القائد الانجليزى لجند الامير عبد الله فارسل الطيارات والسيارات على الفريقين ! وكان الملك حسين في تلك اللحظة راقداً بمكة متوسداً وسادة الخلافة العظمى مطمئن البال واثقا مما تضمره الايام وهو يدبج المقالات لجريدة القبلة ويذكر « كمالات حكومة بريطانيا ويشكر حسياتها الرقيقة » ولكنه في الوقت نفسه لايتنازل عن حقوق العرب ولايوقع المعاهدة ! !

٣

وفي هذه اللحظة نفسها التى كان يحلم فيها الحسين بخلافة العباسيين والسيادة على سائر المسلمين في انحاء الارض كان جيش من الوهابيين مؤلف من ١٥ لواء يزحف علي الطائف . وقد هزم جيش الحسين أولا فى الحوية ، ثم سار الامير على الذى صار فيما بعد ملكا الى الطائف ثم خرج منها وفى ٧ سبتمبر ١٩٢٤ دخل الوهابيون الطائف فاتحين وذلك بعد مبايعة الحسين بالخلافة بثمانية أشهر وقد أتى بعض الوهابيين الحفاة العراة السلابين النهابين القساة من ضروب الفتك والقتل والخطف في مدينة الطائف أموراً بشعة ولا غرابة فهم يعتبرون المسلمين من غير الوهابيين أعداء لهم ألداء وترى الوهابى يفضل المسيحى واليهودى على العربي السني ويقولون ان المسلمين الذين لم يتوهبوا « انهم لايزالون فى الجاهلية » فهم يعتبرون الاسلام على حالته الحاضرة جاهلية بالنسبة لعقيدتهم . ولذا فقد انتقموا من أهل الطائف شر انتقام ونحن نعتقد ان دماء القتلى واقعة على رأس الحكومة الحسينية فقد بقى الحسين مستقلا تسع سنوات واستولي على القناطير المقنطرة من الذهب وهو مع ذلك لم يعمل عملا صالحا لوقاية هذه الاسر والبيوت المطمئنة فى مدن الحجاز ، وكان فعله وفعل أولاده فى أوائل الثورة المنحوسة انهم أهلكوا المدينة والطائف لانهما كانتا فى أيدي الترك ، وحل بنسائهم وأولادهم وباعيان البلاد ماحل والآن جاء دور الانتقام فتري سلطان بن بجاد وخالد ابن منصور أمير الخرمة وهما من قواد الاخوان يمثلون الدور الذى مثله فيصل وعلى وعبد الله

فى سنة ١٩١٧ . فكانت ساعة الهول والفجع فان بعض الوهابين الذين ادعوا الايمان كانوا يدخلون البيوت بعد تأمين أصحابها ثم يقتلونهم وينهبونها ولم يفرق هؤلاء الاوغاد بين عربى وأجنبي فامتدت أيديهم بالقتل والنهب الى الهنود والجاويين وقد أظهر الملك عبدالعزيز أسفه فامر بتأليف لجنة للتعويض على الضحايا . وقد قتلوا الشيخ الزواوي مفتي الشافعية وروى شاهد عيان انه رأى بعض الوهابيين يقتلون امرأة وطفلها وهي تحتضنه . وقتلوا أولاد الشيبي سادن الكعبة انتقاماً من أبيهم الشيخ عبدالقادر .

وقد اضطر الشيبي أن يمثل دوراً محزنا لينجو من القتل فقد قبضوا عليه وهو أعزل واستلوا سيوفهم لقتله فبكى فقال أحدهم

« وليس تبسى يا تسافر ؟ »

أى ولماذا تبكي يا كافر ؟

أجاب الشيخ « أبكي والله من شدة الفرح لأنى قضيت حياتى كلها في الشرك والكفر ولم يشأ الله أن أموت الا مؤمناً موحداً الله أكبر ! لااله الا الله » فتركوه ولما دخل سلطان بن بجاد الطائف طرد الناس من بيوتهم وساقهم الى حديقة شبرا وحبسهم ثلاثة أيام وبعد أن نهب منازلهم وكنوزهم وأسلحتهم أطلق سراحهم ! !

وقد حاول الحسين وولده على استرجاع الطائف ومقاومة الاخوان فهزم جيشهما فى « الهدى » فى أواخر سبتمبر سنة ٢٤ ومن العجب أن كثيرين من عرب الحجاز واسمهم المتدينة بالنسبة الى الاخوان وكثيرين من جنود الجيش العربى قد شقوا عصا الطاعة على الحسين وأهله وانضموا الى لوهابيين وذلك فراراً من الظلم والاستبداد وضيق العقل وسخافة الاراء . ولم يكن هؤلاء اللاجئون المساكين ليلتمسوا الرحمة من ألد أعدائهم الا لعلمهم بأن الظلم أشد من العداوة وتحمل لؤم الحاكم القومي أقسى علي النفس من ذل التسليم للفاتح الأجنبي . ولعنة الله على أهل اللؤم وأهل الظلم أجمعين .

٤

ومما يدل على عقلية الحسين انه كان يعتقد ان فى امكانه طرد ابن سعود من الطائف ومن الحجاز ، وطالما قال ان ابن سعود أمير من الدرجة الخامسة بين امراء العرب . وفي الوقت الذي كان الحسين يرتب درجات الامراء الذين انتصروا عليه وعلى جيشه اجتمع لفيف عظيم من الاعيان والاشراف والتجار واللاجئين من المدن المأخوذة (٣ اكتوبر ٩٢٤) وطلبوا من الحسين أن يتنازل عن الملك لولده على ، ودارت بين الحزب الوطنى الذى تألف فى جده وبين الحسين مراسلات مضحكة مدارها رغبة الحسين عن تعيين على خلفاً له ولكنه في ٢٥ ربيع اول ١٣٤٣ قبل وفي اليوم التالى بويع على ورجع الى مكة وفي ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٤ وصلت الى جدة القافلة الحسينية التى تحمل أمتعة الخليفة المخلوع والملك المعزول والمنقذ الذى نفر شعبه من انقاذه وفيها عشرون جملا تحمل أربعين صفيحة من صفائح البترول مملوءة ذهباً أى حوالى ١٦٠ مائة وستين ألف جنيه .

وأقام الحسين أسبوعا في جده إلى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٢٤ (سبع سنوات بالدقة بعد تسلمه كتاب مكماهون) وفى تلك الليلة نزل الى البحر هو وحرمه وعبيده وكان نزوله الى اليخت الذى اشتراه واطلق عليه اسم الرقمتين ، وكان يعده حتما لهذه السفرة الاخيرة.

يدعى الكثيرون من المؤرخين وكتاب الصحف ان سقوط الحسين يرجع الى أسباب سياسية أهمها رفضه المعاهدة الانجليزية التي استمرت المفاوضة بشأنها ثلاث سنوات. والحقيقة أن الحسين قبل في الساعة الأخيرة أى فى الايام التى تخللت الاستيلاء على الطائف ومعركة الهدى ، أن يفاوض الحكومة الانجليزية في تعديل مطالبه فجاء وفد من مكة الى وكيل انجلترا في جده ولكنهم ردوه خائباً لأنه سبق السيف العذل، أو الصيف ضيعت اللبن. وكانت جريدة التيمس تتشفي في المنقذ الأعظم وتقول بأنه لو وقع المعاهدة لأنقذته من ابن سعود ، وهذا صحيح وان كان أنصار الوهابى يدعون ان ذلك كان مستحيلا بعد سقوط الطائف والهدي .

كان الحسين يحتقر امراء العرب وقد جعلهم درجات . وكان يظهر في السياسة غير ما يبطن دائما وهو يظن ان هذا منتهى الحذق والمهارة .

وكان شديد الاعتداد بنفسه و يعتبر شخصه أعظم شخص فى العالم، وكان يزعم أن الحلفاء ينفذون خطته الحربية التى يضعها في جريدة القبلة وان أراءه وحى منزل وان تفسيره لبعض آيات القرآن أصح من تفاسير كبار الائمة كالزمخشرى والطبرى والرازى وانه يستطيع بديوانه الخاص (مخلوان) أن ينقذ العالم العربي ويؤسس الدولة الشريفية كما يستطيع (بالقبو) أن يقتص من جميع أعدائه . والقبو أحد سجون القرون الوسطي أعاده الرجل الى الوجود وأخذ يسجن فيه من يشاء لمدة غير محدودة ولاسباب مجهولة ولغاية لايعلمها الا الله وهو أشبه بالباستيل فى وسط مكة ! كان الرجل مغروراً و كانت حاشيته تساعده على الغرور بالمدح والنفاق . وقد اجتمعت فى حاشيته الاضداد ظلم الرعية وظلم نفسها وظلم العرب والاسلام ، وظلم كل من فى حكومتهم الا المنافقين والمختلسين الذين سرقوا أمواله وأموال الامة وقد أقصى الرجل كل الرجال الصادقين المخلصين وأبغضهم و كرههم وكاد يهم ببعضهم قتلا وانتقاما و بحسن نية كان يقرب الخونة واللصوص والفاسدين فخرجوا من جده قبل خروجه و بعده وفى حقائبهم بعض ما نهبوه ، وقد سلبه أحدهم عشرات الالوف أخذها باسم شراء السلاح فاشترى بها فى مصر ضياعاً وقصوراً . وكان موظف آخر مقرب منه نهب سبعين أو ثمانين ألف جنيه وابتنى بها قصوراً و اشتري أطيانا وهو يعيش الآن عيشة الملوك وكان له جملة وكلاء في مصر وغيرها فاختلسوا عشرات الالوف ، وهكذا تبدد معظم المال الذى ناله الحسين سواء من الانجليز ابان الثورة أم من الحجاج المساكين الذين كانوا يدفعون الضرائب على كل شئ وحتى صفيحة الماء بيعت لهم فى بعض الاحيان . بجنيه انجليزى ذهب ومن هؤلاء الذين سلبوا ونهبوا غير الكاتب البليغ والخطيب الفصيح والتاجر الحاذق ، ترى حامل ختم الوكالة الحجازية وتاجر الغنم وقيم المطوفين . وسماسرة الجمال والشقادف كل هذا النهب والسلب والظلم والحسين يقول لمن يطلب منه المعونة « لا لا أيها النجيب المال يفسد الرجل » !

يرجح العارفون ان الحسين وصل الى يده من مال إنجلترا أثناء الثورة العربية مليون و ٢٠٠ ألف ليرة . ويقول بعضهم نقلا عن لورنس أن الحملة كلها تكلفت سبعة ملايين و كان

المسلمون في الهند وعددهم نحو أربعين مليونا أى يعدلون سكان انجلترا أو فرنسا يبذلون كل جهدهم لانقاذ البلاد المقدسة من الظلم فالفوا لجنة الخلافة وجعلوا على رأسها شوكت على (الذى زار مصر فى أوائل سنة ١٩٣١) وأرسل شوكت على الى الحجاز بالبرقية الآتية

« ان مسلمي الهند لا يوافقون على بقاء الشريف حسين ولا أبنائه في الحجاز وان حكومة الحجاز يجب أن تكون ديموقراطية حرة خاضعة لرأي العالم الاسلامى . وان جمعية الخلافة لا تعترف بامارة الشريف على »

وكان الاخوان الوهابيون قد دخلوا مكة في ١٧ ربيع أول ١٣٤٣ بغير حرب ولا ضرب .

وكان ابن سعود فى أول الامر يدعى انه لا يريد أن يملك الحجاز انما يريد أن يحتفظ به للعالم الاسلامى ! !

فقال فى برقية الى على « أنتم تعلمون أن الحجاز للعالم الاسلامي فلا ميزة لطائفة من المسلمين على طائفة أخري »

وكتب للسيد أمين الحسيني الذي توسط لديه فى الصلح بينه وبين الملك على

« انا نرغب فى وجود ادارة في الحجاز تكفل حقوق جميع المسلمين بوجه المساواة وتضمن راحة الحجاج وتزيل عنهم المظالم كلها »

وكتب ابن سعود يقول في هذا المعنى :

« يجب اخلاء الحجاز من أولاد الحسين وانتظار حكم العالم الاسلامي الذى له الحق فى أمر الاماكن المقدسة وطريقة ادارتها » .

وأخيراً فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤ أرسل ابن سعود الى الشريف على بما يأتى .

« اخلوا الحجاز وانتظروا حكم العالم الاسـلامي فان اختاركم أو اختار غيركم فنحن نتقبل حكمه بكل ارتياح »

والعالم الاسلامي كان ضائعاً بين جمعية الخلافة في الهند والحزب الوطني في الحجاز و بين سلطان نجد و بين الحسين وأولاده .ولعله رحمه الله كان مظلوماً .

وقد اتخذ اسم العالم الاسلامي ستاراً لكل من أراد الكذب أو الدس أو المخادعة. وكل منهم يعلم أن العالم الاسـلامى شيء خيالى لأنه ليس له قوة مادية تنفذ حكمه أو تحمى ذماره. حتى ان ابن سعود عرض في النهاية انه يترك الحكم « للعالم الاسـلامي » في اختيار من يتولى الملك فى الحجاز. فوارحمتا للعالم الاسلامى والحسين لأنهما كانا ضحية .

٥

ولا نغفل من أسباب انقلاب الانجليز على الحسين غير ما تقدم من أحوال ضعفه وذهاب اهميته ، وانتهاء الحلفاء من مآربهم سبباً مهما جداً وهو أنه فى تلك الفترة كان له سفير أهوج في رومه وهو من أسرة سورية فى مصر القاهرة قيل ان الحسين منحهم أحد ألقاب الشرف ، وكان هذا السفير محباً للفخفخة وهو على أكبر نصيب من الحماقة والطيش والتسرع فى الأمور ، لأنه لا يعلم من أسرار السياسة شيئاً . وناهيك بمن يكون ذا مال وحسب ولقب ويرضى أن يكون ممثلا سياسياً للحسين فى عواصم اوروبية ودولها للأسف لا تكترث للحسين ولم ترسل اليه سفيراً .

هـذا السفير الأهوج ، سافر الى روسيا في سنة ١٩٢٤ واتصل بحكومة السوفيت وطلب منها تعيين سفير لها في بلاد الحجاز وادعى أنه هو سفير الحسين الي حكومة موسكو ، فاختار الشيوعيون رجلا مسلماً منهم وبعثوه سفيراً الى مكة ، فاجتمع بالمسلمين فى المؤتمر الذي عقد سنة ١٩٢٤ وأخـذ يوزع عليهم منشورات شيوعية ، فاغتاظ الانجليز من ذلك أكثر من أى شئ آخر وصمموا على القضاء على الحسين بعد أن ظهر لهم منه هذا الخرق . وربما خدع الحسين وأوهمه سفيره السورى أن استقباله لهذا الروسى الشيوعي المسلم يهدد الانجليز

ويرعبهم ويخيفهم فيرتدعوا ويخشوا عاقبة الاتفاق بين روسيا و « الخلافة العربية » .

ولأجل هذا قابله الحسين مقابلة رسمية ، مقابلة الخلفاء السفراء فكانت النتيجة أن الانجليز وقفوا على ما يضمره الحسين وعلموا مقدار حقده عليهم، ورأوا أنه يلعب بالنار، فتركوه حتى يحرق أنامله وأيديه وأوعزوا الى ابن سعود أن يتم إشعال النار حتى تصل الى جبة الرجل وعمامته فلما اتصلت وعلا لهبها فر من كانوا أول مشعليها ولم يفروا خفافاً بل فروا ثقالا بما سلبوه ونهبوه من مكان الحريق . وجاء ابن سعود رئيس فرقة المطافئة « الانجلونجدية » فأطفأ ما استطاع اطفاءه وأنقذ ما استطاع انقاذه . . باسم العالم الاسلامي أولا ثم باسمه ثانياً .

وفي ربيع الثاني خطب ابن سعود قائلا :

« ان مكة للمسلمين كافة وسنجتمع هناك بوفود (العالم الاسلامي) فنتبادل وإياهم الرأي ، وسيكون الحجاز مفتوحاً لكل من يريد عمل الخير من الأفراد والجماعات ! »

وفي أوائل ديسمبر سنة ١٩٢٤ دخل ابن سعود مكة فجاء بعض أعيانها وبادروا الى يده يريدون تقبيلها فمنعهم قائلا « المصافحة من عادات العرب ، أما عادة التقبيل فقد جاءتنا من الاجانب ونحن لانقبلها » ثم خطب خطبة قصيرة جاء فيها

« كان من أحب الأمور عندي أن يقيم الحسين بن علي شرع الله فاجيئه مع الوافدين أحب على يده (أقبلها) وأساعده في جميع الأمور . . . »

وبعد ذلك بيومين اجتمع علماء نجد الوهابيون بعلماء مكة . فأقر علماء مكة المسائل الجوهرية في المذهب الحنبلي الوهابي وقبلوها وفي اليوم نفسه أقر ابن سعود ما كان لعلماء مكة من المرتبات والمنح والوظائف . فأنت تري سياسة « شيلني وأشيلك » معروفة ومعمولا بها حتى في مكة المكرمة بين الوهابيين والسنيين فعلماء مكة الذين كانوا يعتبرون أهل نجد الوهابيين كفاراً قد أقروا عقيدتهم عند دخول هؤلاء الوهابيين عاصمة ملكهم . فكافأهم ابن سعود باقرار أرزاقهم في منشور جاء فيه :

« كل من كان من العلماء فى هذه الديار من موظفى الحرم الشريف أو المطوفين ذا راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل ان لم نزده . وكل من له حق ثابت فى بيت مال المسلمين أعطيناه حقه » اه

فالجزاء من جنس العمل ، أنتم يا علماء مكة تؤمنون بعقيدتنا ، ونحن نقرر أرزاقكم ونزيدها ونفتح لكم باب بيت مال المسلمين على مصراعيه .

وانتهى الأمر باستيلاء ابن سعود على الحجاز وخطب خطبة طويلة جاء منها :
«لم يفسد الممالك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء المملقون وأعوانهم ومتى اتفق الامراء والعلماء ليستر كل منهم على صاحبه فيمنح الأمير المنح والعلماء يدلسون ضاعت حقوق الناس وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى » اه . عن كتاب ملوك العرب للريحانى .

قيل ان موظفاً كبيراً من موظفي حكومة الحجاز مرض في أوائل سنة ١٩٣١ مرضاً خطيراً ونقل بسببه الى مصر ، فلما توهم أن أجله قد دنا أوصى طبيبه الخاص بأن يبلغ ملك الحجاز وصيته الأخيرة وهى تحذيره من ثلاثة أمور الافراط فى شراء السيارات ، واتقاء دسائس فيلبى وسماع نصيحة عبد الله بن حسن شيخ الاسلام في مكة وهو سليل صاحب المذهب الوهابى . ولكن الموظف الكبير نجا من خطر الموت وأبل بعد دائه وسافر الى مقر عمله . ولم يكن يستطيع أن يمنع إذاعة وصيته التى تناقلتها الألسن .

فقد روى كل من عرف الملك الوهابى أنه يشترى السيارات بالمئات و يقتنيها هو وأولاده بالعشرات تقطع المسافات البعيدة بين الحجاز والرياض (عاصمة نجد) فى سباق يتكرر كل يوم ، وهى من أفخر السيارات فاذا أدركها العطب أهملت ولم تجد من يصلحها فتمسى هيا كل حديدية لا تصلح للبيع والشراء وقيل ان عدد السيارات التى أصابها التلف على هذه الصورة يزيد على سبعماية أما فيلبي فلم يصلنا من أخباره مايدل على إخلاصه وصدق إسلامه ، غير أننا قرأنا في جريدة التيمس مقالة بعنوان « أربعة أيام فى مكة » تكلم فيها فيلبي كما يتكلم السائح الأجنبى فى بلاد شرقية ، وكنا نشعر ونحن نتلوها أنها فصل من

فصول كتبه عن جزيرة العرب فقد وصف أيام العيد فى مكة وهو يقول :

« وهكذا أتاحت لى الأقدار أن أشهد أعظم منظر انسانى من ناحية غرابته في حياتى ... وما هو ؟ هو اجتماع الفتيان حيال القصر في مساء أول أيام العيد ومعهم طبولهم فيقرعونها ويرقصون ويغنون بنغمات واحدة لااختلاف بينها لاتبعث على الطرب ولا على الشجى ، ثم يطل عليهم الملك من نوافذ قصره ثم تصلهم الجوائز والمنح .

« ثم أخذوا يرقصون بالسيف حتى نضحت جباههم بالعرق الغزير .

« وبمجرد انتهائهم من رقصتهم نهض الملك عبد العزيز بن سعود واقفاً وطرح عباءته عن كتفيه ثم مد يده فأمسك بها أقرب سيف اليه وأخذ يلوح به كما يفعل الأبطال فوق رؤوس هؤلاء الراقصين . وتقدم الملك بعدها الى الامام خطوتين وطفق يرقص بمهارة عجيبة فتارة على أطراف أخمصية وطوراً ناكصاً على عقبيه وأخرى متشاداً الى أعلا . . وهكذا كانت حركات الرجل الذى قام بتكوين امبراطورية مترامية الأطراف لم يشترك معه فرد أو دولة فى انشائها . . . » اه . ونحن نعجب لدهشة فيلبى من عادات العرب .

وقد علقت إحدى الصحف العربية على هذا المقال بقولها « وهل هذا كل ماأفاده المسلمون من إسلام مستر فيلبى ؟ ؟ . . .

وقد روى للصحف خبير بشؤون الحجاز أن ابن السعود يجمع في كل عام مليونين من الجنيهات وينقلها في خزائن الى الرياض ولا يستبقي بمكة مالا، وهو يعامل الحجاز معاملة الارض الأجنبية المفتوحة ، ويتقاضى الضرائب من أهلها ومن الحجيج على السواء . أما دعوى ترك حكومة الحجاز للعالم الاسلامى فكانت لتخدير الأعصاب وتطمين المتحمسين والمتهوسين الذين يخافون على الأراضى المقدسة ، ولكن بعد أن استتب له الأمر فيها ودعا الى مؤتمر سنة ١٩٢٦ الذى كان مؤتمراً صورياً فقد ضرب بوعوده عرض الحائط وأخذ يعامل الحجاز كما أسلفت معاملة المستعمرة والبلد المفتوح ومن الحق أن نقول إن الأمن مستتب والنظام سائد ، والجرائم معدومة لاسيما جرائم قطع الطريق والنهب والسلب ، ولكن ذلك تم

لمصلحة الحاكم نفسه فانه ان لم يستتب الأمن لايحضر الحجاج الى الحجاز ولا يدفعون الضرائب والأموال التي يستخلص منها الفاتح الوهابي مليونين من الليرات وقد ضربنا صفحاً عما صنعه الوهابيون من الفظائع عند الفتح لاسيما هدم الآثار النبوية مثل البيت الذى ولد فيه النبي وبيوت الخلفاء الراشدين بحجة أن في وجودهم تمجيداً لذويهم يكاد يكون عبادة . مع أن الأمم المتحضرة تحتفظ بكل آثارها القديمة وان كانت تخالف معتقداتها وذلك احترام لقيمتها التاريخية . وقد قرأنا وسمعنا من سوء معاملة الوهابيين المتوحشين للحجاج المصريين اذا رأوهم يتبركون ببعض الآثار أو يقرأون الفاتحة لأحد الصحابة ، ويضربونهم اذا رأوهم يدخنون وحدثت معارك دموية بين حرس المحمل وبين الجيش الوهابي وأصيب كثير من الجنود المصرية ومن الحجاج أيضاً وانقطع المحمل والكسوة من سنة ١٩٢٦ الي هذه السنة على الرغم من أن عبد العزيز أرسل ابنه فيصل يستشفي من رمد فى عينيه فقوبل فى مصر مقابلة الأحباب والخلفاء وذلك بعد الاعتداء على المحمل بالضرب والقتل . فانظر الى كرم المصريين وحلمهم وتسامحهم التى تكاد تكون ضعفاً وحلماً وعفواً فى غير موضعها فنحن لانستنيم للاجانب والاوروبيين فقط بل تمتد استنامتنا وضعفنا الى عرب الصحراء . . . فلا حول ولا قوة الا بالله . ولكن أهل مصر قد جبلوا على مكارم الأخلاق فلعل هذا يقدر حق قدره من أمم الشرق والغرب .

٢٢

١

كانت أحكام العصور المظلمة عادت الى الحجاز بانتصاب الشريف س . بن ل . حاكماً على الحجاز . عاد البطح على البطن والجلد على القفا بسيور الجلد المضفور وسياط الخيزران ويوجد تحت القصر سرداب اسمه « القبو الدامس » لأن البشر يدمسون فيه أحياء وهذا القبو الدامس أو القبر الرهيب عبارة عن جحر مظلم تحت قصر أمير بالحجاز ليس فيه كوة للهواء أو منفذ للنور وأرضه ملآنة بالتراب الذى تتولد فيه الجرذان والعقارب وهو سجن المتهمين من رعايا الأمير بغير تحديد لوقت أو لحكم كأنه جزء من حصن الباستيل وليس هذا القبر معداً للصوص والجناة من قطاع الطريق وقتلة الحجيج ، فان هؤلاء خاصة المنفذ وحاشيته وأقرب الناس اليه وانما القبر أو الدامس جعل لمن ينبس بكلمة أو تصعد من صدره زفرة حزن أو أسى على العرب والاسلام . وقد يضع فيه خصومه من الاعيان أو التجار الاغنياء الذين يحاول مصهم فيرفضون بعذر العدم أو الحاجة .

فاذا ألقي باثنين في الدامس فلا يستطيع أحدهما ان يرى وجه الآخر لشدة الظلام ولا يستطيع من يدخل الدامس ان يبقى بثيابه بل يضطر لخلع ما عليه ويتجرد من ثوبه لشدة الحر لأن الدامس لا يتخلله الهواء وفى الدامس سلاسل وأغلال تصلح لتقييد السفن ويقيد بها الأشخاص . والحمد لله على أن هذا المكان قد بطل استعماله .

وكانت هنالك فوق ذلك أداة للعذاب اسمها الخشبة وهى عمود ممدود فوق الارض من الجدار الي الجدار به عدة ثقوب وطريقة التعذيب بها أن توضع رجلا المعذب فى ثقبين من تلك الثقوب على مسافة مترين أو مترين ونصف ويبقى الرجل ملقي على هذه الحالة على أرض تمرح فيها الجرذان والحشرات فتتمزق أعصابه ويوقع على نفسه ويتخبط في فضلاته .

و بعد مدة مقررة يخرج المعذب ويضرب بالسياط وأعصاب البقر الى أن يشرف المتهم على عالم الموت والشهادة وكثيرون يموتون وآخرون تتعطل أعضاءهم :

وقد نشرت هـذا الوصف جريدة « بورو بودور » التي تصدر فى جاوه بقـلم محمد الهاشمى التونسى عدد ٤ سنه أولى الصادر في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠٠ وقال المحرر :

« نحن نكتب هـذا وننشره فى عصر النبيل نفســه وأهل مكة منتشرون فى كل مكان فمن ارتاب فليتحقق منهم وأهل مكة أدري بشعابها »

وقيل ان بعض أولاد النبيل كانوا أجروا فى دولة ش أحكام الجلد القاسي وتقدمت بذلك شكاوى الى وزارة الخارجية الفرنسوية ورياسة الوزراء . لأنهما تمثلان الحضارة الانسانية

انتقد الشاعر الأندلسى ضخامة الألقاب بقوله :

«ألقاب سلطنة فى غير موضعها»

ومع هذا فقد كانت الأندلس من أغنى بلاد الارض في المياه والزرع والمعادن والحيوان والمنتوج وكانت ملآنة بالناس وعامرة بالمبانى الفخمة وآهلة بالعلماء .

فماذ عساه يقول لو بعث اليوم فى بلاد العرب الصحراء الجرداء وهي واد غير ذي زرع وفيها النفود والربع الخالى والوديان السحيقة والجبال الشاهقة التى لانبات فيها ولا نبع ماء وسمع فى مكة صاحب الجلالة ا . . . (وقد صار بعضهم فى سنة ١٩٢٤ خليفة المسلمين واميرالمؤمنين وحامى حمى الدين) وفى حضر موت صاحب العظمة القصيطية وصاحب الشوكة الكثيرية وفى الكويت صاحب المهابة الصباحية وفى نجد صاحب الجلالة ا . . . وفى سوريا صاحب الراية ا . . . (قبل زوالها وما يوم حليمة بسر) وفي اليمن صاحب الامامة اليمنية وحامي الشريعة الزيدية ؟ ؟

٢

كان أبو بكر وعمر وعثمان يدين لهم الشرق والغرب ولم يرد في التاريخ لاحد منهم مثل هذه الالقاب ولم تكن لهم مواكب ولا جحافل ولا حاشية ولا خاصة ولا معية ولا فيالق من الجند تسير في ركابهم امامهم ووراءهم بل كان التراب فراشهم والسماء غطاءهم . ولم يكونوا أهل طمع ولا جشع في المال ولم يكن لاحدهم جريدة تنشر له قراراً مثل القرار الآتي :

« أصدر معالى نائب رياسة النظار الجليلة قراراً يقضي بأخذ خمسة قروش على كل حمار يسافر بين جده ومكة ثلاثة منها ترجع الى البلدية واثنان الى مرجع آخر »

كان الشريف ل. ن. يعلن انه قام لتطهير بيت الله من طغمة الطورانيين المارقة في الوقت الذي كان يقبل فيه رسل الانجليز في الحرم المكى متنكرين بلباس البدو وشفيعهم ومطهرهم هو مايحملونه له معهم من الاصفر الرنان حسبما صرح به بنفسه في كتابه الى نائب ملك انجلترا بمصر وقد لقب الكولونيل ر . . بلقب أمير من امراء الاشراف وسلمه الخنجر المرصع الذى لا يحمله الا أهل البيت . وأصبح ر . . عربيا وشريفا على مذهب ن بن ج .

أما الجندى التركى الذي شهد له العالم كله بطهارة الذيل والنزاهة فيقول عنه ابن ج هذا انه عدو للانسانية وللأديان ويقبض ن على عذاري الجنود وحليلات الضباط وعقائلهم الذين تسلسلوا ٦٠٠ سنة يحمون مكة وسكانها اسرى في أيدى العساكر الاجنبية تحملهم الى مصر .

أليس أعمال النبيل ن داعية الى أن يكفر الاتراك بمكة وساكنيها من وقت الخليقة الى يومنا هذا ! وقديما قال ابن الاثير ج ٦ ص ٢١١ « العربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » وقد بالغ فى الاهانة بما لانوافقه عليه .

وقال الله « الاعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » .

قال أحد الكتاب « فكيف اذا لم نطرح كسرة بل طرحنا أكداسا من الذهب الوهاج ؟ »

وروى عن الشيخ على القانص الهندى انه قال :

« العربي فى حضرموت لو أعطيته مجاً وأمرته بقتل نفس مؤمنة ماتأخر »

وقال الشيخ سالم بن سعد بن نبهان (نحن العرب لم تحكمنا دولة أجنبية ، اذا صاحبنا أفرنجى تكبرنا على أصحابنا فاذا ملكتنا حكومة أجنبية يوما ما فلا شك في اننا سنكفر) وقال آخر خبير : (لو طلبت الحكومة الانجليزية من بعض العرب أن يتنصروا للبرهان على صداقتهم لها ماتأخروا عن اعتناق الصليب) وهذه مبالغة تدل على القسوة في الحكم .

ولأجل هذا اعطي أحد أمراء مكة للكولونيل ر مأذونية واسعة وتوكيلا مفوضا بحيث يمضى بالنيابة عنه كل ماشاء من العهود والاتفاقات حتى كأنه الامير بنفسه في الوقت الذي يخفى فيه الحاكم كل شئ حتى على أولاده

***

بعد أن حدث النفور بين المرحوم جلالة الملك حسين بن على والانجليز ، كتب كاتب فى التيمس في مايو سنة ١٩٢١ يقول ماتعريبه

« ان القيام الذى حصل ضد الاتراك لم يكن وقوعه بصورة عامة من جميع العرب بل وقع من جانب الشريف حسين وبالرغم من كون الامة العربية تتألف من خمس حكومات فانه ليس فيها أضعف ولا أصغر من حكومة الحجاز التي تحولت الى حكمدارية ومع ان أمير نجد ساعد الحلفاء فى الحرب العامة فاننا لاننكر أن الحركة بدأت من الحجاز . وكما أن شريف مكة حسين باشا صار حكمداراً على الحجاز فقد رشح أولاده لامارات عربية متعددة ولو رجعنا الى مطالب عائلة الشريف حسين لوجدنا أن هنالك أشرافا أسمى منهم حسباً ونسباً وأعرق منهم مجداً وفخاراً وانهم أليق وأحق بامارة مكة من حسين وأولاده وانما أولاد الشريف حسين يرتكنون في مطالبهم على المساعدات التى قاموا بها للحلفاء في أثناء الحرب .

«ان العراق لاتستطيع أن تسمع باسم شريف مكة وأولاده وليس لأحدهم قبول حسن هناك . و يجب موافقة الامم قبل ترشيح الامراء لها ، وكذلك سوريا فانها لا تنقاد

ولا تذعن لاوامر مكة أما نجد فان ساحة شاسعة مترامية الاطراف تلتف حول أميرها

ان أمير نجد من أشد الناس بغضاً لشريف مكة أو حكمدار الحجاز وذلك لمطامع الحسين وحرصه وتفانيه فى تضحية كل شئ لمنافعـه الذاتية ولأنه أصبح في منتهي الانتقاد فى نظر العرب بل فى نظر العالم الاسلامى كله .

وفضلا عن ذلك فان الامام يحيي منقطعة بينهما العلائق للسبب الذى يبغضه لأجله العالم الاسلامى كله .

وكذلك الادريسي لم يقبل أن يتفق معه بوجه من الوجوه . والسنوسي يري أن الخلافة لايمكن حصرها في أشراف مكة وقل مثل ذلك عن عبدالله أمير حائل

وعلى ذلك فتأسيس الوحدة العربيـة لايتأتى تحقيقه الآن . ولذلك فالأنسب أن تبقى الامة العربية على حالها لنوفر على أنفسنا مبالغ طائلة يقتضيها خيال أرباب الاحلام ونحن في حاجة الى تلك النفقات التى لاطائل تحتها » اه كلام المتيمس . وهذه عادة الانجليز اذا فرغوا من الانتفاع من حاكم أو أمير شرقي قلبوا له ظهر المجن .

٣

نشر شريف مكة فى عدد ٤٤٧ من جريدة القبلة استغاثة بالمسلمين من الحلفاء جاء فيها

« يابني الامة الخالدة !

أما وقد اخلف الحلفاء وعودهم لـكم وداسوا عهودكم ومزقوا مواثيقهم التي عقـدوها مع أبيكم ومنهضكم الاكبر (! !) فلم يبق لـكم سبيل غـير المفاداة والاستماتة في رد عاديات الظلم والشر عنـكم وعن بقاعكم المقدسة .

ثم أخذ يصف الحلفاء بأنهم « الفرنجة الغدارين »

ثم قال « فأما ميتة تغسل العار وتمحو الذل وإما فوز يؤيد الحق »

« اقتحموا نيران الغاصبين أطفالا ونساء وشيوخاً وشباناً وعجائز » .

« أظننتم أن الافرنج يصدقون فى وعودهم لكم ؟ لا والله فلا تخدعوا أنفسكم !

«خافوا نهب منازلكم وتدنيس معابدكم وانتهاك أعراضكم ، اقضوا ما بقى من هذه الحياة فى الثار » اه ماجاء فى الاستغاثة ، وقد رد عليها مؤرخ شرقى بقوله » :

« ولنا الحق في أن نضحك من هذه الدعوة الى الجهاد بعد فوات الوقت وبعد ان بلع الحجاز ما بلع من الذهب حتى تخم وسدت لهاته سداً بالاصفر الرنان ، فلما جفت يد الحلفاء أخذ بعضهم يستنفر العرب ويقدمهم ضحية رجالا ونساء وأطفالا تحقيقاً لمطامع الوادي . ويحتفظ بنفسه ويدعى أن الافرنج الغدارين نقضوا عهود العرب مع أن العرب لم يتعاهدوا معهم على شئ وهكذا يكون خبث السياسة المتلوية كالافاعى

«ترجع مطامع الانجليز في بلاد العرب الى عهدغارة نابوليون على مصر وسوريا . ولكنهالم تدخل فى طور العمل الا بعد ظهور نفوذ الخلافة العظمى بين مسلمي الهند إبان ثورة ١٨٥٧ والانجليز الذين اتخذوا مسقط وبوشير مركزاً لحركات توسعهم في شرق الجزيرة وثغر عدن للتوسع فى جنوبها اتخذوا احتلالهم لمصر قاعدة لحركاتهم ودسائسهم فى سوريا والحجاز .

«وقد وفقوا في الزمن الاخير لايجاد زمرة من الخونة بمصر من أهل سوريا ولبنان وفريق من المصريين رغماً عن رفعة مراكزهم فى الهيأة الاجتماعية ورغم ما يتظاهرون به من العلم والفضل والغيرة على الاسلام وأهله وقد باعوا ذممهم للانجليز واشتروا الآخرة بالدنيا وانقطعوا لكيد الدولة العثمانية خصوصاً وللاسلام عموماً ، بتوهين آخر حصونه .

«وقد حاول أولئك الاوغاد تأسيس روابطهم مع الامير عون الرفيق فعاجلته المنية فالتفتوا نحو حسين بن على وابن سعود . ان الاحتفالات التي كانت تقام فى مصر لعبد الله بك عند مروره المتوالى بمصر أظهرت خطتهم وكرروا المساعى مع الامير على باشا فانتهرهم وحاولوا التودد الى الامام يحيى فلم تخف عليه حقيقتهم ثم اتصلوا بالادريسى وأسرة النقيب

فى بغداد وخزعل الذى كان يقابل غورست كما جاء مصر وكذلك أسفار اسماعيل حسن وعزت الجندى وحسن صبرى وحسن حماده واتباع الشيخ على يوسف ورجل آخر صحفى سورى مسلم من رجال الدين كل ذلك صار سراً مذاعاً . وخطب محيى الدين بك متصرف عسير ومسألة الشيخ أحمد الهزازى وكذلك المخابرات بواسطة عارف القوم بمصر وعبد الرحمن قنصل الانجليز بجده .

«والتقارير المرفوعة بواسطة الباشا الذى كان بالمعية الخديوية وقيامات فى حقه قصيدة « البال » وسياحات المحامي الشرعي الذى توفى وارسال بعض سكان قرية اليوسفية بقنا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فمصدرها معروف كما ان خطبة عبد الله وطعنه فى الدولة امام ضباط « امدين » لمحالفتها المانيا دون انجلترا فقد خرقت الستار الرقيق وجاء طلب الامير من وهيب باشا قبيل سفره أن تعلن الدولة انفصال الحجاز عنها تماماً الا فى العلاقة الدينية فأفصح عن الغرض المقصود . » اه . كلام المؤرخ الشرقى

٤

نشرت جريدة المستقبل البارزية فى عدد ١١٦ الصادر فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ برقية أرسلها المرحوم جلالة الملك حسين بن على الى پوانكاريه رئيس الجمهورية هذا نصها .

« الى فخامة الموسيو ريمون پوانكاريه رئيس الجمهورية بالاليزه .

انتهينا فى هذا اليوم السعيد ، الذى تعده الامة من أيامها التاريخية بارسال تهنئتنا اليكم بمناسبة استيلاء جيشكم على دمشق . وانه اظفر كل مساعى فخامتكم ومساعي شعبكم النبيل بالنجاح ، وهو من ثم بشارة لاقتراب النصر النهائى أي انتصار العدل وحقوق الامم وضمانها من خرق حرمتها ومن كل اعتداء عليها في المستقبل » الحسين الأول

و في نوفمبر سنة ١٩٢٠ أى بعد ارسال هذه البرقية بسنتين و بضعة أيام أرسل المرحوم الحسين بن على ملك الحجاز نفسه كتابين الى خديوى مصر السابق عباس حلمى الثانى والى سلطان

تركيا يحتج فيهما على أعمال فرنسا في سوريا و ينسب اليها انها تعمل فى سوريا عملا عدائيا للدين المسلمين و يطالب بجلاء جنودها عن عاصمة الامويين .

ولم ننس من الذى قدم سوريا هدية لفرنسا ، وفلسطين والعراق هدية لانجلترا والفضل للجنيهات الانجليزية التى كان ينفقها بعضهم بمكة بنفسه و بواسطة صنائعه لتمزيق أجزاء الاسلام والدولة العثمانية فكيف يعترف الحسين أمس بأن فرنسا فتحت سوريا واليوم يطلب الجلاء عنها فأين ثمرة الفتح وأين ثمن الدماء الاوروبية التى اريقت في سبيله ؟ هل كان يظن الشريف ان دماء الحلفاء رخيصة مثل دماء العرب والشرقيين ؟

أليس الانجليز والفرنسيون هم الذين كان المرحوم الحسين يصفهم بأنهم « حلفاؤنا الكرام المحاربون لنصرة الحق والانسانية » ثم يصفهم بأنهم أعداء يستأجرون الناس لمصالحهم ، أفلم يستأجروا جيوشا وقوادا من العرب من قبل ؟

هل كان يظن أن فرنسا تتخلص من الترك لتشترك مع البدو الحفاة ، أم انها تفتح بلاد الشرق لتسلمها لقمة سائغة للحسين بن علي ، وأقاربه وأعوانه ؟

كان الحسين ينتقد سياسة الاتراك الذين عاشوا في اوروبا ٧٠٠ سنة وهم فى درس مستمر لاعوص مشاكلها السياسية و يبدو للعيان فى جريدة القبلة التى كان يحررها أنه سياسى محنك ، فكيف خدع لوعود انجلترا وكيف لعبوا به بأسهل الطرق وأهونها فسارع الى الخلاص من الترك الذين تربى فى حجورهم سابحاً فى بحر من نعمة الله عشرات السنين هو وأولاده وأحفاده وكل أهل بيته ؟

قال مؤرخ شرقى « نحن الشرقيين يصح في حق بعضنا قول الشاعر :

غذيت بدرها ونشأت معها فمن أنباك ان أباك ذيب

وما أشبه بعض العرب فى ثورتهم على آل عثمان ، بالزبير بن العوام فى ثورته على عبدالملك بن مروان . فعطل الفتح الاسلامي وأورث الدولة جراحاً وقروحاً فباء بسخط من

الناس وغضب من الله وكان جزاءوه أن سجل التاريخ اسمه باحرف من عار وفضيحة

كان زعيم عربي يقول فى منشوراته « لانترك كياننا الدينى والقومى ألعوبة فى أيدي الاتحاديين وقد يسر الله للبلاد نهضتها وأخذت استقلالها واستقلت فعلا وانفصلت عن البلاد التى لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما بكل معانى الاستقلال لاتشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولاتحكم خارجى جاعلة غايتها ومبادئها نصرة دين الاسلام والسعى لاعلاء شأن المسلمين » .

ولكن نتيجة هذا المنشور وقوع بلاد الاسلام فى أيدي الاستعمار الأجنبي فتربع جورو في دمشق وهربرت صموئيل فى اورشليم وغيرهما فى العراق وشرقي الأردن في حين استقلت أرمنيا وعشرات الامم الاوروبية . كان بعض الناس مخدوعا فى النبيل ش وأعماله و يظن أنه مخلص فى ثورته وانه حقيقة يغار على الاسلام والمسلمين وكان بعضهم يظن انه ضعيف العقل والتدبير وأن من حوله يطيعونه خوفاً واحتراماً. ولكن كان رأى الكثيرين انه لم « يثر » ولم « ينهض » ولم ينقذ الا حبا بالمال ولامور أخري لاعلاقة لها بالدين والوطن . فقد جاء فى عدد ٣٩١ من جريدة ط التي يكتبها بنفسه نص خطاب وجهه ش الى نائب حكومة ك بمصر صرح فيه بأنه لم يقم بالفتنة الا إرضاء لحكومة ك وتنفيذاً لخطتها الحربية . (فان كان ولابد من التعديل ، فلا لى سوى الاعتزال والانسحاب ، ولا اشتبه فى مجد دولتكم ، وانها لاترتاب فى انى وأولادي أصدقاءها الذين لاتغيرهم الطوارئ والاهواء ثم تبينوا البلاد التي تستحسن اقامتنا فيها بالسفر اليها فى أول فرصة ، وان رأت ذلك ولكن مشاكل الحرب الحاضرة تقضى بتأجيله إلى ختامها فحقوق الوفاء والجميل يفرض علينا الثبات) .

فقيام النبيل ش واقامته في مكة لم يكونا حرصاً على حمي الدين كما زعم فى منشوراته للمسلمين بل كان مقابلة لجميل الجنيهات التي قدمت اليه كما قال هو نفسه فى فقرة اخرى من كتابه السابق :

« والا باقي المواد فانا نعجز عن أداء شكر الوفاء بها شكراً يملأ الخافقين خصوصاً أمر الاعانات » .

وليس للحرمين أوغير الحرمين حرمة فى نظر بعض حكام مكة من العرب فقد سمعنا وقرأنا الوف المرات ما ارتكبه هؤلاء فى الحرمين وماسفكوه من دماء واقترفوه من آثام راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨ وراجع كل صفحة تقريباً من تاريخ الجبرتى .

فالقول بأن أي رجل منهم كان مخدوعاً أو انه كان في نوبة عصبية، أو انه كان نائما يحلم ثم أفاق كل هذه أعذار باطلة لايبديها الا جاهل بالحقائق لايحق له أن يتكلم، أو شريك في الجريمة .

٢٣

١

ان شعب العراق شعب مسلم شرقي ، وهو قريب الشبه الى المصريين من حيث الأخلاق ولكن فيه علماء وأدباء من أهل المكانة السامية فى العالم الاسلامى

بيد أن حب الرخاء والترف الذى اشتهر به الأغنياء والسادة فى عهد الدولةالعباسية لا يزال سائداً في بعض البيوت والاسر وربما كانت حياة أهل بغداد التى وصفت فى القصص لم تكن كلها من صنع الخيال ، وبعض مظاهر تلك الحياة مازالت في العراق ، ولم يكن العهد التركى ليزيل آثارها ، وانما كان ذلك العهد من مسببات قوتها ولكن معظم أهل العراق فيما عدا المدن هم من القبائل العربية ذات العصبية وهذه القبائل لا تزال قوية الشكيمة ذات شجاعة واقدام فى الحرب وكثيرون منهم على الفطرة من حيث أخلاق العرب وكرم أخلاقهم ونخوتهم (قتل أحد افراد أسرة السعدون رجلا بسبب زواج شرعى) (١)

وربما كانت حياتهم العقلية كذلك على الفطرة فان الحكم العثماني لم يعمل شيئاً فى سبيل تعليم هذا الشعب الذى كان يبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون ، وكانت بلاده وديانه مقر مدنيتين من أعظم مدنيات العالم وهما المدنية البابلية الاشورية والمدنية الاسلامية.

بل تركه الأتراك يسير سيراً حثيثاً فى سبيل الخراب ولم يفتحوا به مدارس ولا معاهد للعلم ولم يصلحوا من أموره شيئاً . وكانوا يحتقرون العرب ويحاربون اللغة العربية ويرسلون الى البلاد ولاة من الترك دأبهم اذلال العربى مهما بلغت مكانته وكان فى البلاد علماء أعلام

---

(١) ادعى القاتل أن المرحوم الصانع بك الذى بنى ببنت السعدون من قبيلة أقل قبيلة السعدون وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الحكم بأمر ملك العراق

أمثال آل بيت الألوسي يصح أن يتولوا القضاء فلم يعيروهم التفاتا وأرسلوا اليهم قاضياً تركيا ليقضى بينهم بما يعلم وهو أقل مما يعلم هؤلاء العلماء من أهل البلاد وكان من بينهم رجال يصلحون للاستعمال ، ولكن الترك لم يعينوا منهم والياً . وقد سرى علي العراق ما سرى على جميع أجزاء الدولة العثمانية من الاهمال والتأخر . فكانت البلاد مقضياً عليها حتما ان تقع فى يد الأجنبى (راجع كتاب ولاية بغداد تأليف نجيب شيحة بالفرنسية طبع مصر ١٩٠٨)

بيد أن هؤلاء العراقيين حاربوا فى سبيل استقلالهم وحريتهم حروبا شهدت لهم بعلو الكعب وسمو الأخلاق وحب الوطن والشجاعة الفائقة .

ومما يكتب بمداد الحسرة ، ان الأتراك أهملوا استثمار البلاد لمصلحتهم أنفسهم لمصلحة أهليها . فان بلاد العراق من أغنى بلاد العالم وثروتها مزدوجة فمن حيث الزراعة يوجد بها ستون مليون فدان من الأراضى الصالحة للزراعة ، وقد أهملت جميعها ماعدا بضعة آلاف من الأفدنة . ولما جاء الاتحاديون شرعوا في الاصلاح الاقتصادى فكلفوا سير ويليام ويلكوكس ببحث مشروعات الري في العراق . فأقام هناك عاماً وبعض عام وعرض عليهم مشروع اصلاح واسع النطاق يقتضي خمسة عشر مليوناً من الجنيهات ليعيد العراق الى حالته الأولى ولكن خزانة الأتراك كانت شبه خالية ثم انهم لم يرغبوا فى تحسين حال العراق ليجعلوا منه مقر دولة اسلامية جديدة ربما تزاحمهم بثروتها وقوتها ، فانفقوا مليونا واحدا تمكن ويلكوكس بواسطته من تصليح مليون فدان وقد علمت من بعض العارفين أنه قبض المبلغ قبيل اعلان الحرب الكبرى ، والأراضي الزراعية فى غاية القوة لانه قد مضي عليها أكثر من سبعة قرون بغير زرع فتجددت قوتها وأصبحت فى حكم البكر حتى ان القمح والشعير قد تعلو سنابلهما على الفرس والفارس وهناك ثروة أخرى منحتها الطبيعة للعراق وهي الزيت أو البترول ومنه يخرج البنزين وغاز الاستصباح وغيرهما من العناصر النافعة للصناعة وشهرة آبار الموصل قد طبقت الخافقين وهذه الثروة العظيمة كانت في زمن الترك وكانوا يرونها بأعينهم لأن البترول طافح على الأرض وقد كون بركا وبحيرات فلا يمكن

أن تخفى رؤيته على أحد . وفيه ثروة تقدر بملايين الملايين من الجنيهات مما كان يعود على الدولة العثمانيـة كلها بخير لاحد له ، ومع ذلك فانهم لم يوجهوا أقل عناية نحو استثمار تلك المنابع الطبيعية العظيمة الى أن جاء الأجنبي بخيله ورجله ووضع يده على تلك الآبار واستغلها وسلمها الى شركة تجارية أجنبية ومدوا الأنابيب من بغداد الى حيفا لينقل البترول بسهولة عظيمة من منابعه الى شاطىء البحر فالبواخر النقالة :

وفى العراق معادن أخري لا تحصى وكلها مصادر ثروة طائلة وقد روي لي ثقة أن بها مناجم للفحم لم تفتح

هذه بلاد العراق التى بلغ الجهل ببعض أهلها الى درجة أنهم منشقون علي أنفسهم سنيين وشـيعة وبعضهم لا يزالون بحالة وحشية يسفـكون دماء أنفسهم ويقيمون المآتم في سبيل تشيعهم لامر قد مضي وانقضي عليه ألف وأربعمائة عام ولا تزال فى تلك المملـكة مدن مقدسة هي كربلاء مدفن الحسين والنجف مدفن الامام على والـكاظمية مدفن الحسن . وتجرى فى تلك المدن أمور تشبه ما كان يجرى فى الهيا كل الوثنية وقد اتصف رجال الشيعة بأخلاق غريبة لا تتفق مع الشرع ولا غيره فى شىء وهم يعللونها بأنها « تقية » ينجون بها من كيد السنيين وهو وهم باطل لا حقيقة له وكل هـذه تقاليد وثنية دخلت على الاسلام ودسائس سياسية اتخذ الاسلام ستاراً لها اتتم دعوة أبى مسلم الخراسانى للعباسيين فلما نال العباسيون مآربهم تخلوا عن شيعتهم وقاتلوهم .

والـكن القوم تركوا الجوهر وتمسكوا بهذا العرض الذي كان سبباً فى هلاكهم لأن العباسيين لم يستطيعوا لا أن يبقوا على السنة .

وفي العراق غـير المسلمين نحو مائة ألف كلدانى يقومون على الصناعات الدقيقـة مثل الصياغة والحيا كة والنجارة والنقش في المعادن وما اليها وهم بقايا الـكلدانيين الاصليين والـكنهم نصارى ولا يزالون يشبهون فى مجموع خلقتهم وجوه أجدادهم الأولين وان كان

بين العراقيين أنفسهم كثيرون لا يزالون محتفظين بتلك السحنة القديمة

وقد كان هذا دأب الأتراك فى جميع أملاكهم العربية ، فانهم لم يحصنوها ولم يعدوا لها جيشاً ولم يعلموا أهلها ولم يحترموهم وكأنهم كانوا تاركيها ليعتدى عليها أجنبي فاتح .

وقد شهد الكثيرون من العقلاء الذين زاروا الاستانة احتقار الترك للعرب ، وازدراءهم بهم وعدم عنايتهم بتحسين حالتهم فى بلادهم . مما هاج سخط العرب في جميع أنحاء السلطنة وروى لى ثقة من الشبان الذين عاشوا فى تركيا وفى المانيا قبيل الحرب العظمى وفى أثنائها أن شبان العرب الذين كانوا في المدارس العليا الألمانية موفدين بعثات على نفقة الحكومة العثمانية كانوا يحسدون المصريين على احتلال الانجليز بلادهم ويتمنون أن يحكم الانجليز بلادهم هم كالعراق وسوريا . والغريب أنه لم يخطر ببالهم أن يستقلوا فى أوطانهم بل كانت غاية آمالهم أن يحكمهم شعب أوروبى راق مثل انجلترا وسبب ذلك ظلم الأتراك لهم فى أوطانهم وتركهم بغير تعليم ولا حضارة . وكانوا يعجبون من حب المصريين للترك وتعلقهم بهم ، ويدهشون لأن المصريين يريدون الاستقلال والخلاص من الحكم الانجليزي ولم ينكر محدثى أن الاتراك كلهم لم يكونوا سواء في كره العرب واضطهادهم بل كان منهم رجال يحبون الشعوب الشرقية كلها على السواء مثل أنور فانه كان ينظر الى الجنس دون العصبية كان يحب كل شرقى . وكان الألمان لا يثقون بالاجانب ولم يقبلوا أجنبياً واحداً فى جيوشهم ولكن الشرقيين من غفلتهم يثقون بكل أجنبى

بيد أن الشرقيين الذين يولون الأجنبى ثقتهم ، يكرهون بعضهم بعضاً وهم أبداً متقاطعون متدابرون

وقد وقفت على حقيقة الحال فى المانيا وتركيا أثناء الحرب وما كان للمصريين والشرقيين سواء أكانوا سراة أو سواداً من المخازي والفضائح ما يحرق الاكباد ويلين من هوله الجماد . فقد كانت بين الشرقيين معارك وحروب فى سبيل النفوذ والمال ولم يكن

سلاحها الا الدسائس التي اشتغل بها لفيف من الاذكياء الذين وقفوا فطنتهم ودهاءهم على الحاق الأذى بأوطانهم. وكان بعضهم يتجسس للاجانب وينقل اليهم أنباء بني وطنه ويعاكس أعمالهم ليعكسها، وقد اضطهدوا كل مخلص وحرضوا عليه أولى الشأن فكان نصيبه الطرد والنفى حتى مات بعض الزعماء جوعاً، واضطر بعضهم للاقتراض وسجن البعض فى سبيل القوت، وكان البعض يغتال المال المرسل للطلاب ويشترى لاهله مصوغاً وحلياً ولنفسه كساء من الفرو وما اليه، ويدخر الأموال ويتقلد المناصب وأصدقاؤه وأحبابه وأبناء وطنه من المجاهدين يتضورون جوعاً ويشكون ألم الفقر والمسغبة.

وكان بعض هؤلاء الاذكياء المجرمين يستعملون ذكاءهم كما تستعمل المعاول للهدم والتخريب ولم يستعملوه للبناء والتعمير وكان المشاهد لتلك المناظر يدهش لحصولها ويحاول البحث عن أسبابها فلا يهديه العقل الى أكثر من أنها ثمرة الحسد والطمع وميل غريزى الى الخيانة والغدر والنميمة وقد تأصلت تلك الرذائل فى النفوس فلم يكن من السهل اقتلاعها بل ان هؤلاء الاشخاص لم يكن يحلو لهم عيش بدونها كأنها عنصرهم الذى خلقوا منه وبه يعيشون. وقد كانت نتيجة ذلك مارأينا من خيبة الجميع الا واحداً تمكن بالحيلة من الوصول الى مكانة عالية ولم يكن بلوغه اياها الا بالدسائس والفتن ثم ظهر خلقه الفطري فهوى

٢

تعود الانجليز أنهم اذا حكموا بلاداً شرقية، قلبوا عليها صنوف الحكام من عمالهم الحربيين والملكيين بين قاس ولين، وفظ وظريف ومتكبر ومتواضع فيصحح أحدهم أغلاط الآخر ويستغفر الخلف للسلف، والامم المظلومة المغلوبة على أمرها تلعن الجميع.

ولم تكن العراق لتشذ عن هذه القاعدة فقد عينوا لها ويلسون الذي عرف بالشدة وقوة الشكيمة والرياء، حتى يبطش بها فى الفترة الأولى بعد أن يعجم عودها.

ثم رموها بپرسى كوكس وهو داهية البحرين. الذى جاس خلال تلك الأقطار وعرف لغة القوم ولهجاتهم ووقف على تاريخ أمرائهم ودسائس الحكومات المختلفة من عجم

وعرب وقد عينته وزارة الخارجية بعد أن أدركت أن الثورة قد ضعفت ودخلت العراق الجريحة الغضوب فى دور الاستكانة والاستسلام ، وهى فترة لم يعد يصلح لها ويلسون رجل الشدة والاصطدام وبعبارة أخري جاء پرسى كوكس في الوقت الذي بدأ الانجليز فيه يشتغلون بتأليف الوزارات القومية أي المكونة من رجال من أهل العراق يعملون بأوامر الاحتلال أو قل الانتداب وهو الاسم الاخير الذي وضعوه للاستعمار وبعد ان كان ويلسون يدعو شيخ الشريعة للمفاوضة وهى احدى طرق التسوية فى الثورات التى تعد نوعاً من الحرب طلب كوكس من مشايخ العشائر أن يبلغوا ما فى اذهانهم من سوء التفاهم الى أقرب حاكم سياسى فى ناحيتهم .

وشتان بين الحالتين ولذا يري بعض المؤرخين لقضية العراق أن الثوار وعلى رأسهم شيخ الشريعة قد فرطوا فى الفرصة التى منحهم اياها ويلسون والحقيقة ان شيخ الشريعة لم يفرط في شئ لأن ويلسون لم يكن أشد اخلاصاً من كوكس ، غير أن شيخ الشريعة أحسن فى التمسك بموقف الكرامة والشمم .

وعلى كل فان الثورة كانت قد قطعت شوطها فسلم معظم زعماء العرب بعد هذا المنشور الذي نشره كوكس فى ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ . ومن بقي من الثوار استعملت معه بريطانيا سياسة الطيارات . ومن كان يسلم تلزمه بتقديم السلاح والذخيرة ولا غرابة فان انجلترا فقدت ألوفاً مؤلفة من ضباطها وجنودها الانجليز والهنود بين قتلى وجرحى واسرى ومفقودين . وكان العرب يعاملون الاسري والجرحى بغاية الشفقة والحنان .

كان الملك فيصل قد خرج من سوريا بعد موقعة ميسلون أو أثنائها طاعة لأمر الحلفاء وهو مبغوض من الفرنسيين ومحبوب من الانجليز أوعلى الأقل والانجليز يغضون عنه الطرف ويتمنون بقاءه فى سوريا وان كانوا في الظاهر قد اشتركوا مع فرنسا فى التصريح باعتبار قرارات مؤتمر دمشق باطلة ولكن السياسة الانجليزية كعادتها تعمل بوجهين فكانت وزارة الخاوجية تمالئ فرنسا في عدم الاعتراف بصحة اختيار فيصل ملكا على سوريا وبعض

كبار الساسة البريطانيين يوعزون الى نورى السعيد باشا الذى أوفده فيصل ليجس نبض السياسة الاوروبية ان انجلترا تعطف على حكومة دمشق وتنوي أن تمد لها يد المساعدة وليس على هذا القول غبار بعد أن عركت انجلترا بعض الأمراء وعجمت عوده وعرفته هادئاً وديعاً مطيعاً ابان تلك الثورة التى كان بطلها لورنس وكان مثل هذا الامير بلا ريب يكون سداً منيعاً بمملكته بين انجلترا وبين مطامع فرنسا في الشرق

فلما برح فيصل دمشق على مافصلناه فى بضعة أماكن من هذا الكتاب كان معه لفيف من حاشيته من أهل العراق وأهل سوريا وبعضهم لا يزال معه حتى الآن (١٩٣١) ولكنهم في تلك الساعة كانوا الباشوات جعفر العسكرى ونوري السعيد وعبد الرحمن شهبندر وساطع الحصرى وهو الذي ذكرنا خبر سفره الى الاستانة بخصوص مسألة الحلف العربى في ربيع سنة ١٩٣١ . وسافر فيصل الى ايطاليا وسويسرا ولندن وتفاوض مع حكومتها فى أمر توليه عرش العراق مادامت مغامرة دمشق لم تفلح ، ولا بد أن لورنس وأنصار لورنس لا سيما شيرشيل الذى كان يعول على لورنس كل التعويل وچورچ لويد وهو صديق الاثنين قد بذلوا قصارى جهدهم في ابلاغ فيصل غاية ما يتمنى بعد اساءة كلمنصو اليه ، فان هذا الرجل رفض مقابلة فيصل واعتبره عدواً وخارجاً على حكومة الجمهورية .

ولكن هذه « الثلة » أو الكتلة من الانجليز الشبان الاستعماريين يعتبرون فيصلا رجلهم الذى ساعدهم في ثورة العرب فلا يجوز أن يتخلوا عنه ، وهم يعلمون أن انجلترا قد نقضت عهودها لأبيه المنقذ الاعظم ، وضربتان فى رأس تشجانها ، فيكفى نقض العهود وضياع حلم دولة العرب المستقلة من حدود البحرين الى المحيط الاطلنطى وقد أسفر هذا الحلم عن كونه سراباً .

٣

وكانت الاسرة الشريفية قد اقتسمت ممالك العالم العربي . وكان الامير عبد الله يتمنى عرش العباسيين ويطمع أن يجلس في موضع الرشيد والمأمون وقد قويت الفكرة فى رأسه بعد أن قنع فيصل بالشام . ولكن بعد زوال ملك الشام من يد الاسرة تغير المركز نوعاً ما فهل يليق تزاحم الاخين على عرش العراق ؟

ولا سيما وأن الملك حسين يحب الأمير عبد الله ويفضله و يثق به و يكثر من استشارته ، ولهذا كان من واجبات النوري السعيد باشا أن يكتب من مصر الى حسين صاحب القبلة والنهضة بما جرى فى لندن وأن يطلب موافقته وموافقة الأمير عبد الله علي قبول فيصل عرش العراق . لأن فيصلا وهو يعلم حلم أخيه ومكانة أخيه عند أبيهما صرح بأنه ليس فى إمكانه أن يتقلد تاج المملكة العراقية مالم يقترن ذلك بموافقة أبيه وأخيه .

ولما اطمأن نوری باشا من هذه الجهة أو كاد سافر الى بغداد ليقوم بدعاية واسعة النطاق لمصلحة الأمير أو الملك فيصل الذى صار في نظر القوم موالياً للحلفاء بحيث يولونه أو يتولى من قبلهم الامارة أو الملك الذى يرغبون (جمادى الاولى سنة ١٣٣٩)

وفى تلك المدة عقد في لندن مؤتمر اسمه مؤتمر شرق الأردن أرسل اليه فيصل احتجاجاً باسم أبيه وأسرته وطلب فيه من الحلفاء أن يبروا بوعودهم وذكرهم بأن أباه خاض الحرب تنفيذاً للوعود والعهود ولكن حلول عصر السلام خيب آمال العرب تخييباً لم يذق مثله سواهم من الحلفاء وان العرب لم ينالوا الاستقلال بل « أضاعوا ما كان لهم من الوحدة النسبية لما كانوا تابعين للاستانة وليس بين الاعتبارات الصحيحة ما يسوغ التفريق بين الولايات العربية » . . وقد أصاب فيصل حفظه الله كبد الحقيقة ودل على سمو الادراك

والمذكرة التى اقتطفنا منها هذه النبذة كتبت فى الظاهر باسم العرب والوحدة العربية ووعود الحلفاء لهم ، ولكن حقيقتها ترمي الى ترويج الدعوة عند الحلفاء لمصلحة الحكم

والمبادرة بتعيين ملك على العراق فهو أقل مايمكن أن يرضي به العرب بعد أن خابت آمالهم وأقل نذر يعد وفاء ويقبل . وقد نالت المذكرة بغيتها وكانت ذات أثر بالغ فى سير المداولات في القضية العراقية بصفة خاصة وهذه المذكرة تعد فى نظرنا عملا سياسياً ،وفقاً لمصلحة الملك فيصل ومثله كمثل من يقول «أنت وعدتني بألف دينار وقصر وحديقة وكذا من الجياد وأن ترد لى أملاكى المغتصبة وكذا وكذا والآن وقد نكثت بوعدك وحنثت في يمينك فلا أقل من أن تعطيني القصر أو الحديقة» هذا كلام وجيه ولا يمكن لمغتصب مهما كان سيء النية قاسي القلب أن يهمله لأجل هذا عقد مؤتمر خطير فى القاهرة فى اذار سنة ١٩٢١ ونحن نذكر أن شرشيل عندما وصل مصر أنزلوه فى محطة شبرا وأدخلوه القاهرة خفية خوفاً عليه من الانزعاج بالمظاهرات وكان تشرشيل وزيراً للمستعمرات فى تلك السنة وكان مستشاره المقرب اليه لورنس صديق فيصل الحميم الذي صاحبه فى ثورة العرب وهو يعرفه معرفة جيدة ويحبه منذ التقيا في سنة ١٩١٦ على ماوصفناه فى مكان آخر من هذا الكتاب وقد استدعي سير برسى كوكس وجعفر باشا العسكرى وساسون افندي أحد وزراء العراق اليهود وميس جرترود بيل افعي العراق العانس وجنرال اتكنسون وآخرون ، وعقد هذا المؤتمر فى فندق سميراميس وطرحت فيه مسألة العراق على بساط البحث وهو المؤتمر الذى ذكره دكتور شهبندر فى إحدي مقالاته على لورنس في مجلة المقتطف وقال ان لورنس خدعه وأظهر له فى أثنائه غير مايبطن . وقد تم فى هذا المؤتمر مشروع تمليك فيصل على العراق واعلان العفو الشامل ونفي السيد طالب النقيب لأنه كان يطالب بالعرش أو يدعى أنه أحق من فى العراق بالسيادة . وكان الانجليز والعرب يخشون دسائسه ولكن هذا العفو الشامل لم يكن ليشمل أمثال الشيخ ضاري الذي أمر ولده خميس وأتباعه بقتل الكولونيل ليتشمان .

وكان طالب النقيب قد أفسد على نفسه باتصاله بسير ويلسون اتصالا أظهر اتفاقه مع الانجليز على وطنه وقدنفي النقيب من العراق الى الهند واوروبا . أما الشيخ ضاري الذى استثني من العفو العام هو وولداه خميس وسليمان وسرب واسلوبى ولدا مجباس ودهان بن

فرحان وكلهم من عشيرة الزوبع وتهمتهم قتل ليتشمان أو التحريض على قتله ، فلم يقع منهم فى قبضة الحكومة سوى الشيخ ضارى فقد فر من العراق وجعلت الحكومة مكافأة كبيرة لمن يقبض عليه فتعقبه ارمنى صاحب سيارة وصار يتقرب اليه و يدعى الاخلاص له وينقله من مكان الي مكان الى أن ركب معه يوماً فساق به الى بغداد وسلمه وقبض المكافأة ، وبذلك أضاف صفحة جديدة لسجل أعمال بنى جلدته الارمن الذين جبلت نفوسهم على الغدر والخيانة وامتزجت دماؤهم باللؤم والدناءة وكراهية الاسلام والعرب والترك . وعاقبهم الله على ذلك بتبديد دولتهم وتشتت ملكهم وصاروا كاليهودي التائه فى أنحاء العالم يربحون من أقبح الأعمال وأدنسها وأحطها ويزجون فى أعماق السجون لاقترافهم أنواع الجرائم التي تنزه القلم عنها وكان الدور الذى مثلوه في تركيا ومصر وسوريا ولبنان وبلاد الفرس يدل على صدق فراسة السلطان عبد الحميد في طباعهم

وقد وصل الشيخ ضارى الى بغداد وهو فى مرض الموت ولكن الأطباء الانجليز الشرعيين أصحاب الذمم الطاهرة قرروا قدرته على احتمال المحاكمة وفعلا حاكموه وحكموا عليه بالاعدام . وكان يوم تشييع جنازته يوماً خطيراً في بغداد .

وجاءت الصحف بوصف المظاهرات التى لازمت المشهد والأناشيد التي كانت تنشد واسمها « هوسه » وفيها بعض عبارات الوعيد للندن ، وهو وعيد لايتلوه لحسن الحظ تنفيذ فأين بغداد من لندن ؟!

ومما يلاحظ فى هذه المسألة أن الانجليز تعودوا أن يتساهلوا فى اسداء العفو الشامل عقيب الثورات فى البلاد المحتلة أو المغتصبة ولكنهم لايتساهلون في توقيع القصاص على من قتلوا فعلا ضباطاً أو موظفين انجليز مهما كلفهم ذلك من استمرار الخصومة أو الاشتهار بالقسوة

وقد شاهدنا ذلك فى حوادث ديروط في مصر سنة ١٩١٩ وفي العراق بشأن الشيخ ضارى الذى حرض على قتل ليتشمان وفى قضية جميل وحميد دبونى المتهمين بقتل بارلو وستيوارد في تل عفر وقاسم الويلى وبسبوس بن محاوبس وغيرهم وكلهم متهمون بقتل ضباط

انجليز وثبتت عليهم التهمة . أما الأفراد الذين كانت لهم علاقة بتهم سياسية أخري وكانوا معتقلين أو منفيين فان الانجليز شملوهم بعفو عام .

وحدث كذلك في الهند في سنة ١٩٣١ فان الصلح الذي تم بين لورد اروين وبين غاندي كاد تنفصم عروته لتنفيذ الانجليز عقوبة الاعدام في بهجت سنغ وآخر لثبوت تهمة قتل بعض ضباط الانجليز عليهما ولم يكن أحد فى العالم يعرف مقدار بهجت سنغ فى الهند حتى نفذ الحكم فيه فدوت التلغرافات بذكره وبوصف الهياج الذى حدث فى الهند عقيب ذلك ونصوص الخطب العنيفة التى ألقيت ضد اروين وغاندى . وأنذر أحد الزعماء بأن جو التفاهم قد تعكر بين الهنود والانجليز الى الأبد وان تعود المياه الى مجاريها . وأقيمت مآتم وحفلات دينية وقومية في سائر أنحاء الهند تكريماً لذكري بهجت سنغ ولكن الزوبعة مرت فى النهاية .

وهذه المسألة تدل على أن الانجليز يقدرون حياتهم حق قدرها ويجعلون لشخص البريطانى شأناً فوق كل شأن . وعندهم أن من اعتدى على انجليزى من الشعوب المحكومة لابد أن يعاقب بما يستحقه .

٤

نرجع الى ما كنا بصدده بخصوص العراق فنقول فى الوقت الذى نفى فيه طالب النقيب من العراق عاد الأمير فيصل من انجلترا ومر بمصر فأقام فى القاهرة أياماً ثم سافر الى الحجاز وكان وجوده فى مصر جزءاً من الخطة المرسومة ففيها أذيع أولا تفكير « العراق » فى ترشيح الأمير لعرش بغداد وكان الأمير اذا سئل فى ذلك ارتسمت على فمه ابتسامة ذات معني ، وأجاب أن بلوغه ذلك العرش يرجع الى ارادة الله ومشيئة الشعب العراقي ، وان كلمة بريطانيا العظمى تقيدها . وكل هذا صحيح وكأنه كلام حكيم ماهر ينبىء بالمستقبل القريب وكانت الخطوة الثانية انتقاله الى الحجاز فوصل الى وطنه وركب الهجين من جدة الى مكة ليقدم بين يدي والده واجب الاحترام والطاعة البنوية فنسى الولد غضب والده واستيقظت فى صدر

صاحب الجلالة الهاشمية عواطف الرحمة والحنان وأخذ بعض الاصدقاء والساسة العراقيين يطلبون بالبرق من الحسين أن يختار أحد أولاده لعرش العراق ومن هؤلاء محمد مهدى صدر الدين وناجى السويدي والباچه چى وزين الدين . ومما هو جدير بالذكر أن كلا من جمعية العهد والحرس انضمت في هذا الطلب وقد وقع اختيار الحسين على نجله فيصل مع أن روح عبد الله كان معلقاً بالعراق ، وذلك في عهد الأحلام العذبة ، أحلام الدولة العربية العظمى واقتسام تراث الدولة العثمانية بين الملك حسين وأولاده الأربعة .

فغادر فيصل الحجاز محفوفاً بوفد من أهل العراق كأنه عرس يزف الى عروس فيؤنسه فى طريقه لفيف من الأهل والخلان فاختار تشرشيل ذلك الوقت المناسب وألقى خطاباً ذا شأن في البرلمان عن العراق ومستقبله وهذا الخطاب خليط من الأسف على التفريط فى الاستبداد بالعراق وحكمه حكماً مطلقاً بواسطة حاكم عام ، وتبرير لهذا التفريط بما سبق وقطعته انجلترا للعرب من العهود والوعود وفى الفقرة الأولى ترى روح تشرشيل الاستعمارية ثم روح لورنس وتأثيره واعترافه باضطرار انجلترا حيال ثورة ١٩٢٠ الى تنصيب حاكم عربى على البلاد ، وأراد أن يطمئن قلوب الذين يظنون فيصلا كغيره من أمراء الشرق وحكامه الاتراك فقال « من المحال السماح بعودة العراق أو أى قطر من الأقطار المحررة الي سلطان الحكم السابق » .

وأراد تشرشيل أن يرد على بعض ساسة العراق الذين كانوا يدعون الى الحكم الجمهورى فى العراق مثل المرحوم توفيق بك خال ناجى الأصيل ، الذي لقي حتفه بصورة غامضة ولم يكشف القناع عن قاتله حتي هذه الساعة وان كان بعضهم يهمس باسمه أحياناً في أذن من يأتمنه ، فقد كان توفيق بك المذكور يدعو الى الحكم الجمهورى ويدعى بأن الملك فيصل وأعضاء البيت الشريفي غرباء عن العراق ولا حق لهم فى الجلوس على عرش بغداد وكان المرحوم من أهل الذكاء والفطنة وكاد يصل الى تحقيق غايته لولا اغتياله الذي مازال كما قلت سراً غامضاً ، الا عند القلة من الواقفين على دخائل الأمور . ولما كانت هذه الدعوة قد

بلغت مسامع الانجليز وكادوا يتأثرون بهـا فقد ذكرها تشرشيل فى خطابه السابق ذكره حيث قال :

« وليعلم كل واحد جلياً أن درجة رقى العراق تجعله غيرصالح لانشاء جمهورية كما أن حكومة جلالته لايمكن أن تتساهل فتقبل حاكما تركيًا »

ومن الغريب أنك ترى فى خطبة تشرشيل بغير مجهر ، جرائيم الحلف العربي الذى ظهرت الدعوة اليه فى سنة ١٩٣١ قبل ذلك بعشر سنين فقد قال .

« ان اتباع سياسة شريفية فى العراق وفى عبر الاردن يؤثر حتما فى علاقاتنا بامراء العرب الآخرين . وكل مساعدة ودية نسديها لبعضهم تحتم عليهم مسالمة جيرانهم .

« ونذكر في هذا الصدد أن جلالة الملك حسين قد افصح مؤخراً عن رغبته فى فتح باب المفاوضة مع ابن سعود فنرجو أنهما يتوصلان بذلك الى اتفاق دائم بينهما ولا مشاحة أننا نرغب فى توطيد عرى الصداقة مع كلا الزعيمين » .

والغريب أن المستر تشرشيل لم يصف الأمير فيصل بصفة الملك ، بل كان من أول الخطاب الى آخره يعبر عنه بالحاكم (جريدة العراق عدد ١٢ شوال ١٣٣٩)

ودخل فيصل بعد عيد الفطر من سنة ١٣٣٩ بعشرين يوماً فاستقبلته استقبال الفاتحين وألقي الزهاوى ، شاعر السير برسي كوكس وغيره من الحكام قصيدة بليغة مطلعها

عج العراق مرحباً بك أيها الملك الجليل

وعلى الرغم من قول تشرشيل « وليس في النية إكراه الشعب على قبول حاكم مخصوص. وستطلق الحرية التامة في البحث والافصاح عن الرأي فى أمر انتخاب الحاكم » وتعقيب سير برسى كوكس عليه بقوله :

« ان حكومة جلالة الملك ترغب فى أن تبين بوضوح كما سبق وتبين تكراراً بأن ليس لها قصد أو رغبة مافى اكراه الشعب على قبول حاكم معين بل الامر بالعكس فانها ترغب في

وجود الحرية التامة في الاختيار وابداء الرأي ! !

وكان الرأي في العراق منقسما فبعضهم يرغب فى الجمهورية و بعضهم يرغب فى حكم العراق بواسطة انجلترا مباشرة وتطرف بعض أصحاب هذا الرأى فاقترح تعيين كوكس ملكا عليهم .

وقال بعضهم بتعيين حاكم تركى تحت اشراف انجلترا .

وكان السيد النقيب يري نفسه أجدر الناس بتولى الحكم

أما عن الرأى الجمهورى فقد رأينا صاحبه يقتل اغتيالا والوزير الانجليزى يصرح بأن العراق لاتصلح لهذا النظام

وعن حكم انجلترا المباشر قال تشرشيل

« نعلم بحركة حديثة العهد ترمى الى طلب الاستمرار علي الحكم البريطاني مباشرة . وجل هذا التغير فى موقف الشعب دليل ناصع على ثقته بالسير برسى كوكس ولكن لاأمل لنا أن نتمكن من الاستمرار على حمل التبعة مباشرة »

أما السيد النقيب فقدأفسد على نفسه فقدحاول نشر الدعوة لنفسه فى العراق ثم أدب مأدبة لبعض رجال الصحافة من الانجليز وحضرها عدد من الوجهاء الوطنيين و رؤساء العشائر وبعد أن دارت الكؤوس وقف خطيباً فقال مامعناه :

« ان فى دار الانتداب من لانحبهم،لأنهم يتدخلون فى شؤون الامة التى لها الحق ولها وحدها أن تؤمر أو تملك عليها من تشاء وقد صرحت حكومة الانتداب بأنها ستحترم ارادة الشعب العراقى ونحن نحترمها اذا فعلت ... أما اذا أخلفت فهاهنا عليها .. ونظر اذ ذاك الى رؤساء العشائر ... عشرون ألف بندقية » .

وبعدالمأدبة ، دعت اللادي كوكس طالب النقيب للشاي وعندخروجه اركبوه سيارة سابقت الرياح حتى خرجت به عن حدود العراق وبات النقيب منفياً .

ولما كان تعيين أمير تركي غير ممكن لمخالفته لتقاليد بريطانيا فأصبحت الامة العراقية المطلقة االحرية نظرياً فى اختيار من تشاء من الحكام مقيدة بانتخاب الامير فيصل بعد أن سدت في وجهها أبواب من عداه لاسيا وان تشرشيل وكوكس بعد أن وعدا خفية بأنه اذا تم انتخاب فيصل تعتقد حكومة جلالة الملك أن الشعب العراقى يكون قد وصل بذلك الى حل ينطوى على أكبر الآمال فى مستقبل سعيد لهذه البلاد . وهذا ماتمنناه للعراق ولجلالته

٥

وكان تتويجه فى ٢٣ اغسطس ١٩٢١ و بلغت نسبة منتخبيه على حسب ما قاله سير كوكس ٩٦ فى المماية من السكان .

وخطب الملك خطابا بليغا واطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة وسار موكب الملك الجديد الى بلاطه وأرسل اليه الملك جورج برقية بالتهنئة وللمرة الأولى ورد ذكر اللغز التاريخي الذى لايزال معقداً من سنة ١٩٢١ الى ١٩٣١ ولا يعلم الا الله متى يحل ألا وهو المعاهدة :

« وانى لواثق بأن المعاهدة التى ستعقد بيننا قريبًا ستمكننى من توثيق عرى المحالفة التى ارتبطنا بها أيام الحرب المظلمة ، من القيام بتعهدي المقدس بافتتاح عهد سلام وإقبال مجيد للعراق »

وأجاب الملك فيصل على هذه البرقية بمثلها وجاء فى برقيته هو أيضًا، ولا شك أن البرقيتين كانتا معلومتين لدى وزارة الخارجية الانجليزية . .

« لا أشك بأن المعاهدة التي ستعقد قريبا بيننا ستؤكد صلات التحالف التى شيدتها في ميادين الحرب الضروس دماء الانجليز والعرب وستكون مؤسسة على دعائم لا تتزلزل »

والشعب في حماسته والامة فى ابتهاجها والصحف في اندفاعها والملك فيصل فى فرحه ببلوغ أمنيته بعد سفره من سوريا فلم يدرك أحد أهمية هاتين البرقيتين ولعلهم أدركوا ولم يكترثوا . وظنوا

أن الانتداب قد زال والاستقلال التام قد أعلن . ولكن وزارة الخارجية في لندن لم تكن هائجة الاعصاب عند تبادل الرسالتين ولم تخطئ في تقديرها لدي اختيار زمان الارسال ومكانه . لقد ارتبط الملكان والحكومتان . والملك فيصل يعلم مكانة انجلترا وقوتها وبعد مراميها وهو يعلم بأمر من وبرضا من حلت مسألة عرش العراق

ولايزال لغز المعاهدة معقداً لايرجى له حل

ففي السنة الأولى من الحكم الفيصلي بدأت المفاوضات لعقد المعاهدة وأرسلت انجلترا الميجور يونج فحضر الى بغداد وفي أثناء المفاوضات التي هددت مرات عدة بالانقطاع هجم بعض رعايا ابن سعود من « الاخوان » . . على بعض عشائر العراق في أبو الغار وقتلت ونهبت كثيراً وانتهت هذه الحادثة باستقالة خمسة من وزراء العراق وتمكن سير كوكس من تنفيذ خطته وحل مسألة الحدود وفقاً لسياسته بمؤتمر المحمرة ثم أخذت العراق تفكر في تأليف حزب سياسى وطلبت ذلك من الحكومة فماطلتها ثم سمحت لها بتأسيس الحزب الوطنى العراقي وغايته المحافظة على استقلال العراق ثم تأسس حزب النهضة والحزب الحر . وتقدم الحزب الوطني الى الملك بمطالب ثلاثة أولها الكف عن التدخل الانجليزى في ادارة الحكومة وتأليف وزارة حرة وتأجيل المفاوضة والمعاهدة الى ما بعد تأليف المجلس التأسيسى .

وأوفد جلالة فيصل الاستاذ فهمى المدرس كبير أمنائه ليشرف على سماع الخطبة الوطنية . وكان الجمع حافلا والزحام شديداً وألقي الشيخ مهدي البصير خطبة الحزب الوطنى وفيها المطالبة بتعيين وزارة حرة وعقد المجلس التأسيسى والوفاء للعراق بعهود الملك فيصل وكلام انجلترا . . وفى أثناء الزحام والخطاب جاء سير كوكس للتهنئة فتعذر عليه المرور وسط الزحام ، ولذعه أحد العوام بكلمة جارحة اعتبرها المندوب السامي صادرة من الاجتماع كله وموجهة الى حكومته فى ذلك اليوم السعيد وهو ذكرى عيد التتويج وطلب اقالة الاستاذ فهمى المدرس لشبهة انه مسؤول عن هذا الهياج .

وذهب ذلك الرجل الفاضل ضحية هذا الحادث مع انه لم يفعل أكثر من طاعة أمر

مولاه بحضور الاجتماع وسماع الخطاب ولم تكن له يد في الاجتماع ولا فى الكلمة المؤلمة التى جرحت عواطف سير پرسى كوكس .

وعقيب ذلك مرض الملك فيصل بالزائدة الدودية واعتكف وتولى سير كوكس حكم العراق بالارهاب فنفي وطرد من شاء من الزعماء وصادر الاحزاب السياسية وشاع أن عرش العراق قد بات خالياً بعد العملية الجراحية وتلا ذلك تعطيل بعض الصحف الحرة والقبض على أصحابها ونفي بعض الخطباء والرجال العموميين الى جزيرة هنجام القاحلة فى الخليج الفارسى ثم افرج عنهم بعد بضعة أشهر وبعد أن وقعوا على قسم باتباع سياسة الملك فيصل ماعدا الشيخ مهدي البصير الذى ترددوكان آخر من وقع وقد وصف توقيعه بأنه « لطخ صورة العهد بامضائه وهاجر هنجام »

٦

وهذه الحادثة السياسية التي انتهت بفشل القائمين بها تبين سياسة الانجليز في الشرق الاسلامي وغير الاسلامي أفضل بيان . فانه بعد الثورة المساحة التى تركوها تأخذ شوطها ، حتى فنيت قوتها وشالت كفتها حيال ازدياد قوة الانجليز ورجحان كفتهم ـ حولوا الحاكم العام الذى عاصر الثورة وأتوا بحاكم آخر هو السير كوكس وهو رجل قضى خمساً وأربعين عاما من عمره في الخليج الفارسى وجزيرة العرب والبصرة وبعض ناحيات العراق ويفهم العربية ويعرف معقولية البلاد وأهلها وله اتصال بالاعيان والاذكياء والزعماء ورؤساء العشائر وهذا الرجل يكاد يكون ملك العراق قد عرض عليه فأبى ، ولكنه نصح للانجليز أن يجعلوا عليه ملكا عربيا ، وهو يظهر اللين تارة والشدة طوراً ، وقد وعد أهل العراق باسم حكومته بالحرية والاستقلال ، والمجلس التأسيسي والبرلمان والشعب العراقي يصدق ، ويؤمن حتي ظنوا أن الانتداب قد زال ، وان الاستقلال قد حل ولكن الوعود لم تنجز فالفوا الاحزاب وكتبوا فى الصحف وعقدوا الاجتماعات ـ صمامة الامان ـ فلما زاد الغليان أظهر سير كوكس يده القاتمة واختفى الملك بعلة الزائدة الدودية ، واستقالت الوزارة وأعلن كوكس

انه انفرد للأسف بحكم العراق . لو غيرنا الاسماء والتواريخ لانطبقت هذه الخطة بعينها على أي بلد وأى قطر من أقطار الشرق . فانه بعد الثورة المسلحة تتطلع الامة للعمل السياسى فتؤلف الاحزاب وتنشىء الصحف وتكتب المقالات وتذيع الاحتجاجات فتمد انجلترا يدها بهدوء وهي جالسة علي « شيزلونج » وتغلق باب الاحزاب وتعطل الصحف وتلتقط بعض الرجال لتسجنهم أوتنفيهم ولاتعيدهم الابعد أخذ العهود والوعود بان لايعودوا الى ماكانوا عليه من المطالبة بالوفاء . . . ويستريح دماغ انجلترا بعد ذلك بضع سنين ، فاذا عادت الحركة من جديد عادت ومدت يدها ، وهكذا .

وفي تلك الفترة أي بعد هدوء عاصفة الاحزاب قام احمد باشا الصانع وعبداللطيف باشا المنديل وناجى بك السويدي بطلب انفصال ولاية البصرة عن ولايتى الموصل و بغداد والحاق البصرة بالهند وقدموا بذلك مذكرة للسير كوكس .

والانجليز ينظرون من زمن طويل الى البصرة بعين الشراهة والاغتصاب لأنها رأس الخليج الفارسي ورأس العراق وقد فصلنا أهمية الخليج الفارسي في نظر السياسة الانجليزية ولهم فيها تاريخ حافل بالدسائس ولم يستميلوا جانب خزعل ومبارك الصباح الا لأجل الاستيلاء على البصرة . وكانت الفكرة تجول في صدر تشرشيل فاشار اليها في خطبة البرلمان التى جعلها مفتاحا لسياسة انجلترا فى العراق قبيل تتويج فيصل بأيام حيث قال « وكذلك قد طلب البعض فصل البصرة عن العراق ووضعها تحت ادارة بريطانية تامة ولا نرى ان هذا الامر أيضاً ممكن لأنه يخالف مصلحة الحكومة الوطنية اجمالا »

وكانت هذه الحركة الانفصالية بلا ريب حركة تهديدية أوعزت بها دار الانتداب لتخويف أحرار العراق ، كما ان هجوم الوهابيين كان المقصود به ارهاب القبائل العراقية من الاخوان ، ولكن هذين الحادثين لم يفتا في عضد العراقيين الطالبين بالاستقلال والغاء الانتداب .

وقدأمضيت المعاهدة فى ١٠ تشرين ١٩٢٢ والمعاهدة يمكن تلخيصها في كلمتين وهما

«ان انجلترا تمد حكومة العراق بالمال والسلاح والمساعدة الفنية والنصيحة الحسنة فى الادارة. وفى مقابل ذلك تقبل العراق نصيحة انجلترا وتطيع أوامرها» وبعبارة أخرى تستقل العراق عن كل دولة فى العالم ماعدا انجلترا ، وهذه بعينها كانت سياسة الاحتلال فى مصر .

واللذان وقعا على المعاهدة هما سير زكريا كوكس المعتمد السامي وسير عبد الرحمن النقيب رئيس وزراء العراق وهي في ثمانية عشر بنداً

وصدر الامر بالانتخابات ووضع قانون مجلس التأسيس الذى تألف من مائة نائب ودعت الحكومة أهالى العراق لقيد أسمائهم في دفاتر الانتخاب فقام علماء النجف والكاظمية و فتوا بمقاطعة الانتخابات وعلقوا دخول الانتخابات على شروط منها الغاء الحكم العرفي واطلاق حرية الاجتماع والنشر وعقد الجمعيات السياسية . فلم تذعن الحكومة لهذه الشروط وكذلك لم تقبل الامة على الانتخاب.. وضاقت الحكومة ذرعا بالحال فاستقالت وزارة النقيب وتألفت وزارة عبدالمحسن السعدون فنشر هذا الوزير منهاج وزارته وهو منهاج حزب ولكن قول الوزارة كان أكثر من فعالها فاستمرت حركة المقاطعة لاسيما وان الحكومة لم تسحب المستشارين الفنيين من الالوية ولم تستدعهم الى بغداد فسنت الحكومة نظام التفتيش الادارى ولكن هذا لم يغير شيئاً من نظام الادارة فى الالوية

ثم حدد زمن المعاهدة بدلا من عشرين سنة كنص البند ١٨ ، بدخول العراق فى عصبة الامم (٣ ايار سنة ١٩٢٣) أو على أثر انتهاء أربع سنين تبدأ من تاريخ ابرام الصلح مع تركيا وأخذت الحكومة تستعطف رؤساء العشائر في دخول الانتخاب فأبوا فنفت بعضهم

وفى ربيع سنة ١٩٢٤ أيقنت الحكومة الانجليزية ان سير زكريا قد أتي غاية جهده وانه وان لم يوفق في نهاية الامر الى ما كان يظن انه ناجح فيه فقد كفاه فخراً انه ألف حكومة مؤقتة ونصب لعهده على العراق ملك ، وعقد المعاهدة بين الحكومتين . .

وحل محله دوبس وهو أضيق من ناب عن الانجليز فى العراق عطنا ، وقد ضايق كل من احتك به من الملك فنازلا .

أما أهل العراق فقد اكرموا زكريا كوكس عند سفره كعادتهم وأهدوا اليه تمثالا لمنارة السيدة زبيدة من الذهب الخالص ونخلة من الفضة عليها تسعة عذوق من الذهب اشارة الى السنوات التسع التى عالج أثناءها شؤون العراق

أما دوبس فقد خدم هو أيضاً فى الهند من سنة ١٨٩٦ وتنقل بين ميسور وايران وسيستان وبلوخستان وهيرات

٧

وفى عهد دوبس انشقت الاحزاب على بعضها ودخل بعضها في الانتخاب وتنحى البعض الآخر وممن قاطعوه الحزب الحر العراقى، وفي تلك الفترة ، وبينما تذيع وزارة السعدون عزمها على تعيين موعد لانتخاب النواب فاجأتها أزمة قضت بسقوطها ولعلها أسباب مالية ، وحل جعفر العسكرى محل السعدون ونشر جعفر باشا برنامجاضخما ولكنه تقليدى ، ويصعب تنفيذه ولم توفق الوزارة الى تنفيذ أكثر من أربعة شروط أهمها تنفيذ المعاهدة الانجليزية العراقية فيما يختص بالموظفين الانجليز بالعراق وانتخاب أعضاء مجلس التأسيس والاتفاقية العسكرية والاتفاقية العدلية المتعلقة بحقوق رعايا الدول الأجنبية

٢٤

١

خفق العلم العثماني على بلاد العراق من أواسط القرن الحادى عشر الهجرى (حوالى ١٠٥٠ ه) مذ استردها السلطان مراد الرابع من دولة العجم ومازال خافقاً من أعلى الموصل شمالا الى الخليج الفارسى جنوباً ثلاثة قرون حتي أنزلته يد الحلفاء المحاربين للدولة والجنود المرتزقة الذين أعانوهم من عرب الجزيرة وغيرهم .

وفى خلال تلك الاعوام الثلثمائة حكم الاتراك بلاد العراق تارة حكما عسكريا وطوراً حكما مدنياً وكان من حسن حظ البلاد ان استعمل عليها مدحت باشا ، ولولا اصلاح هذا الرجل ما كان فى البلاد شئ يذكر فقد أنبت جماعة من المنورين في بغداد الذين يعدون خميرة الاصلاح والحياة القومية .

لقد شقي العراق من عهد العباسيين الاخير ، ومضى عليه أكثر من سبعة قرون في انحطاط وخراب ولم يستطع الاتراك في الثلاثة قرون الاخيرة أن يعيدوا اليه مجده أو حياته لاسباب يطول شرحها ولكنه بلا ريب أكثر بلاد الاسلام تماسكا واخلاق أهله أقل اخلاق أهل الشرق الاسلامى تدهوراً . فيه ضعف وملاينة وتساهل فى الحقوق ولكن ليس فيه جبن ونفاق وخيانة على الصورة المخزية التي نراها في بلاد الشرق الاخري ، وذلك لأن عصبية العرب وحياة القبائل وتضامن الطبقات لاتزال مصدراً لقوته امام الاجنبي . نعم فيه انشقاق الشيعة والسنة ، وفيه مبدأ « التقية » المذموم ، ولكن الشيعيين أظهروا أنفسهم على أكبر نصيب من الشجاعة وحب الوطن والاخلاص له وقد انضموا الى أهل السنة فى النزاع القومى وقاموا بنصيب وافر من الكفاح الوطنى . وكانوا أشبه الناس في نهضة العراق بالدروز فى ثورة سوريا من حيث الثبات والتمسك بالمبادئ ، وكان منهم زعماء يكادون يقودون الحركة بأسرها وقد

ضحوا بكل شئ في سبيل نصرة القضية العراقية .

وللأسف كانت الدولة العثمانية فى أواخر عهدها ، وهذا من علائم الانحلال ، نهباً بين العنصرين العربي والتركي وقد ظهر هذا الانقسام فى جميع انحائها . وقد شهدت هذا الانقسام على أشده فى سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١١ فى الاستانة . فكان العربى يريد أن يزاحم التركى على مناصب الحكم ، ويريد التركى أن يسيطر على الجيش والسياسة والادارة و يكون العنصر السائد على جميع العناصر التى تتكون منها السلطنة .

وكان شبان الترك لايحترمون العرب وأول من لفت الانظار لهذا الامر ع . ع بك المصري (وهو الآن مقيم بأحد بلاد القطر المصرى) فقد وصفه الاتحاديون بأنه مصدر الفكرة العربية في الجيش . وكان ع بك ذا مكانة سامية بين العرب والترك ولكنه كان بعد ظهور الدستور العثمانى يبث فكرة الثورة واشعال نارها في جزيرة العرب وغايتها انشاء دولة عربية فى مكة يقلد صولجانها وتاجها للاسرة الشريفية (الحسين بن على وأولاده) وذلك لمقاومة فكرة الاتحاديين التي ترمى لسيادة العنصر التركى فى انحاء الدولة وأسس العرب بارشاد ع بك جمعية الاخاء العربى فى سنة ١٣٢٦ وكانت جمعية رسمية سياسة ، ولكن كان وراءها جمعيات سرية كثيرة

وهذه الجمعية لم تقم بعمل يذكر للدولة ولا لأعضائها ولكنها حلت وأعدم رئيسها الصوري شفيق بك المؤيد الذي رأيناه فى الاستانة سنة ١٩١٠ وكان من أعضاء مجلس الاعيان وتألفت بعدها الجمعية القحطانية فى ١٩٠٩ وترأسها حمادة باشا وهاتان الجمعيتان اللتان ربما كانتا حسنتى النية نحو الدولة قد سببتا ظهور جمعيات أخري أثبتت خيانتها ومنها حزب اللامركزية الادارية العثماني وانتشر منهاج هذا الحزب فى الأقطار العربية بسرعة البرق وذلك بفعل الدعاية الاستعمارية لأن بعض هؤلاء الأعضاء الذين ادعوا حب العرب واحياء مجد العرب كانوا جميعاً متصلين بالسلطات الانجليزية في الشرق وفى اوروبا .

فقد قامت في البصرة جمعية على هذا النمط تحت رئاسة طالب النقيب بك وهو

وجميع أسرته مشهورون بموالاة السياسة الانجليزية في الشرق العربي .

ومن أعمال حزب اللامركزية المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ الذى كان رئيسه المسكين عبد الحميد الزهراوى وقد أعدم هو أيضاً . وكان للحزب والمؤتمر قرارات ترمي الى تفكيك أجزاء الدولة وتؤدى الى الحكم الذاتى وتشتيت شمل الامبراطورية العثمانية بغير حرب ولا قتال وهذا ماكان يرمى اليه المستعمرون . وقد أسهبنا القول على مؤتمر باريس فى مكان آخر من هذا الكتاب . وقد اتصل طالب النقيب من البصرة بمؤتمر باريس ووافق على قراراته . و « تشرف » رئيس المؤتمر وبعض أعضائه بمقابلة وزير خارجية فرانسا وابلاغها القرارات وتوسلوا اليها في أن تساعدهم وأفصحوا عن ميولهم نحو فرنسا وطلب حكمها في بلاد سوريا . وكانت وزارة خارجية انجلترا ووزارة خارجية فرنسا على علم بما يجرى وعلى اتصال بالأعضاء . وهذه هى الأسباب التي دعت الأتراك للحكم على بعض هؤلاء الناس بالاعدام فقد اقترفوا جناية الخيانة العظمي نحو حكومتهم ووطنهم .

٢

كان الحلفاء قبل الحرب ولا سيما من سنة ١٩١١ الى أوائل سنة ١٩١٤ يعتقدون بحدوث حرب عظمى فى اوروبا وينتظرون أن تنضم تركيا الى المانيا ، وكانوا يعلمون قوة الأتراك الحربية لاسيما اذا وجدوا مدربين من الالمان ، ولهذا أخذوا يعملون بشدة فى سبيل تفكيك روابط الألفة بين الترك والعرب حتي يدب الفشل في عناصر الدولة فاذا جاءت الحرب يكون العرب قد خرجوا على الدولة فلجأوا الى الطرق السياسية بشراء ذمم بعض الخونة الذين لبسوا ثياب النعرة العربية ، ووحدة العرب ، والدولة العربية المستقلة ومبدأ العروبة وغير ذلك من الترهات وأنفقوا عليهم الأموال الطائلة وجعلوهم فى كل مكان فى الشرق والغرب ومعظمهم من السوريين المسلمين وغيرهم لأنهم أقدر الناس على العمل فى مثل هذه الدسائس وأشره خلق الله فى حب المال ولم يفت هؤلاء الخونة أن يستروا مقاصدهم الحقيقية بثوب الرياء السياسى فجعلوا للبرنامج أسلوباً خلاباً يرمى الى تبديد أوصال الدولة

العثمانية فانهم لم يطالبوا فقط بحكم ذاتى لا مركزى للعرب بل طالبوا بمثله لكل العناصر التى تتألف منها الدولة فقد جاء في المادة الثانية :

« القصد من تأليف هـذا الحزب بيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثمانى المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية فى جميع ولايات الدولة العثمانية »

ولما كان المريب يكاد يقول خذونى ، وكانت هـذه الطغمة تعلم أن الحزب مظهر كاذب لأعمال سرية خطيرة فقد جاء فى المادة الثانية ماينفى تهمة لم يوجهها اليهم أحـد غير ضمائرهم :

« ليس هذا الحزب خفياً وليس فيه مايعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانيـة دون الخشية من أحـد (؟ !) لاعتقاده يقيناً أن الدولة لاتبقى في العالم السياسى الا اذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية »

وكان ع . بك قد أسس جمعية العهد التى تعـد أكبر حزب عربي عسكرى ألفه ضباط العرب فى الجيش العثمانى لاصـلاح أحوال العرب السياسية والاجتماعية و ع . بك مؤسس هذا الحزب بطل من أبطال الجيش العثماني ويسمى بطل برقة وقد أبلى بلاءً حسناً في مقدونيا والبانيا وبلاد البلغار وفى طرابلس حيث انتصر في ١٦ يوليو سنة ١٩١١ فى موقعة « كان » ولما عاد الى طرابلس اعتقلوه برهة قصيرة وذلك فى سنة ١٩١٤ وحاكموه عسكرياً ثم أفرج عنه بناء على وساطة الخديوى عباس وتدخل سفير انجلترا في الاستانة إكراماً لأسرة ع . بك وقد اتهموه بالرغبة فى تأسيس دولة عربية فى طرابلس يتولي هو سيادتها .

وقد أذيعت عبارات كثيرة فى أثناء الاعتقال والمحاكمة كانت يشتم منها التحامل لأنه يحوم حولها ولكن لم تثبت على الرجل تهمة معينة كما هى عادة الزعماء أهل الذكاء والحذر فقد قيل عنه ان فكرته تناقض المصلحة العثمانيـة فقد سعى وهو فى طرابلس الغرب في بث

الفكرة العربية بين الأهلين وفى انشاء دولة عربية مستقلة يتولى ادارة شؤونها وكاد ينجح لولا معارضة بعض ضباط الترك . وقيل انه اجتمع بالايطاليين أثناء الحرب (حرب طرابلس) اجتماعاً مهماً ولكن لم يعرف أحد مادار في هذا الاجتماع من الكلام وقيل أنه عدو لأنور ولتركيا وقيل انه اتفق مع الامام يحيي على ضم اليمن الى مصر وكان يسعى وهو فى بنغازى الى تنفيذ هذه الفكرة وجعل بنغازي واليمن دولة عربية واحدة . وقال آخر ان الايطاليين دفعوا له مالا كبيراً وانه اتصل بخديوى مصر واتفق معه على خطة لمصلحة الطليان وقيل انه احتفظ بثلاثين ألف ليرة من أموال الحكومة سلمها اليه أنور باشا وقد حكم على ع . بك بالاعدام ولم يثبت مطلقاً أنه اختلس مالا أو خان الوطن لمصلحة الطليان ولكن أنور رحمه الله أظهر شمما فى قبول وساطة انجلترا والخديوي فى حق صديقه القديم فأطلق سراحه وعاد البيك الى مصر ولما قامت الثورة العربية فى الحجاز فى سنة ١٩١٧ تولى قيادة جيوشها وقتاً قصيراً وسافر الى بلاد الافغان وبلاد الفرس وحاول تنظيم الجيوش هناك ولكن اقامته لم تطل وعاد الى مصر وبقي مدة طويلة في راحة واعتزال الى أن اختير لرياسة عمل مفيد وليس ع . ى . بك ضابطاً شجاعاً حاذقا فقط بل هو من ذوي الرؤوس المدبرة فى السياسة فقد أسس جمعية العهد كما أسلفنا وجعلها جمعية سرية وغايتها السعى وراء الاستقلال الداخلى للبلاد العربية على أن تكون متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا . وهو يرى ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية فى ملوك العثمانيين والاحتفاظ بالقسطنطينية

وكان حزب اللامركزية مصادقاً لحزب العهد ، ثم حصل بينهما شقاق وسبب ذلك قبول عبد الحميد الزهراوي منصبه بمجلس الأعيان بعد أن أنذره ع . بك برفضه وقد وصف البيك صديقه الزهراوى باحدي خلتين البله والسذاجة أو الخيانة . والاولى فى نظرنا أصح وذلك لأن الزهراوى ومن كانوا على شاكلته قبلوا اصلاحات تافهة لا تكفل سوى المنافع الذاتية لأشخاصهم .

وكان الترك في أثناء انعقاد المؤتمر العربي بباريس قد استدرجوا الزهراوى واستمالوه

وصالحوه فقبل وعودهم وعادالى الاستانة (بعد أن تورط مع فرنسا وانجلترا) وقبل المنصب المشار اليه . فأغضب الناحيتين . وكان هذا محض بله وسخف منه لأنه رحمه الله لم يكن سياسياً ولا مفكراً .

وكان في مصر رفيق العظم وأحد أصحاب المجلات الدينية الاسلامية وهو سوري مسلم وكان فى البصرة طالب النقيب مطالباً بالاصلاح على شاكلة هؤلاء وله علاقة متينة بقنصل انجلترا في البصرة فسهل فى سنة ١٩١٩ لقنصل المحمرة الانجليزي وقنصل بندر بوشهر الانجليزى التوغل سراً بين الفاو والسبيليات ووضعا خريطة لسياحتهما وأراد أن يسمح لضباطا نجليز بمثلها في « قرمه على » فلم يفلح .

وكان كل فريق من هؤلاء المطالبين بالاصلاح واللامركزية والثورة العربية سواء كانوا فى مصر أو فى سوريا أو في بغداد أو فى البصرة يظهر بمظاهر تخالف الحقيقة فان بذخهم واسرافهم كانا يدلان على اتصالهم بمصادر غنية تنفق الذهب جزافاً ومن غير حساب . فكنت ترى بعض هؤلاء من المقيمين فى مصر يقتنون الأملاك وليس لهم مصادر ثروة معروفة وتراهم أبداً يعملون فى الخفاء وفى غموض يشبه أحوال المتآمرين وهم أبداً فى انتقال بين ممالك الشرق وتراهم اذا كتبوا لم يقصدوا الا الدفاع عن فكرة الاستعمار ولكنهم يحاولون اخفاء فكرتهم . ولم يتصلوا بأحد من ذوى النفوذ والجاه الا وابتزوا منه الأموال باسم الدين أو باسم الاصلاح . وكان أحدهم وهو المقيم فى البصرة يكثر من الاجتماع بخزعل ومبارك الصباح وهما ثعبانان من ثعابين الشرق العتيقة السامة وقد قضي أحدهما بعد أن لدغ الاسلام وكان على وشك أن يقضى عليه ابن سعود وقد تربى فى حجره ، فى خبر يطول شرحه ، ولا يزال الثانى أسيراً فى قبضة الفرس. وكما فاز الترك في استدراج الزهراوى لقاء منصب مجلس الأعيان كذلك فازوا بفضل دهاء المغفور له المرحوم طلعت باشا في اسكات طالب النقيب فأعلن في ٧ ربيع أول سنة ١٣٣٢ «أنه تنازل عن مطالبته بالاصلاح وصرنا مع الحكومة السنية العثمانية كتلة واحدة نعمل على سعادة دولتنا الأبدية ونسعى في المحافظة عل وحدتنا العثمانية بكل قوانا حتى لا يبقى منا فرد واحد » ...

٣

ولما أعلنت الحرب العظمى كان طالب النقيب أول من فر من السلطة العسكرية العثمانية فحج وقصد نجداً ثم نفي الى الهند .

ولما اشتعلت نار الحرب بالعراق احتلت انجلترا البصرة بمعونة مبارك الصباح وخزعل وخيانتهما التى لا شك فيها ، ولـكنها هزمت فى موقعة الايوان وسلمت كوت الامارة ووقع تونزند أسـيراً فى يد الجيوش العثمانية ، وقـد ألف كتابا ضخما في خواطره فى حوادث تلك الحرب ، وقـد حاول فيها تبرير مسلـكه الحربى واتباعه قواعد الحرب الفنية مقتـديا بأراء نابوليون ولدندورف والـكتاب مترجم الى العربية ومطبوع فى بغداد ، وقد مات تونزند بعـد ذلك ، قبل من شدة الحزن والندم ، ولأم المخطئ الهبل . وفي ١١ أذار ١٩١٧ سقطت بغداد فى أيدى الجنرال مود الذى ذهب ضحية مروءته لانه دعى الى خيمة أحـد شيوخ القبائل ، وحذروه من شرب القهوة لانتشار الوباء فعز عليه أن يأبى كرامة العربى ، وشرب قهوته وهو يعلم أن فيها الموت الزؤام ، ومرض ومات فعلا بعـد ذلك ببضـعة أيام فأقاموا له فى عاصمة العباسيين تمثالا ! ! وقد اتبع مود بعد دخول بغداد ما اتبعه كل غزاة الانجليز من تَخـدير الاعصاب فنشر منشوراً مثل الذى نشره الجنرال ولزلي الانجليزي الذى دخل مصر فكلاهما جاء البلاد منقذاً محرراً لاغازيا ولا فاتحاً وما ذلك الا ليأمنوا عاقبة هياج الشعب المغلوب حتي اذا بردت تلك الهمة وأطفئت نار النخوة التى تتاجج فى صدور الشعب المغلوب ، أظهروا لنا ان كانوا جاءوا منقذين ومحررين أم غزاة وفاتحين وسالبين ومغتصبين أم أصـدقاء كرماء وحلفاء يستحقون المصافاة والوفاء .

عمل مود عمله ، وحل محله ويلسون الذى أراد تنفيذ فـكرة المجالس البلدية وهو أشبه الناس باللورد دوفرين الذي جاء مصر بعد موقعة التل الـكبير مباشرة ووضع دستوراً يقوم على ايجاد المجالس البلدية ومجالس شورى القوانين والجمعية العمومية . ولـكن مود الذي كان قائداً مجدوداً في الحرب لم يكن هو الا آخر الا منفذاً لخطة مرسومة فانه أخذ يذكر أهل العراق بمظالم الاتراك (إحنا في ايه والا في ايه ؟ !) فـذكرهم بهولاكو الذى هزم الدولة

العباسية وخرب القصور والحدائق والحقول وقتل الناس وأغرق الكتب (تلميح الى أن احمدوا الله على أننا لم نفعل فعله) وذكر لهم وعود مدحت بالاصلاح وعجزه عن الوفاء وبشر العراق بالارتباط بدولة جلالة جورج الخامس ولم ينس في هذا المنشور أن يذكر جلالة الحسين بن علي الذي طرد الترك والالمان من الجزيرة

وان بريطانيا العظمي مصممة هى وحلفاؤها العظام على أن لا يذهب ماقاساه هؤلاء الاعراب الشرفاء هباء منثوراً » ...

وقد جاءت حوادث التاريخ اللاحقة بما يدل على مكانة هذا الوعد من الصدق والوفاء أو ضدهما .

ولم يقصر الانجليز في ايهام العراق بما أوهموا به كل الممالك العربية من أنهم والحلفاء يحاربون لتحرير الشعوب المستضعفة ولتشجيع تلك الامم التى كانت تحكمها تركيا بالظلم والاستبداد فى انشاء حكومات وادارات وطنية فى كل من سوريا والعراق . وفى الاقطار العربية التى يسعى الحلفاء فى تحريرها والاعتراف بهذه الاقطار بمجرد تأسيس حكوماتها تأسيساً فعليا . (راجع جريدة العرب عدد ١٤٠)

وبدأ الانجليز يحكمون العراق بموظفين ملكيين جعلوا البلاد على عادتهم ميدانا للتجارب الحكومية لأنهم لا يعرفون الشعب الذى قدر لهم أن يحكموه ويستفيدون يوماً فيوماً أموراً جديدة ومثل ذلك حدث فى الهند وفى مصر وفى السودان فالانجليز يعتقدون أن الفرد منهم قادر على كل شئ وقليل من التعليمات وكثير من الاختبار الشخصى يكفيانه لحكم العالم وذلك بفضل الغرور والكبرياء وفكرة الترفع عن الشعوب لحكومة والوقوف منها بموقف الارباب والآلهة وكان من نتائج تلك الحال أن الشعب العراقى لم يقنع بفكرة المجالس البلدية التى أدرك أنها حيلة وقتية وبدأ الانجليز يصادرون حرية الفكر والقول والكتابة في الصحف وقربت الحكومة الى حظيرتها جماعة الاعيان الذين يشبهون باشاوات مصر وجعلتهم المرجع الاعلى فى حكم الامة وهم أرباب مصالح تتنافى مع الوطنية وكلهم أهل

تزلف وتمليق حتي ان سبعة من هؤلاء الاشراف والاعيان اجتمعوا وقرروا طلب تعيين السير برسى كوكس ملكا على العراق مع اعلان حماية بريطانيا عليه .

٤

كان العراق يعانى ما يعانى فى الداخل وهو متصل بالاقطار العربية اتصالا فعلياً سواء بالصحافة أو بالاخبار المنقولة فى البريد والبرق فعلم بما جرى فى سوريا وفي مصر وتأثر العراقيون بالثورة المصرية تأثراً شديداً ومازالت مراجل الوطنية تغلى فيه حتي هب بثورته وكان في العراق امرأة انجليزية اسمها الآنسة جرترود بيل وصفها بعضهم بانها أفعى العراق وقد قضت نحبها منذ بضع سنين كانت هذه المرأة المسترجلة كاتبة أسرار المندوب السامى وتعمل عمل الرجال وتكاد لا تعد امرأة ، وكانت رئيسة القلم الشرقى فى دار الانتداب وكانت عاملة نشيطة حصيفة وفيها نزعة الي الشرق والعرب تغلبت على كل مطامعها وأمانيها جاءت الى الشرق طالبة علم وسائحة فآخت العربان مثل ما فعلت قبلها لادي ستانهوب ولكن اختلاف الاجيال والازمان يغير الاوضاع وقد حطت رحالها فى بغداد فكانت معينة لرجال الحرب والسياسة وكانت تعلم عن العراق مالا يعلمه سواها وهى تجيد الكلام بالعربية ويغلب عليها الميل السياسى . وهى تعتمد على عقلها ومنطقها وطريقتها في الايقاع بالزعماء طريقة ماكيافيلية قديمة وذلك انها تقدم الهدية فاذا رفضت الهدية قدمت السجل وفيه تاريخ حياتك منذ دببت ودرجت الى يومنا هذا وفي هذا من التهديد والبطش ما فيه .

تقول ميس جرترود بل ان الثورة العراقية ترجع الى أسباب عدة منها : وعود الحلفاء وقيام الحكومة العربية في سوريا ووعود ويلسون والثورة المصرية .

وأراد جمهور العراقيين في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء وفيهم المفكرون وعلماء الدين أن ينشئوا حكومة عربية مستقلة يرأسها أحد أنجال الملك حسين ، وكان الامير عبد الله هو المقصود بالذات وبدأ العراقيون يرفعون العرائض ويصدرون الفتاوى وبدأ الانجليز يعتقلون بعض الاحرار وينفون البعض الآخر . ومن هؤلاء جماعة لم تنطل عليهم

حيلة المجالس البلدية ، لان هذه الحيلة تنطوي على ما هو أشد فتكا بالحرية فان الانجليز يلحقونها بنظرية اعداد الامم للحكم الذاتى وان البلاد في حاجة الى رجال من ذوى الخبرة والمعونة من الاجانب ، ويحتاجون الى زمن طويل لتدريب الوطنيين على أصول الادارة الحديثة والمعلوم لدى الشعوب المستقلة ان الحصول على الاستقلال التام والحكم النيابى منوط بتربية الشعب وتدرجه في مراقي الحكم الذاتى والاستقلال الادارى.

وهذه ياعم أمور يطول شرحها وقد عاناها أهل الهند وأهل مصر

وقد تأسست جمعية العهد العراقي وكان ياسين باشا الهاشمي يدير دفتها لمدة عام وياسين باشا يعد من أبطال الشرق العربى وقد يعد بحق زعيم العراق ، وكان تارة فى الحكم وطوراً في المعارضة وقد ألف في سنة ١٩٣١ حزب الاخاء لمعارضة وزارة نورى السعيد باشا واستقال من عضوية مجلس النواب مع لفيف من أنصاره ليحرج مركز الحكومة وقد تخرج في المدارس الحربية العثمانية واشترك فى الحرب العظمى وأبلى فيها بلاء حسناً ، وكان يجهر بأرائه ضد الانتداب فدعته يوما زوجة أحد قواد الانجليز الى حفلة شاى ومن هناك ساقوه الى المنفى فى فلسطين أى انهم خطفوه غدراً باسم دعوة من سيدة ، فأقيمت المظاهرات فى دمشق ورفعت الاحتجاجات الى بلاد الانجليز وانتهى الامر باطلاقه فاستقبل استقبالا فخما وقد تولى الوزارة فى بغداد مرات بعضها رئيسا وبعضها وزيراً وهو بلا ريب من أكبر رجال العراق ان لم يكن أكبرهم .

وفى ٨ آذار ١٩٢٠ أعلن المؤتمر العراقى استقلال العراق فى دار بلدية دمشق وتعيين الامير عبد الله ملكا عليه وأعلن سمو الامير زيد نائباً عن أخيه الملك عبد الله

وتألفت جمعية حرس الاستقلال العراقى السرية وغايتها الاستقلال المطلق بأقصى ما يمكن من التدابير مشتركة مع الجمعيات والاحزاب الأخرى ولا يجوز للجمعية الاعتماد على انجلترا فى طلب المعونة الفنية وحدث انشقاق فى بغداد بين رجال جمعية العهد ورجال جمعية الحرس ومن أهم رجال هذه الاخيرة على البزركان ورفعت الجادرجى وجميل المدفعى

وغيرهم ومما يؤسف له أن بعض هؤلاء قبلوا وظائف حكومية وتخلوا عن العمل السياسي بسببها وقنعوا بالمنصب والمرتب كأنهما الغاية التي كانوا يسعون اليها .

وعندئذ بدأت السلطة الانجليزية تتعرض لحرية الاجتماع فنشر القائد ساندر وهو القائد العام للجيوش المحتلة بالعراق منشوراً ختمه بقوله « فلهذا وجب علينا أن نعلن أن انعقاد المواليد ممنوع وان انعقاد الاجتماعات لمقاصد سياسية يعرض القائمين بها لأشد العقاب »

ثم بدأت المفاوضات فدعا السير ويلسون ومعه وزير العدلية السير بونهام كارتر (صهر ونسيب اسكويث) والكولونيل بلفور لفيفاً من الاحرار والوطنيين العراقيين وأخذ سير ويلسون « يبلفهم » البلف الانجليزي المشهور فذكر عصبة الأمم وتحرير الشعوب الرازحة تحت نير الاستبداد التركي وان حكومة جلالة مولاه الملك تريد تأسيس حكومة وطنية في العراق بأقرب فرصة .

وان العراق كان تحت حكم أجنبي أكثر من ٢٠٠ سنة ومهما سلمت النيات فلا يمكن تأسيس حكومة وطنية فی لحظة واحمدوا الله على أن العراق لم يتأثر بويلات الحرب فلما ذكروه بمؤتمر سان ريمو أجاب

« ان مؤتمر سان ريمو قرر استقلال سوريا والعراق على أن تكون الأولى تحت وصاية فرنسا والاخيرة تحت وصاية انجلترا (راجع جريدة العراق ١٥ رمضان ١٣٣٨)

ثم بدأ عهد الارهاب ، لأن أكابر حكام العراق من الانجليز تنازلوا بهذه المفاوضة وكانوا يظنونها كافية لتهدئة الخواطر وتسكين ثائرة الشعب ، وظنوا أن هذا التفاهم عن قرب مع الزعماء يلقى على نيران الثورة برداً وسلاما ، فلما رأوا الامر على العكس أخذوا يعتقلون ويفتشون المنازل ويحكمون بالسجن والاعدام في مجالس عسكرية وينفذون الاعدام فعلا وشنقوا عبد المجيد كنه فی محرم سنة ١٣٣٩ . ونفوا أخاه حميد أفندى كنه الى جزيرة هنجام

ومن أبطال تلك الفترة الامام الميرزا محمد تقى الشيرازى الذي قوى روابط المودة

بين السنيين والشيعيين وقبضت الحكومة على نجل الامام الشيرازى وهو ميرزا محمد رضا ونفته الى جزيرة هنجام فتدخلت حكومة ايران فى الامر وأفرجت حكومة العراق عنه وأمرته بالاقامة في ايران .

وأخذت الساطة تعتقل مشايخ القبائل فينقذهم رجالهم من السجون بالقوة ، بدت الثورة فى البادية بين القبائل وأطرى بعض ضباط الانجليز ولا سيما هولدن بسالة الثوار ومهارتهم وقال انهم كانوا سريعى الحركة وأسعى الحيلة وخططهم المرسومة للدفاع منطوية على مهارة حربية وقد نكل الثوار بالجيوش المحتلة في أماكن كثيرة تنكيلا عظيما والمدهش في أمرهم أنهم كانوا فقراء فى السلاح والذخيرة ولم يعلم عن أحدهم مكابدة الحروب بمثل هذه المهارة الفائقة وقد دهش الفريق هولدن من حسن اختيارهم للزمان والمكان .

وعاد ويلسون الى المفاوضات والتهديد فأرسل الى شيخ الشريعة الاصبهانى في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٠ خطابا مطولا جاء فيه « ان الحكومة الانجليزية المعظمة قد اعتمدت دائما على الأركان الثلاثة وهي الرحمة والعدل والتسامح الديني » وان جيشنا الانجليزي كان قبل الحرب صغيراً والآن صار عدده خمسة ملايين (!!) وان ثروة انجلترا لا تقدر وان الثوار لم يمكنهم أن يعملوا فوق ما عملوا ولو استمروا هلكوا من الجوع لتلف الزراعة وان قوتهم قد مالت الى الزوال » الخ

فكان رد شيخ الشريعة بليغا قويا مقنعاً جاء فيه :

«أخذتم بعد الوعود بالوعيد وبعد التأميل بالتضليل واستعملتم الشدة والغلظة فنفيتم وقتلتم وسجنتم وأخفتم وأضمرتم العداء الذي أظهرتم آثاره . وتعريف الفساد عندكم هو المطالبة بالحق فمن طالبوا بحقوق الوطن صاروا فى نظركم من المفسدين » في ٢ محرم ١٣٣٩

وكان كتاب شيخ الشريعة خير رد على كتاب ويلسون الذى رأيناه يتلون كالحرباء فى مفاوضته وكتبه، يعطيك تارة حلاوة وطوراً سماً زعافاً وهو صورة طبق الأصل من رجال السياسة فى وطنه

وكانت النجدات قد وردت على الانجليز من حكومة الهند وبني الانجليز حصوناً ملاوها بالجنود وكان معظم الشبان وبعض زعماء القبائل يرغبون فى مفاوضة الحكومة بالصلح غير أن أقلية محدودة هى التى رفضت المفاوضة ودفعت شيخ الشريعة الى ارسال هذا الكتاب الذى يعد بمثابة رفض المفاوضة .

وقد ضحى العراقيون بأرواحهم وأموالهم فى سبيل الحرية واستشهد منهم من استشهد فضعفت قوتهم قليلا من تخاذل بعض القبائل ومن ورود النجدات المتوالية على الانجليز وفى هذه الظروف التعسة سقطت الحكومة العربية فى سوريا (موقعة ميسلون) وحدثت فى ٢٣ حزيران ١٩٢٠ في مجلس العموم مناقشة حادة جداً وفيها تبرم اسكويث رئيس المعارضة بفداحة نفقات الاحتلال في العراق وانها اثقلت كاهل ميزانية الدولة

وأشار الي ضرورة الجلاء عن العراق والاحتفاظ بالبصرة . ولكن لورنس وهو مستشار تشرشيل فى مسائل الشرق ، بعد أن أتم غزو بلاد العرب وسوريا وهو صديق العرب الحميم التفت الى العراق وقال انه لا يفتى بالجلاء لأن الدولة الانجليزية ليست وحدها التي تتحمل عبء الحملة والاحتلال بل ان أهل العراق أنفسهم سوف يشعرون بالضيق والغلاء من وجود الجيش الانجليزي بين ظهرانيهم ما داموا ينزعون الى الثورة فان عدد الجيش ٨٣ ألف جندى ونفقاته ٣٠٠ ألف ليرة وشار بايجاد رجل صالح فى العراق يشبه كرومر عند ما كان فى مصر ، فعينت الحكومة الانجليزية پرسى كوكس بدلا من ويلسون . ولم يكن في البلد من يكرم ويلسون قبل رحيله سوى طالب النقيب فكان ويلسون رجل الشدة الذى حدثت في عهده الثورة ، وجاء بعده كوكس الذى استلم زمام الأمور بعد أن هدأت الزوبعة فخطب ويلسون في ذلك الاجتماع خطبة دافع بها عن نفسه وعن حكومته بكل قواه وتحامل على الثوار تحاملا شديداً مع أن الثورة العراقية كانت نتيجة طبيعية للسياسة التي جرى عليها مدة تقلده زمام الحكم الملكى فى العراق . وهو من حيث مسلكه وكلامه وخططه أشبه الناس بلورد لويد الذي عزلته حكومة العمال بعد ان استعمله شامبرلين على مصر مندوبا

سامياً . فكلاهما يحب « الرغي » وكلاهما استعماري متطرف يؤمن بالقوة المادية ويختفي وراءها ويتوعد بها الشعوب الشرقية . وكلاهما ناعم الملمس يخفي يده الحديدية فى قفاز من المخمل ، وكلاهما سقط سقطة شنعاء من حيث لا يحتسب . ولعله فى خطبته الاخيرة ثاب الى رشده برهة فنطق فى بعض المواطن بالحق حيث قال

« ان الحقيقة التى أعتقدها هي أن العوامل الادبية كانت منذ القدم تؤثر فى العالم أكثر من القوى المادية فاشتد تأثيرها في الاعصر الحديثة الى درجة أصبحت معها المعنويات والنظريات تفعل فى النفوس أكثر مما تفعل فيها الحقائق الحسية وعوامل الحكومات »

« ان العوامل الفكرية التي امتاز بها الغربيون على الشرقيين فى عصورنا الحديثة أحدثت بين الشرقيين انقلابا فكرياً ومن ذلك ان روح الوطنية أو الجنسية دب مرة أخرى في نفوس الشرقيين والاسياويين »

وفى يوم ٢٢ ايلول سنة ١٩٢٠ وصل سير برسى كوكس وقد كان في حضوره مظهر من مظاهر النفاق بين أهل الشرق فان شاعراً عراقيا شهيراً معروفاً بين اخوانه بشذوذه والحاده استقبل سير كوكس بقصيدة جاء منها

عد للعراق واصلح منه ما فسدا	وابثث به العدل وامنح أهله الرغدا
الشعب فيه عليك اليوم معتمد	فيما يكون كما قد كان معتمدا

وتكلم عن الثورة فقال « انها حركة ذمها المفكرون في ابانها » مع ان هذا الشاعر نفسه كان قد عطف على شهداء الثورة فرثى ابطالها بقصيدة مطلعها

ماذا بكثبان الرميثة من غطارفة جحاجح ؟

وتكلم سير كوكس عن استقلال العراق باشراف انجلترا .

وعضده الشيخ ابراهيم الراوى فقال ان العراق لا يستغنى عن الوصاية البريطانية

وكانت الوزارة الأولى التى ألفها سير كوكس مكونة من رجال ميالين للانجليز وهم اثنان من آل النقيب والعسكرى والالوسى وساسون

٥

قالوا في الامثال كلام الملوك ملك الكلام ، يقصدون انه أرقاه وأصدقه وأحكمه وأمتعه وأنفعه .

ولما كان جلالة الملك فيصل بن الحسين من ملوك الشرق الاسلامي المعدودين على الاصابع ، ولجلالته فى نفوس المصريين منزلة خاصة ، كان من حقنا ومن واجبنا أن ننظر إلى أقواله بمنظار الاكتراث والاهتمام . وأن نتحري التدقيق في معانيه لننتفع بها اذ لا يمكن أن يصدر عن هذا الملك الجليل الذى تقلب في عرشين وأبوه ملك وأخوه ملك ، قول خال من الحكمة والموعظة الحسنة .

سافر جلالة الملك فيصل منذ نحو عام من بغداد عاصمة ملكه التي كانت عاصمة ملك العباسيين ومر فى طريقه الى أوربا بالقطر المصرى ولقيه أحد فضلاء الصحفيين للمرة الثانية فسأله عن الامر الذى أثر فيه أكثر من سواه فى خلال اقامته فى أوروبا فاطرق الملك العربى العراقى لحظة وقال : [1]

« لقد كان لما رأيته فى البلاد السويسرية من دلائل المدنية الحقيقية أعظم وقع في نفسى . فمدنية سويسرا لا تقتصر على المدن والمظاهر الخارجية كما هو الحال في سائر البدان الاوربية بل ان كل قرية في سويسرا متمدينة وكل قروى فى سويسرا متمدين . وكنت أتنزه مرة فى ظهر قرية من القرى السويسرية فابصرت براعية ترعي قطيعا من الغنم وهي تدفع أمامها مركبة صغيرة نظيفة أركبت فيها طفلها فاغتبطت بمنظر هذه الراعية التى تسهر على عملها وعلى رفاهية طفلها فى آن واحد ، وقلت في نفسى « اذا كانت الراعية السويسرية قد بلغت هذا المبلغ من الرقي والمدنية فلماذا أعجب بما أراه في سائر طبقات الامة السويسرية ؟ »

الى هنا انتهي الجزء السلبي من ملاحظة جلالة الملك العربى العراقي ، ثم انتقل الى الجزء الايجابى أو التطبيقى فقال :

---

(١) مجلة كل شيء الاسبوعية ، والصحفى هو الاديب كريم ثابت أفندى .

«أجل لقد أثرت في مدنية سويسرا تأثير شديداً لايمحى وثبت لى أن المدنية الحقيقية لاتكون بالقصور الشامخة والبنايات الفخمة ولا بالمظاهر الخارجية الكاذبة والزينات السطحية الفارغة . ولا بكتابة المقالات وعقد الاجتماعات ولا بالتغني بالحرية والاستقلال . ولا ببسط الامانى والآمال .

ان الاستقلال الحقيقي لايشيد الا على دعائم المدنية والمدنية الحقيقية لاتقوم الا على التعليم الخ . . »

فاتقدم الى جلالة الملك العربى العراقي الهاشمي وارث عرش الرشيد والمأمون فى أدب واحترام وألتمس من جلالته أن يعفو عن ملاحظتى هذه .

اعلم يامولاى أننى فهمت قصدك من مدح المدنية والتعليم ولكننى لم أفهم قصدكم من الحط من قيمة « كتابة المقالات وعقد الاجتماعات و بسط الامانى والآمال . والتغني بالحرية والاستقلال »

قد تكون جلالتكم تشير بذلك الى دولة شرقية لانعرفها نحن ، ولكننا فى مصر ــ والآن على الأخص ــ لاوسيلة لنا إلا كتابة المقالات وعقد الاجتماعات و بسط الامانى والآمال . والتغني بالحرية والاستقلال .

فانا الضعيف قد تألمت من هذا التلميح فى هذا الظرف الدقيق ومثل جلالتكم أدرى بما أقصد . و لم يكن يعدم وسيلة أخري للتعبير عن آرائه فيما يتعلق بدولة شرقية أخرى غير مصر .

واعلم أيضا يامولاى وأنت من خيرة العالمين أن سويسرا هذه فى مقدمة الشعوب التى كافحت في سبيل استقلالها بكتابة المقالات وعقد الاجتماعات و بسط الامانى والآمال والتغني بالحرية والاستقلال ولو أن جلالتكم تنزلتم واطلعتم على كتاب تاريخ سويسرا الذى يدرسه تلاميذ مدارسهم الابتدائية لرأيتم صفحات جهادهم المجيد منذ القرن الثالث عشر فتاريخهم القديم والحديث حافل باخبار الابطال الأمجاد أمثال غليوم تيل و بونيفار والماجور دافل وقد سجنوا وقيدوا بالحديد وقتل بعضهم في سبيل الاستقلال

٢٥

١

لقد كان اتصال العرب بأفريقا قديمًا جداً، وربما يرجع الي ألوف السنين ومازال هذا الاتصال حتي ظهر الاسلام فهاجر بعض العرب المضطهدين من الحجاز الى شواطىء افريقا الشرقية وقيل انهم بلغوا بلاد الحبشة واتصلوا بالنجاشي فأكرم وفادتهم.

وبعد قليل من ظهور الاسلام فتح العرب المسلمون أفريقا فتحاً سريعاً فاكتسحوا شمالها في فترة وجيزة. وانحدروا على السواحل الغربية وأسسوا المدن وزكت حضارتهم بين الزنوج

ولما تأسست الخلافة العباسية، واضطهدت الأمويين وطاردتهم هاجروا الي السودان فلجأوا الى سائر ناحياته، ونشروا في ربوعه دين الاسلام واللغة العربية وخرجت من السودان نفسه قبائل غزت شمال افريقا وغربها وصارت حلقة اتصال بين السودان وبين سائر افريقا.

واستفاد الزنوج من العرب أن دانوا بالاسلام واهتدوا بهديه.

وقد روى سير هنرى جونستون وهو من أكبر علماء الانجليز في كتيب ألفه على افريقا عن الرحالة ريد مامملخصه:

«قد تمر بالقرية الزنجية الوثنية في قلب افريقيا فتجد أهلها في أحط درك البشرية من حيث النظافة والبر بذوي الأرحام لايتقذرون من فضلاتهم ولا يغتسلون من دنس ويأكلون الميتة ويشربون الدماء ويذبحون أجدادهم وآباءهم اذا شاخوا وعجزوا ويغيرون على الجار ولا يرعون له حرمة، ويغتصبون امرأته وبنته نهاراً، لايرون في ذلك عيباً ولانقيصة.

فاذا مررت بالقرية نفسها بعد عشر سنين وقد دخلها الاسلام فتراهم يدركون معني

النظافة والطهر يستعملون الماء للاغتسال والوضوء وتنظيف الأجسام والثياب، يصلون أرحامهم ويحمون جارهم ويرعون حقوق القريب والغريب فلا تكاد تتعرفهم لشدة ما لحقهم من الفضائل ومكارم الأخلاق ومظاهر الرقي والحضارة .

فلاسلام وهو دين العرب يزرع الآن بذور المدنية في قلب افريقيا المظلمة أو القارة السوداء ويبدد سواد ليلها . وفي وسط تومبكتو أو السنجال أو الداهومي تلقى اناساً سود الوجوه يقرأون فلسفة ابن رشد ومؤلفات الغزالى ويتأدبون بأدبهما وربما كان بين أسلافهم الأقربين من كان يأكل لحوم البشر . ولم يكونوا ليقرأوا تلك الكتب لولا دين الاسلام الذى تتبعه اللغة العربية أينما ذهب لاستحالة ترجمة القرآن وضرورة درسه كما أنزل»

هذه شهادة انجليزى منصف تدل على الخير الذي يصنعه الاسلام فى افريقا التى كانت مهداً لبضع أسر مالكة شرقية أو عربية أو اسلامية تأسست على شواطئها وفى سائر نواحيها . وكانت مهداً للمدنية المصرية أم مدنيات العالم ، ومعتركاً لأمم كثيرة . ولايوجد بها للأسف سوي أمة مستقلة حرة واحدة هي الحبشة . وهذه القارة اذا تهذبت ونظمت وحسنت قيادتها لانقول انها تفتح العالم بل نقول انها على الأقل تحمى ذمار شعوبها وتدفع عنها غائلة الأجانب وتنتفع بكنوز خيراتها الدفينة بين معادن نفيسة وأحجار كريمة ومواد كيمائية وأرض خصبة وأنهار غنية . ولا يمكن أن يقوم بهذه النهضة الافريقية سوى أمة عربية مسلمة تنفع الملايين من الخلق وتحيي موات الأرض .

٢

لما أقيم الاستقبال الحافل في عيد الفطر فى يوليو سنة ١٩٢٠ بتونس زار وفد من الشبان التونسيين سمو الباي وقدموا اليه عريضة طلبوا فيها انشاء دستور للأيالة التونسية يكون مكتوباً يعلن الحقوق ويضمن الحريات العامة ويفصل السلطات عن بعضها بعضاً ويشرك الأمة فى حكم البلاد اشراكاً تاما من غير تمييز الأجناس والأديان وتراعى فيه الحقوق والواجبات الدولية .

فأجاب سمو الباى

« اننا ننتظر من رجال فرنسا الخير والسعادة مع العدل والانصاف للايالة وأهلها »

وقررت الحكومة الفرنسوية فی تونس معاقبة الموظفين الذين اشتركوا في الوفد المذكور وأن تحاكم أمام مجلس عسكرى حسن كمال الصحفي المتهم باثارة الفتن بين الجاليات الأجنبية والفلاحين من أهل تونس . وصادرت جريدته ومنعتها من الصدور .

واليك الآن نص العريضة التى رفعت الى الباي :

«هب نسيم الحرية في العالم كله فأخذت جميع الأمم تعلمن مالها من الحق والحرية بعد خروجها من المعترك العظيم وان الأمة التونسية لبت دعوة العالم المتمدن الي الدفاع عن الحرية والحق والعدل وأظهرت من الاقدام والبسالة مايرفعها الى مراتب الأمم العريقة فى القدم ولولا ماترجوه من تأييد حقوقها وحريتها لما سارعت الى تلبية تلك الدعوة فهى اذا ترجو أن تنال دستوراً يضمن حريتها وحقوقها و يقضى باشتراكها في ادارة شؤون بلادها من غير تمييز بين الأديان والأجناس » .

وكانت فرنسا قد تعهدت منذ ٣٠ سنة بتحرير تونس وتونس قدمت ٦٥٠٠٠ مقاتل و ٣٠٠٠٠ عامل وبلغت خسارتها ٤٥٠٠٠ بين قتيل وجريح وأظهر جنودها ماأدهش العالم في اوروبا وشهد لهم المارشال فوش بالتفوق والشجاعة .

أما الأحوال الاقتصادية فى الساحل التونسى فليك عنها بياناً وجيزاً :

من أقدم العصور والساحل التونسى يعاني الآلام ناهيك بأن الشيوخ الذين قضوا به عمراً طويلا يشكون مر الشكوى من الأزمات التي تحل بهم ورغما من تطاول الدهور واستفحال هذه الأزمات في بعض أزمنة التاريخ فان الحالة الراهنة لانظير لها فيما علمنا واليك البيان : لايخفى على أحد أن مصدر الثروة الساحلية بل حياة المقيمين بالساحل موطنان بما تنتجه الشجرة المباركة التي هي عمدة الفلاح وقوام حياته يسعد بنموها ويشقي بنقصها وكساد نتاجها ويشقى خلفه الألوف من المنتفعين بالعمل فيها وقد مرت بضع سنوات عم الرخاء فيها

سائر الطبقات حتى الرعاة وما تلفظه نواجع العربان من فقراء البدو، لكنها للأسف انقضت كأنها أحلام وفي الأعوام الأخيرة أخذت الكآبة تبدو على الجميع والفقر يحل والبؤس ينشر ألويته على هذه الربوع من جراء التقهقر الاقتصادي الذي أثر تأثيراً فاحشاً على سوق نتاج الزيتون فالتجأ الناس الى التداين والتعامل بالربا الفادح حتى شمل هذا المصاب سائر الملاك واستغرق ذممهم ولم ينج من مخالب المرابين الا النزر القليل بحيث أصبح الجمهور راسفاً في قيود لاسبيل لحلها مادامت أسواق الزيوت في انحطاط وقد استقبل أرباب الزياتين هذه السنة موسم الزيتون بتجهم وامتعاض ويأس حيث ان الفلاح مثقل الكاهل بالديون مفكر في الحالة التي أصبح فيها إذ ليس له من الدخل مايفي بدفع الضرائب فضلا عن اصلاح شؤونه والقيام بما يتطلبه زيتونه من العمل ودفع ما عليه والذي يزداد حيناً فحيناً

تلك هي الحالة بالساحل الذي يعد من الجهات المهمة بالقطر التونسي لاهمية مابه من شجر الزيتون الذي آل الى ما آل والظاهر أن الدواء الناجع لهذه الحال هو التسهيلات الكافية لوسق الزيوت الى الخارج والتخفيف من الضرائب خشية ازدياد الألم الناشيء عن المطالب المتعددة وغني عن البيان أن الشجرة الواحدة أصبحت في هذا اليوم لاتعطى الفلاح مايكفيها من العمل في حد ذاتها من حرث وغيره فكيف يرجى منها إسعاد مالكها والتخفيف من ويلاته وأي دليل نقيمه على ذلك والزيتونة التي كانت بالأمس تساوى ألف فرنك صارت الآن تساوى ثلاثمائة فرنك وهذا النقص الفادح في الثمن من أقوي الأدلة على انحطاط نتاج ركن من أركان الثروة التونسية له أثره في الميزان التونسي الذي يهم الحكومة والرعايا لذلك ليس من المتعذر اتخاذ الوسائل النافعة وسلوك طريقة التخفيف ابقاء على البقية الباقية ووقاية للفلاح من المصائب الكثيرة التي كادت تحول بينه وبين مواصلة العمل بانتظام ونشاط فان من أيقن بسوء عاقبة عمله وخسرانه في الختام ذهبت آماله وانقبض عن السعي ولا تزال الحالة تزداد شيئاً فشيئاً الى أن تعم البطالة ويعظم الخلل ويسود الشقاء ويبدو الخراب في أبشع المناظر .

٣

صادف عام ١٩٣١ الذى وضعنا فيه هذا الكتاب مرور خمسين عاماً على احتلال فرنسا بلاد تونس ، لا لخير أهلها ، ولا احتجاجاً علي ضربة مروحة على وجه سفيرها (كما حدث فى الجزائر) ولا لأنها على طريق الهند (كما هي عادة انجلترا فى تبرير احتلال مصر) ولكن لأن تونس بلاد غنية فى زراعتها ومشهورة بزيتها وزيتونها وتمرها وبلحها وحبوبها وبساتينها وفاكهتها وغنية بمناجمها وفوسفاتها ، وقد صنع بعض الفرنسيين بتونس ما تصنع عصبة من الخطافين بضيعة خالية من الملاك أو قرية ليس لها صاحب ولا سكان واليك ما خص وجيز لتاريخ الاحتلال الفرنسي بتونس .

ارتأى الوزير خير الدين لما تنكر له الباي وغضب عليه أن يبيع أطيانه الواسعة التي تمتد من زغوان الى بونفيشه والنفيضه التى كان وهبها اياه محمد الصادق باي ، لشركة بنك مرسيليا ، ولكن الشريعة الاسلامية تعطى حق الشفعة للجار ولما كانت انكلترا لا ترضى أن ترى شركة فرنسية تملك أرضاً بتونس أقامت أحد اليهود من حمايتها وهو يوسف ليفي يملك قطعة مجاورة لأرض خير الدين يطالب بحق الشفعة ، وحيث كان الشرع غير قابل للتأويل فلم يبق لشركة بنك مرسيليا الا أن تترك البقعة ، ولكن براعة رجال المعاملات لا تقف عند هذا الحد فقد استعملوا الحيل الشرعية التى تمنع الجار من حق الشفعة أى ذكروا كمشة مجهولة في عقد البيع واحتفظ الوزير خير الدين لنفسه بمتر واحد حول الأرض بحيث ان أرض الاسرائيلي المحتمى بانكلترا لم تكن مماسة للأرض المبيعة ، فأول ما ابتدأ الأمر برفع الدعوي أمام المحاكم الاعتيادية لمعرفة قيمة هذه الخزعبلات ، أرادت الشركة أن تضع يدها على الارض لتحوزها بصفة الملكية فأرسلت البعض من أعوانها يستقرون بنفس الأرض وفي الحين نفسه ترسل انكلترا محميها ينصب خيمته أمام أعوان الشركة .

وقد صارت الحالة خطرة لانه أخذ يظهر شيئاً فشيئاً أن المحاكم الاسلامية ستصدر حكمها لفائدة محمي انكلترا وكان من الممكن أن يحدث في كل وقت بين الفريقين المستقرين

بالنقيضة خلاف خطير ، فوجب حينئذ القيام بعمل حاسم

وقد كان الوزراء فى سنه ١٨٨١ كما هم اليوم حسب عبارة الرئيس ميلران « أعوان المالية » وكانت الجيوش الفرنسية والاسطول الفرنسى والميزان الفرنسى كما هى اليوم لاغاية لها الا العمل لفائدة مصلحة الماليين الخاصة ، وكما جعل بوانكاريه منذ سبع سنوات الجيش الفرنسى تحت تصرف « لجنة الحديد » لاحتلال الروهر وكما وضعت كتلة الشمال ذلك الجيش نفسه تحت تصرف « بنك باريس والبلاد المنخفضة » لكسر الأمة الريفية والاستحواذ على خيرات أرضها الكبيرة كذلك وضع جول فيري في ذلك الزمن الجيش المذكور تحت تصرف الشركة المرسيلية .

فاكتشفوا فجأة أنه يوجد في جبال خمير بعض اللصوص وانه يحدث أحياناً منهم وهم غير محترمين للاتفاقات الديبلوماسية أن يسرقوا خارج الحد التونسى الجزائرى كما يسرقون من داخله وفى الأمر داع كاف ، فدخلت الجيوش الفرنسية من الحد الجزائرى ومن بنزرت فلزم الباي الخضوع تحت تهديد السيف واختلت البلاد بسرعة فائقة واستمر سراق خمير على سرقتهم داخل الحدود وخارجها ولكن استقر ملك المائة ألف هيكتار وزيادة لشركة مرسيلية ذلك هو الغرض وذلك هو أصل « الحقوق التى للجمهورية الفرنسية بتونس »

* * *

وما كادت تدخل الجيوش الفرنسية بتونس ولما يقع بعد امضاء معاهدة باردو (١٨٨١) حتى استدعى جول فيرى للمأدبة التى أدبها أعضاء الصحافة الكبرى ورجال المال لتأييد عمل القوة الذى قام به فتكون بعنايته جمع علي رأسه ادريان هيبرار مدير جريدة الطان وبول بوليو مدير جريدة « ليكونوميست فرانسيه » للدعاية لمسألة تونس ، وفى مقابل خدماته الجليلة طلب هيبرار الذى ألزم البلاد التونسية بقبول أحد معاونيه بول بورد بصفة مديرعام للزراعة وبواسطة هذا المدير وشركته معه طلب مائة ألف هيكتار فى جهة السواسى وجلاص ولكنه لم يحصل الا على عشرة آلاف هيكتار فقط !

أما بول لوروا بوليو فقد نشر في احـدى الجرائد الدعاية لمناجم الفوسفاط بقفصه وحصل زيادة على عدد ذى قيمة من السهام أرضاً من أحسن الأراضى فى أخصب جهة من التل بالمملـكة

وبعد ذلك بقليـل تحصلت جريدة « الديبش تونزيان » فى شخص مديرها م . لوكوركار بانى على بعض آلاف من الهيكتارات ثم أخذت تستحوذ شيئاً فشيئاً بمقدار مايقوى من نفوذها على مناجم الفسفاط بقلعة جريدة أغنى مناجم الفسفاط بعد مناجم قفصه وتخلق لنفسها امارة حقيقية بالوطن القبلى وتمتد يدها العادية الى أحسن الأراضى المجاورة المياه المعدنية بقربص وتضع يدها عليها لاستثمارها وتضطر الدولة لبناء طريق لها بما بلغت مصاريفه ١٠ ٢٠٠ ٠٠٠ فرنـكا ذهباً ، وتحقق لنفسها مع ذلك قسطاً عظيما من كازينو تونس وتحتكر الاعلان التجاري من دون ذكر لـكثير من الامتيازات ليست أقل فضيحة من السابقة بما جعل مديرها المستثمر العام المملكة التونسية أمام . بوشى العضو بمجلس السينات ووزير التجارة سابقاً ومقرر الميزانية التونسية فقد استحوذ على ٣٠٠٠ هيكتار في أحسن جهة من التل وأخصبها ، وم . مورجو العضو أيضاً بمجلس السينات ووزير الفلاحة سابقاً ومقرر الميزانية التونسية فقد استحوذ على ٦٠٠٠ هيكتار من أراضى السيالين قرب صفاقس و ٥٠٠٠ هيكتار فى جهة وادى اللبن و ٣٠٠٠ هيكتار من وقف سيدي مهذب وهو يملك أيضاً مصيدة تن بصفاقس ومناجم للحديد وسهاماً وافرة من مناجم فسفاط قلعة جردة

وم . كوتنرى النائب بمجلس الأمة ووزير المالية سابقاً ومقرر الميزانية التونسية حصل على بعض آلاف من الهيكتارات فى أحسن جهات المملكة .

وم . هانوتو وزير الأمور الخارجية سابقا صار بعد اشهار مدلس أوجب احتجاج الغرفة الزراعية بتونس مالـكا لأرض كريمة متسعة قامت باحيائها الدولة على نفقتها وتحصل لفائدة « المعامل الـكبرى الصفاقسية » التى هو جاعل لهـا أراضى بناء ببيكر فيل ناحية صفاقس بثمن قدره خمس صانتيمات المتر الواحد بينما كان سعره الحقيقى فى سنة ١٩١١ ـ ١٥ فرنـكا

وم ، بيدى بيدو عضو السينات ومقرر الميزانية التونسية أيضاً تحصل للمحافظة على السر اللازم فى تقاريره بصفة خاصة على هنشيرين من أجل الهناشير وهو مع ذلك رئيس مجلس ادارة « شركة الصالح بسليمان »

وم . شاللى بيرت نائب من مجلس الأمة ومقرر الميزانية التونسية يستيقظ صباحاً بعد ماسلم تقريره فاذا هو مالك بشركة « الوسيط » فانسان لمناجم حديدالدوارية ، فيكون لها شركة استثمار و يقبض مبلغاً طفيفاً في مقابل تقريره هو أربعة ملايين فرنك ذهباً الخ الخ

وهكذا كان من نتيجة معاهدة باردو منذ خمسين سنة المساعدة على امتلاك الطمع الفرنسي لأكثر مايمكن من الارض والمناجم المخزونة في أحشاء البلاد ، وتاريخ البلاد منذ ١٨٨١ ليس الا امتلاك الارض لفائدة رأس المال الفرنسى بواسطة قوة الدولة : امتلاك بنك ميرابو لمناجم الفسفاط بقفصه وشركة مقطع الحديد للثروة المكنوزة من الحديد فى جبال جريسة وامتلاك نواب البرلمان الفرنسى لأحسن الاراضى وامتلاك المستعمرين للأراضى المشتراة من الميزان الذى جل ايراده من الأهالى .

فالاحتفال الخمسينى الاستعمارى قد أتى في وقته لتذكير الجماهير العاملة التونسية ان صل الاحتلال لبلادهم هو القوة وانهم يعاملونه بالقوة الغاشمة وان ليس الا تلك القوة التي يجب أن تنظم وأن تتم ليخلصوا من نير الاستعباد

٤

لايزال صدى الظهير البربري يرن في آذاننا . فقد ضجت منه الشعوب العربية ، بعد أن ضجت شعوب شمال افريقا فقد استصدرت فرنسا من الشاب محمد سلطان مراكش بالاسم ظهيراً أومرسوما يقضى بتنصير أمة البربر ومضى عليه الآن أكثر من عام ونصف وأسست بين القبائل الاسلامية كنائس كاثوليكية وحشدت لها القساوسة وكانت أخرجت القضاء الشرعي من ميزانية الدولة وأخضعته للسلطتين العسكرية والمدنية . وبينما كانت فرنسا تعمل عملها في مراكش على هذه الصفة المخالفة للحضارة شعر المشير الفرنسى

ليوتى يحرج موقف بلاده ولاسيما في بلاد حديثة العهد بالعبودية .

وقد قام فيها رجل كالامير المجاهد عبدالكريم الذى أحيي ذكرى الامير عبدالقادر الجزائرى ولايخفى أن ليوتى رجل حرب وضرب ، وحامل سيف ورمح ونذير قتل وجرح ، ولكنه مذ طالت إقامته بين أهل المغرب لانت عريكته وتشذبت شوكته ، وقد مال الى صناعة القلم فاخذ يحتذى مثال كبار الساسة ليبدى رأيه فى حكم البلاد التى اغتصبتها فرنسا فنشر في مجلة « مسير فرنسا » مقالا جاء فيه:

« من شروط استمرارنا على الاقامة فى المغرب الاقصى وحصولنا على نتيجة من وراء ذلك تعزيز صلاتنا بالوطنيين بمشاطرتنا اياهم مزاولة الزراعة والصناعة والشؤون التجارية ولا سيما مشاطرتنا ايهم الشؤون العقلية ومبادلتنا اياهم العواطف الودية . وعندى ان هذا أفضل وسيلة لضمان التعاون بين فرنسا والمسلمين فى المغرب الاقصى وهذا أشد تأثيراً من حراب جنودنا ومواقعنا العسكرية ، أجل ان لتلك الحراب والمواقع تأثيرا لاينكر وأنا خبير به ولولا الجهود التي بذلتها جنودنا ولاتزال تبذلها لماكنا باقين فى تلك الديار فالفضل للجنودالفرنسويين فى ايجاد النظام والامن في هاتيك الربوع ولميكونوا فيها وفي اقامة سور حولها يجعل السلام مرفوع اللواء فى جميع انحائها . وحينما تتم مهمة جنودنا لوقاية البلاد من غوائل المعتدين الذين يعيثون فيها فسادا وحينما تستتب فيها السكينة استتباباً تاما عاما فلا يبقي علينا إلا مشاطرة سكان ذلك القطر ضروب الثقافة ومشاركتنا لهم في العواطف الولائية

« وكلما عاشرت الوطنيين وأطلت مقامى بين أظهرهم زاد اعتقادى بعظمة تلك الامة وعلو همتها . على اننا لمنجد فى غير المغرب الاقصى من اقاليم شمالى افريقية الانتائج الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى جميع جهاتها ووهن عزائم الحكومات أما فى المغرب الاقصى فقد وجدنا سلطنة منظمة عززتها الاسرة المالكة ولم تؤثر فيها الثورات المتوالية ووجدنا الى جانب تلك الهيئة الحاكمة مدنية عريقة سامية

« والماخيم ظلنا في المغرب الاقصى قيل لنا أن هنالك آثارا تاريخية نفيسة تدل على

ماض مجيد انطوت صفحته ولم نكن نظن ان تلك الآثار باقية على روعتها ولكن وقعت أنظارنا على تحف فنية قيمة كادت يد الفناء تخنى عليها الا ان عودة الامن والنظام الى البلاد أحيت موات الفن المغربي فنهض الفنانون من كل جهة ونموا بأسرار فيهم فكان لهم من وراء ذلك ما أقصى الدمار عن الفن في تلك الديار . وأسعدنا الحظ بأن نجد هناك طائفة كبيرة من العلماء الاعلام والكتاب البلغاء وكانوا قبلا يقيمون معتزلين عن غيرهم

«أما السواد الأكبر من العاملين فى معهد العلوم العالية الغربية فهم من أنصار اللغة العربية وقد اقبل وجهاء الامة وأعيانها على تعلم اللغة الفرنسويه وأصبح جمهور كبير منهم يحسنها

«وللنشء الجديد عناية خاصة بالتعلم وإقدام على احراز المعارف وهو يسير معنا جنبا الى جنب ليكون صلة بيننا وبين مواطنيه . ومع ماله من الميل الى التعمق فى البحث ومعالجة المسائل الحديثة فلا يذهل عن المحافظة على تقاليد بلاده واستقراء تاريخها والمباهاة بعظمتها وسؤددها وهذا يدل على أن المراكشي يستطيع أن يجعل بلاده جميلة متوافرة فيها جميع أسباب الرقى والعمران مع بقائه مراكشيا ومسلما وعلى هذا الجيل أعول في تعاوننا وفى حسن مصير البلاد . » اه كلام القائد الفرنسى ليوتي .

ولم يكتف الماريشال ليوتى بهذا ، بل كتب في المجلة نفسها يقول عن مراكش والاسلام في يناير سنة ١٩٣٢

« ان الذين يتهمون الاسلام بأنه دين تأخر وتقهقر وجمود واستبداد مخطئون الخطأ كله . فان اختبارى الشخصي عشرات السنين قد دلني على أن الاسلام دين تقدم وحضارة وعدل وليس معارضاً بنظمه وروحه للعلوم والفنون بل هو على العكس يحث عليها ويشجع الذين يدينون به على الحياة الراقية والآثار التى وجدناها في شمال افريقيا تؤيد ذلك وتثبته » اه كلام ليوتى عن مجلة « لامارش دى فرانس »

وما ألطف المقارنة بين هذه الاقوال التى كتبها مشير فرنسى مقامه أرقى من مقام

وزيره وبين ما كتبه هانوتو عن الاسلام منذ ثلاثين عاماً وقد أوردناه فى هذا الكتاب نفسه هل هو تطور الافكار بمضى الزمن ؟ أم اختلاف الرجلين عقلا وادرا كا ؟ أم اخلاص من ليوتى ونفاق من غيره ؟

٥

من حوادث المؤتمر الاسلامى احتجاج ايطاليا على حكومة فلسطين لخطبة ألقاها الاستاذ عبد الرحمن عزام بشأن أسر عمر المختار واعدامه فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

وحقيقة الخبر أنه جاء فى ذلك التاريخ نبأ تلغرافي من روما بأن الكتيبة السابعة من الجيش الايطالى أسرت عمر المختار وفي اليوم التالى أعدم رميا بالرصاص باعتباره ثائراً بالسلاح فى وجه حكم ايطاليا . والرجل كان حين أسر وأعدم في الثمانين من عمره وهو زعيم المجاهدين فى الجبل الاخضر ولم ينزل عن سرج جواده منذ سبع سنين . وكان الرجل قد لجأ الى مصر فى سنة ١٩٢٣ فوصلت اليه أخبار القسوة و الوقائع الدموية التي تحدث في غيبته فى طرابلس فتحركت همته فخرج طالباً الموت فى سبيل وطنه

وألف فرقة صغيرة من العرب ألحقت خسائر كبيرة بجنود الاعداء ومنذ سنة ١٩٢٥ عاش عمر المختار و رجاله تحت الحصار وكان عددهم ثلاثة آلاف وعدد أعدائهم عشرة أضعاف من البيض والحمر والسود . وقد بلغ الجيش المقاتل المختار في بعض الاحيان ستين ألفاً فتغلب عليهم

وكان أشجع الرجال وأخلصهم بشهادة خصومه فى صحفهم وتقريراتهم الحربية . وقد حارب المختار عشرين عاما من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩٣١ فهو أشبه الناس بالأمير عبد القادر ينقصه العدد والعدد وهناك الفرق بين الدولتين الاوربيتين المحاربتين فان ايطاليا لم تجد ما يكفى من المراعاة فى معاملة الاسير بالاحسان والمجاملة وهو شيخ في الثمانين لم يعمل أكثر من الدفاع عن حرية بلاده ولوكان ايطاليا لشادوا بذكره ورفعوه الى مصاف الارباب

كعادتهم فى عبادة البشر من قديم الزمان فقد الهوا بعض القواد والامبراطرة . وان مأساة طرابلس تذكرنا بحروب قرطاجنة فان الطليان قضوا عشرين عاماً فى محاربة هذه البلاد وعدد أهلها أربعون مليوناً وأهل طرابلس لم يزيدوا عن مليون ونصف مليون . وقد أفنت الحرب ثلثيهم ولم يبق الا الثلث الاخير .

ولم يكتف الطليان بذلك بل اجتاحوا واحات السنوسية وزواياها وصادروا أموالها وشتتوا شمل الأطفال والنساء والشيوخ والقوا بالاسرى من أعلى الجو من الطيارات ورموا بعشرات منهم مقيدين بسلاسل الحديد الى قاع البحر وعصبة الأمم صامتة كأنها عجوز صماء بكماء ودول أوروبا المتمدنة محافظة على الحياد وحكومات الشرق أضعف من أن تحرك ساكنا ولو بالاحتجاج المجرد . والاعجب من ذلك أن من يحتج على هذه المظالم ولو فى بلاد الشرق يطرد وينفى ويعامل معاملة المتشردين والاشرار .

٦

ألف أحد كتاب الالمان كتابا اسمه « مهدى الله » فى تاريخ أحمد محمد الدنجلاوى الذى ادعى المهدية فى السودان وقهر الحكومتين الانجليزية والمصرية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وطرد الجنود الأجنبية من وطنه ومهد الطريق بقتل غوردون لفتح السودان على يد الانجليز عقيب دسائس وفتن دامت ربع قرن تقريباً ولا نزال نقاسى نتائجها المريرة .

وقد لجأ المؤلف الالمانى الى وينستون شرشيل الوزير الانجليزي السابق فكتب لكتابه مقدمة ، لان شرشيل كان فى حرب السودان التى انتهت بفتحه فى ١٨٩٩ ، مكاتباً لاحدى الجرائد الانجليزية ، وشهد عن كثب بعض حوادث السودان وطالع شؤونه فى نهاية عهد التعايشى خليفة المهدى . وقد ساح في أفريقا بعد ذلك وزار السودان مرات ، وكان وزيراً للمستعمرات وكل هذا جعل المؤرخ الالمانى يظن شرشيل خبيراً بأمور السودان واختصاصياً فى تاريخ الفترة المهدية

فانتهز شرشيل هذه الفرصة وطعن في محمد بن عبد الله طعناً بذيئاً وتهجم على الدين الاسلامي دين السعادة والهدى قل وناقل الكفر ليس بكافر ، وانما نقلنا قوله لنفحمه بالرد عليه

« ان حياة المهدى محمد أحمد السوداني هي على العموم صورة مصغرة لحياة النبي (ﷺ) المملوءة بغرائب الحوادث من مواقع دموية وانتصار بالسيف » .

ثم أشار الى المهدى السوداني فقال :

« انه كان في الامكان أن ينقلب نبياً آخر لو لم يعتمد في حكمه على السيف ومدافع مكسيم والمذابح الدموية ، مهملا أنواع الخداع الذى امتاز به محمد »

ونحن نقول لونستون شرشيل الذى نعرفه ونعرف تاريخه هو وأباه من قبل هل يستبيح أى رجل من وزراء الشرق أوزعمائه أوعلمائه أورجال الدين فيه لنفسه ، مهما كانت أخلاقه أن يتعرض لسيرة السيد المسيح عليه السلام أو سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بعبارة قارصة أوجارحة ؟ وهل يعجز أى انسان عن الطعن في هذين الرسولين والاساءة الى سمعتيهما وتشويه حقائق تاريخهما ، ولو على سبيل الانتقام للنبي محمد ؟ كلا ! ان هذا في مقدور كل كاتب عربي وكل مؤرخ مسلم ، لاسيما بعد ماألفه رجال الدين المسيحي ورجال الدين الاسرائيلي من كتب « النقد العالى » في الديانتين وأشرنا اليه في مكان آخر من هذا الكتاب

ولكن كتاب المسلمين ومفكريهم أمثال شكيب ارسلان ورشيد رضا والمراغى وكرد على والدجوى وعبدالرازق ومحمد على والثعالبي ومحمد اقبال وسير شافعى والنشاشيبي وأحمد زكى وغيرهم عشرات من المنورين والكتاب الامجاد يربأون بأدبهم ودينهم وكرامتهم وتسامحهم أن يدنسوها بالطعن في مقام عيسى بن مريم أو موسى بن عمران أو حتى أحد القديسين أو الحاخامية ، ويكفى فضلا أن مصطفى منير أدهم المؤرخ المسلم المصري هو الذى أحيا منذ بضع سنين ذكرى موسى الميمونى الذى يسميه اليهود موسى الثاني وهو طبيب

وفيلسوف اسرائيلى وكان قبل احياء ذكره على يد المؤرخ المسلم كمية مهملة فى قبو من أقبية حارة اليهود بمدينة القاهرة .

فكتابة شرشيل ضد النبى محمد فى الوقت الذي يقر أساتذة شرشيل وسادته من الانجليز خاصة والأوربيين عامة بعظمة محمد وصدقه واخلاصه وجلال رسالته (راجع صفحات ٣٢٥ الى ٣٣٩) من تاريخ العالم تأليف ج . ه . ولز ولفيف من العلماء .

ليس شرشيل صادقا في قوله ولا مخلصاً في نقده . انه من يسب محمداً مهرج ومهوش ومأفون ، وانها لقرحة تنز في صدره ضد الاسلام والمسلمين لانه هو وأمثاله مغيظون من بقاء الاسلام ثابت الاركان الى الآن ودخول الناس فى دائرته بدون دعاة ولا مرشدين ولا مبشرين كغيره من الاديان مع تكاثر المعاول المتجهة نحو هدمه ومع انشغال أهله ببعضهم بعضاً ومما لاة زعانفهم لمناوئيه . وفي هذا وحده برهان على أنه دين تكفله قوة خارقة وتحوطه وقاية غير طبيعية وغير مألوفة .

ان كان شرشيل يجهل العربية فهو لا يجهل لغته ولا اللغتين الفرنسية والألمانية وقد ألف المؤرخون في هاتيك اللغات تراجم لمحمد ثبت فيها أن أخلاقه كانت طاهرة شريفة وشهد أعداؤه الذين قاتلوه وأخرجوه من وطنه بمكارم أخلاقه . قال منى المستشرق في مقدمته لترجمة القرآن :

« كان محمد أمينا و كان أعدل أهل وطنه وقام بمهمة شديدة الخطورة بين قوم من المشركين يعبدون الاوثان ، يدعوهم الى التوحيد و يغرس فى نفوسهم عقيدة خلود الروح ، وان رجلا قام بهذه الأعمال لا يعد من العظماء فقط بل يستحق أن يكون نبياً مرسلا » اه .

وقال عشرات غيره مثل هذا القول وأكثر لا سيما نولد كه وويلها وزن ونيكلسون وجولد زيهر وليون كايتانى وسنوك هيرجرونجه . وجريه مؤرخ النبى فى كتاب « الامة العربية » فمن يكون ونستون شرشيل ذلك المغامر الطواح الذي لا فضل له الا فى أنه ينتسب الى أبيه راندولف تشرشيل !!

هل محمد يوصف بالخداع أيها الشخص و كل الناس تعلم أن الرجل المخادع ليس فى قدرته مهما كان دهاؤه أن يؤسس ديناً يدخل الناس فيه أفواجا بالملايين طائعين مختارين . ولو كان محمد مخادعا في قليل أوكثير لفقد ثقة اتباعه وصحابته وأنصاره فضلا عن أن خصومه ما كانوا ليسكتوا عن مساوئه ، فما بالك اذا كان هؤلاء الخصوم أنفسهم قد شهدوا بأمانته وعفته وصدقه ومكارم أخلاقه .

ان التاريخ لا يعرف زعيما دينيا نجح فى دعوته وهو متصف بالرذائل كالخداع وغيره وقد نجح محمد أعظم نجاح وكان أكبر الأنبياء توفيقا وقالت دائرة المعارف البريطانية فى مطبوعاتها الأخيرة Mohamed, the most successful of prophets

كما أنها بلا ريب اذا تنزلت وذكرت بعضهم لوصفته بأنه أخيب رجال السياسة وأشدهم سخافة .

بقى علينا أن ندل القارىء على قصة قديمة يعرفها تشرشيل معرفة جيدة وهي أن شرشيل شهد بعض معارك السودان وشهد مع بذيت الفظائع التى اقترفها كور (راجع عدد يناير ١٨٩٨ من مجلة كونتمبورارى رفيو) بعنوان بعد أم درمان فان الفظائع التى حرمتها جميع قوانين الحرب قد اقترفها (جرائد انجلترا وفرنسا يناير وفبراير سنة ١٨٩٩) وكتاب المركز الدولى لمصر والسودان تأليف چول كوشرى

وفي نهاية الأمر وبعد أن هدمت قبة ضريح المهدى و نبش قبره ووزعت أظافره على السيدات واستعملت جمجمته محبرة المداد فى وزارة ح . بالقاهرة لثلاثة أشهر ، ثم نقلها بعد ذلك .ر. الى لندن وأهداها الى ابن اخت غوردون قرر البرلمان الانجليزى لأحد القواد مكافأة قدرها خمسون ألف جنيه ... ٧٥٠ فرنك بأغلبية ٣٩٣ صوتا على ٥١ . وفى تلك الجلسة احتج چون مورلى وونستون تشرشيل وقال هذا الأخير « لقد كان المهدى نبياً وملكا وقائداً فلا تجوز اهانته ولا نبش قبره . ويعد هذا العمل وحشياً ومخالفاً للشرف الوطنى ولأبسط قواعد الانسانية »

وهذه النادرة فى حياة شرشيل هي التى أوحت الى المؤلف الألماني أن يستعمله فى كتابة المقدمة لتاريخ المهدي. ولو استحق المهدي دفاع شرشيل وتحمسه والذود عن حرمة قبره فيجدر بشرشيل أن لايتهجم على مقام النبي محمد الذى كان المهدى من أصغر أتباعه. لو أن المهدي استحق لقب الملك والقيادة والنبوة وهو لم يعمل الا في حدود طاعة محمد والسير على قدمه، فما ذا تكون مكانة محمد نفسه فى نظر ذلك الذى كان يفتخر بالدفاع عن محمد احمد السوداني الذى وصمه كثيرون من كتاب الانجليز بالخداع والدجل والادعاء؟

٧

زار مصر أخيراً سمو الأمير اصفاوصن ولى عهد الحبشة فلقى من الاكرام والاجلال مايستحقه ولى عهد مملكة افريقية شقيقة، لها فضل الاستقلال والتنعم بالحرية. واذكر أن كاتب هذه الأسطر تكلم فى حفلة تكريم للشيخ عبد العزيز الثعالبي فى يناير سنة ١٩٣٠ في حديقة ليمونيا دعا اليها صاحب جريدة الشورى محمد على الطاهر افندي، فامتدح الحرية وامتدح الشعب الحبشى الذى يتمتع بالحرية مع بعده عن قشور المدنية وأثني على الفقير العاري الحافي الذي ينعم بالحرية والاستقلال وفضله على الغنى المتنعم اذا كان فى وطنه أسيراً أو تابعاً لسيد أجنبي.

وضرب مثلا بالحبشة فاعترضه أحد الحاضرين وقل «أنا مش ويك يافلان.. فان الحرية ليست كل شيء دائما ولا تقوم مقام الثروة».. وكان المتكلم يريد أن يرد على المعترض بما يقنعه، لولا أنه رأى وسمع أن جمهور الحاضرين معه فكفاه ذلك ترضية واغتباطاً لأن غايته اقناع السامعين برأيه ولا شأن لمعترض أو اثنين أو عشرة مادامت الفكرة مقبولة لدى الكثرة الغالبة. وفى الحق أن المعترض كان يتكلم ضد ضميره.

وأول ماسمعت عن الحبشة، عدا عما قرأته فى كتاب الجغرافيا، كان فى سنة ١٨٩٦ عند ماتعدت عليها ايطاليا في وطنها، فردتها جيوش الاسد الراحل منليك النجاشي وهزمتها شر هزيمة في موقعة عدوة الشهيرة، وكانت جيوش الحبشة هزمت جيوش مصر مرات قبل ذلك ومثلت ببعض جنودنا فى عهد الخديو اسماعيل، وللحبشة يد على الاسلام لاتنسى، فان أميرها

المعاصر للبعث المحمدى استقبل المهاجرين من المسلمين وأكرم وفادتهم وأحسن معاشرتهم ولم يقبل فيهم دسائس وفد قريش الوثني وكان على رأسه عمرو بن العاص قبل اسلامه

والاحباش شعب نبيل متدين قانع بارضه من عهد سليمان و بلقيس ملكة سبا الى يومنا هذا فان نسب النجاشى الجديد هيلا سلاسى يمتد الى تلك المملكة المجيدة واللغة الحبشية من اللغات السامية المهمة وفيها مؤلفات جليلة مخطوطة و كان ملوكها الاقدمون يحكمونها حكما مطلقا ولكن هيلا سلاسي بعد تتويجه وبعد وفاة المرحومة زوديتو (جوديت أو يهوديت) تخلى عن شطر من سلطته الواسعة وأنشأ برلمانا على الطريقة الاوروبية وأخذ يعمل على الغاء الرق في وطنه.

والعجيب أن الحبشة تتبع كنيستنا المرقصية ولكننا لم نستطع الانتفاع بتلك العلاقة الروحية العظيمة لا فى التجارة ولا في العلم ولا فى السياسة و يغلب على ظني ان اللوم في ذلك على السياسة الاستعمارية التى تحوط الحبشة بسياج من حديد فهناك فرنسا في جيبوتى وايطاليا فى الصومال وانجلترا في السودان . .

ولايزال نظام الامومة (تقديس الام والمرأة) سائداً فى بعض القبائل (الامارامى) فيقسمون بفراش الزوجة وسرير الأم و يعدونه رمز القداسة والشرف .

وهذا دليل على بقائهم في أحد أطوار الفطرة الأولى ، ومهما تكن حالة الحبشة من التقهقر أو الفقر أو الجهل فانها في نظرنا في مصاف دول الدرجة الأولى لانها تمكنت من درأ الاستعمار وصده وقد كاد يلتهمها، وهو يحيط بها احاطة السوار بالمعصم، لو لم تشتر استقلالها بالحديد والنار والدم. وكادت الحبشة تقع فريسة للاستعمار البرتغالى لولا مسيحيتها فان البرتغاليين احترموا نصرانية الحبشة وساعدوها فى حروبها ضد بعض المسلمين الذين ما كان لهم أن يشهروا في وجه الاحباش سيفاً ان صحت قضية التجاء المهاجرين اليهم فى صحبة عبد الرحمن ابن عوف والزبير وعثمان وجعفر .

وقد ألف كاتب فرنسى كتابا مهما عن الحبشة فى أثناء الحرب العظمى كشف به القناع عن مسألة تاريخية عويصة تتلخص فى أن الرأس ميخائيل المتوفي الذي كان مسلما

وتنصر وصاهر النجاشي منليك فرزق من ابنته بالرأس ياسو كان يخفي ويضمر اسلامه و يظهر مسيحيته وقد اقنع النجاشي المتوفي بولاية عهد ياسو فانقاد له وأمر مطران الحبشة السابق بأخذ العهد على الامراء والرؤس بذلك واقسم رجال الكنيسة والبلاط بالوفاء لياسو ومات منليك وهو يعتقد ان حفيده سيخلفه وقد خلفه فعلا لبضعة أشهر ولكن دسائس أوروبا عملت عملها في الحبشة وانقسمت الحبشة فريقين فريقا مع الحلفاء ومنهم الرأس ما كونين والد الرأس تفرى (هيلا سلاسي) وفريقا مع الالمان ومنهم ياسو . فاذاع خصوم ياسو انه كان يلبس عمامة كتب على لفائفها لا اله الا الله محمد رسول الله ، وانه صلى صلاة العيد مع الاتراك على حدود الحبشة وانه كان ينوي قلب نظام المملكة وتغيير دينها .

ثم حدثت حروب دامية ومواقع وحارب الرأس ميخائيل لنصرة ولده ياسو ثم مات ووقع ياسو أسيراً وقيل انه في أحد السجون أو القلاع ولم يعلم من أمره شيء بعد وفاة زوديتو وتتويج الامبراطور

ونحن نحبذ تقوية الصلات بين مصر وبين الحبشة وندعو الى السياحة في تلك البلاد والتطوع لتعليم شبانها والتأليف بين قلوب أهليها وأهل مصر لأن الحبشة قوة أفريقية لا يستهان بها وسوف يكون لها بعد البرلمان وعتق الرقيق شأن آخر .



١

إن اشاعة الحلف العربى ، جددت فى الاذهان ، المسألة العربية بحذافيرها . فقد جاء الى مصر نورى السعيد باشا رئيس وزراء العراق ، وأقام بها أياما ، ثم سافر الى الحجاز ولقي ابن سعود وتعاهدا على أمور عامة لاعلاقة لها بالحلف ، بعضها خاص بحسن الجوار وبعضها بتسليم المجرمين ، حتى ان الجريدة العربيـة التى نشرت أول أخبار الحلف وحضت عليه ، قالت فى أحد أعدادها « لاحلف ولابلوط » وقد رأينا بشأن هـذا الحلف في عام ١٩٣١ أمورا تلفت النظر أولها نشر مقالات بقلم أمير البيان و « كاتب الدهر » شكيب ارسلان تحبذ الحلف وتدعو اليه ، وقد حللناها في غير هذا المكان وقـد التقينا ببعض الثقاة من رجال السياسة العربية الذين لهم اطلاع على خفايا الامور في العالم الاسلامي وما تلعبه انجلترا من أدوار السياسة الاستعمارية فانبأونا بأن هذا الحلف العربى أحبولة انجليزية ويرجع عهده الي أربع أوخمس سنين ، وان الغاية منه وضع نطاق حول جزيرة العرب وحماية النفط واخضاع العراق وتأمين طريق الهند ، واعداد متاريس ضد سياسة ايطاليا فى الجنوب وروسيا في الشرق .

وقد حدثت فى تلك الفترة نفسها حركة قوية في المعارضة ببغداد فاستقال بضعة نفر من النواب بقيادة ياسين باشا الهاشمي وانضم عدد كبير من المعارضين لحزب الاخاء ، ولجأت حكومة العراق للعنف وتقييد حرية الصحف ، وقد عمل نورى باشا بشدة وصرامة ، عمـل الرجل الحكومى الذى يعضده جلالة الملك والانتداب

ومن هذا تبين أن الانجليز يقصدون الى تنفيذ المعاهدة ونصرة سياستهم

وقامت قيامة الصحافة العربية ضد مشروع الحلف العربى فى أنحاء الشرق . و فى العراق نفسه كتب سياسي خبير ضد الحلف وانتقد الامير شكيب ، وعجب من تحوله عن خطته التى سلكها منذ بضع سنين ضد الاستعمار تحولا لا مبرر له وليس مايدعو اليه ، واستشهد في تأييد رأيه ببعض أحوال السيد ساطع الحصرى مدير المعارف العراقية سابقا وأحد المقربين من جهة عليا وسياحته الاخيرة الى القسطنطينية واتصاله اتصالا مباشراً ببعض المحبذين لفكرة الحلف ، وقد دل ما كتبه المنتقد على شدة الحال في العراق ، وتصميم انجلترا على تنفيذ المعاهدة ، وانهاء مسألة النفط ، والاتفاق عليها مع الفرنسيين . وان الدعوة للحلف ليست الاجزءاً من تنفيذ سياسة الزيت الموصلى .

و قد دلت حالة الاستعمار في العراق ومصر والهندوسوريا وفلسطين وشمال افريقا (طرابلس والبربر) على مرور موجة عنف في أذهان المستعمرين الاوربيين وثبت ان كل من يحبذ الحلف العربى انما يعضد الاستعمار مباشرة وان كان يختفي وراء المصلحة العربية ويقول « بكينا حتى عمينا فى سبيل الحلف العربى »

وقد بقيت مسألة الحلف وتاريخه في غموض الى أن حاول بعضهم كشف القناع عن حقيقتها فروي انه فى سنة ١٦٢٢ كان احسان الجابرى وموسى كاظم الحسينى وأمين التميمي وناجى الاصيل وجعفر العسكري يمثلون فلسطين والملك حسين كان ، والعراق ونجد اجتمعوا في لندن فقرروا فيمابينهم ، ومن تلقاء أنفسهم أن يسعوا في تقريب الامم العربية واقسموا يمينا على توحيد العرب واقناع الملوك قال مراسل جريدة الفتح من باريس ص ٤ عدد ٢٤٧ عمود ٢ « ان مراسل الديلى ميل سألهم عن سبب اجتماعهم فاخبره جعفر العسكري بكل صراحة فنشر الخبر ، و تناقلته الصحف وكانت له ضجة » اه كلام المراسل وفى سنة ١٩٢٣ وجه شكيب ارسلان واحسان الجابرى بيانا بليغا يدعو الى الوحدة العربية ، الى البلاد العربية وملوكها . ويقول احسان الجابرى « ان الانجليز لم يبدوا رأيا بل اعتبروا المسألة كشئ بسيط ، ولا يبعد أن يكون سكوتهم رضى » وقال أيضاً « فرنسا لاشك لاتنظر اليه بعين الرضا و كذلك

ايطاليا ، بل هو سيقضي على مطامع هذه في اليمن ولايخفا كم ان سياسة الانجليز في الشرق كثيراً مارمت الي الغدر والخيانة فحياد الانجليز فى هذه المسألة قد اقلق بعض الناس » . .

وإذن يكون الجابري قد كشف القناع ، ورفع الستار عن ذلك المشروع الخفي . فان اجتماع هؤلاء الاشخاص فى لندن ، وهى عاصمة الامبراطورية ، وفيهم أشخاص مشهورون بخدمة الانجليز شهرة واسعة ، واقتراحهم هذه الفكرة بغير داع أو مناسبة ، ومبادرتهم الى اذاعتها على لسان الديلى ميل وهى جريدة استعمارية مع أن المشروع نفسه لوكان منطويا على الاخلاص ، كان أحرى بالكتمان لاسيما في عاصمة انجلترا التى اشتهرت سياستها فى الشرق بالغدر ، مع علم هؤلاء المجتمعين الفضوليين ان فرنسا وايطاليا تنظران الى الحلف بعين السخط وانهما بالمرصاد لمن يحاوله أو يدعو اليه ، أضف ذلى الك سكوت انجلترا عنه وتفسير سكوتها بالرضا تارة وطوراً بأنه شئ بسيط فى نظرها ، وتسليم الجابرى بأن قلق الناس من خبر الحلف فى محله لانهم يوجسون خيفة من سياسة انجلترا فى الشرق — كل هذه الاسباب تدعو الى الجزم بأن الحلف العربى دسيسة انجليزية قد استخدم بعض رجال الشرق فى الدعوة اليها وهم يعلمون ولعلهم مأجورون و بعضهم بحسن نية وجهالة وهؤلاء معذورون ولكنهم ملومون لاشتغالهم بالسياسة وهم فيها أصغر من الاطفال والرضعان .

أما انفراد الجابري وشكيب بعد ذلك بالدعوة للحلف وافتخار الجابري بأنه كان أول من دعا اليه مع رفقائه فتفسيره ظاهر ، وأقل ما يقال فيه ان الجابري قد يعتذر بأن الحلف يقلق فرنسا ويرضى الانجليز وان شكيباً يرى فى ممالأة انجلترا أو ألمانيا ما يعلله « بالتوازن الدولى » بالنظر الى معاداته افرنسا

وهذا لون من المعقولية التركية التى كانت تسود السياسة الشرقية العربية فى القرن التاسع عشر — ولكن هذا التوازن الدولى سوف ينتهى بضياع جزيرة العرب واخضاع العراق والقضاء على الامام يحيي وهو الملك المستقل الوحيد فى جزيرة العرب — واذا كان شكيب أو غير شكيب بكى حتي عمى على الحلف العربى قبل الحرب والدول العربية قوية

وشعوبها مستقلة وآمنة وقادرة على العمل السياسى المطمئن ، ومع هذا كله فلم يتم الحلف ، فكيف يؤمل له تماماً الآن وكل بلاد العرب واقعة تحت السيطرة الاجنبية سواء بالانتداب أو الاستعمار أو الحكم المباشر — وهل الانجليز غفلوا وعموا وجهلوا حتي يتركوا العرب يتحالفون فيما بينهم ، ان لم يكن هذا الحلف ثمرة تفكيرهم وأداة يعدونها لمصلحتهم ومحاربة خصومهم، ولهم فيه مآرب أخرى !

يجب أن نكون حمقى أوسكارى أو دائخين أومخدرين حتى نصدق هذه الاسطورة أو نتسامح فى ذكرها دون تفنيدها . ولا يدهشنا الا ذكر ملوك العرب وحثهم على العمل للحلف فمن هم هؤلاء الملوك ؟ يقولون انهم ثلاثة يحيى وفيصل وابن سعود . ونحن نعلم مكانة كل منهم فى بلاده وأحواله الخاصة والعامة فلا نقابل دعوة الداعى الا بالدهشة والتعجب

٢

الحلف العربى إذن حيلة سياسية استعمارية ، لا يرجع عهدها الى ١٩٢٣ كما يدعي الجابرى أوالى عمق تفكيره هو وصحبه ولكنها ترجع الى أعمال الانجليز فى عهد عبد الحميد فقد أرشدهم اليها بعض خصومه من علماء المسلمين الذين عرفوا حديث الخلافة والامامة وعرفوا خوف عبد الحميد من مناهضة خصومه باسم الخلافة العربية ، ففكروا فيها كاحدى الوسائل لهدم الدولة العثمانية ، ونشروا الصحف في انجلترا لتعضيدها مثل جريدة النحلة التى نشرت فى لندن ونسبت الى سلطان زنجبار وجريدة البشير وشفق . وألف بعض الانجليز فيها بحسن نية مثل كتاب « مستقبل الاسلام » لبلنت وما زالت تلك الفكرة تدور بين زعماء العرب وساسة الانجليز حتى الحرب العظمى فاستهووا بها الملوك وخدروهم حتي استنصروهم على الاتراك ثم أخذوا بلادهم وأعطوا بعضهم وظائف ملوك وأمراء ووزراء . وهم اليوم يتناولونها من جديد ويلبسونها ثوب النهضة للدفاع عن بيضة الاسلام وحوذة العرب وما هي لعمرك الا عدو قديم بوجه جديد . ويكفي النظر في سياسة انجلترا فى الشرق العربى لنرى أنها

ليست بغافلة وليست بجاهلة ولا متساهلة في شعوبه .

فماذا هى فاعلة فى العراق ؟

انها تجدد المعاهدات وتكيل الوعود كيلا وذلك منذ سنة ١٩٢٢ إلى يومنا هذا أى حوالى عشر سنوات وانجلترا تعلم أن فى العراق ماء كثيراً وأرضاً خصيبة وان به زيتاً ونفطاً ومعادن كثيرة .

ولكنها تشل العمل بمسلكها السياسى وتترك تلك البلاد الغنية في قلق دائم وهى تنظر مطمئنة الى النزاع الدائم بين خصومها وأصدقائها وقد تمكنت العداوة من قلوبهم وقد تحيا القوة المستعمرة بين الفريقين آمنة مطمئنة الى حين — ولكن هذا لا يكون الى الابد، فان للسيادة بالتفريق أجلا ولكل أجل كتاب.

والانجليز في العراق العربى يضنون بالتعليم الحر ويأبون أن يبيحوا منهاجا للتعليم يشبه مناهجهم فى مدارسهم لانهم يخشون ظهور الروح الوطنى الذي يتغلب على التعصب الدينى والنزاع الحزبى فيتحد ضدهم الشيعي والسني وتكون العراق كتلة واحدة لمحاربة الاستعمار — ولكن هذا الخوف لا يمنع علمهم بأن في شمال العراق وشرقه مقاطعات عظيمة تزداد قوتها يوماً بعد يوم — لأن مئات من شباب هذه البلاد يردون مناهل العلم في جامعات أوروبا وأمريكا ومصر وقد عرفنا منهم لفيفا من أرقى الشباب .

الاستعمار اليوم لا يخدم سياسة الدول الاوروبية فقط بل يخدم مصالح أرباب رؤوس الأموال في لندن وباريس وهؤلاء « الاقوياء بالمال » وسدنة مولوخ أو بعل ، يفضلون مصلحتهم المادية على حياة الشعوب نفسها وتراهم ينكرون المصلحة العامة ويحاربونها ليملأوا خزائنهم بالذهب — وحيثما يوجد نزاع بين المال والوطن ترى سياسة المال هى الفائزة . بل رأينا الحرب العظمى نفسها تشتعل تحقيقاً لرغبة « الاقوياء بالمال » وكل الذين ذهبوا ضحيتها بالقتل أو الجرح أو الاختناق أو الجنون لم يذهبوا ضحية الوطن والدفاع عن الشرف انما ذهبوا ضحية الأقوياء بالمال وسدنة مولوخ أو بعل . فالآلة الحكوميه في العالمين القديم والجديد تدار

الآن بقوة المال وذويه ، وكل نظام الحياة الاجتماعية والحياة السياسية الحديثتين يدور على محور من ذهب .

فاذا كان الأقوياء بالمال وسدنة مولوخ وبعل سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو المسلمين أو غيرهم يضحون بأوطانهم وبأبناء أوطانهم وباخوانهم في الانسانية ، ويرمون بالجميع في حومة الوغى وهي نوافذ من جهنم ، وييتمون الأطفال ويرملون النساء ويخربون الديار كل ذلك في سبيل الحصول على المال والثروة ، فهل يظن العرب أو غير العرب من الشرقيين من أى دين كانوا ولأية ملة انتسبوا أن هؤلاء الطغاة يرعون في حقهم إلا أو ذمة ؟ بل الأمر بالعكس ، لأن هؤلاء الاوربيين يعتقدون الشرقيين من طينة أحط من طينتهم ، ولعلهم يعتبرونهم مخلوقين بغير نفوس ناطقة أو أرواح حساسة . وهذا الأمر مشاهد في يومنا هذا في سائر أنحاء الشرق العربي

وقد لجأ شباب تلك الأوطان الى التعليم لأنه المنفذ الوحيد والمنقذ الوحيد من هذا البلاء وسواد هؤلاء الطلاب الذين يقصدون الى العلم في اوروبا وأمريكا مسلمون والمسلمون هم في كل قطر عربي حملة لواء النهضة وركنها الركين . لأن في العالم الاسلامى اليوم ميلا عظيما للعلم خصوصاً العلم الفنى وهم يعشمون أن يكون هذا العلم أمضى سلاح يشهر في وجه السيطرة الأجنبية (من خطبة الامين ريحانى فى المعهد الملكى للشؤون الدولية فى لندن ١٢ تشرين الثانى سنة ١٩٢٨)

فالعراق محتاجة للتعليم والرى ، ولكنها محتاجة للاستقلال قبل كل شيء .

وسوريا تاريخها منذ ثورتها العظمى كتاريخ العراق بعد ثورته . وكتاريخ مصر بعد ثورتها . تلك الأمم ثارت وحاربت جهد طاقتها والدول المستعمرة استعملت معها خطة واحدة فهي أبداً تتردد بين اللين والشدة ، وتعطى الوعود ثم تخلفها ، وتعرض المعاهدات ، ثم تسحبها ، وتارة تبيح الحياة البرلمانية وطوراً تحرمها — فالبلاد فى قلق دائم وما حدث في تلك البلاد بصفة مكبرة تراه يحدث فى فلسطين على صورة مصغرة وترى العارفين يخشون فيها الثورة لأن اليهود يأكلون اللباب ويتركون القشور للعربى .

وان ماحدث في فلسطين ليعد من أغرب حوادث التاريخ حقاً — فان العلاقة بين اليهود والمسلمين عامة والعرب خاصة كانت دائمة حسنة ولا ينكر اليهود أن المسلمين وحدهم هم الذين أنقذوهم من تعصب النصارى سواء أكان في العصور القديمة أم الحديثة وسواء أكان فى بغداد والأندلس لعهد الخلفاء أم فى تركيا والشرق فى العهد الحديث — ولم يكن أحد يظن أن اليهود يفقدون رشدهم ويفقدون ذاكرتهم وينسون قرابة الدم وأواصر النسب السامى فى سبيل نهب أرض فلسطين واحياء فكرة عقيمة وهى فكرة الوطن القومى التي سودت صحيفة ارثور بلفور الذى قضى حياته وهو يدعى انه فيلسوف وأنه حر الفكر . وهكذا حيث كان يصح أن يوجد الاخاء والتسامح وحسن الضيافة والاكرام ، وجدت البغضاء والأحقاد والعداوة التى لاتزول الا اذا حققت أمانى أهل فلسطين العرب ، وقضى على وعد بلفور التعس ، وأعيدت الى العرب من مسلمين ومسيحيين حقوقهم الوطنية .

أما شرق الأردن فقد وصف الحياة فيها وصفاً دقيقاً مؤلف « عامان في عمان » وقال سياسى آخر « أن القيود الثقيلة التي ينوء بأثقالها الأمير عبد الله ، لاتشرف الانجليز كثيراً ولا قليلا — فان المجرمين فى سجون انجلترا ينالون من العطف والرحمة والعدل أكثر مما يناله أهل شرق الاردن في وطنهم »

وان الامام يحيي وان كان مستقلا ، الا أنهم قدسلبوا منه العسير أخيراً ، وهاجموه بطياراتهم الحربية منذ سنتين في حملة جوية تأديبية (؟ !!) وملأوا المنطقة المحيطة بعدن وبحدود اليمن الجنوبية بامارات وسلطنات عجيبة ، فكل شيخ قبيلة في تلك الجهات مهما قل عدد رجاله يتعاهد مع الانجليز ويربط له مرتب شهري من أربعين روبية فما فوق ، وتعقد بينه وبين حكومة انجلترا معاهدة سلم ودفاع وهجوم ويطلق عليه اسم السلطان فلان وكل هذا المجهود الشاذ جعل لخلق مقاطعات وهمية بين عدن واليمن ظاهره تأديب القبائل وباطنه الاضعاف من شأن الامام يحيي المستقل — وكل هؤلاء السلاطين أشخاص ضعفاء لاتزيد مكانتهم عن مشيخة القبائل يتلقون الأوامر من حاكم عدن ، ويقبضون المرتب من

خزينته ولا يستطيعون أن يمدوا الانجليز بالقوة عند مايحتاجونها أما الملوك الأقوياء الثلاثة يحيي وابن سعود وفيصل — فقد فكر الانجليز في ربطهم بالحلف العربى .

٣

ولم نر دولة مهتمة للحلف العربى الا العراق، ولم نجد كاتباً مشتغلا بالحلف العربى الا الأمير شكيب ارسلان . وطبيعى أن الحلف معناه ائتلاف جملة ممالك وقد ذكرت على سبيل التعيين وهي العراق والحجاز واليمن وقالوا انها نواة للعمل فى المستقبل ، وانها خميرة الحلف الى آخر ماقالوا .

وقد رأينا فعلا وفداً عراقياً مكوناً من نورى السعيد باشا وطه الهاشمى يسرع الى مصر والحجاز واليمن وقد قصد النوري باشا بلاد الحجاز وأوفد طه الى اليمن وقالوا ان طه محبوب فى تلك البلاد ومعروف للامام يحيى . وقد جاءت الأخبار من اليمن بأن الامام لم يستقبل الوفد استقبالاً رسمياً ولم يشعر أحد من أهل اليمن بمجيئهم الا بعد أن رأوهم فى الطرق يلبسون السدارة العراقية التى هي أشبه بقبعات البلغار والبشنق ولا تقى الرأس شمساً ولا مطراً بل تمتص الحرارة فيحمى وطيسها على الرأس وهي أسرع الى التلف من غيرها من أغطية الرأس ولا تفضل الطربوش ولا العمامة فى شئ وتكسب وجه لابسها شكلا منفراً وتلقى عليه ظلا من سواد وكأنها فى مجموعها غراب أسحم جاثم على جبين لابسها ، أقول رأي أهل صنعاء هذا الوفد فتساءلوا عنهم وعرفوا غايتهم . ولكن الامام الذى لايقابل أحداً فى العيد الا بعد عشرة أيام ، لم يلقهم أو أنه لقيهم ولم يدرك غايتهم من الحلف ؛ ولم يقطع معهم قولا ، لأنه حريص ، طويل الأناة ، يفضل الصبر والتأمل الطويل على التسرع والعجلة ولا يبت في أمر حتى يدرسه و يفحصه من جميع ناحياته . وهو مثلنا لا يفهم ماهو الحلف العربي ، ولا ماهو المقصود به ، و بعبارة أخرى لعل الامام جعل أذناً من طين وأخري من عجين . ولا توجد أذن أشد صمما من تلك التى لاتريد أن تسمع . فاليمن إذن بعيدة عن فكرة الحلف ، ولا بأس من احترام فكرته وتحبيذها ، والترحيب به ان وجد ، ولكن الحلف لم يوجد ولا يعرف كنهه ولا ماهيته ولا الغاية المقصودة منه . فجواب الامام على الدعوة اليه ، كجواب

اسلوب الحكيم . لاسيما وانه علم أن حكومة العراق تعاقدت مع الحكومة المصرية على تسليم المجرمين وحسن التفاهم وتبادل المودة الدولية ولم تزيدا فلا بأس ان اتفق على ذلك هو أيضاً

بقي ملك الحجاز ابن سعود ، فانه الى ٢٦ مايو سنة ١٩٣١ أي بعد حضور نوري السعيد باشا الى مصر والحجاز وعودته من الحجاز الى العراق بأسابيع وهي تلك العودة التي ختم بها رحلة الحلف العربي ، صرح في حديث لمحمد شفيق مصطفي قائلا « انني أحب من صميم قلبي أن يكون المسلمون عامة والعرب خاصة متفقين متحدين على شريطة أن يكون رائدهم في العمل المصلحة العامة الصدق والاخلاص . أما مشروع الحلف العربي فلم يحادثني فيه أحد للآن ولم أعرف عنه سوي ما أطلع عليه مسطراً في بعض الصحف » اه. كلام ملك الحجاز .

على أنه لم يكد ينتشر نبأ ذلك الحلف في الصحف الشرقية ، حتى انبرت اللادي دراموند هاي وهي كاتبة انجليزية القلم سورية الأصل والنشأة ، لها علاقات واسعة برجال الاستعمار وصدور رجال الصحافة السكسونية مفتوحة لها فنشرت في مجلة سفير الانجليزية مقالا عن الحلف العربي قالت فيه « ان الفكرة التي أخذت تختمر في أدمغة العرب هي إنشاء حلف عربي للتعاون (؟) وستكون العراق وشرق الاردن وبلاد العرب نواة لحلف عربي أكبر ، تتبعه دعاية في بلدان شمالي افريقا ترمي الى اتحاد الأجناس العربية هناك وآخر ماينتظر أن تنضم مصر الى هذا الحلف وعند ذلك يمتد من الخليج الفارسي الى طنجة .

« وتعد مدينة القاهرة في نظر المسلمين المحور الفكري للعالم الاسلامي ولما كانت تقع في مركز وسط فانهم يتطلعون اليها كعاصمة لدول الحلف العربي ومصر آخر من ينضم الى مثل هذا الاتحاد ولكن هل يتحقق هذا الحلم اللذيذ في أدمغة العرب ؟ »

طبعاً ان هذا ملخص وجيز جداً لمقال اللادي دراموند ، ولكنه مشتمل على لب الموضوع ، والغاية المقصودة منه في الوقت الذي تنشر فيه الدعوة في الشرق ، يراد الايهام في الشرق نفسه ، عن طريق مجلة انجليزية بأن الفكرة تختمر في أدمغة العرب ، أي انها ليست

آتية من الخارج ، و بطبيعة الحال ترى القارئ الانجليزى المطلع يعلم خفايا الأمر ، كما أن القارئ العامى الانجليزى لايهم أمره .

وقد كانت فكرة الدعاية هنا أوضح وأكثر دهاء ، لأن الكاتبة لم تقصر الحلف على ابن سعود وفيصل بل قالت انه سيكون نواة يضم الأجناس العربية من طنجة الى فارس وان مصر ستكون تاجاً لهذا الحلف فى النهاية .

ووصفت اللادى هذا المشروع بأنه حلم لذيذ ، وجعلت الغاية البعيدة فدي للغاية القريبة ، حتى لايعترض أحد على حلف العراق والحجاز الذى له غاية مباشرة .

ولم تتردد جريدة عربية بعد ذلك ببضعة أيام فى نشر النبذة الآتية :

« ألم نقل لكم ان المسألة ما كانت جديةقط ، وان نورى باشا السعيد ، يريد المتاجرة لوزارته بهذه الضجة ، وان الانجليز يريدون تسخير ملوك العرب لصيانة الخط الحديدى الاستعمارى المهول الذى سيمتد من حيفا الى خليج فارس » .

على أن هذا الحلف العربى الذي قامت حوله الضجة فى هذه الأيام (فبراير ومارس سنة ١٩٣١) ليس وليد اليوم ، بل ان صحف فارس تقول انه يذاع خبره و ينشر له من سنة ١٩٢٦ وروي لنا أحد الثقاة فى امور الشرقين الأدنى والوسط أنه يعلم خبره من ست سنين ، وأنه فكرة انجليزية محضة . غايتها الاستيلاء التام على جزيرة العرب لأنها مركز المواصلات بين العراق والهند ومصر وفلسطين . وبالجملة يعد الاستيلاء عليها ، بمثابة القضاء الأخير على قوة الاسلام في العالم . وقد رأينا الحلفاء بعد الحرب يهاجمون تركيا فى الاناضول ، فلما فشلوا انقلبوا يهاجمون القوة الباقية للعرب في الجزيرة .

والحلف العربى الصحيح لايكون الا بجلاء الانجليز عن تلك البلاد وترك شؤونها لأهلها يتحالفون أو يتخاصمون . أما عقد حلف في حضورهم وتحت سمعهم و بصرهم ، فهذه خرافة لم تأت بمثلها مجاميع المتيولوجيا في العالمين القديم والحديث .

٤

ان عطوفة الأمير شكيب ارسلان كاتب الشرق الأكبر ، وعالم العربية الأوحد من أعظم خدام المسألة الشرقية ، وهو منذ أربعين عاماً يعمل دائباً فى خدمة الاسلام والعرب والشرق لا ينى ولا يرقد . وله فى كل واد أثر ، وفى كل دولة خبر ، وقد طاف أنحاء العالم ينشر الدعوة الصالحة ويدعو قومه الى النهوض والكفاح . وكأنه لشدة غيرته وكثرة ماينشر ويؤلف ويدون عصبة مباركة ، فبينا هو في امريكا يدافع عن مسألة سوريا ، تراه فى الحجاز يؤدى الفريضة المقدسة ، ولا تلبث أن تقرأ خبر رحلته في الحجاز ، فاذا هو يطوف أنحاء الاندلس باحثاً منقباً في آثار الجدود ، ليعلى شأن العرب وليخلد بقلمه الرائع صحائف مجدهم . وقد كانت له وقفات نذكرها فى كل نهضة وفى كل عمل جليل . ولم يتهجم على الشرق والاسلام والعربية متهجم الا وكان له الأمير بالمرصاد يرد كيده فى نحره . ويقفه عند حده ويدفع حجته بحجة ناصعة هى الحق المبين والصدق الذي لا يأتيه الباطل من شمال أو يمين . وهو الآن راض بالنفى فى أقطار اوروبا بعيداً عن وطنه العزيز ، حيث ينشر المجلات باللغة الفرنسية لينفي عن الاسلام بعض تلك التهم التى يوجهها اليه خصومه الأغيار وأعداؤه الألداء .

هذا رأينا فى الأمير وفي جهاده ونحن مهما أوتينا من قوة فى البيان وبلاغة في الوصف وانطباع على عرفان الجميل وغريزة لاذاعة فضل الفضلاء لانملك أن نفى هذا الرجل العظيم حقه من الثناء فانه أكبر أركان النهضة الشرقية ومن أعظم أبطال الحياة القومية فى الشرق والاسلام والعرب . وليس هو وحده المهاجر المضحى بل مثله شقيقه الأمير عادل .

وهذا هو الذى دعانا الى تقدير رأيه والنظر فى كل مايقع لنا من كتبه ومباحثه .

وهاهو اليوم ينادى بالحلف العربى ، وقد نشر فكرته هذه فى صدر جريدة الشورى التي صدرت في القاهرة في العدد المؤرخ في ١١ مارس سنة ١٩٣١ والمقال غريب في بابه ونادرة من نوادر القلم . فان الأمير يستهله بقوله « بكينا حتى عمينا على أن نرى تحقيق مشروع الحلف العربى ! وأجمعنا كلنا على أنه لاحياة للعرب في هذا العصر وما يليه الا به لأنه

الوسيلة الوحيدة لصد الاستعمار الذى أنشب براثنه بقسم من بلداننا وهو يتهدد القسم الباقي منها . فاذا أنشب براثنـه بجزيرة العرب كما أنشبها بسورية والعراق وفلسطين والـكويت والبحرين وعمان وحضرموت وعدن لم يبق عربي على وجه البسيطة حراً » .

يظهر من هذه المقدمة أن الأمير كان يتحرق هو واخوانه على تحقيق الحلف العربى بين أمراء الجزيرة وملوكها ، وقد أشرنا الى فشل المساعى التى بذلها أصدقاء ابن سعود والامام يحيي لايجاد هذا الحلف فى الجزيرة نفسها .

ولـكن الحلف الذى يشير اليه الأمير فى مقاله والذى يشغل الأفـكار الآن (١٩٣١) انما هو بين الملك فيصل وبين ابن سعود . لأن انـكلترا تقصد مد سكة حديدية من العراق الى فلسطين وأنه لابد لهـا حتى يكون الخط مستقيما ولا يدور دورة طويلة من المرور بأرض الجوف ووادى السرحان التابعة لابن سعود .

وكان الأمير شكيب نفسه قد كتب في سنة ١٩١٧ مقالات عند ما كان في برلين وكانت الحرب دائرة رحاها مشتطة لظاها وحذر المسلمين والعرب من خنق الانجليز لجزيرة العرب عند ما كان الـكثيرون يرون أن كل من ناصب انجلترا العداء فهو خائن للعرب وان انتصار انجلترا هو نجاح لقضية العرب (والأمير يشير بذلك الى الفترة التى كان فيها العرب مستغرقين في محبة الانجليز وتصديق وعودهم ، والانجليز من ورائهم يعقدون المعاهدات السرية لتقسيم أوطانهم وأوطان سواهم)

وكتب الأمير فى سنة ١٩٢٦ عند ماطرد الانجليز مجاهدي سوريا من الأزرق فلجأوا الى أرض ابن سعود فقال تلك الجملة التى كادت تسير مثلا « العرب أصبحوا غرباء حتى في بواديهم » .

وقال الأمير نفسه عن هذا الخط الحديدي انه مهما يكن من منافعه المادية فالقيد اذا كان من ذهب لايخرج عن كونه قيداً وحبل المشنقة اذا كان من حرير لايخفف منه شنقاً وقال

ان خطأ كهذا اذا امتد فلا بد من أن يكون عربياً بحتاً لا انجليزياً وقد حذر من الرضى بهذا الخط الانجليزى فى الكتابات الخاصة والعامة .

هذه هي خطة الأمير شكيب حفظه الله للاسلام ذخراً منذ سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢٦ فما الذي استجد ؟

انه عندما ذاع خبر الحلف العربى ، صاح الكثيرون من المشتغلين بشؤون العرب وممن لا علاقة لهم بالمراجع الرسمية .

«لا لا ! اياكم وهذا الأمر فانه دسيسة انجليزية .»

والآن يدافع الأمير شكيب عن الحلف وينفي كونه دسيسة انجليزية قال :

« قالوا ان الحلف دسيسة انجليزية لأن المقترح له هو الملك فيصل بن الحسين ووزيره نوري السعيد . وكل منهما لايقول الا ماتقوله له انجلترا كما تقول الببـ .. (السطر ١٩ العمود الأول من جريدة الشوري العدد ٣١٥) وانجلترا اذا اقترحت حلفاً بين ملوك العرب فلا بد من أن يكون دسيسة فاقتراح ملك العراق ووزير العراق هو بلا مراء دسيسة انجليزية

«وهل من المعقول أن انجلترا تعمل لتقوية العرب ؟ فلا جرم أنه لو لم يكن شركاً للعرب لم ترض به انجلترا ويقولون : نعم هذا الحلف العربى لم يكن اقتراح الملك فيصل إياه الا بناء على اشارة انجلترا التى تريد به تأمين المواصلات البريطانية . كما أنه سيلقى عند الملك ابن سعود قبولا بواسطة أن فلبى هو فى جده — والآن صار فى مكة سيحمل الملك على قبوله ! أفاليس فلبي هو الذى يدير اليوم دفة الحجاز ونجد ؟

لقد كنا نسمع أن فلبى يفعل مايشاء في الحجاز ولا نصدق فالآن قد أثبت العيان ما طيره السماع »

هذه حجج خصوم الحلف قد لخصها الأمير فى مقاله ، ثم أخذ يرد عليها تارة باللطف وطوراً بعنف يدل على شدة اخلاصه وسلامة قلبه قال ، وقد اختط خطة جديدة وهى الظن

بأن سياسة انجلترا قد تكون هذه المرة فى مصلحة العرب وسلم جدلا بأن الحلف العربى هو تنفيذ لرغبة انجلترا ولا نريد أن نقول دسيسة انجليزية ، قال الأمير :

« من أنبأكم بأن سياسة انجلترا مبنية من أولها الى آخرها على تفريق العرب شذر مذر ؟ فالسياسة بحر لايدرك قعره والسياسة كل يوم فى شأن والسياسة تتلون بحسب الزمان والمكان والطوارئ . والعوارض فكما أن زيادة قوة العرب خطر على انجلترا فكذلك زيادة ضعف العرب في الجزيرة خطر على انجلترا فانجلترا ليست في البحر الأحمر وحدها . وهناك دول عظيمة متحفزة للوثوب فاغرة فاها للابتلاع تعد الطيارات بالألوف وتهيء الجيوش والزحوف . وما تهيئ كل ذلك لمجرد الزينة بل لأجل العمل فان بقي العرب فيما هم عليه من تخاذل وتواكل وتفرق وشحناء فقد تقتحم هذه القوة الأجنبية عورتهم وتتولج ثغرتهم وتنزل فى الجزيرة ويصعب بعدذلك قلعها » .

وحينئذ يري الأمير شكيب أنه ربما كانت سياسة انجلترا تغيرت هذه المرة ، وأن الانجليز يوعزون بالحلف لاتقاء هذا الخطر الداهم ، وهذا الخطر معلوم أنه آت من جهة ايطاليا كما هو معلوم ومشهور فالانجليز الذين لن يستطيعوا محاربة ايطاليا لأسباب دولية وسياسية واقتصادية ، قد فكروا في تقوية عرب الجزيرة أنفسهم ، ليكون هؤلاء العرب صداً للفتح الايطالى أو غيره وعلى ذلك يقول الأمير :

« فأما اذا كان ملوك الجزيرة متحالفين فقد يجوز أن يحسب المتحفز للوثوب حساباً لأن الثلاثة أقوي من الواحد ولأن الأمة العربية يومئذ تقوم كتلة واحدة في وجه المعتدي الأجنبى » .

ثم أخذ الأمير يصرف العرب عن عداوة الانجليز بلطف زائد أو يهون معاداتهم فى الظروف الحاضرة فقال :

« لاتنظروا العدو من جهة واحدة وتقولوا هو من هنا وجف القلم فقد يكون العدو من جهتين . وقد يكون أحدهما وهو الجوعان (أي ايطاليا) أشد خطراً من الآخر وهو

الشبعان (يعنى انجلترا) !

«فالانجليز لايريدون قوة العرب واستفحال دولتهم حتى يصير زمام طريق الهند في أيدى العرب . ولكن الانجليز لايريدون أن تكون جزيرة العرب لقمة سائغة يتهافت عليها الآكل الجشع فالموازنة بين القوى هي عماد سياسة الانجليز !»

ثم يعود الأمير فيذكر العرب بأخطائهم فى السياسة وقصر نظرهم فى عواقب الأمور فقال مخاطباً القاومين للحاف العربي « كذلك كنتم قبل الحرب العامة وأثناء الحرب العامة لاتنظرون العداء الا من جهة واحدة هي جهة الترك وصممتم عن كل عذل من جهة الانجليز وكان كل من حذركم من دسائس الانجليز وسوء المنقلب معهم نبزتموه بخيانة العرب وحرقتم عليه الارم .

«وكان اذا نشر الروس البلاشفة معاهدات تقسيم البلاد العثمانية ومنها بلاد العرب بين انجلترا وفرنسا وروسيا قلتم هذه دسائس أتراك وألمان وهذه الاخبار لاصحة لها . أليس كذلك ؟ فلما ظهر لكم غدر الانجليز ونكثهم لما عاهدوكم عليه ندمتم وعضضتم أناملكم وصرتم لاترون غير الانجليز عدواً وأصبحتم لاترون الخطر الا من جهة واحدة ..»

ثم بدأ الامير ينفي عن ابن سعود تهمة انصياعه لفيلبى الذي أسلم حديثا ودخل مكة وصار ملازماً لجلالته ولا يفارقه ليل نهار ويؤاكله ويصلى معه :

« وان تجرأ فيلبي أو غير فيلبى أن يزين له قضية تأمين المواصلات البريطانية على ظهر بلاده فانه يقصيه من أرضه بحيث لا يعود اليها . ثم انه يكذب ويفجر من يزعم أن فيلبى يدير دفة الحجاز ونجد ، فمن زعم ذلك فهو اما جاهل يتسقط الاخبار من أفواه العوام أو متجاهل يحسد فيلبي على حظوته لدى الملك ويقصد السوء ببطانته لهياج الرأي العام عليهم .»

وكذلك أخذ يدافع عن الملك فيصل الذى هو الطرف الثانى فى الحلف المزمع فقال :

« ان لم يكن فيصل بن الحسين بن علي الهاشمي القرشي المضري عربياً فمن العربي يا ترى ؟ أوليس هو الذي قال لرجال الدول في مؤتمر الصلح في باريز : يوم كنا ملوكا لم تكن دولة من هذه الدول العظام موجودة ! »

وملك العراق يمد يده لمعاهدة ملك الحجاز ونجد ليؤسس واياه الوحدة العربية التي يجب تأسيسها منذ الآن والا ندم جميع العرب ولات ساعة مندم ! .

ثم عطف الامير على خصوم الحلف فقال :

« فالذين من جهة ابن سعود قالوا انها دسيسة انجليزية والذين من جهة أولاد الحسين قاموا يذكرون الثارات والاحقاد . وهناك أناس عند الامام يحيي غرامهم في التخريب والتهريب ومنع كل وئام والجميع ينسون ما يحدق بجزيرة العرب من خطر الاستعمار » ويختم الامير مقاله برأيه الصريح :

« كل حلف عربي لا تكون قاعدته الاستقلال التام بكل معانيه الذى لا تشوبه أدنى شائبة للحجاز ونجد واليمن لا يجوز أن يرضى به ابن سعود ولا الامام يحيي . »

٥

فأنت ترى القارئ لهذا المقال يخرج منه حائراً ، لأن رأي الامير صريح في وجوب الاستقلال قبل الحلف . وهذا الاستقلال معدوم الآن في العراق وفي الجزيرة ما عدا اليمن والامام يحيي لا يدخل في الحلف ولا شأن له به ، ولم يطلبه أحد منه لأن السكة الحديدية المزمعة لا تمر ببلاده . فما هو وجه التطمين من ناحية الانجليز بعد أن ظهرت أعمالهم فى أثناء الحرب وبعدها . وما فائدة هذا الحلف الذي يعقد بين أمراء واقعين تحت أنيار الانجليز واستعمارهم ، وليس الرأي العام العربي وحده ضد هذا الحلف ، انما الرأى العام الشرقى كله فقد جاء فى جريدة شفق سرخ الفارسية التى تظهر فى طهران فى العدد ١٧١٧ ما نصه .

« لقد وجدت فكرة مشروع الحلف العربى فى جزيرة العرب منذ أربع سنين . وهذه الفكرة يقوم الانجليز بالقسط الأوفر من تشجيعها واخراجها الى حيز الوجود وقد

انتهت مشكلة مد خط حديد حيفا ـ بغداد . ولما كان القسم الاعظم من هـذا الخط وخط أنابيب بترول الموصل يمر من الاراضى الحجازية والمنطقة التى لم تهدأ يوماً من الأيام من غارات العرب البدو الوهابيين اضطر الانجليز الى ايجاد فـكرة الحلف العربى للمحافظة على هذين الخطين خط سكة حديد بغـداد ـ حيفا وخط أنابيب البترول من الموصـل الى حيفا ذلك الحلف المختص بالعراق وسورية ونجد والحجاز فقط بدون أن يشمل اليمن وغيرها من بلدان الجزيرة ولم يقصد الانجليز من هذا الحلف الثلاثى سوي ادخال جلالة الملك ابن السعود فيه وتقيده بقيود تضطره للمحافظة على حصته من الاراضى التي يمر فيها الخطان المذكوران وبهـذه الوسيلة يتمكن الانجليز من تأمين الطريق من تعـديات الوهابيين وغارات البدو الرحالة .

« ويظهر من سير القضية وأدوارها فى الأيام الاخيرة ان الانجليز لا يريدون أن يتظاهروا بالقضية وانما ألقوا التبعة فيها على عاتق نوري السعيد باشا رئيس وزراء العراق فأوعزوا اليه بتنفيذ هذه الفـكرة ممهدين له السبل فى الخفاء مع جلالة ابن السعود . » .

وهذ البيان صادر من ايران ، وليس من رجال ابن سعود ولا من رجال الامام يحيي ولا من حاشية الملك فيصل ، فما قول الامير شكيب فى ذلك . وهل يعقل أن مشروعاً خطيراً كهذا يقوم به أمراء العرب بدون رغبة الانجليز فضلا عن أمرهم الصريح ؟ واذا كان الغرض من الحلف ظاهراً وهو تأمين طريق حيفا ـ بغداد وأنابيب زيت الموصل ، فلمـاذا نذهب الى الجنوب ونفترض أو نتخيل أن انجلترا تريده فى مصلحة العرب ضد استعمار جديد يأتى من دولة عظمى أخرى تعد الجيوش والطيارات .

واذا كان المقصود انشاء حلف عربى تام بمعني الـكلمة فلماذا يكون بين العراق (وهي ليست من الجزيرة) وملك نجد والحجاز دون أن يكون بين جميع الامم العربية ومنها سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقا ؟؟ ..

هذه وجهة نظرنا ، نبينها ونحن نحترم عطوفة الأمير شكيب ونجله ونحبه ونثق به

كل الثقة ونعتقد ونصرح أنه لم يحرك يوماً قلمه أو لسانه الا بالصدق وفي خدمة الحق والاسلام والشرق

ولكن حبنا للأمير وثقتنا به لا يمنعنا من مناقشة آرائه فى مثل هذه المسألة الجليلة بعد أن كشف عنها الحجاب واستبانت حقيقتها .. ومتى كان الانجليز يصدقون في سياستهم مع الشرق الضعيف ؟ وهل يصدقون مع العراق وقد وصفه الامير بانه :

« أشبه برجل ضعيف يحمل كنوزاً لا يعلم الا الله قيمتها فهو محاط بلصوص يريدون اغتياله لا بغضاً بشخصه بل حباً بسلب الكنوز التى يحملها . وهذا الرجل الضعيف المنفرد ان نجا من لص وقع مع لص آخر »

ولو افترضنا صحة نظرية الامير ، من أن الانجليز يريدون تقوية العرب لصد هجمات دولة عظمي أخرى ، أفلا يكون هذا اعادة لمأساة الحرب العظمى فقد تقوى العرب وتعاهدوا مع انجلترا على خراب تركيا بأمل أنهم يفوزون باستقلالهم ، فكانت النتيجة أنهم خسروا وخربوا تركيا وصاروا مضغة في الافواه ، حتى الامير نفسه يعيب عليهم هذا ويذكرهم به ؟

الا فليعلم كل عربي و كل شرقى وكل مسلم في أنحاء البسيطه ان كل فكرة تصدر عن أوروبا فى السياسة لا يقصد منها خير للشرق ولا للعرب ولا الاسلام انما هي حبالة يقصد بها جر المغانم وسلب الكنوز والقضاء على الامم الضعيفة .

ان كل فكرة تدبرها اوروبا السياسية ، لابد أن تعود بالخراب على الشرق ، ونحن لانزال نذكر تلك النهضة التى سموها نهضة العرب وألف بسببها المرحوم نجيب العازورى كتابه الشهير « نهضة الامة العربية » باللغة الفرنسية ، فان عرب سوريا وتركيا عقدوا فى تلك الآونة مؤتمراً في باريس ، شقوا به عصا الطاعة علي الدولة العثمانية ، وكانت الجزيرة بركانا مشتعلا تقوم فيه الفتن ولم يكن المحرك لها سوي الانجليز وقد شنق معظم المساكين الذين أطاعوا فرنسا وانجلترا ، شنق بعضهم فى دمشق وبعضهم فى بيروت ، ولانزال نذكر منهم المرحوم السيد عبدالحميد الزهراوي الذى جعلوه رئيس المؤتمر وهو لايدري من السياسة شيئاً

وذهب ضحية الغواية والاوهام . لقد قيل فى تلك الفترة ان العرب قد تيقظوا وان هذه اليقظة كانت انتقاضاً على الترك وقياما فى وجههم وكانت سائر الاقطار العربية من سورية والعراق والحجاز كانت على خضوعها للحكم التركى متجهمة فى وجه الترك موغرة الصدر عليهم وذلك بفعل وسطاء انجلترا وفرنسا الذين كانوا لاجئين الى مصر وأغلبهم من السوريين والفلسطينيين الذين يعقدون اجتماعاتهم فى قهوة سبلنديدبار ، ويتناولون مرتبات من الاموال السرية الفرنسية والانجليزية . وقد أدخلوا فى روع العرب انهم أمة الرسالة المحمدية وليس من النصفة فى شئ أن يظلوا خاضعين لنير التركى الغريب الطورانى الوثنى الذى يعبد الدب الأبيض الى آخر ما اخترعوا وكذبوا وقد استعمل الفرنسيون بعض السوريين مثل نجيب عازوري الذي ألف كتاب نهضة الشعب العربى ، ومثل دكتور سمنة الذى لايزال فى باريس وكان ينشئ مجلة فرنسية ضد الاتراك وهو وسيط فرنسا وخادمها الحميم ثم استكتبوا ڤيكتور بيرار فالف كتابه عن السلطان عبدالحميد والاسلام والدول (١٩٠٧) وأخذ الدكتور شبلى شميل يكتب المقالات البليغة في الطعن على الترك وتسفيههم ويرى فى التركي مخلوقا جلفاً منغمساً فى الرخاء المادى ذالفجور ووحشية ، ولم يستطع في بحر ألف عام أن يخلق لنفسه شبح مدنية يفتخر بها بين الامم ، سوي اهراق الدماء واهلاك الجيوش ، واحتلال ممالك الشرق ، وكانت من وراء هؤلاء صحف يومية تحقد على الاتراك ، وتطعن المصريين في مطالبهم الوطنية وتشعل نيران الفتنة بين الترك والعرب وبعض أصحابها يدعون أن رؤوس آبائهم وقعت في ثورة ١٨٦٠ فهم لايغفرون للترك ذلك ولاينسون ثارات آبائهم بعد أن أثروا فى مصر بخيانة مصر وصارت لهم القناطير المقنطرة من الذهب والضياع الواسعة من الاراضى الخصبة التي أقطعهم اياها اقطاعا الرجل المسمي كرومر لأنهم كانوا سدنة هيكله (قصر الدوباره) وعباده الذين لاينون في خدمته . . وكأن بينهم وبين الشرق والاسلام ثاراً فهم أعداء لكل خير يأتى اليهما .

وقد نسب الى شريف مكة ، على لسان ڤيكتور بيرار انه قال « نكره اكراها ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة (هذا أمر ليس مشكوكاً فيه !) على حناية رؤوسنا

لهؤلاء الباشاوات الادنياء (عظماء الاتراك) الذين كان غالبهم من قبل عبدانا نصارى فلما استطاعوا بلوغ كراسي الحكم وتقلد أزمة الاعمال الا باحط الذرائع وأشين الوسائل » .

وقد أرادت الطبيعة ، وسير الامور ، ان بعض الشرفاء من العرب صاروا يطاطئون رؤوسهم لا للاتراك الذين دخلوا فى الاسلام من ألف سنة ، واعلوا شأنه بفتوحهم بل لاحط موظف أجنبي من باريس أولندن ، يتحكم فيهم ويبيعهم ويشتريهم بابخس الاثمان .

وكانت تركيا أثناء القرن التاسع عشر كلما خاضت حرباً فى اوروبا وخرجت منها متهورة عقب ذلك ثورة ينفجر بركانها أو انتقاض تشب ناره في قطر من الاقطار العربية .

٦

قلت آنفا ان سوريا كانت منشأ روح العصيان على الترك لأنها كانت أكثر الاقطار العربية تعرضاً لتلقى الروح الغربية والمؤثرات الاوربية ، ولأن لفرنسا فيها أخلافا وأحفادا يدعون انهم بقايا الصليبيين ، وينادون بفرنسا ، ويستغيثون بها ويسمونها « الام الحنون » وترجع دسائس اوروبا في سوريا الى سنة ١٨٩٥ عند تأسيس الجمعية الوطنية العربية وقد قضوا عشر سنين فى نشر دعوتهم انتشاراً غامضاً ملتبساً الى أن شبت نار الفتنة المسلحة فى الحجاز واليمن (١٩٠٥) وما زالت تلك الفتنة مشتعلة حتي تكبدت تركيا خسارة فادحة في المال والرجال وانتجت تلك الخسارة ضعفها المالي والحربى الى أن كانت كارثة الحرب البلقانية وحرب طرابلس . فخراب تركيا وضياع قطر من أهم أقطار شمال افريقا كانا النتيجة المباشرة للدعاية السورية الفرنسوية التي استهوت أهل الجزيرة البسطاء الذين قاموا فى وجه تركيا ، دولة الاسلام الوحيدة فكان خرابها وخراب أنفسهم على أيديهم .

وكان السراب الذى رسمه الساسة الاوربيون للعرب في تلك الفترة هو عين الحلف العربي الذى ينادون به اليوم فقد نشرت الجمعية الوطنية فى باريس (اقرأ وزارة خارجية فرنسا) منشوراً موجها الي الدول العظمي جاء فيه :

« ان انقلابا سلميا هائلا حادث عما قريب في تركيا (سلميا ؟ . . وماقولكم في فتنة

الحجاز واليمن المشتعلة من ١٩٠٥ والتي دامت الى سنة ١٩١١) والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين في ارهاقهم وتفريق حزمتهم تفريقا دينيا ليتسنى لهؤلاء حكمهم قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بائتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافا وطنيا وقوميا وتاريخيا وهم يرغبون الآن في الانسلاخ عن الارومة العثمانية النخرة لينشئوا لهم دولة مستقلة وهذه هي الامبراطورية العربية التي تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات الى قناة السويس ، (لم يجرؤا على ذكر مصر خوفاً من الانجليز) ومن بحر الروم حتى بحر عمان ويرأسها سلطان عربي ذو حكومة دستورية حرة (! ! !) وأما ولاية الحجاز الحالية وفيها المدينة المنورة (وقد أرادوا ايهام المسلمين بالمحافظة على الاماكن المقدسة ، وحفظوا نصيب شريف مكة الذي لم يكن يطمع في أكثر من ذلك) فيتألف منها مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكا وخليفة جميع المسلمين (! ! ؟ !) وبهذا تحل العقدة الكبرى في الاسلام وهي التفريق بين السلطتين المدنية والدينية» اه . المنشور الذي كتب بايعاز فرنسا .

وقد جاء الدستور العثماني في ١٩٠٨ محبطا لآمال اوروبا لأن جميع العناصر العثمانية وفي مقدمتهم العرب نالوا قسطهم الأوفي من الحقوق الدستورية ، ولكنهم لم يلبثوا طويلا حتى أيقظوا الفتنة النائمة حينا وأوعزوا الى العرب أن يطالبوا باللامركزية فرفض رجال تركيا الفتاة مطالبهم لأن اللامركزية معناها الاستقلال الداخلي فالانشقاق الذي كان يرمي اليه ساسة الاستعمار ، وبعد الدستور العثماني عقد مؤتمر عربي (اقرأ فرنسي سوري) في باريس وهو الذي كانت رياسته معقودة للمسكين الزهراوي الذي دفع حياته ثمنا لكرسي الرياسة على يد جمال باشا ، وكنا قد قابلناه في سنة ١٩١٠ بالاستانة وهو اذ ذاك عضو مجلس الاعيان ، ومتمتع هو ورفاقه العرب النواب في المجلسين بالكرامة والاحترام ، وينشر جريدة أسبوعية للدفاع عن حقوق العرب في شارع نوري عثمانية . وقد نجا من الشنق بعض الرجال الاذكياء الذين لم يكن لهم ضلع مع الفرنسويين أمثال صديقنا الكريم الاستاذ صاحب السعادة د.ل. رئيس ع.م. بدمشق ، فان هؤلاء كانوا يميلون الى نصرة العرب في حدود الوطنية العثمانية ولم ينضموا يوما الى أعداء الدولة الذين خانوها وهم يعلمون أو لا يعلمون .

و بعد ان أعلنت الحرب العظمى وانضمت تركيا للالمان ، عاد المستعمرون وكلهم من الحلفاء الي الخطة الأولى فاوعزوا الى شريف مكة باشعال نار الفتنة فقدح الشريف حسين زنادها وكانت بريطانيا ظهيرة تلك الثورة تمدها امداداً كبيراً عن سعة وسخاء بالمال والرجال ومن هؤلاء كولونيل لورنس الشهير الذى اطلق عليه لويد جورج لقب « ملك العرب الغير متوج » وقد نسبوا الى هذا الرجل العجائب فى الذكاء والشجاعة والفطنة واتقان اللغة العربية بجميع لهجاتها ، والقدرة على التخفي والزوغان ، ومهارة الهرب . حتى يخيل للسامع أنه أحد أبطال القصص القديم والحقيقة انه لم يكن على شيء من ذلك ، وكل أمره انه كان محملا بقناطير الذهب يوزعها ذات اليمين وذات الشمال ، ويملك زمام زعماء العرب بالاصفر الرنان ، وكل ما ينسب اليه من حذق ودهاء وسرعة خاطر وعلم واسع باللغات ، انما هو من صفات الجنيه الانجليزي جلت قدرته! وقد رأينا في قسم آخر من هذا الكتاب كيف كان أثر هذا الجنيه فى فتح مصر وفى شراء ذمم العرب لعهد بالمر المستشرق الشهير

نعم لم يكن الفعل كله لليرة والدينار ، ولم تكن خيالة القديس جورج (المرسوم على أحد وجهى الجنيه الانجليزي ، لأن العرب كانوا يرفضون استلام أى نقد سواه) هي وحدها التي كسبت القضية لجانب الحلفاء فاننا لو قلنا بذلك نكون قد هضمنا كل حقوق العرب وأنزلناهم منزلة اللصوص والخونة وقطاع الطريق الذين لايرعون إلا ولا ذمة ، بل انه كان فى هذا الهياج الجنونى ضد الترك نصيب للوعود الخلابة التى أدلى بها الحلفاء وهى وعود استقلال العرب وتقرير المصير ، ويظهر أن العرب لم يطلبوا المساعدة المادية التى كانت تنهال عليهم انهيال المطر (حتي ان الوسطاء بينهم وبين الحلفاء ، قبل الاتصال المباشر أثروا واستغنوا ومنهم قوم فى مصر لايزالون يمرحون فى ثمار خيانتهم للشرق والاسلام والعرب) بل طلبوا قطع العهود والوعود الباتة التى لا ريب فيها بأن ثورتهم هذه التي يشبون نارها سيكافأون عليها بانشاء دولة عربية. ففي ٢٥ اكتوبر سنة ١٩١٥ (وهذا تاريخ مهم يجب أن يحفظ) سلم مندوب انجلترا بمصر المدعو هنرى مكماهون أومهما يكون ، الى ممثل شريف مكة في القاهرة ، صك عهد تعهدت بموجبه بريطانيا العظمى على شريطة قيام العرب بالثورة بالاعتراف باستقلال العرب

في الامبراطورية العثمانيـة ، فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانيـة تقتضي اتخاذ تدابير مخصوصة في شأن السلطة الادارية .

(وقد قيل في ذلك الحين ان ذلك كان ينصب على ميناء البصرة ليس غير) «وأيضاً فيما عدا المناطق التي ليست بريطانيا العظمي حرة في التصرف بشؤونها تصرفاً منافيا لمصالح فرنسا » ولم يطلب ممثل شريف مكة تفسيراً لهذه الفقرة الاخيرة ، لأنه لا ريب كان داخلا في المؤامرة ضد الشرق ، وكان يتقاضى مرتباً من الوكالة الانجليزية ، ان لم يكن من الغباء والغفلة بأعظم مكان ، ولـكن الحقيقة انه كان مأجوراً على الصمت والقبول ولعـله فسر نص هذه الفقرة لمولاه بأن هذه العبارة الشاذة في صك مكماهون ، تنصب على منطقة لبنان الضيقة فتهللوا فرحا وسروراً :

قال الامير شكيب ارسلان في أحد تعاليقه القيمة على كتاب حاضر الاسلام «هؤلاء الذين آمنوا وصـدقوا وفرحوا ليسوا كل العرب ، بل ان قسما من العرب كانوا يعرفون ماوراء الاكمة وطالما نبهوا وحـذروا قومهم من الوقوع في الشرك فلم يجد تحذيرهم فتيلا ومالنا وما للتذكير بما كل أحد يعرفه فما يوم حليمة بسر » .

والحقيقة التي يشير اليها الامير شكيب ارسلان هي أن الحكومتين الفرنسوية والانجليزية قد اتفقتا على تقسيم بلاد العـرب و العراق ، أي على تقسيم تركة الدوله العثمانيـة الى مناطق نفوذ فكانت المنطقة البريطانية مشتملة على جنوب العراق عند رأس خليج العجم وكانت المنطقة الفرنسوية مشتملة على لبنان ، فبادرت وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية في عقد الوثائق والمساومات على السلع فوقعت الحكومتان في ٥ مارس سنة ١٩١٥ أي قبل صـك مكماهون بسبعة أشهر معاهدة سرية خولت فرنسا بمقتضاها حق التمتع بالتقدم على سواها في سوريا وخولت بريطانيا مثل ذلك الحق في العراق .

فلما ألح العرب في طلب العهود والوعود وهم لا يعلمون بالمعاهـدة السرية وان كان الامير شكيب يقول انه نبههم وحذرهم ، فطبخوا لهم صك مكماهون السالف الذكر .

و بعد صك مكماهون بسبعة أشهر أخرى عقدت فرنسا وانجلترا معاهدة سايكس پيكو اتفقتا بمقتضاها اتفاقا نهائيا على تقسيم الاقطار العربية فى الدولة العثمانية تقسيما قائما على أساس المعاهدة السرية التمهيدية التى أمست تشبه العقد الابتدائى فى بيع العقار ، فباتت العراق عراقاً بريطانيا وسوريا مستعمرة فرنسية لاشك فيها وكذلك اعترفوا بسلطة انجلترا فى فلسطين ونفوذ فرنسا فى سائر سوريا من حلب الى دمشق .

وبذلك أصبح صك مكماهون واستقلال العرب سراباً وحلماً مضحكا ، وكأنه شيك على بنك لايوجد به نقود باسم كاتبه un cheque sans provision

وكان قواد الانجليز لاينفكون عن اعطاء الوعود للعرب وهى مودعة في المنشورات والتصريحات التى كانوا يذيعونها مثل منشورات الجنرال مود فى العراق (مارس سنة ١٩١٧) ويروي ان هذا الجنرال مات لأنه شرب قهوة فى خيمة موبوءة بالطاعون ، وقد حذروه فأبى أن يرفض كرامة العربى ولو كان فى قبول الضيافة حتفه ، فلا ندرى ان كان رجلا كريما كهذا كان يعلم بالمعاهدات السرية أولا يعلم . ولكن بين مكارم الاخلاق وتنفيذ الخطط السياسية بونا شاسعاً جداً .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ظهرت أوزار السياسة ، وعلم العرب (الذين لم يصلهم تحذير الامير شكيب أو وصلهم ولم يؤمنوا به حيال ايمانهم بالدينار) بانهم كانوا ضحية خدعة كبرى ، وانهم أضاعوا أنفسهم وأوطانهم وضربوا بمعاول مطامعهم وجهلهم وقصر نظرهم وغرورهم الدولة الاسلامية الكبرى والعجيب أن العرب لم ينهضوا في هذه المرة بفتنة عظمى ضد الحلفاء ،ولم يغضبوا لهذا الغدر الفاجع ، وسمعوا نصيحة الامير فيصل فسكتوا طول سنة ١٩١٩ حتى دب الخور الى العزائم وسري الضعف الى القلوب ، وأقنعهم الامير بضرورة الذهاب الى مؤتمر الصلح (! !) فاوفدوه ليبسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق يحف بموقفه الوقار (وهو الموقف الذي وصفه الامير شكيب في مقالة الشورى) ولكنه للأسف لقي خيبة المسعى ! .

٢٧

١

وكان ويلسون وكامنصو ولويد جورج ، قد أحسنوا طهى مشروع الانتداب ، الذي هو كلمة حلت محل الاستعمار ، لأن الشرقيين فى زعمهم وزعم تشيرول ، يكترثون للالفاظ أكثر مما يكترثون للمعنى فاشتمل عهد عصبة الامم على بيان دال على الرفق والعطف وذلك .

« ان الاقوام المعلومة فى المادة ٢٢ من عهد العصبة التى كانت من قبل فى الحكم التركى وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أمما مستقلة استقلالا معلقاً ، عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتي يأتى يوم تصبح فيه هذه الاقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها اذ ذاك على غاربها » مثل كلام كرومر !

وكانت المعاهدات السرية قد نشرت وقرأها العرب وغير العرب وعلموا علما مكينا انه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة مواهبهم ومساعيهم وجهودهم . ومع ذلك فلم يثوروا ولم يجردوا في وجوه الذين خانوهم وغدروا بهم أقبح غدر سيفا ولا رمحا من تلك السيوف والرماح التي جردوها في وجه الاتراك من ١٩٠٥ الى سنة ١٩١٨

والعجيب أن الامير ص . ظل يؤثر المساعي السلمية على التهور فى الحرب ولو لاظهار طرف من نخوة العرب وشممهم وعلو همتهم وغضبهم للغدر ، واحتجاجهم على تلك الطعنه النجلاء التي جاءتهم من الوراء !

والانكى من هذا كله ، هو أن العرب الكرام لم يغضبوا ، ولكن فرنسا التى أخذت نصف الغنيمة غضبت شأن اللصوص عند اقتسام الغنيمة وقديما جاء في الامثال اختصم اللصوص فظهر المسروق ، وفى هذه المرة صار المثل صادقا بالانعكاس « ظهر المسروق فاختصم اللصوص » .

وقام رجال سياستهم يشنون الغارة ويدعون انهم غبنوا غبنا شديداً وانهم كانوا يطمعون في الموصل بآبار زيته الغنية التى وقعت غنيمة باردة لانجلترا (وخط أنابيب زيت الموصل هو الذى خلق فكرة الحلف العربى الجديد) وصرح موسيو ليج في مجلس نواب فرنسا ١٩١٥ بأن فرنسا لها حقوق في الشرق ترجع الى عهد الصليبيين والى الملك شارلمان !! وان محور السياسة الفرنسية هو فى البحر الابيض المتوسط قطبه الواحد في المغرب المشتمل على الجزائر وتونس ومراكش وقطبه الآخر فى المشرق المشتمل على سوريا ولبنان وفلسطين !!

وبعد ان هبطت هذه الزوبعة عاماً تقارض فيها الانجليز والفرنسيون القذف والطعن والتعيير بالطمع والجشع في بلاد الناس (!!!) وغبن الدول المحالفة (!!) اصطلحوا فى مدينة سان ريمو على اقتسام الغنيمة اقتساماً رسمياً وسيروا الجيوش الجرارة الى سوريا والعراق ، ودعوا الخواجا فينزيلوس لمشاركتهم فى احتلال القسطنطينية واعداد حملة للفتك بمصطفى كمال فى الاناضول لاقتسام آسيا الصغرى ، لتدفع البقية الباقية من الدولة العثمانية ثمن الصابح وقيمة الخمور التى شربت على موائد سان ريمو .

وكان أقصى ماقدر عليه العرب انهم أعانوا بالاتفاق استقلال سوريا وملكوا عليهم فيصلا وكان الفرنسيون قد ساقوا فلول جيوشهم وعددها ١٠٠٠٠٠ الى سوريا بقيادة الجنرال غورو المبتور الذراع وفى ١٥ يوليو سنة ١٩٢٠ (صبيحة عيد الحرية الفرنسوى) أرسل غورو الى فيصل بلاغا أخيراً وهاجه بجيش قوامه ستون ألفا فلم يحاول فيصل مقاومة حقيقية بل قاتل قتالا طفيفاً بعد أوانه وانسحب الى الصحراء . وقامت فى العراق فتنة تعب الانجليز فى اخمادها واحتل الحلفاء دار السلام وعاصمة الاسلام ، وقد روى لى أحد المصريين انه سمع من رجل تركى أثناء الحرب « ان الحلفاء ان يتمكنوا من عاصمتنا بالقتال ، ولكنهم سيدخلونها بعد الحرب بغير سلاح » وقد صحت كهانته . وفشلوا فى غاليبولى ثم احتلوا بالحيلة .

٢

وكانت الحرب هذه المرة بين الترك والعرب، فانهم أخذوا سوريا ثم العراق، وكلفوا فنزيلوس بالقضاء على الاناضول وجهزته انجلترا بالمال والسلاح فأعد جيشا صليبياً قوامه ١٠٠٠٠٠ مقاتل ولما فشل اليونان فى أول الأمر طردوا فنزيلوس وأعادوا ملكهم قسطنطين الى العرش؛ فاستمرت الحرب ومن ورائها انجلترا فهزمهم الترك شر هزيمة والقى بمعظمهم في البحر وأسر قوادهم وفي اليوم الذي تمت فيه هزيمة اليونان (سبتمبر ١٩٢٢) سقط لويد جورج وحكومته. وباء الحلفاء بالخسران وسقطوا دون أمنيتهم التى حسبوها من الهنات الهينات وعاد شيء من الوفاق بين العرب والترك بعد أن ظهر للعرب نتيجة خديعتهم وتعضيدهم للحلفاء. ولكن بعد فوات الفرصة.

وكان الكولونيل لورانس قد أراد تبييض وجهه امام العالم، فنشر بياناً جاء فيه.

« ان العرب قد ثاروا فى وجه الترك خلال الحرب العظمى ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فساداً شديداً، بل لأنهم ابتغوا نيل الحرية وراموا ادراك الاستقلال فلم يخوضوا غمار المعمعة لكى يستبدلوا سادة بسادة كأن يخضعوا لبريطانيا أو فرنسا كلا! بل لكي ينشئوا دولة عربية ».

«والحقيقة أن كل ما كان يذاع عن ظلم الترك للعرب، كان مدسوساً، ومصطنعا لصالح المستعمرين، ونحن لانقول مع بعض القائلين ان كنت مأكولا فكن أنت آكلي، ولا ان استبداد الترك أرحم من عدل الأجانب، حاشا ولكن التاريخ والحوادث المستقبلة أثبتت أن العرب كانوا مخدوعين فانه ليس من مملكة احتلها الأوربيون بعد الحرب العامة في الشرق الادنى وأتوا فيه بادارة تفوق الادارة العثمانية التى كانت قبل الحرب بل أتوا فيه بادارة تترقى الى درجة محاكاة الادارة العثمانية التى وان لم تكن المثل الأعلى فقد ثبت عند الجميع أنها كانت أعدل وأحكم وأعف وأضبط من ادارة الحلفاء فى البلدان التى جاءوا لتنظيم أمورها بزعمهم، فخدموا الاتراك بادارتهم هذه أجل خدمة من حيث لا يشعرون » ص ١٨٥

حاضر الاسلام أما ما حدث بعد ذلك فى سوريا وحرب الدروز وتخريب دمشق وجميع الحواضر السورية ، فلا يزال حاضراً في الاذهان ولا يزال أبطال الحربه السورية مشتتين فى الاقطار ، ومنهم الدكتور عبدالرحمن شهبندر الذى يقطن القاهرة وكثيرون من الذين حكم عليهم بالاعدام من السلطة الفرنسية . ولا يزال زعماء الدروز منفيين بارادتهم في الصحراء وبينهم البطل الأعظم سلطان باشا الاطرش يكابدون أنواع المشقات فى العيش بعيدين عن وطنهم فى سبيل مبادئهم . وهم على أشد أنواع التعب والشقوة يتقوتون من محصول الارض ويستمدون المعونة من المهاجرين في أمريكا ومصر ، وقد أظهر البطل الضرغام سلطان باشا من ضروب الشجاعة والاستبسال في حرب الفرنسيين ومهاجمة دباباتهم والقضاء على جيوشهم الجرارة ما جعل اسمه فى بضع سنين قرين أسماء عبد القادر الجزائرى والامير عبد الكريم

أما في العراق فقد أقر كولونيل لورنس فى بيان نشره في أغسطس سنة ١٩٢٠ بما يأتي «لقد غدونا على مقربة من الداهية الدهماء وصارت حكومتنا أسوأ وشراً من الحكومة التركية البائدة ، فان الترك قد استطاعوا أن يحكموا في البلاد ويوطدوا الاحكام بأربعة عشر ألف جندي من أهل البلاد وبقتل مائتى عربى كل سنة (في مناوشات) أما نحن (الانجليز) فاننا نحفظ جيشاً عدده تسعون ألف مقاتل تام العدة مجهزاً بالطائرات الحربية والدبابات المسلحة والسفن الحربية والقطر المصفحة وقد قتلنا نحواً من عشرة آلاف عربى فى ثورة هذا الصيف (مثل من كان الترك يقتلون في خمسين عاماً) »

وقد حدث للأمير فيصل أنه بعد أن خلع عن عرش سوريا ، قصد سويسرا حيث أقام وقتا طرق فيه أبواب عصبة الامم فلم يجد مجيباً ، فأرسل الرسل الى لندن وباريس ، فأغلقوا الابواب فى وجوههم ، وكشرت جماعة دوننج ستريت والفورين أوفيس وكي دورسى عن أنيابها ، ورمته بخيانة قضية الحلفاء اذ قبل عرش سوريا واعلان استقلالها وهو يعلم أنها أرض فرنسوية ، ولم يذكروا شيئاً من غدرهم وخيانتهم . وبعد أن قضي الأمير نحو عامين

وهو في حيرة المخلوع المقصى عن ملكه ، وتحقق لديه أنه ربما يعود الى مكة بيد فارغة والأخرى لا شيء فيها ، عاد فطرق أبواب الساسة مرة أخرى فلم يشأ كامنصو لقاءه وكذلك لما علم لويد جورج بوجوده في لندن ورغبته في لقائه بان واحتجب ، وادعى الغضب ، ثم سمح له باللقاء ، وعينوه على مضض منهم ملكا على العراق ، طمعاً في أن يكون تعيينه وسيلة لتهدئة الخواطر ، لا سيما وان لويد جورج كان التي خطابا في ١٩ سبتمبر سنة ١٩١٩ ابان انتشار الثورة المصرية جاء فيه « أن العرب قد وفوا حقاً بعهودهم وبروا بوعودهم لبريطانية العظمى فيجب علينا اذاً ان نقابل الاحسان بمثله فنفي بعهودنا ونبر بوعودنا لهم »

وقد عينوه ملكا تابعاً للانتداب البريطاني طبعاً ، وأوفدوا اليه مندوبا سامياً انجليزيا ، وسيدة أخرى اسمها ميس بيل توفيت منذ بضع سنين وكانوا يسمونها « أفعى العراق » لأنها كانت العقل المفكر واليد المنفذة . وكان ارتقاءه العرش من حظ العراق

وما زالت القلاقل قائمة قاعدة والوزارات ناهضة ساقطة حتى يومنا هذا ، وقد تخلل ذلك ثورات ، ومحاكمات ومن أفجع ما جري في العراق انتحار رئيس الوزارة السابق السعدون ، الذى قتل نفسه ، وترك مكتوبا يشرح فيه السبب وهو عجزه عن التوفيق بين الانجليز والملك ورغبات الشعب العراقى وضميره ، ويوصى ولده بالاخلاص للعرش . ويسرنا أن العراق دخلت عصبة الامم ونجحت بهمة ملكها من الانتداب

٣

وبعد أن عين الملك فيصل على عرش العراق ونودى بأبيه الحسين ملكا على الحجاز ، وبأخيه الامير عبد الله أميراً على شرق الأردن ، نهض ابن سعود وهو الملك الوهابى الوحيد فى الجزيرة العربية في سنة ١٩٢٥ وحارب الحجاز واحتل مدائنه واحدة اثر أخرى ، وفر ملك الحجاز الشيخ الى شرق الاردن بعد أن تنازل عن الملك لولده الامير علي ، فظهر فى الحجاز حزب وطني ، وتحصن الامير علي فى مكة وجده ، ولكن لم يلبث أن عجز عن المقاومة ودخل ابن سعود ظافراً الى المدينة المقدسة ، ولحق الملك علي بأبيه ثم لجأ الى أخيه فيصل . أما الملك

الشيخ وكانوا يطلقون عليه في جريدة القبلة التى كان يحررها وينشئ مقالاتها « لقب المنقذ الاعظم » فقد أخذه الانجليز معززاً مكرما الى قبرص حيث بقي بضع سنين ، يشكو الفقر فى الصحف ليكذب ماذاع عنه من أنه نقل معـه مئات ألوف الجنيهات فى أوان مختومة من المعدن .

وفى آخر سنة ١٩٣٠ ذاع نبأ وفاته فسافر أولاده على عجل الى قبرص ، وعادوا به للاستشفاء في جو بلاده وقدأقام في شرق الأردن فى ضيافة أحدأولاده حتى توفى الى رحمة الله وقد صاراثنان من أبنائه ملوكا وثالثهم أميراً فى عمان .

وهكذا انتهى الحلم العربى الذي بدأ بجمعية باريس في سنة ١٨٩٥ وانتهى باستيلاء الاوربيين على ميراث العباسيين والامويين . . وخراب تركيا . . وهم الآن يريدون الاستيلاء على موطن الاسلام ومدنهالمقدسة ، فـكانت الخطوة الاولى وربما الاخيرة أيضاً ، فـكرة الحلف العربى ، الذى يلوحون به للعرب كلما أرادوا أمراً جديداً .

ولـكنهم فى هـذه المرة لا يدعون أنهم سيؤسسون دولة عربية عظمي ، لان مواد البناء قد استولوا عليها ولا توجد ممالك « للايجار » يخدعون بها البقية الباقية من العرب الاحرار ، فهم يقولون لهم حذار من دولة أجنبية مهاجمة تعد العدد للاستيلاء عليكم من الجنوب فاتحدوا وتحالفوا لتشدوا أزرنا في الملحمة وتمكنونا من الدفاع عنـكم عند اللزوم ، أما حماية الخطوط الحديدية وأنابيب الزيت فهى شئ ثانوى .

ولعمر الحق ، ان هذهحيلة لا تنطلى والعاقل العربى هو الذى أصبح لا يصدق هذه الوعود ولا يهمه ان كان الفاتح هو انجلترا أو ايطاليا . اذا وجب عليه محاربة الجميع وعـدم الاطمئنان لأحد منهم .

فنحن نحب الأمير شكيباً ونحترمهونثنى باخلاصه وصدقه ، وتفانيه فى خدمة العرب والاسلام ، ولـكن أليس لنا من هذا الماضي كله وازع وواعظ ، ولماذا تـكون لرجال مثله يد

في تشجيع هذا الحلف أوغيره وقد ندب نفسه لخدمة الشرق والاسلام عامة ، هـل ضمن صدق الانجليز حتى يخاطر بالمجاهرة بتعضيد مشروع هو من بنات أفكارهم وهم من ورائه جادون ساعون ، واذا انقلب هذا الحلف وظهر بحقيقته وهي دسيسة جديدة للاستيلاء على جزيرة العرب والقضاء على ابن سعود أولا وعلى الامام يحيي ثانيا ، فماذا يكون العمل .. ان التحذير في كل حال أفضل وآمن عاقبة

اننى أفضل أن أموت فى محاربة خصمى مهما كان قويا على أن أضع يدى في يده ليرغمنى بعد ذلك على أن أقضي على نفسى بيدى وعلى هذا فنحن لا نحبذ الحلف العربى ، ولا نفهم هذه الأشياء قبل استقلال كل دولة استقلالا تاماً في الداخل والخارج .

٢٨

١

قد ذكرت بايجاز ظهور الشعب الاندونوسى ويحسن قبل الافاضة فى الكلام على شؤون هذا الشعب ان أبين نظام الاستعمار الهولندى فان الهولنديين هم الذين ابتدعوا فكرة الاستيلاء على بلاد الشرق بطريقة تأسيس الشركات التجارية وهى الطريقة التى سلكتها انجلترا فى الهند وأدت بها الى الاستيلاء على تلك البلاد فقد أسس الهولنديون فى فجر القرن السابع عشر المسيحى الشركة الشرقية فنجحت نجاحا عظيما وأسسوا شركة الهند الغربية فى ١٦٢١ فامتلكو غينيا الهولندية وسورنيام ودوكاب وسيلان في ١٦٥٣ وجزائر ملقه وفى ١٦٨٠ استولوا على جاوه وأسسوا بطاوي ووضعوا أيديهم على نيجاپاتام فى الهند وكوشين وسان توماس وكل ذلك في بحر القرن السابع عشر من ١٦٠٢ الى ١٦٧٥ على التقريب وكان هذا أقصى ماوصلت اليه دولتهم فى الاستعمار الشرقي . وكانت تلك الجزر والمدن والبرازخ والمضايق من أغني بلاد الدنيا بخيراتها الطبيعية .

والشعب الهولندي الذي تراه وادعًا فى بلاده ، متجملا بأرق الخصال فى العشرة والحياة البيتية كما رأيناه بالخبرة الشخصية فى لاهاى وامستردام وروتردام وليدن (وهى مقر لفيف من العلماء الأعلام في المشرقيات واللغة العربية ومقر للطباعة العربية قل أن يدانيه مقر آخر سوى ليبزيج ولكن ليدن تفوقها) هو فى الحقيقة شعب على قلة عدده من أقسى شعوب اوروبا في الاستعمار وهو من الطمع والجشع والحسد للشعوب الغنية بمكان عظيم . وفى طباع أهله جفاء نادر المثال .

وقد تجلت تلك الصفات المرذولة فى استعمارهم الذى لاغاية له الا الربح المادى من المستعمرات واستغلال الشعوب المحكومة أفظع استغلال .

ولم يكن لهم من هذا الاستعمار غاية الا إحداث الغنى للطبقات المتاجرة فى الوطن. وقد تحققت تلك الآمال الي ماوراء الخيال وجاءت الأموال تترى على تلك المدن الهابطة التى تعيش علي سواحل « الزيدرزى » و بحر الشمال

لم تكن هولاندا لتضيق بشعبها الضئيل الذى لايتجاوز خمسة ملايين (وقد كان في القرن السابع عشر عند بداية الاستعمار لايزيد عن مليون واحد) حتي يغفر له البحث عن مصرف للزائدين من أهليه . فان مساحة البلاد كبيرة بالنسبة لسكانها وقد زاد عددهم أربعة ملايين فى ثلاثة قرون على حساب ذلك الشعب الشرقي المسكين الذي يعانى الأمرين من حكم هولاندا وعدده يزيد اثنى عشرة مرة عن أهل هولاندا أنفسهم أى أن لكل هولاندى رجلا أو امرأة طفلا أو شيخاً عاملا أو عاطلا صحيحاً أو عليلا خمسة من بنى الانسان الشرقيين يعملون لاسعاده وتنمية ثروته وحفظ كيانه وهو قابع فى عقر داره وليس فى جاوا ذاتها أو فى غيرها من الجزر عدد كبير من المستعمرين الذين ضاقت بهم السبل فى وطنهم . ولكن النظام نفسه ، نظام قاس فظيع وهو يقضى بأن يقوم الزارع الجاوى أو الاندنوسي بزرع أرض المستعمر ، ثم هو يأخذ حاجته من الطعام ولكن هذه الحاجة تعطى بأشد تضييق فهو يتناول القوت الضرورى لا أكثر ولا أقل وكل ماينتج من الارض يكون للمولى الهولاندى . وليس بين هذا النظام وبين نظام الرقيق فرق فى شيء بل ان الرقيق ليطمع يوماً أن يدخل فى أسرة مولاه وقد يرثه أو يشاركه أما فى اندونوسيا فالعامل الوطنى مملوك للسيد الأجنبى وهو مملوك محتقر مبغوض ولا أمل له في شيء من خيرات هذه الحياة ولا يجد الفاتح الاوروبى الذى يريد الاستيلاء على مستعمرات هولاندا صعوبة فى ذلك لأن هولاندا بمظالمها تمهد الطريق لافلات مستعمراتها من يدها . فان كلايف الانجليزى استولى على أملاك هولاندا بسهولة تامة فى الهند ١٧٥٠ وبعده بعشرين عاماً اغتصب كونواليس جزيرة سيلان ١٧٩٥ من هولاندا ولم يجد مقاومة .

٢

ان استقراء حوال اندونوسيا الحديثة من أغرب صحف التاريخ الشرقي في الزمن الحاضر فان هذا الشعب الذى يقطن جزراً كثيرة أهمها صوماترا وجاوه وبورنيو وسيليبس وغيرها من الجزر الصغيرة التي قد تبلغ الألف عداً يقطنها شعب أسيوي عريق فى المدنيـة وكان يدين بالبوذية ، وهو يبلغ الآن ستين مليوناً تسعة أعشارهم من المسلمين وبقيتهم من البوذيين والمتنصرين على أيدى الهولنديين وللبوذيين في سورابايا معبد من أجـل وأفخم وأضخم معابد الدنيا وفيه من آثار الفنون والجمال مالايعادله الا الآثار المصرية من حيث الجمال والبهاء والرونق ، وقد نقشت عليه حياة الشعب الاندونوسى وتاريخه وعبادته وعاداته .

وقد ألف الاندونوسيون أحزاباً سياسية للخلاص من الاستعمار الهولندى . ومن هذه الأحزاب حزب « بوذى أوتاما أو النزعة الفاضلة » تأسس فى سنة ١٩٠٨ ورئيسه كوسوما اوتاياسنجى وهو محام ثم حزب شركة الاسـلام الذى تأسس سنة ١٩١٢ وهو مثل الحزب الوطنى المصرى ورئيسه عمر سعيد شكرا اميناتا . وقد كان هـذا الزعيم (شكرا اميناتا أو شكري امين) من سنة ١٩١٢ الى ١٩٢٠ يشغل مكانة كالتى كان يشغلها غاندى في الهند . ولـكن نفوذه قد هبط لأسباب كثيرة .

وفى سنة ١٩١٢ نفسها أسس اغوس سالم جمعية الشباب المسلمين وهو وكيل حزب شركة الاسلام . ومندوب اندونوسيا فى مؤتمر العمل الدولى وشاركه فى العمل السيد عبد المطلب صنهاجى . وقد بلغ عدد أعضاء حزب شركة الاسلام في إبان مجده نحو مليونين من الأعضاء ونزلوا الآن الى خمسين ألفاً .

وسبب هذا الاضمحلال الذى عرا حزب شركة الاسلام أن أحد أعضائه وهو من الشبان غير المسؤولين ، ولم يهتد أحـد لمعرفته قد دعا الى الشيوعية ووجـد آذاناً مصغية فحدثت فتن وقلاقل واضرابات واسعة النطاق ، وتعدى كثيرون على الحياة والأموال واستمرت هذه الحركة من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٣ واتهم شكري امين بالتحريض على الفتنة الشيوعية

وحكم عليه بالسجن ثمانية أشهر مع أنه لم تكن له يد فيها ولكنه ذهب ضحيتها . وقد تمكن المستعمرون من تشويه سمعته ، على الطريقة التى يلجأون اليها فى المستعمرات وهي أن ينسبوا الى الزعماء عيوباً في أخلاقهم وخروقاً فى ذممهم فينالون منهم في نظر الشعوب الساذجة ، وقديماً نسب الانجليز الى پارنل الزعيم الايرلندي اشتراكه في الجرائم السياسية وزورت عليه جريدة التيمس خطاباً نسبت صدوره منه الى الجناة فلما ظهرت براءته بجهود لاتوصف وأموال لاتقدر دبروا له مكيدة الكابتن اوشاى ولوثوا سمعته بتهمة الزنا وراح پارنل ضحية هذه التهمة ، ومات بعدها ببضعة أشهر . وهذه خطة المستعمرين في جميع أنحاء العالم . وقد أدى مثل هذه الخطة الى اضمحلال حزب الشركة الاسلامية وهبوط مركز رئيسها . وكانت نتيجة ذلك أن انشق الحزب الى قسمين أحمر شيوعى وأبيض اسلامى ودب الخلاف بين أعضائه . وفى سنة ١٩٢٥ حاول بعض الشبان تجديده وأطلقوا عليه اسم « حزب الشركة الاسلامية » .

وفي سنة ١٩٢٦ ظهرت حركة شيوعية أخري بقيادة الشاب المهندس شمعون وحصلت اضرابات فى جميع أنحاء البلاد وقبض على شمعون ونفي الى هولاندا ، وخير بين البقاء فيها بمرتب وبين الخروج منها دون أن يعود الى وطنه . ولا يعلم أحد الى الآن مقره

وفى سنة ١٩٢٦ نهض الشاب شوكارنو وهواندنوسى مسلم وله نفوذ عظيم . وقد ملك قلوب الجماهير بفصاحته واخلاصه واقدامه .

وقد ضم كلمة الأحزاب وعقد مؤتمراً أثبت به اتحاد الأحزاب واجماعهم على سياسة واحدة . وقد عمل على تخليص ألف وخمسمائة من الاندنوسيين الذين نفوا الى غينا الجديدة بسبب الفتنة الشيوعية فى سنة ١٩٢٣ فى بلدة دوجل . ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح وفي سنة ١٩٢٦ ألف سوكارتو حزباً جديداً وما زال يعمل الى سنة ١٩٢٩ فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ وهو يوم تاريخي ألقي القبض على أربعة من الزعماء وفي مقدمتهم سوكارتو وقد دخل عليه رجال البوليس فى غرفة نومه . وساقوه الى السجن بعد أن فتشوا

امرأته التى كانت بثياب النوم . وبقي فى السجن الى محاكمته وقد دامت أكثر من ستين جلسة وفى نهايتها حكم عليه فى ديسمبر سنة ١٩٣٠ بالسجن أربع سنوات هو ومن معه . ولا يزال الاستئناف معلقاً وفى أثناء محاكمته شهدله موظفان هولانديان من أكابرهم وفي ختام شهادتهما صافحاه ، فقامت عليهما قيامة الصحف الاستعمارية التى كان مندوبوها يشهدون المحاكمة وطلبوا عزلهما .

وفي تلك المدة كتب الدكتور صوماتا وهو زعيم آخر مقالا فى جريدته يقول « أمكة أم دوجل » ودوجل هى معتقل المذنبين السياسيين وهو يقدسها ويفضلها على الكعبة . لان المسلمين يذهبون الى الكعبة فيدفعون ضرائب ونقوداً ، أما دوجل فهى مأوى الأحرار الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل وطنهم وقد جن ثلثهم ومات ثلثهم رغم أنفه ، وبقى الثلث الآخر بين الهلاك والرحمة .

وقد غضب جماعة الشركة الاسلامية لهذه المقارنة وهذا التفضيل ، ويظهر أن هذه المقالة بداية نزوع البلاد الى العصبية الجنسية دون العصبية الدينية وظهور فكرة الوطنية فوق فكرة الجامعة التى أساسها المعتقد .

أما عدد الهولانديين فى اندونوسيا فلا يتجاوز ١٥٠ ألفاً بين موظفين وتجار وقاطنين عدا عن جيش عدد جنوده ٣٥٠٠٠ تام العدد والعدد وأسطول صغير من السفن الحربية التى تجوس خلال الجزر .

ومن الهولانديين احرار كما هى العادة يعطفون على الاندنوسيين ويدافعون عنهم ومنهم من ينصح لدولته بالتخلى عن البلاد ولكن هؤلاء واولئك زينة وديباجة وحلية ، فى كل دولة استعمارية ولعلهم يقولون بهذا ماداموا بعيدين عن السلطة حتى اذا بلغوها انقلبوا أشد وأفظع من المحافظين الذين يطعنون على حكومتهم الآن .

٣

وفى جاوه جالية كبيرة من العرب أهل حضرموت وهو صقع فى شرقي اليمن كثير الجبال كثير الوديان وبه مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند . وهؤلاء الحضارمة أشبه الناس بالاروام بل هم أروام الشرق من حيث البراعة فى التجارة والحصول على الاموال بطرق عجيبة قوامها الاقتصاد الشديد وحيثما أقاموا كانوا أغني الناس وتعرف أسماءهم بتقديم لفظة «با» عليها فيقال باجنيد و بازرعة وغيرهما . وفى سنجابور وجوه أسر من هؤلاء الحضارمة بلغت ثروتها عشرات الملايين من الروبيات وقد يكون أعظمهم ثروة من الاميين الذين لا يدرون القراءة والكتابة . ولهم قصور ومتاع و بساتين يعجز اللسان عن وصفها بمحتوياتها الفخمة الثمينة . ويملك بعضهم ثلث البلد أو نصفها وفى الاحوال العادية يكون نحو ٣٠٠ عمارة من أملاكهم خالية فمابالك بالمشغول ! وجاء أحدهم بسبعين روبية في كيسه منذ خمسين عاما فاذا هو الآن قابض على زمام الحركة التجارية الشرقية فى الهند والصين وسنجابورة وجاوه وستريت ستلمنت وغيرها وتقدر ثروته بالملايين ومن هؤلاء من قال عنهم الامير شكيب ارسلان فى ص ٧ من كتابه « سر تأخر المسلمين »

« ويقال ان العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الاجناس التي تساكنهم حتى من الانجليز أنفسهم بالنسبة الى العدد »

ولكن يظهر لنا ان هؤلاء العرب قد انحصر همهم وهمتهم فى جمع المال لاولادهم وأحفادهم دون أن يعملوا على ترقية شؤونهم فقد علمنا انهم يبنون قصوراً فخمة في عاصمة بلادهم حيث يعيش أهلهم فى رغد من العيش كما يعيش أهل المهاجرين من سوريا ولبنان فى وطنهم على أرزاق أقاربهم التى يحصلون عليها فى المهجر ، وقيل ان هذه القصور نادرة المثال فى بلاد العرب . ولكن لم يحاول أحدهم ترقية شؤون المسلمين كأنهم بمعزل عن الحياة السياسية والاجتماعية والادبية التى لها الشأن الأعظم فى العالم المتحضر ، وكأن حضرموت «وطن قومي» حصل عليه الحضارمة بغير وعد بلفور ! والعرب الحضارمة يرجعون فى أنسابهم الى ثلاث

فصائل عرب عدنانيون وهم السادة الحسينيون وعرب قحطانيون ينتمون الى عدة أفخاذ من قبائل العرب التميميين والنهديين والجعديين وغيرهم . وفصيلة ثالثة بعضها عرب تهاونوا فى حفظ أنسابهم فنسوها وبعضها خليط من موالى الفرس والهند ورقيق الحبشة والسودان وهذه الفصيلة يصفها الحضارمة « بالضعفاء » و« المساكين » ولكل فصيلة من الفصائل الثلاث وظيفة معينة فى حضرموت ، كأنهم طبقات كالتي تعيش فى الهند caste

(١) السادة الحسينيون وظيفتهم دينية بحتة يقيمون الصلاة و يعمرون المساجد ويلقنون المعتقدات و يمارسون العبادات وهم بمثابة الكهنة وهذه ارستوقراطية دينية .

(٢) قبائل العرب التى تتكون منها الطبقة أوالفصيلة الثانية وظيفتها الحراسة وحماية الاهالى وادارة القري والاعمال الحكومية وهى أشبه بطبقة الحكام المسؤولة عن الامن والنظام وحسن الادارة وهى تشمل طبقة الارستوقراطية الحاكمة

(٣) أما طبقة الضعفاء فهى اليد العاملة الامية ومنهم التاجر والصانع والزارع والجعيل وهم مصدر الثروة وعليهم تتوقف عمارة البلاد فهم طبقة العمال والعمود الفقرى للأمة ، بل هم سواد الامة وذخيرتها ومع ذلك فهم أقل الطبقات احتراما لجهل أصولهم وكونهم خليطا من أمم وقبائل شتى .

فانت تري أهل حضرموت يعيشون الى الآن فى نظام اجتماعى سابق للتاريخ ، بالنسبة للحالة الاجتماعية الحاضرة ، وأقرب الى العصور الأولى منه الى هذا العصر وأشبه الاشياء بما كانت عليه مصر في عهد الاسر المالكة ، وما عليه الهند في وقتنا الحاضر وهو نظام « الكاست »

ففصيلة السادة العليا هي ذات الوجاهة والمكانة

وفصيلة القبائل متوسطة فى المكانة والمركز

وفصيلة الضعفاء هى المنحطة النازلة

وهؤلاء السادة أو الهاشميون أهل الفصيلة أو الطبقة الأولى يعتقدون أنفسهم أرقي انسانية من مجاوريهم وان أرواحهم تلطفت وتطهرت بما تسلسل فيها من التهذيب فى البيوت المجيدة أحقابا وأجيالا طويلة فهم ناس ولكنهم قريبون من الملائكة !

وترى ان الطبقتين الاخيرتين تعتقدان هذا الاعتقاد فيهم ولايرون في ذلك حرجا ، لأن الطبقة الثانية تعتقد هذا الاعتقاد فى نفسها بالنسبة للطبقة الثالثة وقد عاش الحضارمة في بلادهم على هذا النظام دهوراً طويلة لايعرف أولها . ولم يحاول أحد منهم الخروج عليه أوتبديله بسواه.

فلما هاجروا الى جزائر الهند الشرقية وتغير وسطهم وبيئتهم وعاشوا فى جو غير جو جزيرة العرب وتبارت الهمم تنبهت العواطف فى بعض الاشخاص الذين كانت قوتهم كامنة واشرأبت أعناق الضعفاء وتطلعت نفوسهم للمساواة والوقوف من العظماء والسادة موقف الانداد . وهذه حركة تشبه نهوض الانجاس في الهند

وقد رأي بعض النجباء من طبقة الضعفاء ان هذا التقسيم مخالف للطبيعة والمدنية وان عهد العظمة الموروثة والتمجد قد زال وتلاشى وان في الخضوع لاراء المحافظين مذلة وهوانا وظلما لايرضاه الله ولاترضاه الانسانية وانهم ان رضوا بهذا التفضيل في حضرموت فذلك لانهم كانوا يجهلون حقوقهم أو يفرطون فيها ولكن هجرتهم الى الجزائر فتحت أعينهم وفتقت أذهانهم وجعلتهم يحتكون بالامم الراقية من اوروبية وغيرها ممن لايخضعون لتلك القواعد القاسية الاستبدادية وقد وجدوا سنداً في الاسلام الذي سوي بين المسلمين ولم يفضل أحداً على أحد الا بالتقوى والعلم ومكارم الاخلاق . ورأوا من أحوال الامم أن القوانين الدولية تكفل الحرية والمساواة وصيانة الحقوق . وان أعظم الاغنياء والعلماء والساسة نشأوا من طبقة الفقراء وشقوا لانفسهم سبيلا بجهودهم وذكائهم ولم يعترضهم أحد .

ولكن الطبقتين العاليتين تمسكتا بوجوب النظام البالى ، وبقاء القديم على قدمه وان كل فرد يقف عند حده وان المساواة تؤدى الى انهيار العظمة الموروثة فتنهار حياة الشعب

وان تقسيم الشعب طبقات سنة من سنن الكون من خالفها انحط الى الدرك الاسفل .

و بالجملة قام بينهما نزاع كالذى قام فى أول عهد رومه بين الباتريسيان والپلبيان وأدى الى ثورة الپلبيان وهجرتهم من المدينة .

وعلى مبادئ الديموقراطية أو المساواة أسس الضعفاء جمعية الاصلاح والارشاد بجاوة وصاروا يعرفون بالارشاديين كما ان خصومهم يعرفون بالعلويين أو الاشراف أو السادة وتراهم حزبين متناظرين بل عدوين متحاربين وقد يخطئ الضعفاء المنضمون الى جمعية الارشاد اذا ظنوا أنفسهم في مستوى واحد مع غيرهم من أهل الفضل وأنكروا على الناس فضلهم ، ويخطئ السادة العلويون اذا أرادوا المتاجرة بمجد الاجداد فيدوسون على رقاب الناس لمجرد المجد التالد والشرف القديم . وأغرب من ذلك انهم يريدون أن يكونوا مقدمين على أرباب الفضائل والتقوى ممن ليس لاجدادهم مجد وهناك فريق ثالث من العرب بقي بمعزل عن الخصمين رأي الفتنة مشتعلة فابتعد عنها واتقى نارها وقد سعى فريق فى الوفاق والوئام فآب بالخيبة والفشل (١)

هذه هي حال الحضارمة في الجزائر الشرقية وقد بلغنا ممن زار هذه البلاد ان أحد أهل الطبقة الثانية بلغت ثروته اثني عشر مليون روبية فخطب احدي بنات السادة العلويين فرفض طلبه فاستفتي أحد العلماء فافتى بجواز الزواج عند رضاء الاهل فقامت قيامة الطبقة كلها وحدثت حوادث عظيمة الشأن وانفقت أموال طائلة فى هذا السبيل وتضاءلت مأساة روميو وچوليت بجانب هذه المأساة القومية فان الرفيع يتزوج بنت الوضيع ولكن الوضيع لايتطلع الى نسب الطبقة العليا . وكلما نشب خلاف اشتري كل فريق أسلحة وذخيرة وأرسل بها الى «الوطن القومي» ليتحارب أتباع كل فريق مع أتباع الفريق الآخر — يختلف المهاجرون فيما بينهم فى الجزر الشرقية وأهلهم وعشائرهم وقبائلهم تسوي الحساب فيما بينها فى صحراء العرب فتأمل !

وقد مضى على الحضارمة فى چاوه نحو ٤٠٠ سنة وفتح أهل جاوه للحضارمة منازلهم

(١) علمنا أثناء الطبع أن هدنة عقدت بينهما مقدمة للصلح فنتمنى اتمامه .

وصناديقهم وزوجات الحضارمة كلهن جاويات وليس في منزل أحد من أهل جاوة سيدة عربية حتى ولابنت صباغ . وهذه كبرياء من الحضارمة وتنفيذ لمذهبهم القائل بأن الرفيع يتزوج من بنت الوضيع ولكن ليس لهذا أن يتطلع الى مصاهرته فهم أيضاً ينظرون بعين المقت والاحتقار لاهل البلاد الاصلاء .

وحب هؤلاء الحضارمة للمال عجيب فهم يكنزونه ويقولون انه ذخر الدنيا والآخرة ويتمثلون بقول الشاعر الفارسى :

« أيها المال ! لست ربا معبوداً . ولكنك قاضى الحاجات وستَّار العيوب ! »

فتراهم يقتلون أنفسهم للحصول على الدرهم والدينار لسجنهما مع أمثالها في ظلمات الخزائن والصناديق ، أوفي جوارب سوداء حالكة كعجائز فرنسا حتى اذا ما مات الرجل تقاسمها أولاده الجهلاء فبذروها ومزقوها في أنواع الملاهي والفساد . ومع ما هم عليه من الثروة الطائلة لم يتبرع هؤلاء العرب المهاجرون فى الشرق الاقصى بشئ من المال لاصلاح جاليتهم فلم يؤسسوا مدرسة ولامستشفى ولا داراً لضيافة الغرباء بل غرسوا بذور الشقاق والبغضاء .

وترى هؤلاء الاغنياء أنفسهم يصرخون بطلب النهضة والسعي الى الخير والتعطش الى العلم ولكن حبهم للمال وتعشقهم اياه وتعطشهم لخزنه أكثر من حبهم العلم والتعليم ومواساة البائسين .

فهم يحبون العلم والتعليم مادام الامر لايقتضى خروج المال من جيوبهم ويحبون النهضة مادامت لاتمس خزائنهم ومادامت مقصورة علي الكلام فى المجالس، يحبون البر ولكن لاينفقون مما أحبوا وهو الاصفر الرنان .

وقد أنشأ السادة العلويون جريدة الاقبال لتدافع عن نظريتهم كما أسس الضعفاء جريدة الارشاد لتنصرهم في قضيتهم على ان الخلاف بين العرب لايهمنا بقدر مايهمنا نهوض أهل البلاد أنفسهم فانهم بانضمامهم الى الامم الشرقية الناهضة يكونون قوة لايستهان بها .

خاتمة

يقوم بعض فضلاء المسلمين المحبين للاصلاح في بعض ممالك أوروبا بنشر كتب ومجلات وصحف باللغات الاوروبية وينفقون عليها من أموالهم ويقفون عليها أعمارهم الغالية ووقتهم النفيس ويبذلون علمهم ومعرفتهم وأدبهم فى سبيل الدعوة للاسلام والشرق . وهو عمل محمود فى ذاته من حيث فيه رغبة فى تنوير الأمم الاوروبية في احوال الشرق الاسلامى ورفع الغشاوة عن أبصارهم . مع أن الشرق لا ينهض الا بجهوده .

وهذه فكرة أو نوع من الجهاد قد فات أوانه ، وأصبح عملا غير مجد فى حالة العالم الحاضرة .لان الخير والمجد والقوة لا تأتى من الخارج

فقد كانت الفكرة الشائعة فى القرن التاسع عشر ، بخصوص استعمار اوروبا أن الاعتداء الواقع على الشرق الاسلامى وغيره انما هو فعل الحكومات الاوربية وان تلك الحكومات تعمل مستقلة عن شعوبها . وانه اذا علمت الشعوب بحقيقة الامور فى الشرق فانها تغضب وتحنق على حكوماتها وتهزها النخوة الانسانية فتقف عثرة فى سبيل مضى تلك الحكومات فى سبيل استعمار الشرق وارهاقه . ولذا كانت دعوتنا موجهة الى الاحرار من أهل تلك البلاد ظناً منا أن التقسيم السياسي الذي يبدو في مجالسها النيابية وينعكس فى صحفهم هو شامل أيضاً لسياستهم الخارجية . وتوهما من زعمائنا ان أوروبا منصفة وعادلة !!

ولذا بدأ المرحوم مصطفى كامل أعماله السياسية في فرنسا بالخطابة في المنتديات الاوروبية وقدم صورة لمجلس النواب الفرنسي تمثل أسر مصر وتضورها ألماً من ظلم الاحتلال وانها في بلواها ملتجأة لفرنسا ، وشفع تلك الصورة المؤثرة بعريضة تشمل مطالب المصريين وأمانيهم . ولو أطلع على المعاهدات السرية لعدل عن ذلك .

وقد دامت هذه الفكرة في نفس المجاهد الشاب وكل من التفوا حوله حتى كانت سنة ١٩٠٤ فاتحدت فرنسا وانجلترا واتفقتا على تسوية مسائل الشرق الأقصي والأدني فذهبت آمالنا فى فرنسا أدراج الرياح . وما زال الاحرار فى اوروبا يتقربون الى المجاهدين منا و يظهرون رغبتهم فى خدمة مسألتنا ونحن نصدقهم ونظن أنهم جادون ، والحقيقة أنهم كانوا يتخذون من المسألة المصرية سلاحاً لمحاربة حكوماتهم . حتى اذا تولى الاحرار الحكم كما حدث في سنة ١٩٠٥ بعد سقوط وزارة بلفور المحافظة لم تكن حكومتهم أرحم بنا من سابقتها بل ان حادثة دنشواي الفظيعة المهولة حدثت في يونيو سنة ١٩٠٦ بعد أن مضى على حكم الاحرار في انجلترا سبعة أشهر . وأخيراً لجأنا الى العمال . وخطب زعيمهم كيرهاردى في مؤتمر جنيف سنة ١٩٠٩ خطبة رسمية أيد فيها سياسة اللورد كرومر واستشهد بنبذ طويلة من تقاريره

ولما أن احتككنا بتلك الشعوب بنفسنا وجدنا أنهم يعلمون من شؤون الشرق والاسلام ما لا نعلم وانهم كلهم متفقون على أكلنا وهضمنا ولا فرق فى ذلك بين محافظ وحر وعامل . وان افراد الشعب أنفسهم ليسوا فى حاجة الى التنور وانهم موافقون لحكوماتهم فى ابتلاعنا لأن المسألة اقتصادية وهم يرغبون فى الحصول على ثروة الشرق .

ولم يكن علماؤهم بأقل من ساستهم جشعا وطمعا. فقد حدث فى سنة ١٩١٠ ان أحد اخواني كتب في جريدة اللواء مقالا يثنى فيه على شاب جزائري اسمه ابن على فخار كان دكتوراً في الحقوق ، وأشار صاحبى من طرف خفي الى حالة الجزائر و بؤسها وجهلها وضياع حقوقها . فدب الرعب الشديد فى قلب فخار هذا لأنه كان يعمل موظفاً فى بلدية ليون وهرول الى أحد أساتذة الحقوق فى الجامعة وهو من أساطين الاحرار الذين دافعوا عن مصر وضحوا بمراكزهم في سبيلها وفى سبيل كرامته ، وشكاله الكاتب وكان جديراً بشكره ، او تنبيهه بلطف ، فانحى الاستاذ الفرنسى العالم على صاحبى باللائمة وأنبه وعنفه وقال له « ان كنت ياصاحبى تحب أن تستبقى صداقتى ، فاترك لنا شمال أفريقيتنا ، ودافع عن مصرك مابدالك اترك لنا تونسنا وجزائرنا، واقصر همك على وطنك . فليس بينكم و بين الجزائر رابطة! »

وعبثا حاول صاحبي أن يفهم الاستاذ أنه لم ينل شمال أفريقيا بسوء وانه لم يهاجم الحكم الفرنسي ، ولم يفهم كيف يحب أستاذه الحرية لمصر والعبودية للجزائر !

وتكلم صاحبي هذا مع استاذ حقوق آخر هو الاستاذ پول پيك أستاذ تشريع العمال في جامعة ليون ، فذكر الجزائر وتونس فقال له الاستاذ مانصه :

« أرجوك أن تترك تونس جانباً فانني أفكر في أن أرحل اليها لا قضي البقية الباقية من عمري بعد احالتي على المعاش لان لى فيها قطعة أرض وبيتا صغيرا . »

فهذا الاستاذ الجليل ، صاحب المؤلفات الكبيرة والمباحث الواسعة وتلميذ ليون بورچواه الذي يرمي الى تحرير العمال والتخفيف عنهم يريد بقاء أمة في قيود الاسر لانه ينوي أن يقضي اجازة آخر العمر في أرضها . . وكان الافضل له أن يختم حياته المباركة في نيس أومونتكارلو أو كان وهي بحكم مناخها أفضل له من مناخ أفريقيا .

ولكنه في فرنسا يعيش كبقية الناس وانما في أفريقيا يعيش عيشة السيد الآمر الناهي .

وهكذا قل عن الانجليز في الهند وغيرها من بلاد الشرق الاسلامي وغير الاسلامي . فهم يعلمون حضارتهم الماضية ويعلمون المظالم الواقعة عليهم حالا . ولكنهم لا يحركون ساكنا لأنهم يريدون الاستعمار والاستغلال فقط

فمن العبث اذن أن نكتب لهم بلغتهم كتباً أو مجلات أو صحفاً نخبرهم عن حقيقة الاسلام والشرق فانهم يضحكون منا في اكمام ثيابهم ، واذا تظاهروا بالاكتراث لنا انما يكون ذلك من قبيل المجاملة لا من الاخلاص .. وانهم لينظرون شزراً الى كل شرقي نابه نابغ يريد خيراً ببلاده فان لم يتمكنوا من القضاء عليه في وطنه بشتي الوسائل التي يملكونها أرسلوا عليه دعاية كالافعى المتشعبة الالسن تتهمه في شرفه وذمته ودينه وعرضه واخلاصه حتى يسقطوا هيبته في نظر شعبه discrédit وأقل ما يصمونه به وصمة الدجل والاحتيال والمتاجرة بالدين أو بالوطن . وهم يكذبون ويعلمون أن الكذب يترك دائما أثراً مهما حاربه المكذبون

المكذوب فى حقه ولا سيما في بلاد الشرق الجاهلة التي تذهب عقول أهلها مع كل ريح وتتجه في أحوالها اتجاه الاهواء بغير ثبات ولا رصانة .

قل لى بربك من يعرف عن الاسلام والمسلمين عشر معشار ما يعرفه نولد كه وهير جر ونجيبة وويلها وزن وكيتاني ومرغايوث وبرتلميه سانت هيلير وأرنست رينان وهيوار وسنتلانا ونالينو وبالمر وعشرات مثالهم ممن أتقنوا العربية وعلوم الفقه وقرأوا القرآن وتبحروا في الادب والتاريخ العربي . . وكانوا عند اللزوم أدوات للاستعمار الاوربى فى بلاد الشرق فظهر أن علمهم كان سلاحا لمحاربة الشرق والاسلام . وهم قبل أن يعملوا للاستعمار نشروا ضد الاسلام دعاية من أقسى ما نشر فى العالم ما عدا نفرا منهم تنزهت نفوسهم وأقلامهم عن الأذى أمثال المرحوم أدوارد براون ولذا كان مبغوضاً من قومه غير مموق بعين الاعتبار . على أن مثله قد كان يخدم الانسانية بالتوفيق بين الشرق والغرب

وقد روي فاضل تونسى أنه عند ما نالت بلاد تونس نظامها النيابى الاول انتحل أحد الفرنسيين الاسلام وأخذ ينشر بين المسلمين آراء ضد الدستور ويخدعهم بأن نظام البرلمان نظام مخالف للاسلام وانه ثمرة من ثمار الكفار وانه اعتراض على ارادة الله ، لان الله أمر بطاعته وطاعة رسوله وأولى الامر ، والبرلمان أو النظام النيابى يأمر بمخالفة ولى الامر ومحاسبته .. وظاهر ما فى قوله من المغالطة المقصودة .

وأسلم فرنسى آخر واتخذ لنفسه اسم سيدى عمر ، وكان يغشى مجالس الأشراف فى بعض المدن المحصنة ، فلما دخلت فرنسا تونس ظهر فى ثوبه الرسمى فاذا هو رئيس أركان حرب الجيش المهاجم وقد وضع خطة الحرب كلها ورسم الخرائط المطلوبة فى الفترة التى كان فيها منتحلا الاسلام . وكان كلا هذين الفرنسويين يتقنان العربية ويتقنان الصلاة ! !

فنحن فريسة للامم الاوروبية التى تحاربنا حروبا ظاهرة وحروبا باطنة وتستعمل كل سلاح فى هلا كنا ولا تراعي فى ذلك ضميرا ولا شرفاً ولا ذمة ولا إلا .

وقد قال أحد المصلحين وهو يتألم : ان بعض المسلمين قد أصابهم العمى الى درجة

غريبة فان خطباء المساجد كانوا الى عهد قريب يخطبون ويقولون « اللهم اجعل بلادهم وأموالهم ونساءهم وأولادهم حلالا لنا أوملكا لنا،اللهم انصر ... اللهم اخذل .. »

وكانت قد مضت أجيال والآية معكوسة ، فكانت بلاد المسلمين وأموال المسلمين وثروة المسلمين وكنوزهم حلالا للاوروبيين وكأن الدعاء كان معكوساً فكانت الاجابة سلبية أيضاً فكان النصر للغرب والانكسار للشرق. وكانت السيادة لاوروبا والهزيمة والعبودية للعرب والمسلمين وطالما دعونا أوروبا للوفاق والوئام ولا نزال ندعوها .

وهكذا ما زلنا نحن نتعلق بالقشور ، ونتمسك بالشكل وغيرنا يهتم باللب ويكترث للجوهر . ولو أن أوروبا صافحتنا لمددنا لها يد المحبة .

وقد جعلوا بلادنا ميادين لتجاربهم وهم آمنون . فقد جرب الفرنسيون أنواعاً من الحكم فى مستعمراتهم الشرقية فقد حكموا الجزائر حكم الجبروت وأخذوها بالشدة ولم يأمنوا جانبها مطلقا على قلة عدد أهل الجزائر لانهم وجدوا مقاومة وعنفاً وحربا وقد فنيت جيوش فرنسية بأسرها في تلك البلاد ولم تكن فرنسا بعد قد امتلكت شيئاً من مستعمرات أفريقيا لتجند رجالها فى محاربة الجزائر فأهرقت دماء أبنائها في سبيلها .

وكانت فرنسا تنسج على منوال الامم الاوربية فى الشرق . ولكن عند ما احتلت فرنسا تونس لم تشأ أن تطبق فيها سياسة العنف وأبقت القديم على قدمه لما أنسته من ليونة عريكة بعض الحكام والمحكومين في ذلك القطر الغنى الميال بفطرته للسكون والدعة فلم تبذل دماء أبنائها ولم تخسر الأموال الطائلة وكانت طريقة الفتح التونسى على وتيرة الاحتلال الاوروبى الحديث فى الشرق فبقيت الحكومة الوطنية على حالها وحكمت فرنسا بواسطة قصر الباى ووزرائه ، والمحرك للسياسة والادارة هو المقيم العام الذى يعمل من وراء ستار ويعرض الحكومة الوطنية لمقت الامة ولا يظهر يده الا نادراً وعند الحاجة القصوى .

وقد شبه بعض ساسة العالم حكم بعض المستعمرين فى الشرق بداء السل البطىء ينتاب البدن ويعمل فيه رويداً رويداً حتى يقضي عليه ويكاد المريض لا يشعر .

فى حين أن الاستعمار الفرنسى فى أول أمره كان كالوباء الاسود ينزل بالجسم فينهكه ثم يهلكه في عشية وضحاها .ولو شاءت اوروبا لا تحدت مع الشرق لخير الجميع .

فوجب إذن والحالة هذه أن هؤلاء العلماء والعظماء والنجباء الذين ينفقون أموالهم وعلمهم لتنوير أوروبا أن يوفروا هذا المجهود ويبذلوه فى تنوير أممهم فان أمم الشرق العربى أحق في بالتنوير في تاريخهم وماضيهم وفى رسم خطة للمستقبل بعد درس حاضرهم ، وهم أجدر بالتعليم من أوروبا المتعلمة وياحبذا لو انفق هذا المجهود في تأليف عصبة أمم شرقية وغربية

فان فى الشرق كنوزاً من الحمية والعاطفة والحماسة ، وهذه يجب السيطرة عليها وتوجيهها فى أقوم السبل بدلا من بذل القوى الطاهرة فى تدوين ما يضحك منه بعض سفهاء أوروبا الذين يكرهون الاسلام والمسلمين ويتمنون زوالهم من الوجود ، وأفضلهم يعتبر الاسلام فى أفريقا قنطرة بين الوثنية والمسيحية كأنه المطهر أو الاعراف الذي ورد ذكره فى جحيم دانتى ونعيمه. فانه لا يسهل على الوطنى الوثنى من أفريقا أو من آسيا أن يتنصر مباشرة بل يجب عليه أن يمر أولا بالاسلام ليخلص من أدران الوثنية ثم يترقي ليصل الى حياض المسيحية السمحاء. هذا رأي فضلائهم . فما بالك برأى سفهائهم ؟

ان اوروبا التى أنجبت فطاحل القانون الرومانى وجهابذة القوانين الفرنسية وأساتذة الفقه في المانيا وبلجيكا وهولاندا وايطاليا ، ووزنت فى كتبها وأحكامها الحق والباطل بميازين المبادئ المقررة ، وجعلت الكلمة العليا للعدل الذى يقره العقل الانساني . ان اوروبا هذه التى أنجبت فلاسفة أمثال ليبنتز وسبينوزا وهيجل وسبنسر واوجست كومت وبرجسون. ان اوروبا هذه التي عنيت بالقواعد والمبادئ حتي يكاد أحد علمائها لا يكتفي بأن يفلق الحبة

فى سبيل العدل فيحاول شق الشعرة الى شقين أو ثلاثة .

ان اوروبا هذه التي ملئت مكاتبها بمؤلفات القانون الدولى ومبادئ العدل الانسانى: وهي التى تدعى أنها آخر طبعة منقحة من الجنس البشري وقد ورثت فضائل العالم المتحضر من عهد الرومان الى وقتنا هذا ، ان اوروبا هذه يجب ان تخضع للعدل والحق لا أن تخضع للقوة .

وينبغى أن كل عمل من أعمالها يثبت ذلك . وإن كل تصريح من ساستها يؤيد هذا الرأي ويدعمه ويقويه ويجزم به فيقولوا فى جوامع كلمهم « الحق يغلب القوة » لا ان يقولوا « القوة تغلب الحق » وقال امبراطور المانيا فى بداية الحرب « ويل للمغلوب » فلما قهر لم يتأفف ولم يتضجر لأنه أنذر خصومه بأشنع وأبشع مما وقع له فى هزيمته . ووصفوا الاتفاقات الدولية والمعاهدات بأنها قصاصات ورق . وسواء أقالها بتمان هو لويج كما نسب اليه الحلفاء أم ان الحلفاء دسوها عليه وأذاعوها من قبيل الدعاية ليحقروا من شأنه ، فقد قيلت من أحد الطرفين وصورت في ذهن اوروبي ، ونفذت فعلا قبل الصلح وبعده . وهذا لا يليق باوروبا المتحضرة .

وقد التقى المرحوم جمال الدين الافغانى بهربرت سبنسر في لندن فى أواخر القرن التاسع عشر فسأله سنبسر ماهو العدل ؟

فأجاب الافغانى : يوجد العدل عند ماتتعادل القوى .

وانما أجاب هذا الجواب لأنه يعلم أن الفيلسوف الانجليزى لا ينتظر غير هذا الجواب وان التبحر فى الخيال أو التعلق بأهداب المثل الأعلي في وصف العدل لن يجدى لدي فيلسوف أمة عرفت بما عرفت به الامة الانجليزية .

قد يكون الاوربيون عادلين في أحكامهم الفردية اذا حكموا بين رعاياهم . ولكنهم في أحكامهم على أبناء الأمم الأخري لا يعدلون كذلك حكمهم فى المسائل الدولية خال من العدل . فقد فر هندى اسمه ساڤاركار الى فرنسا وسبح في الماء من خارج ثغر مرسيليا الى أن وصل الي الميناء واستغاث بالشرطة الفرنسية وهو يصرخ عالياً ويقول « لاجئ سياسى ! »

وخلفه ديدبان انجليزى يقول « لص فار ! » .

ولم يكن ساڤاركار لصاً ولا سارقاً ، انما كان مقبوضاً عليه في تهمة سياسية ، وكان منقولا على ظهر باخرة انجليزية الى الهند ، فلما بلغ ثغر مرسيليا انتهز الفرصة وفر ظناً منه أن فرنسا تنقذه بحكم القانون الدولى . وقد قبضوا عليه وعقدت بشأنه محكمة دولية فى لاهاى وأعضاؤها انجليز وفرنسيون وهولنديون . ودافع عن ساڤاركار محام فرنسى هو الاستاذ چان لونجيه وقدم للمحكمة مذكرة مستوفاة . وكان ذلك فى سنة ١٩١٢

وكانت النتيجة أن حكمت تلك المحكمة بتسليم ساڤاركار الى أعدائه فتسلموه كما يتسلم القصاب أحد الخراف وحاكموه وحكموا عليه بالنفى المؤبد فى جزيرة لا كاديف ملاديف ، حيث عاش بضع سنين

وليست هذه سوى قضية من قضايا لاعدد لها . تدور كلها حول العدل الاوربي وقد عدلت ورو باحقاً في هذه المسألة فمنحت مندوبيها القاب شرف لتقنع العالم المتطلع بأنها انما فصلت فى القضية بفضل اجتهادهم ومهارتهم وليس للمجاملة أو للسياسة دخل فى الحكم .

فأين العدل وكيف نلتمسه ممن يهيجون ويثورون لايذاء فرد ويقلبون الارض لجريمة وقعت على مال ثابت أو منقول ، ولا يحركون ساكناً اذا رأوا شعباً بأسره يهلك ويزول من الوجود . . بل يقولون عنه « هذه مسألة فيها نظر ! »

يجب أن يكون خلاصنا بأيدينا ، لا بأيدى الغير ، ويجب أن ننتظر النجاة من من جهودنا لا من عطف الاجانب . لأن الأجنبي لا يعطف صادقاً ولا يرحم الا مجاملة فى الظاهر وهو فى الحقيقة يبطن البغض والكراهية وأكثر منهما .

لشد ما كان تعلق الشرقيين بأسباب النجاة من اوروبا المستعمرة !

فانه عند ماظهرت اليابان على روسيا سنة ١٩٠٤ ، ومدت انجلترا اليها يدها وضمتها الى الدول العظمى وجعلتها في مصاف المانيا وفرنسا ولم تبال بما ينتج عن ذلك من مغاضبة

امريكا وروسيا ، ظن الشرقيون أن آمالهم أصبحت محصورة فى اليابان . فاتجهوا اليها يستنجدونها . وخطر ببال بعض المفكرين أن اليابان يجب أن تكسب للاسلام وأن لاتبقى فريسة الوثنية فتألفت وفود فى مختلف الأقطار الاسلامية وسافرت الى اليابان وألف عالم مسلم كتاباً اسمه « التاج المرصع » في فضائل الاسلام وأهداه الى الميكادو متسوهيتو . وذهب ضابط مصرى اسمه فضلى ونشر فى اليابان مجلة للتبشير بالاسلام باللغة الانجليزية . وكان رجلا ذكياً ويتقن بضع لغات . وقابلته الحكومة اليابانية بالسرور لأنها لم ترض أن تخجل هؤلاء الفضلاء ، وبعد بضع سنين عاد القبطان فضلى بزوجة يابانية ! ولم يسلم يابانى واحد !

وكانت هذه نتيجة منتظرة :

لأن اليابانى لم ير من دينه سوءاً ليطلقه فان الوثنية وعبادة الاجداد هي التى أوصلته للنصر ، وان لم تكن هي التى أوصلته للنصر ، فهى على كل حال لم تقف عثرة فى طريق النهضة القومية فلماذا يتركها ويدين بغيرها ؟ على أن اليابانى ليس له عقيدة واحدة بل ان له جملة عقائد فمنهم البوذى ومنهم الكونفوشيوسى ومنهم المسيحى وليس بينهم مسلم واحد وكل دين من هذه الاديان متغلغل فى نفوس ذويه منذ مئات السنين فكيف يمكن أن يزول أثره في طرفة عين ليحل محله دين جديد ليس لهم به علم . فضلا عن أن دوله لم تكن على شئ من القوة بل كانت نهبًا لدول اوروبا . لو أن الاسلام ظهر فى اليابان فى أيام عظمة دوله فى الشرق والغرب فربما كان اليابانيون انتحلوه ، ولكن ظهرت دعوته فى بلادهم في وقت انحطاط ممالكه .

وقد غاب عن ذهن هؤلاء المبشرين المسلمين أو المرشدين ان انتقال اليابان من دينهم الى الاسلام كان يحقد عليهم اوروبا ويغيظها ويحنقها . ولاسيما بعض دول الاستعمار الجديدة ، التى نصبت نفسها لمعاداة الاسلام وقهره فى سائر أنحاء العالم

ولكن اليابانيين كانوا أكيس من أن يصارحوا المسلمين المبشرين بهذه الحقائق .

ولعل أحد هؤلاء الكونتات قال لواحد منهم « أين كنتم قبل ذلك باربعين أوخمسين عاما ؟

إننا تيقظنا على صوت مدافع الاميرال بيرى الامريكى ، ولذا آمنا بالمدافع . ولوانكم أيقظتمونا على صوت المؤذن لآمنا بكم وبمكة المكرمة » . . .

ثم ان المسلمين بالتركستان لجأوا فى بلواهم الى حكومة الصين واستنجدوها فوجدوا من سن يات سن صدراً رحبا ، وقال فى أحد كتبه «انه لاينسي مافعله المسلمون لاخوانهم البوذيين في سبيل الثورة ضد أسرة مندشو » ووعدهم بالحرية والمعونة . وفى الحقيقة ان الاسلام متغلغل فى الصين . والمسلم الصيني أرقي من المسلم الوثنى . ولهم غنى وثروة . وقد سلكت معهم حكومات الصين مسالك شتى فكلما كانت للاسلام صولة في العالم عاملتهم حكومة الصين معاملة حسنة قريبة من العادلة فاذا مال ميزان الاسلام فى العالم أرهقتهم وعاملتهم بالقسوة .

فان الصين بعد أن استولت على تركستان الشرقية ارتكبت أنواع المظالم لايجاد النظام واستتباب السكينة في انحاء البلاد ، ودبرت شؤونها في تلك البلاد بالسلطة المطلقة بواسطة حاكم عام عسكرى مستبد يقيم في أوردمجى وهو مطلق التصرف فى حكومة البلاد لارقيب عليه ولا محاسب . ورجال الحكومة من البوذيين والاقلية مسلمة ورجال الحكم كالذئاب الجائعة نحو الشعب المقيد كالغنم .

ولاتزال المحاكم تصدر أحكاماً استبدادية كالتي كانت تصدر في القرون الوسطي من تعذيب وضرب بالسياط وضغط الاعضاء وقطعها وكيها بالزيت المغلي وكتم الانفاس وقطع الرقاب بالسيف والشنق والسجن فى سجون ضيقة مظلمة لاهواء فيها ولاضياء ويظهر أن حكومة الحزب الوطني الصينى تعلم كل مايقع في تركستان الشرقية من الظلم على الرعايا المسلمين ولكنها وجدت منفعتها في الاتفاق مع الحاكم المطلق وتركت له البلاد اقطاعاً والتزاما مقابل مبلغ من المال واغمضت عينها عنه .

وقد حكمت احدي محاكم تركستان على السيد منصور خان بالضرب الشديد ألف ضربة والاشغال الشاقة خمسة أشهر لانه ألقي خطبة على جماعة من أهل وطنه

ومن المصائب ان تلك البلاد لم تصدر فيها جريدة ولا كتاب ولم يطبع بها صحيفة منذ اختراع الطباعة فى العالم ولم تؤسس بها مدرسة نظامية ولامصرف ولامستشفي واذا ضبط أحد الشبان وهو يقرأ جريدة يلقي عليه القبض ويسجن واذا هاجر أحدهم الى الشرق أو الغرب وتعلم ثم عاد الى وطنه لايمكنه الانتفاع بعلمه وان حاول الاصلاح يلقى به فى غيابة السجن ان لم يشنق أو تزهق روحه بكتم أنفاسه كتما مادياً لا كتما معنوياً .

وغاية الحاكم المطلق معلومة فهو يريد استبقاء ذلك الشعب في الجهل والعمى تخليداً لحكم الصين حتى تموت الامة فلا تقوم لها قائمة

ولما كان الحج من فرائض الدين الاسلامى فان الحكومة تمنعه وتضيق على الراغبين فيه بكل الوسائل وتعوق الالوف من المستطيعين ولم تسمح فى سنة ١٣٤٩ الا بحج مائتين من عشرات الالوف التي رغبت فيه . وهذا رغبة منها فى عدم اختلاط الحجيج التركستانى باهالي البلاد الشرقية الاخرى من المسلمين الذين يقصدون الحجاز فى كل عام .

لقد رأينا الاستعمار في الشرق يحاول كم أفواهنا بكل الوسائل ، ورأيناهم يتفننون فى القرنين التاسع عشر والعشرين فى منعنا عن العلم والنور وهم هم المتحضرون المتمدنون الذين يدعون خلافة الله في ملكه وحمل مشاعل الانسانية والوصاية على الأمم المستضعفة وضججنا وصرخنا وهاجرنا وضقنا بهم ذرعا وحملنا فضائحهم الى بلادهم في مؤتمرات عقدناها وصحف نشرناها وكتب ألفناها ووفود أوفدناها . فلم يجد شئ من ذلك نفعاً !

ونحن على حافة أوروبا وفي سرة العالم المتمدن وليس بيننا وبين لندن وباريس وبرلين ونيويورك حجاب وما زلنا نصرخ ونستغيث فما بالك بأمة شرقية مسلمة خيم عليها الجهل والظلم فى أواسط أسيا ! وسكانها ضعف سكان كل من سويسرا وهولاندا وبلجيكا أليس حظ هؤلاء الاخوان فى الدين سيئاً .

الا تتحرك الشفقة في قلوبنا نحوهم ونحو بلادهم ؟ الا نرثى لهم ؟ الا يستحقون عنايتنا ؟

أمة تعيش فى هـذا الجيل ، تحت أنظمة القرون الوسطى وتخنق جهاراً أفلا يليق بالعالم الاسلامى أن يضج ويصخب فى سبيل معونتها وانقاذها أوعلى الاقل تخفيف ويلاتها؟

ومع هذا كله رأيت ذلك السورى المسيحى الفاضل الذي يدافع عن وطنه الذى تحكمه فرنسا المتمدنة يقول لى : لقد أزعجنا شوكت على بقوله ، الاسلام فى خطر ! ان الاسلام في حرز حريز ، وهو في أفئدتنا مصون محترم ، ان الاسـلام ليس فى خطر ، ولـكن الامم الاسلامية هى التى فى خطر ! .

فسكت ، ونظرت اليه ، وعجبت ! فماذا أقول له ؟ ان الاسلام ليس هو الـكتب المنزلة وليس هو حديث البخارى ولافقه مالك ولا الـكتب الستة ولا مذهب ابن حنبل ، هذا الاسلام المـكتوب والمدون ليس فى خطر ولا يمكن أن يكون فى خطر ، وانما المقصود بالاسلام هو أممه وشعوبه ياسيدى المعترض ان المجاز جائز فى اللغة ، ليس شوكت على[1] وحده هو الذى يقول ان الاسلام فى خطر ولـكنني أنا وكل مسلم وكل شرقي وكل مسيحى نشأ في مدنية الاسلام واستظل بها يقول عند ما يقف على حاضر الاسلام : ان الاسلام فى خطر وانها لكلمة وجيزة يقصد بها ان الأمم الاسلامية فى أنحاء العالم في خطر وفى ألف خطر . فماذا يغضبك أنت وماذا يهمك وماذا يزعجك ؟ وأي شئ قدمته للاسلام وأية أمة شرقية دافعت عنها غير أمتك منـذ احتلتها فرنسا تلك التى كان فريق منـكم يسميها « الأم الحنون » ألم تدعوا انحداركم من اصلاب الصليبين فها هي الأم الحنون ! وها هى بنت الـكاثوليـكية البكر تحكمـكم ، أفليست سوريا الآن فى خطر ؟ فماذا يضيرك أن يقول شوكت على الاسلام في خطر ، ان لم تـكن بقية تعصب فى نفسك وكره منك ن تسمع صوت من يريد اغاثة تلك الأمم . استميح اخوانى السوريين معذرة ولا سيما المخلصين منهم .

ان المسألة الشرقية ، التى تشعبت قبيل الحرب العظمي وبعدها ، فصارت « مسائل

---

(١) كتبنا هذه النبذة واقتبسنا كلمة شوكت على قبل أن تـكشف لنا الايام حقيقته ، على أننا ننشد الحقيقة ونلتقطها انى وجدناها بقطع النظر عن شخص قائلها .

الشرق » ، أصبحت لاتهم الشرق وحده ، بل تهم العالم أجمع ، ولا سيما بعد يقظة الشرق ، وتنبه أفكار شعوبه ، واتجاهها نحو النهوض في الخمسين عاماً المنصرمة .

لانقول ان الشرق نهض أو ان الاسلام تيقظ ، لأن فى هذا القول مبالغة واغراقاً ، ولكن نقول فى الشرق والاسلام بداية تنبه ويقظة ، وظهور رغبة فى النهوض ، كالنائم الذى يفتح عينيه ، وينفض عن أجفانه آثار الكرى . فان بينه وبين اليقظة التامة ، والنهوض الكامل ، مسافة طويلة ، فهذه بداية الأمل وأول مظهر لنور الفجر الصادق ، وبيننا وبين تحقيق الأمل والانتفاع بالنور ، جهود ، يجب أن تبذل ، وعقبات ينبغى أن تقهر ، وصعوبات يتحتم التغلب عليها .

الشرق والاسلام والعرب ، في حاجة الى العلم والعمل ، وفى حاجة الى تشكيلات ومؤسسات ومناهج وخطط ، سلمية وعلمية ، وفى حاجة الى اصلاح اجتماعى ، ونهضة اقتصادية ، وتدريب سياسى ، لأن العظمة لاتنال بالأمانى والحقوق لاتسترد بالقول ، مهما كان بليغاً أو صادقاً ! وكل من يقول غير ذلك أو دونه يكون مخطئاً أو متعجلا ، كفانا الله شر الخطأ والعجلة !

والشرق فى حاجة الى زعماء مخلصين، يقدرون الزعامة قدرها، ويعملون بنيات سليمة، ومقاصد شريفة ، دون مراعاة لمصالحهم الشخصية ، بل يفضلون المنفعة العامة على منافعهم ومنافع ذويهم ، وان يكونوا مع ذلك منورين ، ذوى شجاعة واقدام ، وأهل بصيرة وتؤدة.

ويجب على المسلمين من أهل الشرق ، أن يتمسكوا بدينهم ، ولا سيما بما كان منه ذا مساس بالاجتماع والسياسة ، والاقتصاد ، بعد أن ثبتت للملأ حكمة هذه المبادئ وصلاحها لكل زمان ومكان ، وأن لاينسوا أن الاسلام قانون وحضارة ، وأخلاق ونظم اجتماعية ، واصلاح ، ترمى جميعها الى سعادة الانسانية ، كل ذلك بقدر مافيه من عبادات وعقائد . ولا يغيبن عن أذهان المسلمين حتى المنورين منهم ، والمقلدين للغربيين ، ان أهل اوروبا متمسكون بدينهم التمسك كله ، ولو دانوا بالاسلام من قديم ، ماهجروه كما هجره ذووه .

ويجب أن يكون الحب ديننا الأعظم ، ورائدنا فى أفكارنا وأعمالنا ، فان دين

الاسـلام فى جوهره قائم على حب الانسانية والبر بها والاحسان اليها . ينبغى لنا أن نحب الناس ونصفح عنهم ونستغفر لهم لنقنعهم بدين الحب ليؤمنوا به . ويتحلوا بجماله وجلاله .

ويجب أن نبغض العنف وأن لانقابل الشر بمثله ، فان الحب والخير قوتان خالدتان وهما من روح الرحمن ، كما أن البغض والشر معولان للتخريب وهما من خبث الشيطان ووسوسته .

ويجب علينا أن نستغنى بالمبادىء الثابتـة فى أديننا المنزلة بالاحسان والمعونة والبر ومكارم الأخلاق ، ففيها كفايتنا وأن ننبذ كل مايبدو لنا فاتنًا أو جذابًا مما يزينه لنا أهل الغش والنفاق وأن نحذر الوقوع فى هوة روسيا الشيوعية فانها لاتختلف عن روسيا القيصرية في عداوتهـا للشرق والاسـلام . واذا مدت اوروبا أيديها الينا مصافحة على قاعدة المساواة والاخاء والحب الانسانى والعمل لخير الجميع ، حق علينا أن نمد لها أيدينا لنتعاون معها على الاصلاح وتحرير الدنيا من قيود الفاقة والظلم والجهل والعبودية . فان الشرق يريد الوفاق مع الغرب على أساس المساواة والعدل والاخاء ولا تنس أن انجلترا حالفت اليابان بعد أن أثبتت أمة الشمس المشرقة قدرتهـا على الكفاح فى ميدان الوجود . ويجب علينا أن نؤلف عصبة أمم شرقية للاتحاد واوروبا على الخير والمحبة فان المستقبل لله والوحدة الانسانية فى الشرق والغرب .

وقد جاءت فى القرآن الشريف آيات مجيدة تنبيء بهذه المبادئ العامة السامية لأنها من أسس الحياة العالمية كقوله جلت قدرته :

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الآية ﴿سورة آل عمران﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿سورة الحجرات﴾

وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿سورة المائدة﴾

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

مراجع الكتاب « حياة الشرق »

عنوان الكتاب	اسم مؤلفه	مكان الطبع وتاريخه
١) تونس الشهيدة بالفرنسية	للاستاذ الثعالبي	طبع باريس سنة ١٩٢١
(٢) أم القرى	للكواكبي	« مصر سنة ١٨٩٩
(٣) طبائع الاستبداد	»	« « « ١٩٠٠
(٤) تاريخ الشيخ محمد عبده ٣ أجزاء	للشيخ رشيد رضا	« « « ١٩٠٤-١٩٣١
(٥) تاريخ الثورة العرابية والهند والسودان	لبلنت ٣ كتب	« لندن « ١٩٠٧-١٩٢١
(٦) الثورة في الصحراء انجليزى	كولونيل لورنس	« « « ١٩٢٥
(٧) في بلاد العرب	فيلبى	« « « ١٩٢٠
(٨) حاضر العالم الاسلامى	ستودارد	« نيويورك ١٩٢٥
(٩) مؤلفات الأمير شكيب ارسلان ومقالاته	الامير ارسلان	« مصر ولوزان وغيرهما
(١٠) امنا الهند انجليزي	تأليف كاترين مايو	« نيويورك ولندن سنة ١٩٢٥
(١١) مركز مصر والسودان فرنسى	چول كوشرى	« باريس سنة ١٩٠٣
(١٢) أقوم المسالك	خيرالدين التونسي	« تونس « ١٨٧٠
(١٣) ماهنالك	ابراهيم المويلحى	« مصر « ١٨٩٧
(١٤) القضية العراقية	للشيخ مهدى البصير	« بغداد « ١٩٢٥
(١٥) تاريخ مشاهير الشرق	جورجى زيدان	« مصر « ١٩٠٨
(١٦) الشمس المشرقة ودفاع المصرى عن بلاده	مصطفى كامل	« « « ١٩٠٥
(١٧) المفكرون في الاسلام فرنسى ٥ ج	كارادي ڤو	« باريس سنة ١٩١٠-١٩٢٠
(١٨) تحرير المرأة والمرأة الجديدة	قاسم امين	« مصر « ١٩٠٠-١٩٠٨

عنوان الكتاب	اسم مؤلفه	مكان الطبع وتاريخه
(١٩) وجيز في تاريخ العالم انجليزى	ج . ه . ولز	طبع لندن سنة ١٩٢٠
(٢٠) تاريخ الثورة الفارسية انجليزى	ادوارد براون	« لندن « ١٩٠٩
(٢١) « « « عربى	ميرزا رفيع مشكى	« مصر « ١٩٢٣
(٢٢) ترجمة مقالات هانوتو	محمد مسعود	« المؤيد « ١٨٩٩
(٢٣) أخبار الاسلام (ايطالي)	ليون كايتانى	« روما سنة ١٩٠٨
(٢٤) غاندي وراما كريشنا فرنسى	رومان رولان	« باريس « ١٩٢٤-١٩٣٠
(٢٥) تاريخ بوذا فرنسى	اولدنبرج	« « ١٩٢٨
(٢٦) سياحة فى بلاد العرب ٢ ج	لأمين الريحانى	« بيروت « ١٩٢٤
(٢٧) ملوك العرب ٢ ج	« «	« « ١٩٢٧
(٢٨) العالم الاسلامي أمام الحروب الصليبية الجديدة	اوجين ينج	« باريس « ١٩٣١
(٢٩) الشرق العربى	المرحوم جبر ضومط	« مصر « ١٩١٠
(٣٠) دائرة المعارف البريطانية	المطبوعة العاشرة	« لندن « ١٩٠٨
(٣١) مجلة الأمة العربية فرنسوية	الأمير شكيب والجابرى	« جنيف « ١٩٣٢
(٣٢) الهند الجديدة انجليزى	هنرى كوتون	« لندن « ١٩٠٨
(٣٣) تاريخ ولاية بغداد فرنسى	نجيب شيحه	« مصر « ١٩٠٨
(٣٤) حرب العراق عربى	جنرال تونزند	« بغداد « ١٩٢٤
(٣٥) أعمال المؤتمر العربى بباريس	عمل أعضائه	« مصر « ١٩١٣
(٣٦) المرأة المصرية « نيه سليمه »	حرم رشدى باشا	« « « ١٩٠٧
(٣٧) المرأة المصرية في الثورة	حرم دكتور سليم فهمي	« باريس « ١٩٢٠
(٣٨) تقارير عن مصر والسودان	كرومر	« لندن عشر سنوات

عنوان الكتاب		اسم مؤلفه	مكان الطبع وتاريخه
(٣٩) تاريخ الحرب الكبرى		جريدة التيمس	طبع لندن سنة ١٩١٤-١٩١٨
(٤٠) المسألة المصرية	انجليزى	ڤالنتين شيرول	« « « ١٩٢١
(٤١) مؤلفات وتقارير		بريلسفور ودكتور بلفور	« مصر ولندن سنة ١٩١٩
(٤٢) الامتيازات الأجنبية		دورو زاس	« باريس ١٩١٩
(٤٣) السلم بالتضامن الدولى		ليون بورچواه	« باريس سنة ١٩١٤
(٤٤) تقرير عن المخدرات بمصر		رسل باشا	« مصر « ١٩٢٩-١٩٣٠
(٤٥) عظمة بريطانيا	المانى	كيبرت ريزلر	« برلين سنة ١٩١٥
(٤٦) سياسة الاحرار	انجليزى	سير هربرت صمويل	« لندن « ١٩٢٠
(٤٧) علم بين الفرس	«	ادوارد براون	« اكسفورد « ١٩٢٧
(٤٨) قميص من نار	تركي	خالده أديب	« اصطمبول « ١٩٢٠
(٤٩) مجلة بورو بدور		محمد الهاشمى التونسي	« بتاوى « ١٩٢١
(٥٠) تاريخ السلطان عبد الحميد	انجليزي	سلسلة أبطال الأمم	« لندن « ١٩٢٠

وكتب أخرى جري ذكرها فى الكتاب لدي الاستشهاد بها أو الاقتباس منها .

ومجلات عربية وأفرنجية وجرائد يومية ببضع لغات مثل ما يأتى :

المؤيد — اللواء — الاهرام — الشورى — البلاغ — مطبوعات دار الهلال — السياسة — المقتطف . . الخ

التيمس — الطان — چى سوي پارتو... الخ

فهرست كتاب « حياة الشرق »

المقاصد	الفصول	من صفحة الي صفحة	جوهر المقصد
المقدمة		٣ — ٢٤	في بيان حالة العالم وآمال الشرق في المستقبل
١	٦	١ — ١٩	الزعماء فى الشرق
٢	٧	٢٠ — ٣٤	الطبقات الاجتماعية في الشرق و بعض الفروق بين الشرق والغرب والنظرية السبعية
٣	٤	٣٥ — ٤٣	بعض أسباب تأخر الاسلام و بعض شعوب الشرق
٤	٢	٤٤ — ٤٨	تألب اورو با على تركيا وهجوم هانوتو على الاسلام
٥	٨	٤٩ — ٦٧	الأديان فى الشرق وتحول بعض شعوب العالم عن المعتقدات
٦	٣	٦٨ — ٧٥	اورو با تهاجم الشرق فى دينه ور وسيا تضطهد مسلمي تركستان والقوقاز والاورال
٧	٤	٧٦ — ٨٦	الشرق العربى بيان طبيعته وأهله وخيراته
٨	٨	٧٧ — ١٠٢	سبب انحطاط العرب وتاريخ الدولة البحرية الاسلامية العظمي
٩	٥	١٠٣ — ١١٣	مبارك الصباح وخزعل وسوء الذكرى
١٠	٥	١١٤ — ١٢٣	المرأة المصرية والسياسة وخطة دنلوب في التعليم وكيف نجحت
١١	٦	١٢٤ — ١٣٤	الاستعمار في الشرق وخطة فرنسا فى تونس
١٢	٣	١٣٥ — ١٤١	التناسل في الشرق والحالتان السياسية والاقتصادية
١٣	٦	١٤٢ — ١٦٢	الامتيازات الاجنبية ، الغرب يهاجم الشرق ببضائعه

المقاصد	الفصول	من صفحة الى صفحة	جوهر المقصد
١٤	٤	١٦٣ — ١٧١	مصر بلد أغنته الطبيعة والمصريون قوم أفقروا أنفسهم
١٥	٣	١٧٢ — ١٨٤	نظريات الاستعمار وتطور الامبراطورية
١٦	٣	١٨٥ — ١٩١	تاريخ الفرس ونهضتها
١٧	٤	١٩٢ — ١٩٨	امنا الهند
١٨	٧	١٩٩ — ٢١٩	محمد على وأخوه شوكت
١٩	٧	٢٢٠ — ٢٣٦	أسباب الانشقاق بين الترك والعرب
٢٠	٣	٢٣٧ — ٢٤٥	بعض اسباب انحلال الدولة العثمانية
٢١	٥	٢٤٦ — ٢٦٠	الحركة العربية والخلافة
٢٢	٤	٢٦١ — ٢٧٠	السياسة الاوروبية في بلاد العرب
٢٣	٧	٢٧١ — ٢٩٠	العراق قديماً وحديثاً
٢٤	٥	٢٩١ — ٣٠٦	العرب والعراق والمندوبون الساموں وجلالة الملك فيصل
٢٥	٧	٣٠٧ — ٣٢٤	افريقا والاسلام والاستعمار
٢٦	٦	٣٢٥ — ٣٤٨	الحلف العربى قديمًا وحديثًا
٢٧	٣	٣٤٩ — ٣٥٥	الحلفاء بعد الحرب يقتسمون الغنيمة
٢٨	٣	٣٥٦ — ٣٦٥	اندونوسيا وجزر الشرق الهندية والاستعمار الهولاندي
خاتمة		٣٦٦ — ٣٧٩	نظرة عامة وخلاصة رأى المؤلف
		٣٨٠ — ٣٨٢	مراجع كتاب « حياة الشرق »
		٣٨٣ — ٣٨٤	فهرست كتاب « حياة الشرق »

